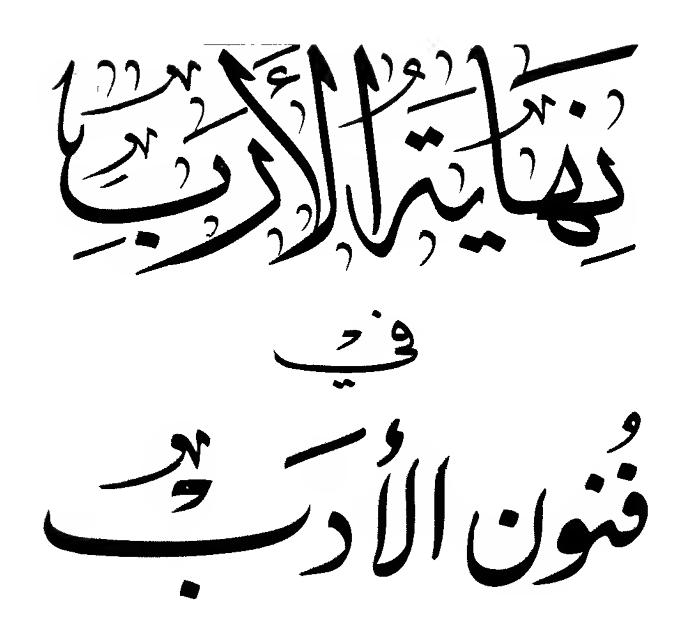


نهاية الأرب في فنون الأدب

تأليف

شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري

المتوفى ٧٣٣ هـ

٢٣ - ٢٤ - ٢٥

تحقيق

الأستاذ عبد المجيد ترحيني

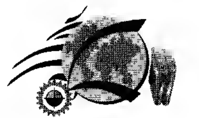
منشورات

محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

منشورات محمد علي بيضون



دار الكتب العلمية

الطبعة الأولى
٢٠٠٤ م - ١٤٢٤ هـ

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

رمل الظريف - شارع البحتري - بناية ملكارت
الإدارة العامة: عرمون - القبة - مبنى دار الكتب العلمية
هاتف وفاكس: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢/١٣ (٥ ٩٦١+)
صندوق بريد: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon
Raml Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg. 1st Floor
Head office
Aramoun - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
P.O.Box: 11-9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban
Raml Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1er Étage
Administration général
Aramoun - Imm. Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Tel & Fax: (+961 5) 804810 / 11 / 12 / 13
B.P: 11-9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3883-9



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ذكر خلافة المكتفي بالله

هو أبو محمدٍ عليُّ بن المعتضد بالله أبي العباس أحمد بن الموفَّق بالله أبي أحمد بنِ المهديّ - وهو الملقب بالناصر لدين الله - بن المتوكِّل على الله أبي الفضل جعفر بن المعتصم بالله أبي إسحاق محمد بن هارون الرشيد أبي محمد بن المهديِّ أبي عبد الله محمد بن أبي جعفر المنصور بن محمدِ بن عليٍّ بن عبد الله بن عباس، رضي الله تعالى عنهم أجمعين. وأُمُّه خاضعُ أُمُّ ولد وتُلَقَّبُ جِيجِك، وقيل اسمها جنجورا، وهو الخليفةُ السابع عشر من الخلفاءِ العباسيين. بُويع له يوم الاثنين لثمانٍ بقينَ من شهر ربيع الآخر سنةَ تسع وثمانين ومائتين - وكان إذ ذاك بالرقة[1] - فبايع له الوزير القاسمُ بن عبيد الله بنِ سليمان بن وهب، وكتب له يعلمه بوفاة أبيه وأَخْذِ البيْعةِ له.

فلما وصله الخبرُ، أخذ البيعة على مَنْ عنده من الأجناد، ووضع لهم العطاء، وسار إلى بغداد، ووجَّه إلى النواحي بديار ربيعةَ ومضر ونواحي العرب منْ يضبطُها. ودخل بغداد لثمانٍ خَلَوْن من جُمادى الأولى، فلما صار إلى منزله أمر بهَدْم المطامير[2] التي كان أبوه اتخذها لأهل الجرائم.

ذكر قتل بدر غلام المعتضد بالله

وكان سببُ قَتْلِهِ أنّ القاسم - الوزير - كان قد همَّ بِنقْلِ الخلافةِ إلى غير ولد المعتضد بعده، فقال لبدرٍ ذلك في حياة المعتضد بعد أن استحلفه أن يكتم عليه فقال

---

(١) الرقة: بفتح أوله وثانيه وتشديده: هي مدينة مشهورة على الفرات، بينها وبين حران ثلاثة أيام، معدودة في بلاد الجزيرة لأنها من جانب الفرات الشرقي... (معجم البلدان).

(٢) المطامير: جمع المطمورة: السجن؛ أو المكان تحت الأرض قد هيىء ليطمر فيه الفول والبر ونحوه.

بدْرٌ: ما كنت لأصرفَها عن ولد مولاي ووليّ نعمتي! فلم يمكنه مخالفته لأنه صاحبُ الجيش، وحقدها عليه فلما مات المعتضدُ كان بَدْرٌ بفارس فعقد القاسمُ البيعةَ للمكتفي، وعمل على هلاك بدْر خَوْفًا على نفسه أن يذكر للمكتفي ما كان منه. وكان المكتفي مباعدًا لبدر في حياة المعتضد، فوجّه إلى القُوَّاد الذين مع بدر يأمرهم بمفارقته والمصير إليه، ففارقه جماعة وأقبلوا إلى المكتفي فأحسن إليهم.

وسار بدْرٌ إلى الموصل وواسط[1] فوكل المكتفي بداره، وقبض على أصحابه وقواده فحبسهم، وأمر بِمحْوِ اسمه من الأعلام والتِّراس[2]. وسير الحسن بن علي إلى كورة واسطٍ في جيش، وأرسل بدْرٌ يعرض عليه أيّ النواحي شاء، فأبى ذلك وقال: لا بُدَّ من المصير إلى باب مولاي!

فوجد القاسمُ مَساغًا للقول، وخوّف المكتفي غائلتَه. وبلغ بدرًا ما فُعِلَ بأصحابه فأرسل من يأتيه بولدِه هلال سِرًّا، فعلم الوزير بذلك فاحتاط عليه، ودعا قاضي الجانب الشرقيّ وأمره بالمسير إلى بدر وأن يطيِّبَ قلبَه عن المكتفي ويعْطِيَه الأمان على نفسه وولده وماله، فقال القاضي أبو حازم: أحتاج إلى سماع ذلك من أمير المؤمنين! فصرفه ودعا أبا عمر القاضي، وأمره بمثل ذلك فأجابه، وسار بكتاب الأمان. فسار بَدْر عن واسطٍ إلى بغدادَ فأرسل إليه الوزيرُ مَنْ قتله، فلما أيقن بالقتل سأله المهلة إلى أن يُصَلِّي رَكعتين، فأمهل حتى صلاهما. وضُرِبَتْ عُنقه يومَ الجمعة لسِتٍّ خلون من رمضان، وأُخِذ رأسُه وتُركَتْ جثتُه هنالك، فوَجَّه عِيالُه من أخذها سرًّا وجعلوها في تابوتٍ، فلما كان وقتُ الحجِّ حملوها إلى مكة فدفنوها بها ـ وكان أوْصَى بذلك ـ وأعْتِق كلُّ مملوكٍ له. ورجع أبو عمر إلى داره كئيبًا لِما كان منه، وقال الناسُ فيه الشعرَ، فمن ذلك قوْل بعضِهم: [من الخفيف]

قُلْ لقاضي مدينةِ المنصورِ ... كيف أحللتَ أخْذ رأسِ الأميرِ
عند إعطائه المواثيقَ والعَهْـ ... ـدَ وعقْد الأيمان في منشور
أين أيْمانُك التي شهِدَ اللَّـ ... ـه على أنها يمينُ فجُور
إنَّ كفيْك لا تفارق كفَّيْـ ... ـهِ إلى أن تُرى مليكَ السرير
يا قليلَ الحياءِ يا أكْذبَ الأُمـ ... ـمة.. يا شاهدًا شهادةَ زور
ليس هذا فِعْل القُضاةِ ولا يُحْـ ... ـسِن أمثالَه وُلاةُ الجسور

---

(١) واسط: في عدة مواضع، أعظمها واسط الحجاج، وهي مدينة بين البصرة والكوفة.

(٢) التراس: من آلات الحرب للوقاية، مفرده ترس.

أيَّ أمرٍ ركبتَ في الجمعة الزَّهـ ـراءِ منه في خَيْرِ هذي الشهور
قد مضى مَنْ قتَلْت في رمضانٍ صائمًا بَعْد سَجْدَةِ التغفيرِ
يا بني يوسفَ بنِ يعقوبَ أضحَى أهل بغدادَ منكُمُ في غرورِ
بَدَّدَ اللّهُ شملَكم وأراني ذُلَّكمْ في حياة هذا الوزيرِ
فأعِدُّوا الجواب للحَكم العا دِل من بَعْدِ منكر ونكيرِ[1]
أنتُمُ كلكم فِداءُ أبي حا زمِ المستقيم كلَّ الأمورِ

وفيها لحق إسحاق الفَرْغاني - وهو من أصحاب بدْرٍ - بالبادية وأظهر الخلافَ على الخليفة المكتفي، فحاربه أبو الأغَرّ فهزمه إسحاق وقتل جماعةً من أصحابه.

وفيها خلع المكتفي على هلال بنِ بدْرٍ وغيرِه من أصحاب أبيه في جُمادى الأولى.

وفيها في فصل الصيف هَبّت ريحٌ باردةٌ بحِمْص وبغداد من جهة الشمال، فَبَرُد الوقت واشتد البردُ حتى جمُدَ الماءُ، واحتاج الناسُ إلى النار. وفيها هبّت ريحٌ عاصفةٌ بالبصرة قلعت كثيرًا من نخلها، وخُسفَ بموضع هلك فيه. ستون ألف نفسٍ. وزلزلت بغداد في شهر رجب عَشْر مراتٍ فتضرّع الناس في الجامع فسكنت. وحجّ بالناس الفضل بن عبد الملك الهاشمي[2].

ودخلت سنة تسعين ومائتين.

في هذه السنة اشتدّ أمرُ القرامطة[3]، فجاء أهل الشام ومصر إلى المكتفي يشكون ما يلقون من القرمطي من الأسْرِ والسَّبْي والتخريب؛ فأمر الجند بالتأهب، وخرج من بغداد في شهر رمضان، وقدم بين يديه أبا الأغَرّ في عشرة آلاف، وسار إلى الشام. وجعل طريقَه على الموْصِل.

فنزل أبو الأغَرّ بالقرب من حلب، فكبسهم القرمطي صاحب الشامة فقتل منهم خلقًا كثيرًا. ودخل أبو الأغر حلب في ألف رجلٍ وذلك في شهر رمضان، وسار القرمطي إلى باب حلب فحاربه أبو الأغَرّ بمن بقِيَ معه وأهلِ البلد، فرجع عنهم.

---

(١) منك رونكير: اسما ملكين.. قال ابن سيدة: منكر ونكير: فتّانا القبور... (اللسان مادة نكر).

(٢) كان صاحب الصلاة ببغداد وأمير مكة والموسم.. كانت وفاته سنة ٣٠٦هـ.

(٣) القرامطة: فرقة من غلاة الشيعة، نشأت بالعراق واتسع سلطانها بالحجاز؛ وكان من أهم أغراضها طلب المساواة.

وسار المكتفي حتى نزل الرَّقَّة، وسيّر الجيوش إليه وجعل أمْرهم إلى محمد بن سليمان الكاتب، وكان للقرامطة حروبٌ كثيرة ووقائعُ نذكرها - إن شاء اللّهُ تعالى - في أخبارهم.

وفيها أراد المكتفي البناء بسامرّاء[1]، وخرج إليها ومعه الصنّاع فقدَّروا ما تحتاج إليه فكان مالاً جزيلاً، فَعَظَّم الوزير ذلك عليه وصرفه عنها، ورجع إلى بغداد..

وحجَّ بالناس الفضل بن عبد الملك بن عبد الله بن عبيد الله العباسي.

ودخلت سنة إحدى وتسعين ومائتين.

في هذه السنة سار من طرسوس غلام زرافة نحو بلد الروم ففتح مدينةَ أنطاكية عَنْوَة بالسيف؛ فقتل خمسة آلاف وأسَر نَحْوَهم، واستنقذ من الأسارى خمْسة آلاف، وأخذ لهم ستين مركبًا حمّلها ما غنم من الأموال، وقُدِّر نصيبُ كلِّ رجل فكان ألف دينار.

وفيها مات الوزير القاسم بن عبيد الله بن سليمان. وحجّ بالناس في هذه السنة الفضل بن عبد الملك.

ودخلت سنة اثنتين وتسعين ومائتين.

في هذه السنة انقرضت الدولة الطولونيةُ، واستولى المكتفي بالله على ما بأيديهم بمصر والشام. وأرسل محمد بن سليمان الكاتب إلى مصر بمواطأة قوَّاد هارون بنِ خُمارويه فَتَوَجَّه، وقاتله هارون فَقُتِلَ هارون، واستولى ابن سليمانَ على مصر؛ على ما نذكر ذلك مُبَيَّنًا - إن شاء الله تعالى - في أخبار الدولة الطولونية.

قال: وكتب ابنُ سليمانَ بالفتح إلى المكتفي بالله، فأمر بإشخاصِ آلِ طولونَ إلى بغدادَ ففعل ذلك، وولّى معونة مصر عيسى النُّوْشَرِي. ثم ظهر بمصرَ رجل يعرف بالخليجي - وهو من قوّادِ الدولة الطولونية - فخالف على الخليفة وكثر جمعه، وعجز النُّوشَرِيُّ عنه فتوجَّه إلى الإسكندرية، ودخل إبراهيم الخليجي مصر. فسيّر إليه المكتفي الجنود مع فاتك - مولى المكتفي - وبدر الحماص، فساروا في شوّال فوصلوا حدود مصر في صفر سنة ثلاث وتسعين. وتقدَّم أحمد بن كَيْغَلَغَ في جماعة من

(١) سامراء: مدينة كانت بين بغداد وتكريت على شرقي دجلة وقد خربت... وقيل: سامراء بلد على دجلة فوق بغداد بثلاثين فرسخًا يقال لها سر من رأى فخففها الناس وقالوا سامراء... (معجم البلدان).

القواد، فلقيهم الخليجي فهزمهم بالقرب من العريش[١] أقبح هزيمة. فَنَدَبَ من بغدادَ جماعةً من القُوَّاد فيهم إبراهيم بن كيغلغ، فخرجوا في شهر ربيع الأول. وبرز المكتفي إلى باب الشَّمَّاسِية[٢] يريد المسير لحرب الخليجي لِمَا بلغه من قُوَّته - وكان ذلك في شعبان - فورد كتابُ فاتك في شعبان أن «القوَّاد رجعوا إلى الخليجي وقاتلوه أشدَّ قتال، وكانت بينهم حروبٌ آخرُها أنه انهزم ودخل فسطاط مصرَ واستتر بها، ودخل عسكرُ الخليفةِ المدينةَ وظَفِروا به، وحُبِس هو ومن استتر عنده». فكتب المكتفي إلى فاتكٍ بحَمْله ومَنْ معه إلى بغداد، فوصلوا بغداد في شهر رمضانَ سنة ثلاث وتسعين، ودخل المكتفي بغداد وأمر بِرَدِّ خزائنه وكانت قد بلغت تكريت[٣].

وفيها - أعني سنةَ اثنتين وتسعين - أُخِذ بالبصرة رجل ذُكِرَ أنه أراد الخروج، وأُخِذَ معه وَلدُه وتسعةٌ وثلاثون رجلاً، وحُملوا إلى بغدادَ وهم يستغيثون ويحلفون أنهم بِراءٌ، فأمر المكتفي بِحبْسهم.

وفيها أغار أندرونقس الرومي على مرعش[٤] ونواحيها، فَنَفر أهلُ المصيصة[٥] وطرسوس فأصيب أبو الرجال ابن أبي بكار في جماعةٍ من المسلمين. فعزل الخليفة أبا العشائر عن الثغور واستعمل عليهم رستم بن بدر، وافتدى رستم فكان جملة من فُودِيَ به المسلمون ألف نفس ومائتي نفس. وحجّ بالناس في هذه السنة الفضل بن عبد الملك بن عبد الله.

وفيها كان ابتداءُ إمارةِ بني حمدان بالمَوْصِل، وذلك أن المكتفيَ بالله ولَّى على الموصلِ وأعمالها أبا الهيجاء عبدَ اللّهِ بنَ حَمدان بنِ حمدون التغلبيّ العدويّ، فقدمها في المحرم، وخرج في اليوم الثاني من مَقْدَمِهِ لقتال الأكراد على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار الدولة الحمدانية.

---

(١) عريش: بفتح أوله، وكسر ثانيه، ثم شين معجمة بعد الياء المثناة من تحت: هي مدينة كانت أول عمل مصر من ناحية الشام على ساحل بحر الروم في وسط الرمل... (معجم ياقوت).

(٢) الشماسية: بفتح أوله وتشديد ثانيه ثم سين مهملة: هي مجاورة لدار الروم التي في أعلى مدينة بغداد، وإليها ينسب باب الشماسية... (معجم البلدان).

(٣) تكريت: بلدة مشهورة بين بغداد والموصل.. تقع غربي دجلة وبها قلعة حصينة بناها سابور بن أردشير.

(٤) مرعش: مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم، حصينة ولها سوران، وبوسطها قلعة، ولها ربض يعرف بالهارونية... (معجم البلدان).

(٥) المصيصة: بالفتح ثم الكسر، والتشديد، وياء ساكنة، وصاد أخرى: هي مدينة على شاطىء جيحان من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم تقارب طرسوس... (معجم ياقوت).

ودخلت سنة ثلاث وتسعين ومائتين.

في هذه السنة كان الظَّفَرُ بإبراهيم الخليجي المُغَلِّبِ على ديار مصر، وقد ذكرنا ذلك في سنة اثنتين وتسعين ومائتين.

وفيها أغارت الروم على قورس[1] - من أعمال حلب - فقاتَلَهُم أهلُها قتالاً شديدًا، ثم انهزموا وقتل كثير منهم. ودخل الرومُ قورَس، وأحرقوا جامعها، وأخذوا مَنْ بقي من أهلها. وحجّ بالناس في هذه السنة محمد بن عبد الملك الهاشمي.

ودخلت سنة أربع وتسعين ومائتين.

في هذه السنة قُتل زكرويه رئيسُ القرامطة على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبارهم وفيها غزا ابنُ كَيْغَلَغَ من طرسوس، فأصاب من الروم أربعةَ آلاف رأسْ سبيًا، ودوابّ ومتاعًا، ودخل بطريقٌ من بطارقة الروم في الأمان فأسلم. وغزا ابن كيغلغ أيضًا فبلغ شلندوا[2].

* * *

وافتتحَ اللَّيْسَ[3] فغنم نحوًا من خمسين ألف رأس، وقتل مقتلةً عظيمةً، وانصرف ومن معه سالمين. وكاتب أندرونقس البطريق المكتفيَ بالله في طلب الأمان فأعطاه ما طلب - وكان على حَرْبِ الثغور مِنْ قِبَلِ ملك الروم - فخرج ومعه نَحْوٌ من مائتي ألف أسير من المسلمين في السلاح، فقبضوا على بطريقٍ كان ملك الروم أرسله ليقبض على أندرونقس - ليحاربوه - فسار إليه جمْعٌ من المسلمين لإغاثته، فبلغوا قونية[4] وانصرف الروم عنه. وسار جماعةٌ من المسلمين إلى أندرونقس وهو في حِصْنِه، فخرج إليهم ومعه أهله، وسار معهم إلى بغداد. وخَرَّب المسلمون قونية، فأرسل ملكُ الروم إلى الخليفة يطلب الفداء. وحجّ بالناس الفضلُ بن عبد الملك.

ودخلت سنةُ خمس وتسعين ومائتين.

في هذه السنة كانت وفاة إسماعيل بن أحمد الساماني أميرِ خرسان وما وراء النهر وقام بعده ابنُه أحمدُ على ما نذكره - إن شاء الله تعالى - في أخبارهم.

---

(١) قورس: بالضم ثم السكون، وراء مضمومة، وسين مهملة: مدينة أزلية بها آثار قديمة وكورة من نواحي حلب وهي الآن خراب وبها آثار باقية... (معجم البلدان).

(٢) شلندوا: بلد في وسط بلاد الروم غزاه سيف الدولة الحمداني.

(٣) الليس: مدينة في بلاد الروم.

(٤) قونية: من أعظم مدن الإسلام بالروم وبها سكنى ملوكها.

ذكر وفاة المكتفي بالله

كانت وفاة المكتفي ببغداد لثلاثَ عشرةَ ليلةً خَلتْ من ذي القعدة سنةَ خمس وتسعين ومائتين، وطالت مرَضَتُه عدَّة شهور، ولما مات دُفِنَ بدار محمد بن عبد الله بن طاهر. وكان عمره ثلاثًا وثلاثين سنةً، واخْتُلِف فيه إلى إحدى وثلاثين سنةً وشهور، وكانت مدةُ خلافته سِتَّ سنين وستَّةَ أشهر وعشرين يومًا. وكان أسْمر أعْيَنَ[1]، قصيرًا، حسنَ اللحية والوجه. وهو الذي بنى جامع القصر بمدينة السلام ـ وكان موضعه مطامير فغطاها ـ وبنى تاج دار الخلافة على دجلة. وأنفق الأموال العظيمة في حرب القرامطة، وكان نقش خاتمه «بالله يثق عليُّ بن أحمد».

أولاده: المستكفي بالله، وثمانية ذكور.

وزراؤه: القاسم بنُ عبيد الله، ثم أبو العباس بن الحسن بن أيوب بن سواد جَرْجرايا[2]، وهو أوَّل وزيرٍ منع أصحاب الدواوين الوصولَ إلى الخليفة.

قضاته: أبو حازم، ثم يوسف بنُ يعقوب، ثم أبو عمر بن علي بن أبي الشوارب.

حاجبه: خفيف السمرقندي.

الأُمراء بمصر: هارون بن خمارويه، ثم سِنان بن أحمد بن طولون بمبايعة الجند له، ثم محمد بن سليمان الكاتب دبَّرها إلى أن قَدِم ـ بأمر المكتفي ـ عليها عيسى بن محمد النوشري.

القضاة بها: أبو زرعة وأبو عبيدة مستتر إلى أن قَدِم محمد بن سليمان، فظهر أبو عبيدةَ بعد استتاره عشر سنين، وعاد إلى القضاء واللّهُ أعلم!.

ذكر خلافة المقتدر بالله

هو أبو الفضل جعفر بن المعتضد بالله أبي العباس أحمد ـ وقد تقدَّم ذِكْر نَسبِه ـ وأُمُّه أمُّ ولدٍ اسمُها شغب! وهو الثامن عشر من الخلفاء العباسيين، بويع له لثلاثَ عشرةَ ليلةً خَلَتْ من ذي القعدة سنة خمسٍ وتسعين ومائتين وعمرهُ يومذاك ثلاث عشرةَ سنة.

---

(١) الأعين: الذي عظم سواد عينيه في سعة.

(٢) جرجرايا: بلد من أعمال النهروان بين واسط وبغداد من الجانب الشرقي.

قال ابن الأثير[١]: كان سبب ولاية المقتدر أنَّ المكتفي لما ثَقل مرضه فكَّر الوزيرُ أبو العباس بن الحسن فيمن يصلح للخلافة، فاستشار محمد بن داود الجراح في ذلك فأشار بعبد الله بن المعتز ووصفه بالعقل والرأي والأدب، واستشار بعده أبا الحسن بن الفرات فامتنع، وقال: هذا شيءٌ ما جَرَتْ عادتي أُشير به، وإنما أُشاورُ في العمال لا في الخلفاء! فغضب الوزير وقال: هذه مقاطعةٌ وليس يخْفَى عليك الصحيحُ! وألحَّ عليه فقال: إن كان رأيُ الوزيرِ قد استقرّ على أحدٍ فليفعل. فعلم أنه عَنى ابنَ المعتز لاشتهار خبره، فقال الوزير: لا أقنع إلا أن تَمْحضَني[٢] النصيحة! وألَحَّ عليه فقال ابن الفرات: فَلْيتَّقِ اللّهَ الوزيرُ ولا ينْصِبْ إلا منْ قد عَرفه واطّلع على جميع أحواله، ولا ينْصِبُ بخيلًا فيضيِّق على الناس ويقطعَ أرزاقَهم، ولا طامعًا فَيَشْرَه في أموالهم فيصادرهم ويأخذ أملاكهم وأموالَهم، ولا قليلَ الدِّينِ فلا يخاف العقوبةَ والآثام ويرجو الثَّواب فيما يفعله، ولا منْ قد عرف دار هذا ونعمة هذا وبستان هذا وضَيْعة هذا وفَرس هذا، ومنْ قد لَقِي الناس ولقُوه وعاملهم وعاملوه وتحنَّك وحسب حساب الناس وعَرف وجُوه دخْلِهم وخَرْجِهم!

فقال الوزير: صدقت ونصحت، فيمن تشير؟ قال: أصلح الموجودين جعفرُ بنُ المعتضد بالله. قال: ويْحك هو صبي! قال: إلا أنه ابنُ المعتضد، ولِم نأتي برجلٍ يباشر الأمور بنفسه غير محتاجٍ إلينا؟ فمالت نَفْسُ الوزير إلى ذلك، وانْضاف إليه وصيّةُ المكتفي له بالأمر. فلما مات المكتفي بالله أرسل الوزيرُ صافيًا الحُرَمِيَّ ليحدر المقتدر من داره الغربي. فركب في الحراقة[٣] وانحدر. فلما صارت الحرّاقةُ مقابِلَ دارِ الوزيرِ صاح غلمانُ الوزيرِ بالملاّح ليدخل إلى دار الوزير، فَظَنَّ صافي الحرميُّ أنه يريد القبض على جعفر وينصب في الخلافةِ غَيْره، فمنع الملاَّح من ذلك. وسار إلى دار الخلافة وأخذ له صافي البيْعةَ على جميع الخدم وحاشية الدّار، ولقب نَفْسه المقتدر بالله ولَحِقَ الوزيرُ به وجماعةُ الكُتّاب فبايعوه ثم جهّزوا ـ جماعة الكتاب ـ المكتفي ودفنوه.

---

(١) ابن الأثير: هو أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، المعروف بابن الأثير الجزري، الملقب عز الدين... كان إمامًا في حفظ الحديث ومعرفته وما يتعلق به، وحافظًا للتواريخ المتقدمة والمتأخرة، وخبيرًا بأنساب العرب وأخبارهم وأيامهم ووقائعهم. صنّف في التاريخ كتابًا كبيرًا سماه «الكامل»... (وفيات الأعيان ٣:٣٤٨).

(٢) يقال: محضه النصيحة: إذا أخلصها وأصدقها.

(٣) الحراقة: ضرب من مركبات الماء.

قال: وكان في بيت المال حين بويع خَمْسةَ عشْرَ ألف ألفِ دينارٍ، فأطلق يدَ الوزيرِ في بيت المال فأخرج حقَّ البيعة! قال: ثم استصغر الوزيرُ المقتدر، فعزم على خَلْعِهِ وتقليدِ الخلافةِ أبا عبد الله بن المعتَمِدِ على الله. فراسَله في ذلك واستقرَّت الحال، وانتظر الوزير قُدوم بارس حاجبِ إسماعيل صاحبِ خراسان، وكان قد أذِنَ له في القدوم وأراد أن يستعين به على ذلك ويَتَقَوَّى به على غلمان المعتضد بالله، فتأخَّر بارس.

واتَّفَق أنه وَقَع بين أبي عبد الله بن المعتمد وبين ابن عمرويه ـ صاحب الشرطة ـ منازعةٌ في ضَيْعةٍ مشتركةٍ بينهما، فأغلظ له ابنُ عمرويه، فغضب ابنُ المعتمد غضبًا شديدًا وأُغمي عليه، وفُلِج في المجلس فَحُمِلَ إلى بيته في مِحفَّةٍ[1] فمات في اليوم الثاني. فأراد الوزيرُ البَيْعَةَ لأبي الحسن بن المتوكل فمات أيضًا بعد خمسة أيام، وتَمَّ أمر المقتدر. وحجَّ بالناس في هذه السنة الفضلُ بن عبد الله الهاشمي.

ودخلت سنةُ ستٍّ وتسعين ومائتين.

ذكر خلع المقتدر وولاية ابن المعتز وانتقاض ذلك وعودة المقتدر ووفاة عبد الله بن المعتزِّ

قال: وفي هذه السنة اجتمع القوّاد والقضاة والكتّاب مع الوزير على خَلع المقتدر والبيعة لابن المعتز بالله. وأرسلوا إلى عبد الله بن المعتز فأجابهم إلى ذلك على أن لا يكون فيه سفْكُ دم ولا حرب، فأخبروه أنَّ كلمتهم اجتمعت عليه، وأنه ليس له منازع ولا محارب. وكان القائم في ذلك الوزير المذكور ومحمد بن داود الجراح وأبو المثنّى أحمد بن يعقوب القاضي، ومن القُوَّاد الحسين بن حمدان وبدر الأعجمي ووصيف بن صَوَار تَكين ثم إن الوزير رأى أمره صالحًا مع المقتدر، وأنه على ما يحب، فبدا له في ذلك فَوَثَب به الآخرون فقتلوه، وكان الذي تولَّى قَتْلَه منهم الحسينُ بنُ حمدان وبدرٌ الأعجمي ووصيفٌ. . لحقوه وهو سائر إلى بستانٍ له فقتلوه، وقتلوا معه فاتكًا المعتضدي، وذلك في العشرين من شهر ربيع الأول، وخُلع المقتدر من الغد، وبايع الناسُ لابن المعتز.

---

(١) المحفة: هودج لا قبة له، تركب فيه المرأة.

وركَضَ الحسينُ بنُ حمدان إلى الحلْبة ظنًّا منه أن المقتدر يلعب هناك بالكرة فيقتله، فلم يصادِفْه لأنه لما بلغه قتْلُ الوزير ركض[١] دابته ودخل الدار. وغُلِّقَتِ الأبوابُ، فندم الحسينُ حيث لم يبدأ بالمقتدر! وأحضروا ابنَ المعتز وبايعوه بالخلافة، وتولى أخْذَ البَيْعةِ له محمدُ بنُ سعيد الأزرق، وحضرَ الناسُ والقواد وأصحابُ الدواوين سوى أبي الحسنِ بنِ الفرات وخَواصِّ المقتدرِ فإنهم لم يحضروا. ولقَّب ابن الْمُعْتَزِّ المرتضيَ بالله أبا العباس عبد الله بن المعتز.

ووجه إلى المقتدر يأمره بالانتقال إلى دار ابنِ طاهر - التي كان بها قبل الخلافة - لينتقلَ هو إلى دار الخلافة، فأجابه بالسمْع والطاعةِ، وسأل الإمهالَ إلى الليل. وعاد الحسين بنُ حمدان بُكْرَةَ غَدٍ إلى دار الخلافة فقاتله الخدم والغلمان والرَّجَّالة من وراء السور عامةَ النهار، فانصرف عنهم آخِرَ النهارِ. فلما جنَّه[٢] الليلُ سار عن بغدادَ بأهله وماله إلى الموصِل لا يدري لِمَ فعل ذلك؟ ولم يكن قد بقِي مع المقتدر من القُوَّاد غيرُ مؤنسٍ الخادم ومؤنسٍ وغريبِ الخال وحاشيةِ الدار. فلما همَّ المقتدر بالانتقال عن الدار قال بعضهم لبعض: لا نسلم الخلافة من غير أن نُبْلِيَ[٣] عدوًّا ونجتهدَ في دفع ما أصابنا!

فاجتمع رأيهم على أن يصعدوا في الماء إلى الدار التي فيها ابنُ المعتز يقاتلونه، فأخرج لهم المقتدر السلاح والزرديات[٤] وركبوا السميريات[٥]. فلما رآهم مَنْ عند ابنِ الْمُعْتَزِّ هالهم كثرتُهم، واضطربوا، وهربوا على وجوههم من قبل أن يصلوا إليهم، وقال بعضهم لبعض: إنَّ الحسينَ بنَ حمدانَ ما يريد يجري، فلهذا هرب من الليل، وهذه مواطأة بينه وبين المقتدر. ولما رأى عبد الله بن المعتَزِّ ذلك ركب ومعه وزيره محمد بن داود وهربا، وغلامٌ له ينادي: يا معْشَر العامة ادعوا لخليفتكم السُّنيِّ البربهاري! وإنما نَسبه لذلك لأنَّ الحسينَ بنَ القاسم بن عبيد الله البربهاري كان مُقَدِّمَ الحنابلةِ والسُّنَّةِ من العامة ولهم فيه اعتقادٌ عظيم، فأراد استمالتَهم بهذا القول.

ثم إنَّ ابنَ المعتَزِّ ومنْ معه ساروا نحو الصحراء ظنًّا منهم أنَّ مَنْ بايَعَه من الجُنْدِ يتبعونه، فلم يلحقْه منهم أحد. فرجعوا، واختفى محمد بن داود في داره، ونزل ابن

---

(١) ركض الدابة: ركلها برجليه يستحثها لتسرع به.

(٢) جنه الليل: ستره.

(٣) نبلي عدوًا: أي نسلمه للغم.

(٤) الزرديات: الدروع.

(٥) السميريات: جمع السميرية: ضرب من القوارب الخفيفة السريعة.

المعتزّ عن دابته ومعه غلامُه يُمْنٌ، وانحدرا إلى دار عبد الله بن الجصّاص، فاستجارا به. واستتر أكثر منْ بايع ابنَ المعتز، ووقعت الفتنةُ والنَّهْبُ والقَتْل ببغداد، وثار العيّارون[١] والسَّفِلَة[٢] ينهبون الدُّورَ. وكان ابن عمرويه ـ صاحبُ الشرطة ـ ممن بايع ابنَ المعتزِّ، فلما هرب جمع ابنُ عمرويه أصحابَه ونادى بشعار المقتدر يدلِّس[٣] بذلك فناداه العامَّةُ: يا مُراءٍ يا كذّاب! وقاتلوه، فهرب واستتر وتفرّق أصحابه.

وقَلَّد المقتدر في تلك الساعة الشرطةَ مؤنسًا الخازن، وخرج بالعسكرِ وقبض على. . وصيفِ بن صَوَار تَكين وغيرِه، فقتلهم. وقبض على القاضي أبي المُثَنَّى أحمدَ بنِ يعقوبَ فقتله لأنه قيل له «بايع المقتدر» فقال: لا أبايع صبيًّا!! فَذُبِحَ، وأرسل المقتدرُ إلى أبي الحسن علي بنِ الفرات ـ وكان مختفيًا ـ فأحضره، واستوزره، وخَلَع عليه.

وكان في هذه الحادثةِ عجائبُ منها أنَّ الناسَ كلَّهم أجمعوا على خَلْعِ المقتدرِ والبَيْعةِ لابن المعتزّ، فلم يتم ذلك، بل كان بالعكس. ومنها أنّ ابنَ حمدانَ على شدَّةِ تَشَيُّعِهِ يسعى في البَيْعةِ لابن المعتزِّ على غُلوِّه في النَّصْب[٤].

ثم إنّ خادمًا لابنِ الجصاص ـ يعرف بسوسن ـ أخبر صافيًا الحرمي أن ابنَ المعتز عند مولاه ومعه جماعة، فكُبِستْ داره وأُخِذَ ابنُ المعتزِّ منها وحُبِسَ إلى الليل، ثم عُصِرَت خصيتاه حتى مات وسُلِّم إلى أهله. وصودِر ابن الجصّاص على مالٍ كثيرٍ، وأُخِذَ محمدُ بن داود وزيرُ المعتزِّ فقتل، ونُفِيَ عليُّ بن عيسى إلى واسط، وصودِر القاضي أبو عمرو على مائة ألف دينار، وسُيِّرَتْ العساكر من بغداد في طَلَبِ الحسين بنِ حمدان، فتبعوه إلى الموصل ثم إلى بلده، فلم يظفروا به، فعادوا إلى بغداد. وأخذَ الوزير الجرائد[٥] التي كان فيها أسماء من أعان على المقتدر فَغرَّقها في دجلة، وبسط ابن الفرات العدل والإحسان وأخرج الإدرارات للطالبيين والعباسيين. وأرْضى القوَّاد بالأموال، ففرّق معظم ما كان في بيوت الأموال.

وفي هذه السنة كان ابتداء ظهور الدولة العُبَيْدية المنسوبة للعلوية بإفريقية على ما نذكره ـ إن شاء الله تعالى ـ في أخبارهم.

---

(١) العيار: الذي يروح ويجيء في الأرض. والمراد هنا فئة الأشرار منهم.

(٢) السفلة: المراد أسافل الناس وغوغائهم.

(٣) دلّس: روى عمن عاصره ما لم يسمع منه، أو سمى شيخه بما لا يعرف به، أو خادع وظلم.

(٤) أهل النصب: الذين يعادون ويبغضون علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٥) الجرائد: جمع الجريدة: وهي دفتر أرزاق الجيش في الديوان.

وفيها سيّر المقتدرُ القاسم بنَ سِيما وجماعةً من القوّاد في طلب الحسين بن حمدان، فساروا حتى بلغوا قرقيسيا[١] فلم يظفروا به، فكتب المقتدر إلى أبي الهيجاء عبد الله بن حمدان ـ وهو الأمير على الموصل ـ يأمره بِطَلَبِ أخيه الحسين. فسار هو والقاسمُ بن سيما، فالتَقَوْا عند تكريت فانهزم الحسين، وأرسل أخاه إبراهيم بنَ حمدان يطلب له الأمانَ فأُجيب إلى ذلك، ودخل بغداد وخلع عليه وعُقِد له على قم وقاجان[٢] فسار إليهما.

وفيها وصلَ بارس غلام إسماعيل الساماني، وقُلّد ديارَ ربيعةَ.

وفيها خُلِعَ على المظفر مؤنسٍ الخادم، وأُمر بالمسير إلى غزو الروم. فسار في جمعٍ كثيفٍ فغزا من ناحية مَلَطْية[٣] ومعه أبو الأغرّ السُّلَمي، فظفر وغنم، وأسر منهم جماعة، وعاد.

وفيها قلّد يوسف بن أبي الساج أعمال أرمينية وأذربيجان، وضمنها مائة ألفٍ وعشرين ألف دينار.

وفيها أمر المقتدر أن لا يُسْتعانَ بأحدٍ من اليهود والنَّصارى، فأُلْزِموا بيوتَهم، وأُخِذوا بِلُبْسِ العسليّ[٤]، وتعليقِ الرِّقاع من خلف ومن قُدام. وأن يكونَ رَكْبُهم خشبًا. وحجَّ بالناسِ في هذه السنة الفضل بن عبد الملك.

ودخلت سنة سبع وتسعين ومائتين.

في هذه السنة وجّه المقتدر القاسمَ بنَ سِيما لِغَزْوِ الصائفة[٥]، وحجَّ بالناس، الفضل بن عبد الملك.

وفيها مات عيسى النُّوشَرِي ـ أمير مصر ـ واستعمل المقتدرُ تَكينَ الخادم، وخَلَعَ

---

(١) قرقيسيا: بالفتح ثم السكون، وقاف أخرى، وياء ساكنة، وسين مكسورة، وياء أخرى، وألف ممدودة: بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طوق على ستة فراسخ وعندها مصب الخابور في الفرات.

(٢) قاجان: مدينة قرب أصبهان تذكر مع قم، وأهلها كلهم شيعة إمامية، وبين قاشان وقم اثنا عشر فرسخًا... (معجم ياقوت).

(٣) ملطية: بلدة من بلاد الروم مشهورة، تتاخم الشام.

(٤) عسليّ اليهود: علامتهم.

(٥) الصائفة: الغزو في الصيف.

عليه في منتصف رمضان. وقال أبو الفرج بن الجوزي[١] في حوادث هذه السنة «قال ثابت بن سنان رأيت في صدر أيام المقتدر ببغداد امرأة بلا ذراعين ولا عَضدَيْن، وكان لها كفّان بأصابع تامةٍ متعلقةٍ في رأس كتفيها لا تعمل بهما شيئًا وكانت تعمل أعمال اليدين برجليها، ورأيناها تغزل برجليها وتمدّ الطاقة وتسَويها ـ قال ـ ورأيت امرأة أخرى بعضُدَيْن وذراعين وكفَّين إلا أنَّ كلَّ واحد من الكفين ينخرط ويدقُّ إذا فارق النَّهْديْن حتى ينتهيَ إلى رأسٍ دقيقٍ يمتدُّ ويصيرُ إصبعًا واحدةً، وكذلك رِجْلها على هذه الصورة، ومعها ابنٌ لها على مِثْل صورتها!».

ودخلت سنة ثمانٍ وتسعين ومائتين.

في هذه السنة جُعلَتْ أم موسى الهاشمية قهرمانةَ[٢] دار المقتدر بالله، فكانت تؤدي الرسائل عن المقتدر بالله وأمّه إلى الوزراء. ثم صار لها أن تحكم كثيرًا في الدولة على ما نذكره إن شاء الله تعالى. وحجّ بالناس في هذه السنة الفضل بن عبد الملك الهاشمي.

ودخلت سنة تسع وتسعين ومائتين.

ذكر القبض على ابن الفرات
ووزارة الخاقاني

في هذه السنة قَبَضَ المقتدر بالله على وزيره ابن الفرات، ووكل بداره، وهتك حُرَمَه، ونهب أمواله ودُورَ أصحابه ومن يتعلّق به فافتتنت بغداد لِقَبْضه، وكانت مدةُ وزارته ـ وهي الأولى ـ ثلاث سنين وثمانية أشهر، وثلاثةَ عشر يومًا. وقُلد أبو علي محمد بن يحيى بن عبيد الله بن خاقان الوزارة، فرتّب أصحاب الدواوين، وتولى مناظرة ابنِ الفرات. ثم انْحلتْ أمورُ الخاقاني لأنه كان ضجورًا ضَيِّقَ الصدر، مهملاً لقراءة كتب العمال، وجباية الأموال، وكان يتقرّب إلى الخاصة والعامة؛ فكان إذا رأى جماعة من الملاّحين والعامة يصلُّون ـ جماعةً ـ ينزل ويُصَلِّي معهم، وإذا سأله أحدٌ

(١) هو أبو الفرج عبد الرحمٰن بن أبي الحسن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن عبد الله بن حمادي بن أحمد بن محمد بن جعفر الجوزي... القرشي، التيمي البكري البغدادي الفقيه الحنبلي الواعظ الملقب جمال الدين الحافظ، كان علامة عصره وإمام وقته في الحديث وصناعة الوعظ. صنّف في فنون عديدة... كانت وفاته سنة ٥٩٧هـ... (وفيات الأعيان ٣: ١٤٠).

(٢) القهرمان: أمين الملك وخاصته.

حاجةً دقَّ صدره وقال: نعم وكرامةً! فَسُمِّيَ «دقَّ صدره» إلا أنه قَصَّر في إطلاق الأموال للقوّاد والفرسان فنفروا عنه. وكان أولاده قد تحكَّموا عليه وكلٌّ منهم يسعى لمن يرتشي منه؛ فكان يُوَلِّي في الأيام القليلة عدَّةً من العمال حتى إنه ولَّى ماه الكوفة[1] في مدة عشرة أيام سبعة من العمال، فاجتمعوا في الطريق فعرضوا توقيعاتهم، فسار الأخير وعاد الباقون يطلبون ما خدموا به أولاده، فقيل في ذلك: [من الوافر]

وزيرٌ قد تكاملَ في الرقاعه ... يُولِّي ثم يعزل بعْد ساعه
إذا أهل الرِّشا اجتمعوا لديْه ... فخَيْرُ القوْم أوْفرهُم بضاعه[2]
وليس يُلام في هذا بحالٍ ... لأنَّ الشيخَ أفلتَ من مجاعه

قال: ثم زاد الأمر حتى تَحَكَّم أصحابُه، فكانوا يطلقون الأموال ويفسدون الأحوال؛ فانْحَلَّت القواعد، وخبثت النيات واشتغل الخليفة بِعزْلِ وزرائه والقَبْضِ عليهم والرجوع إلى قَوْلِ النساء والخدم والتصرُّف على مقتضى إرادتهم، فخرجت الممالك وطمع العمّال في الأطراف، فصار مآل الأمر إلى ما نذكره إن شاء الله تعالى.

قال: ثم أحضر المقتدرُ الوزيرَ ابنَ الفرات من محبسه، وجعله في حجرةٍ - من ضِمْن الحجر - مُكَرَّمًا، فكان يعرض عليه مطالعات العمال وغَيْرَ ذلك بارًّا به بعد أن أخذ أمواله.

وفي هذه السنة غزا رستُم أميرُ الثغور الصائفةَ من ناحية طَرَسوس[3] ومعه دمْيانة، فحصر حِصْنَ مليح الأرمني، ثم دخل بلده وأحرقه.

قال ابن الجوزي: وفي هذه السنة وَرَدَ من مصر أربعةُ أحمالِ مالٍ، وقيل إنه وُجِدَ هناك كنزٌ قديم. وكان معه ضلع إنسان طولُه أربعةَ عشرَ شبْرًا في عرْضِ شبْرٍ، وزعموا أنه من قوم عاد.. وكان مبلغ المال خمسمائة ألف دينار، وكان مع ذلك هدايا عجيبة - قال - وذكر الصولي أنه كان في الهدايا تَيْسٌ له ضرْعٌ يحلب اللبن ووردت رُسُل أحمد بنِ إسماعيل بهدايا فيها بدنةٌ[4] مرصَّعةٌ بِفاخرِ الجوهرِ، وتاجٌ من ذهبٍ مُرَصَّعٌ بجوهرٍ له قيمةٌ كبيرة، ومناطقُ ذهبٍ مرصعة، وخِلعٌ سلطانيةٌ فاخرة،

---

(١) ماه الكوفة: هي الدينور.
(٢) الرشا: جمع الرشوة: وهي ما يعطى لقضاء مصلحة، أو ما يعطى لإحقاق باطل أو إبطال حق.
(٣) طرسوس: مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم.
(٤) البدنة: ناقة أو بقرة تنحر بمكة قربانًا، وكانوا يسمنونها لذلك.

وربعة ذهب مرصعة فيها شمَّامات مسك وعنبر كلُّه مرصّع، وعشر أفراسٍ بِسُرُوجها ولإحداها سرج ذهب. ووردت هدايا ابنِ أبي السّاج وهي أربعمائةُ دابَّةٍ وثمانون ألف دينار وفَرْشُ أرمني لم يُرَ مِثْله، فيه بساطٌ طولُه سبعون ذراعًا في عَرْض ستين، لا قيمةَ له! وحَجَّ بالناس الفضلُ بن عبد الملك الهاشميّ.

ودخلت سنة ثلاثمائة من الهجرة النبوية.

ذكر عزل الخاقاني عن الوزارة ووزارة عليّ بن عيسى

في هذه السنة ظهر للمقتدر بالله تخليطُ الخاقانيّ وعَجْزُه عن الوزارة، فأراد عزْلَه وإعادة أبي الحسن بن الفرات، فمنعه مؤنسٌ الخادمُ وقال له: متى أعدتَه ظَنَّ النَّاسُ أنّك إنما قبضتَ عليه شَرهًا في ماله! وأشار عليه باستدعاء عليٍّ بنِ عيسى من مكة وتَقليده الوزارة وشكره مؤنس الخادمُ وأثنى عليه.

فأمر المقتدر بإحضاره، فوصل إلى بغدادَ في أوّلِ سنة إحدى وثلاثمائة، فجلس في الوزارة وسُلِّم إليه الخاقانيّ فأحسن إليه ووسَّع عليه. ولما تولّى عليُّ بن عيسى لازم العملَ والنظرَ في الأمور وردّ المظالم، وأطلق من المكوس[1] شيئًا كثيرًا، وأسقط زياداتٍ كان الخاقاني قد زادها للجند؛ لأنه عمل معدّل الدَّخل والخَرج فرأى الخرْج أكثر من الدَّخل، فأسقط الزيادات. وأمر بعمارة المساجد والجوامع وتبييضها وبَسْطِها بالحصر وإشعالِ الأضواء فيها. وأمر بإصلاح البيمارستانات[2] وعمل ما تحتاج إليه، وغير ذلك من وجوه البر والقُرُبات.

قال: ولما عزل الخاقاني أكْثَر النَاسُ التزوير على خطِّ الخاقانيّ بصلاتٍ وإدرارات، فنظر عليّ بن عيسى في ذلك فأنكر الخطوط. وأراد إسقاطها، فخاف ذَمَّ الناس، فأنفذها للخاقانيِّ فقال: كلُّها خَطِّي وأنا أمرت بها فلما عاد الرسولُ إلى عليّ بن عيسى قال: واللهِ لقد كذب، وقد علم المزوَّر من غيره ولكنه اعترف بها لتحمده الناس ويذموني! وأمر بإحراقها، وقال الخاقانيُّ لولده: يا بني، هذه ليست خطي ولكنه أنفذها إليّ وقد عرف الصحيح من السقيم وأراد أن نأخذ الشَّوْك بأيدينا ويبغضنا إلى النَّاس، وقد علمت مقصودَه، وعكسته عليه!

---

(١) المكس: الضريبة يأخذها المكاس ممن يدخل البلد من التجار، جمع مكوس. والمكاس: الذين يقدرون الضريبة ويجبونها.

(٢) البيمارستانات: المصحات، أو المستشفيات.

قال ابن الجوزيّ: وفيها لاثنتي عشرة ليلةً بقيت من شهر ربيع الآخر ورد الخبرُ بانخساف جبل بالدِّينَوَر[١] يعرف بالتل وخرج من تحته ماء كثير أغرق عدَّةً من القرى، ووصل الخبرُ بانخساف قطعةٍ عظيمةٍ من جبل لبنان وسقوطها في البحر.

وفي هذه السنة خرج أهل صقلية عن طاعةِ المهديِّ صاحب إفريقية، وخُطِبَ للمقتدر بالله بها. وكان الذي قام بهذه الدعوة أحمد بن قرهب، فسيَّر إليه الخِلَعَ السُّودَ والألوية، ثم خرج أهل الجزيرة عليه وقبضوه وبعثوه للمهدي فقتله. وحجَّ بالناس في هذه السنة الفضل بن عبد الملك.

ودخلت سنة إحدى وثلاثمائة.

وفي هذه السنة خلع المقتدر بالله على ابنه أبي العباس وقلَّده أعمال مصر والمغرب وعمره أربع سنوات، واستخلِفَ له على مصر مؤنس الخادم. وهذا أبو العباس الذي ولِيَ الخلافةَ بعد القاهر ولقِّبَ الراضي بالله على ما نذكره إن شاء الله تعالى. وخَلَعَ أيضًا على ابنه علي وولاه الريَّ[٢] ودُنباوند[٣] وقزوين[٤] وزَنجان[٥] وأبهر[٦].

وفيها خالف أبو الهيجاء بن حمدان بالموْصل على المقتدر بالله، فسير إليه المُظَفَّرَ مؤنسًا، فأتاه ابن حمدانَ مستأمنًا، وورد مؤنس معه إلى بغداد فخلع المقتدر عليهما.

وفيها استولى الحسنُ بن عليِّ بن عمر بن الحسين بن عليٍّ على برستان، وتَلَقَّب بالناصر على ما نذكره ـ إن شاء اللّهُ تعالى ـ في أخبار الطالبيين.

---

(١) الدينور: مدينة من أعمال الجبل قرب قرميسين؛ ينسب إليها خلق كثير، وبين الدينور وهمذان نيف وعشرون فرسخًا، ومن الدينور إلى شهرزور أربع مراحل... وهي كثيرة الثمار والزروع ولها مياه ومستشرف... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) الريّ: بفتح أوله وتشديد ثانيه: هي مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن كثيرة الفواكه والخيرات، وهي محط الحاج على طريق السابلة وقصبة بلاد الجبال، بينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخًا... (معجم ياقوت).

(٣) دنباوند: جبل من نواحي الري.

(٤) قزوين: بالفتح ثم السكون وكسر الواو، وياء مثلثة من تحت ساكنة، ونون: مدينة مشهورة بينها وبين الري سبعة وعشرون فرسخًا.

(٥) زنجان: بلد كبير مشهور من نواحي الجبال بين أذربيجان وبينها، وهي قريبة من أبهر وقزوين.

(٦) أبهر: مدينة مشهورة بين قزوين وزنجان وهمذان من نواحي الجبل.

وفيها جَهَّزَ المهديُّ ـ صاحبُ إفريقيةَ ـ العساكر مع ابنه القائد إلى الديار المصرية، فسار إلى برقةَ[١] واستولى عليها، وسار إلى مصر فَمَلَكَ الإسكندريةَ والفيوم، وصار في يده أكثرُ البلاد فسيَّر المقتدر لحربه مؤنسًا الخادم في جيشٍ كثيفٍ، فحارب عساكر المهديَّ وأجلاهم عن الديار المصرية، فعادوا إلى المغربِ منهزمين. وحجَّ بالناس في هذه السنة الفضل بن عبد الملك أيضًا.

ودخلت سنة اثنتين وثلاثمائة.

في هذه السنة أمر المقتدر بالقَبْض على أبي عبد الله الحسين بن عبد الله الجوهريّ المعروف بابن الجصاص وأُخِذَ ما في بيته من صنوف الأموال؛ فأخذ منه ما قيمتهُ أربعةُ آلافِ ألفِ دينار، وكان هو يدّعي أن ما أخذ منه عشرون ألف ألفِ دينارٍ، وأكثر من ذلك.

وفيها أنفذ الملقَّبُ بالمهدي ـ صاحب إفريقية ـ جيشًا إلى الديار المصرية مع قائد من قواده يقال له حَبَاسة في البحر، فَغَلَبَ على الإسكندرية ثم سار منها إلى مصر. فأرسل المقتدر لحربه مؤنسًا الخادم في عسكر فالتقوا في جُمادى الأُولى واقتتلوا قتالاً شديدًا، فقتِلَ من الفريقين وجُرِح خَلْقٌ كثيرٌ. ثم كانت بينهم وقعةٌ ثانية، ثم وقعة ثالثة ورابعة انهزم فيها المغاربةُ وقُتل منهم وأُسِر سبعةُ آلاف وذلك في سلْخ جُمادى الآخرة. وعاد من بقي إلى المهدي فقتل حباسة.

وفيها غزا بشْر الخادمُ والي طرسوس[٢] بلاد الروم، ففتح فيها وغزا وسبَى وأسر مائةً وخمسين بطريقًا، وكان السَّبْيُ نحوًا من ألْفَيْ رأس.

وفيها قُلِّد أبو الهيجاء عبد الله بن حمدان الموصل والجزيرة[٣].

---

(١) برقة: بفتح أوله والقاف: اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الإسكندرية وإفريقية، واسم مدينتها أنطابلس وتفسيره الخمس مدن. . . وبرقة: بالضم: من نواحي اليمامة، وبرقة أيضًا: موضع بالمدينة من الأموال التي كانت صدقات رسول الله ﷺ وبعض نفقاته على أهله منها. . . (معجم البلدان).

(٢) طرسوس: بفتح أوله وثانيه، وسينين مهملتين بينهما واو ساكنة: هي مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم. . . (معجم ياقوت).

(٣) الجزيرة: هي التي بين دجلة والفرات مجاورة الشام تشتمل على ديار مضر وديار بكر، سميت الجزيرة لأنها بين دجلة والفرات، وهما يقبلان من بلاد الروم وينحطان متسامتين حتى يلتقيا قرب البصرة ثم يصبان في البحر. . . (معجم البلدان).

قال ابن الجوزي: وفيها في جُمادى الأُولى خَتَن المقتدر خمسةَ أولاد له، ونَثر عليهم خمسةَ آلاف دينار ومائة ألف درهم ورقًا ـ قال ـ ويقال إنه بلغت النفقةُ في هذا الختان ستمائة ألف دينار، وختن قبل ذلك جماعة من الأيتام وفُرِّقَتْ فيهم دراهم كثيرة. وحجَّ بالناس في هذه السنة الفضل بن عبد الملك الهاشمي.

ودخلت سنةُ ثلاث وثلاثمائة.

ذكر خروج الحسين بن حمدان عن طاعة المقتدر

في هذه السنة خرج الحسين بن حمدان بالجزيرة عن الطاعة، وسبب ذلك أن الوزير عليَّ بنَ عيسى طالبه بملا عليه من ديار ربيعة ـ وهو يتوَّلاها ـ فدافعه فأمر بتسليم البلاد إلى العمال، فامتنع. فجهَّز الوزيرُ رائقًا الكبير في جيش لمحاربته، وكتب إلى مؤنسِ الخادمِ ـ وهو بمصر ـ يأْمره بالمسير إلى الجزيرة لقتال ابنِ حمدان بعد فراغه من أصحاب المَهديِّ. فسار رائقٌ إلى الحسين بن حمدان فالتقيا واقتتلا قتالاً شديدًا، فانهزم رائق، وغنم الحسين سواده، وسار رائق إلى مؤنس فأمره بالمقام بالمَوْصِل، وجدَّ مؤنسٌ في السَّيْر في طلب الحسين. فلما قارب منه راسله الحسين واعتذر وتكرَّرَت الرسائلُ بينهما، فلم يستقر حال. فرحل مؤنسٌ نحو الحسين، فسار إلى أرمينية بثقله وأولاده، وتفرّق عسكرُ الحسين عنه، وصاروا إلى مؤنس.

ثم جهّز مؤنس جيشًا في أثره مُقدِّمُهُم يلبق فتبعوه إلى تلّ فافان[١]، فإذا هي خاويةٌ على عروشها قد قُتلَ أهلُها، وأحرقها فجدُّوا في اتِّباعِه، فأدركوه فقاتلوه، فانهزم مَنْ بَقي معه من أصحابه، وأُسر هو وابنُه عبد الوهاب وجميعُ أَهْلِه وأَكْثَرُ مَنْ صحِبَه وقبض أملاكهم. وعاد مؤنسٌ إلى بغداد على طريق الموصل والحسينُ معه، فأُرْكِبَ على جمَلٍ هو وابنه وعليهما اللُّبُود[٢] الطِّوالُ وقمصانٌ من شعر أحمر. وحُبِس الحسين وابنهُ عند زيدانَ القهرمانة، وقبَضَ المقتدر على أبي الهيجاء بن حمدان وعلى جميع إخوته وحُبِسوا. وكان بعضُ أولاد الحسين بنِ حمدانَ قد هرب

(١) فافان: بفاءين، وآخره نون: موضع على دجلة تحت ميافارقين يصب في دجلة عنده وادي الرزم... (معجم البلدان).

(٢) اللبود: أردية من شعر الصوف للمطر.

فجمع جمعًا ومضى نحو آمِد[١]، فأوقع بهم مُسْتَحفظُها وقَتَلَ ابنَ الحسين وأنفذ رأسَه إلى بغداد.

وفيها خرج مليح الأرمني إلى مرعش[٢]، فعاث في بلدها، وأسر جماعة مِمَّنْ حولها. وحَجَّ بالناس في هذه السنة الفضل بن عبد الملك.

ودخلت سنة أربع وثلاثمائة.

ذكر وزارة ابن الفرات الثانية وعزل علي بن عيسى

في هذه السنة في ذي الحجة عُزِل علي بن عيسى عن الوزارة وأعيد إليها أبو الحسن علي بن الفرات. وكان سبب ذلك أن أبا الحسن بن الفرات كان محبوسًا، وكان المقتدر بالله يُشَاوِرُه في الأُمور وهو في محبسه، ويرجع إلى قوله. وكان علي بن عيسى يُمشِّي أمر الوزارة ولم يتَّبعْ أصحابَ ابن الفرات ولا أسبابَه ولا غيره وكان جميل المحضر قليل الشر، فبلغه أن ابنَ الفراتِ قد تَحدَّثَ له جماعة من أصحاب الخليفة في إعادته إلى الوزارة، فاستعفى من الوزارة، وسأل في ذلك فأنكر المقتدرُ عليه ومنعَهُ من ذلك.

فلما كان في آخر ذي القعدة جاءت أم موسى القَهْرَمانةُ لتتفق معه على ما يحتاج إليه حرم الدار والحاشية التي للدار من الكسوات والنفقات فوصلت إليه وهو نائم فقال لها حاجبه: إنه نائم ولا أجسر أن أُوقظه فاجْلِسي في الدار حتى يستيقظ! فغضبتْ من هذا وعادتْ، واستيقظ الوزيرُ في الحال فأرسل إليها حاجبه وولده يعتذر فلم تقبل منه، ودخلت إلى المقتدر وخاطَبتْه في عزله وحرَّضَته على ذلك فَعزَلَهُ عن الوزارة وقبض عليه في ثامن ذي الحجة.

وأعيد ابنُ الفرات إلى الوزارة وضَمِنَ على نَفْسِه أن يحْمِل في كلِّ يوم ألْف دينارِ إلى بَيْتِ المال وخمسِمائة دينار، فقبض على أصحاب الوزير عليٍّ بنِ عيسى

---

(١) آمد: أعظم مدن ديار بكر وأشهرها ذكرًا، تحيط دجلة بأكثرها، وفي وسطها عيون وآبار قريبة الغور.

(٢) مرعش: بالفتح ثم السكون، والعين مهملة مفتوحة، وشين معجمة: مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم لها سوران وخندق وفي وسطها حصن عليه سور يعرف بالمرواني، بناه مروان بن محمد الشهير بمروان الحمار. . . (معجم ياقوت).

وعاد فقبض على الخاقاني الوزيرِ وأصحابِه، واعترض العُمَّالُ وغيرُهم وعادَ عليهم بأموالٍ عظيمة. وكان أبو عليٍّ بنِ مُقْلَةَ قد اسْتَخْفَى منذ قُبِض على ابن الفرات إلى الآن، فلما عاد ابنُ الفرات إلى الوَزارة ظَهرَ فأشخصه ابنُ الفرات الوزير وقَرَّبَه وأحْسنَ إليه.

وحكى عبد الرحمٰن أبو الفرج بن الجوزيّ في تاريخه المنتظم أنّه لما قُلِّدَ الوزارة خُلِعَ عليه سَبْعُ خلَع وحَمل إليه من دار السُّلْطان ثلاثمائة ألفِ درهم، وعشرون خادمًا، وثلاثون دابَّةً لِرَحْله، وخمسون دابةً لغلمانه، وخمسون بغلاً لنقْله، وبغلان للعمارية بقبابها وثلاثون جملاً، وعَشْرُ تُخوتِ ثيابٍ وأنه ركب معه مؤنسٌ الخادم، وغلمانُ المقتدرِ، وصار إلى داره بسوق العَطَش[1]، ورُدَّتْ إليه ضِياعُه، وأُقطع الدارَ التي بالمخرم[2] فسكنها. وأنه سَقَى النَّاسَ في ذلك اليوم وتلك الليلة أربعين ألفَ رطل ثلج، وزاد ثَمَنُ الشَّمْع والكاغد[3] وكانت هذه عادته! قال:

وكانت مُدَّةُ اعتقالِهِ إلى أن رَجعَ إلى الوزارة خمْسَ سنين وأربعة أيام. قال: وسُمِعَ بعضُ العَوَام يقول يَوْمَ خُلِعَ عَلَى ابنِ الفرات واللّهِ خذلونا، أخذوا منّا مصحفًا وأعطَوْنا طنبورًا! فبلغ ذلك إلى الخليفة، فكان ذلك سببًا للإحسان إلى علي بنِ عيسى وحُسْنِ النيَّة فيه إلى أن خَرَج من الحبس والله تعالى أعلم.

ذكر أمر يوسف بن أبي الساج

كان يوسُفُ بن أبي السَّاجِ على أذربيجان وأرمينة قد ولِي الحربَ والصلاةَ والأحكامَ وغيرَها منذ أول وزارةِ ابنِ الفرات الأُولى، فلما عُزل ابن الفراتِ وتولى الخاقانيُّ طمع فأخّر حمْلَ بعضِ المالِ، فاجتمع له من المالِ ما قَوِيتْ به نَفْسُه على الامتناع، وبقي كذلك إلى هذه السنة. فلما بَلَغَه القبضُ على الوزير عليِّ بن عيسى أظهر أَنَّ الخليفةَ أنفذَ إليه عَهْدَ الريّ وأن الوزيرَ عليَّ بنَ عيسى سَعَى له في ذلك، وجمع العساكر وسار إلى الريّ وبها محمد بن صُعْلُوكٍ يتولّى أمْرَها لصاحب خراسانَ نصر بن أحمد الساماني. وكان ابنُ صعلوكٍ قد تغلَّب على الريّ وما يليها أيام وزارةِ

(١) سوق العطش: كان من أكبر محلة ببغداد بالجانب الشرقي بين الرصافة ونهر المعلى بناه سعيد الحرشي للمهدي، وحوّل إليه التجار ليخرب الكرخ.

(٢) المخرم: محلة كانت ببغداد بين الرصافة ونهر المعلى وفيها كانت الدار التي يسكنها السلاطين البويهية والسلجوقية خلف الجامع المعروف بجامع السلطان.

(٣) الكاغد: الورق.

علي بن عيسى، ثم أرسل إلى ديوان الخلافةِ يقاطعُ عليها بمال يحمله، فلما بلغه مسيرُ يوسفَ نَحوَه سار إلى خراسان، فدخل يوسُف الرَّيَّ واستولى عليها وعلى قَزوين وزنجان وأبهر[١]، فلما اتّصل فعْلُه بالمقتدر بالله أنكره.

وكتب يوسُفُ إلى الوزير ابن الفراتِ يعرفه أنَّ عليَّ بنَ عيسى أنفذ إليه بالعهد واللواء وأنه افتتح هذه الأماكن وطَرَد عنها المتغلّبين عليها واعْتَدَّ بذلك، وذكر كثرةَ ما أخرجَ عليه من الأموال، فعظم ذلك على المقتدر وأمر ابنَ الفرات أن يسأل عليَّ بنَ عيسى عن الذي ذكره يوسُف فأحضره وسأله فأنكر ذلك فَصَدَّقه. وكتبَ ابنُ الفرات إلى ابن أبي الساج ينكر عليه تعرُّضَه إلى هذه البلاد وكذبَه على الوزيرِ وَجَهَّزَ العساكر لمحاربته. فسارت في سنة خمسٍ وثلاثمائةٍ وعليها خاقان المفلحي ومعه جماعة من القواد، فساروا ولقوا يوسفَ واقتتلوا، فهزمهم يوسُف وأسَرَ منهم جماعةً وأدخلهم الريَّ مشَهَّرين على الجِمال.

فسَيَّر الخليفةُ مؤنسًا الخادمَ في جيشٍ كثيفٍ لمحاربته، فسار وانضم إليه مَن كان مع خاقان، فصرف خاقانَ عن أعمال الجبل ووليها نحريرُ الصغيرُ وسار مؤنس وأتاه أحمد بنُ علي - وهو أخو محمد بن صعلوك - مستأمِنًا فأكرمه، ووصلت كتب ابن أبي الساج يسأل الرِّضَى عنه وأن يقاطعَ على أعمال الريّ وما يليها على سبعمائة ألف دينارٍ لبيت المال سوى ما تحتاج إليه الجند وغيرهم، فلم يجبه المقتدر إلى ذلك وقال: لو بذل مِلْكَ الأرض لما أقررته على الرَّيِّ يومًا واحدًا لإقدامه على التَّزْويرِ! فلما عَرَفَ ابن أبي السَّاج ذلك سَار عن الرَّيِّ بعد أن أخربها وَجَبَى خراجَها في عشرة أيام. وقَلَّد المقتدرُ الرَّيَّ وقزوين وأبهر وصيفا البُكْتُمريّ، وطلب يوسف بنُ أبي الساج أن يُقَاطعَ على ما كان بيده من الولاية فأشار ابنُ الفرات بإجابته إلى ذلك، فعارضه نصر الحاجبُ وابن الحواريّ وقالا: لا يُجاب إلى ذلك إلا بعد أن يطأ البساط! ونُسبَ الوزيرُ ابنُ الفراتِ إلى مَواطَأتِهِ والميلِ معه. فامتنع المقتدر بالله من إجابته إلا أن يحضر إلى الخِدْمَةِ بنفسِه. فلما رأى يوسُف ذلك حاربَ مؤنِسًا فانهزم مؤنسٌ إلى زنجان، وقُتل من قواده جماعة وأُسِر جماعةٌ منهم هلال بنُ بدرٍ، فأدخلهم أردبيل[٢] مشهَّرين على الجمال.

---

(١) أبهر: بالفتح ثم السكون وفتح الهاء وراء: اسم جبل بالحجاز... وأبهر، أيضًا: مدينة مشهورة بين قزوين وزنجان وهمذان من نواحي الجبل، والعجم يسمونها أوهر... (معجم البلدان).

(٢) أردبيل: بالفتح ثم السكون، وفتح الدال، وكسر الباء، وياء ساكنة، ولام: من أشهر مدن أذربيجان، وكانت قبل الإسلام قصبة الناحية.. وهي مدينة كبيرة جدًا رآها ياقوت في سنة ٦١٧هـ فوجدها في فضاء من الأرض فسيح يتسرب في ظاهرها وباطنها أنها كثيرة المياه.

وأقام مؤنسٌ بزنجانَ بجمع من العساكر ويستمد الخليفة، وكاتبه يوسُف في الصُّلْح وراسله فيه؛ فكتب مؤنس إلى الخليفة فلم يُجبْه إليه. فلما كان في المحرم سنة تِسع وثلاثمائة اجتمع لمؤنسٍ خلق كثيرٌ فسار نحو يوسفَ، فتواقعا على باب أردبيل، فانهزم عسكرُ يوسفَ، وأُسِرَ هو وجماعةٌ من أصحابه فعاد بهم مؤنسٌ إلى بغدادَ فدخلها في المحرم.

وأُدْخِل يوسف مُشَهَّرًا على جَمَلٍ وعليه برنسٌ بأذنابِ الثعالب، فأُدخل على المقتدرِ، ثم حُبسَ عند زيدان القهرمانة.

وفي سنة أربع وثلاثمائة توفِّي الناصرُ العلَوِيُّ صاحب طبرستان.

وفيها خالف أبو يزيدَ خالد بنَ محمدٍ على المقتدرِ بكرمان ـ وكان يتولى الخراج ـ وسار منها إلى شيراز يريد التغلب على فارس، فحاربه بَدْرٌ الحمامي وقتله وحمل رأسه إلى بغداد.

وفيها سار مؤنسٌ المظفَّر إلى بلادِ الروم للغزاة، فسار إلى ملَطية وغزَا منها، وكتب إلى أبي القاسم علي بن أحمد بن بسطام. أنْ يغزُوَ من طرسوس في أهلها، ففعل وفتح مؤنس حصونًا كثيرةً من الروم وأثر آثارًا جميلة وعاد إلى بغداد فأكرمه الخليفةُ وخَلَع عليه.

قال أبو الفرج عبد الرحمٰن بن الجوزي وفيها وَرَدَ الخبرُ من خراسان أنه وُجدَ بالقندهار[1] في أبراج سورها أزَجٌ[2] متصل بها، فيه ألف رأس في سلاسل، من هذه الرؤوس تسعة وعشرون رأسًا في أذن كلِّ رأسٍ رقعةٌ مشدودةٌ بخيطٍ إبريسم[3] مكتوب فيها اسم الرجل. قال: وكان من الأسماء شريح بن حيان وخباب بن الزبير والخليل بن موسى وطلق بن معاد، وحاتم ابن حسنة، وهانىء بن عروة، وفي الرقاع تاريخٌ من سنة سبعين من الهجرة، وَوُجدوا على حالِهم لم يتَغيَّرْ شعْرُهم إلا أن جلودهم قد جَفَّت.

ودخلت سنة خمس وثلاثمائة.

قال أبو الفرج: في هذه السنة وَرَدَ على السلطان هدايا جليلةٌ من أحمد بنِ هلال صاحبِ عُمان، وفيها أنواعٌ من الطِّيب وطرائفُ من طرائِف البحرِ وطائر أسود يتكلم بالفارسية والهندية أفْصَحَ من الببغاء وظباءُ سود.

---

(١) قندهار: بضم القاف، وسكون النون، وضم الدال أيضًا: مدينة من بلاد السند أو الهند مشهورة في الفتوح.

(٢) أزج: ضرب من الأبنية.

(٣) الإبريسم: الحرير.

قال ابنُ الأثير: وفي هذه السنة من المحرم وصلَ رسولان من ملك الرّوم إلى المقتدر يطلبان المهادنة والفداء فأجاب المقتدر إلى ما طَلَبَ ملكُ الروم من الفداء، وسير مؤنسًا الخادم ليحضر الفداء، وجعله أميرًا على كل بلَدٍ يدخله، يتصرف فيه على ما يريد إلى أن يخرج عنه، وأرسل معه مائةَ ألْفِ وعشرين ألف دينار لفداء أُسارى المسلمين.

قال أبو الفرج بنُ الجوزيّ في خبر الرسل إنهما أُدْخِلا وقد عُبِّيء العسكرُ بالأسلحة التَّامة وكانوا مائة ألفٍ وستين ألفًا، وكانوا من أعلى باب الشماسية إلى الدار، وبعدهم الغلمان الحُجرية والخدم الخوص بالبزة الظاهرة والمناطق[1] المحلاة، وكانوا سبعةَ آلاف خادم منهم أربعةُ آلافٍ بيض وثلاثةُ آلاف سود، وكان الحُجّابُ سبعمائةَ حاجبٍ، وفي دجلة الطيَّاراتُ والزَّبارِبُ[2] والسَّميريَّاتُ بأفضل زينةٍ. فسار الرسولان فَمَرَّا على دار نصر القشوري الحاجب، فرأيا منظرًا عجيبًا فَظنَّاه الخليفة وهاباه حتى قيل إنه الحاجب، ثم حُملا إلى دارِ الوزير فرأيا أكثر من ذلك ولم يشكا أنه الخليفة فقيل إنه الوزير.

قال: وزيِّنَتْ دار الخلافةِ، وطيف بهما فيها فشَاهدا ما هالهما، وكانت الستور ثمانيةً وثلاثين ألفَ سترٍ من الديباج المذهبة منها اثنا عشر ألفًا وخمسمائة، وكانت البُسْط والنِّخاخ[3] اثنين وعشرين ألْفًا وكان في الدار من الوحش قطعان تأنس بالناس وتأكل من أيديهم، وكان هناك مائة سَبُع كلُّ سَبع بيد سبّاع، ثم أُخرجا إلى دار الشجرة، وكانت شجرة في وسط بركةٍ فيها ماءٌ صافٍ، والشجرةُ ثمانيةَ عشر غصنًا لكلِّ غصن منها شاخاتٌ كثيرةٌ عليها الطيورُ والعصافيرُ من كلِّ نوع مذهبة ومفضضة. وأكثر قضبانِ الشجرة فضةٌ وبعضها مذهبةٌ وهي تتمايل، وبها ورق مختلفُ الألوان، وكل من هذه الطيور تصفر. ثم أُدخلا إلى الفردوسِ، وكان فيه من الفراش والآلات ما لا يحصى، وفي دهاليزه عشرة آلاف جوْشَن[4] مذهبة معلقة.

قال: ويطول شَرْحُ ما شاهدا من العجائب إلى أن وصَلا إلى المقتدر وهو

(١) المناطق: جمع المنطقة، وهي ما يشد به الوسط.
(٢) الطيارات والزبارب والسميريات: ضرب من السفن.
(٣) النخاخ: جمع نخ، وهو البساط الذي يكون طوله أكثر من عرضه.
(٤) الجوشن: ضرب من السلاح زرد يوضع على الصدر.

جالس على سرير أبنوس[١] قد فُرِشَ بالدَّبيقي[٢] المطرَّزِ وعن يمنة السرِيرِ تسعةُ عقودٍ معلقة وعن يسرته تسعةٌ أخرى من أفخرِ الجواهرِ يضيءُ ضوؤها على ضوء النهار.

قال: فلما وصلَ الرسولان إلى الخليفة، وقَفا على نَحْوِ مائةِ ذراعٍ وابنُ الفراتِ قائم بين يَديْهِ والتَّرْجُمان قائمٌ يخاطب الخليفةَ. ثم أُخْرجا وَطِيف بهما في الدار حتى أُخْرجا إلى دجلةَ وقد أُقيمت على الشطوط الفيلة والسباع والفهود!

قال: ثم خُلِع عليهما وحُمِلَ إليهما خمسون بدرة[٣] ورقًا في كلِّ بدرة خمسة آلاف درهم.

قال: وفيها ورد كتابٌ من مَرْو أنَّ نَفَرًا عثروا على نَقْبٍ في سور المدينة فكشفوا عنه فوصلوا إلى أزج فأصابوا فيه ألف رأسٍ، وفي أُذنِ كلِّ رأسٍ رقعة قد أُثبِتَ فيها اسمُ صاحبها.

وفيها أُطْلقَ أبو الهيجاء بن حمدان وإخوته وأهلُ بيته من الحبْس، وحجّ بالناس في هذه السنة الفضل بن عبد الملك.

ودخلت سنة ست وثلاثمائة.

ذكر عزل ابن الفرات عن الوزارة ووزارة حامد بن العباس

في هذه السنة في جُمادى الآخرة قُبِضَ على الوزير أبي الحسَن بن الفرات، وكانت مدة وزارته هذه ـ وهي الثانية ـ سنةً وخمسةَ أشهرٍ وسبعةَ عشرَ يومًا وكان سبب ذلك أنه أخَّر إطلاق أرزاقِ الفرسان، واحْتَجَّ عليهم بِضيقِ الأموال وأنها خَرَجَتْ في محاربة ابن أبي السَّاج وأنَّ الارتفاع نقص بِأَخْذ يوسف أموالَ الريِّ؛ فَشَغَب الجُنْدُ شَغَبًا عظيمًا وخرجوا إلى المصلَّى فالتمس الوزيرُ من المقتدر إطلاقَ مائتي ألفِ دينارٍ من بيت مالِ الخاصَّة ليضيف إليها مائتي ألف دينارٍ يُحَصِّلُها ويصرفُ الجميعُ في أرزاق الجند، فاشتد ذلك على المقتدر وأرسل إليه: إنك ضمنت أن تُرْضِيَ جميعَ الأجناد وتقوم بجميع النفقات وتحمل بعد ذلك ما ضمنت حمْلَه يومًا بيوم وأراك الآن

---

(١) الآبنوس: شجر ينبت في الحبشة والهند، خشبه أسود صلب، ويصنع منه بعض الأدوات والأواني والأثاث.

(٢) الدبيقي: من دق ثياب مصر معروفة تنسب إلى دبيق.

(٣) البدرة: كيس فيه مقدار من المال يتعامل به، ويقدم في العطايا؛ ويختلف باختلاف العهود.

تطلب من بيت مال الخاصة! فاحتج بقلة الارتفاع وما أخذه! ابنُ أبي السّاج منه وما خَرجَ على محاربته، فلم يَسْمعِ المقتدِرُ حُجَّتَه وتنكّر له. وقيل كان سبب قَبْضِهِ أن المقتدر قيل له إنَّ ابنَ الفرات يريد إرسال الحسين بن حمدان لمحاربة بن أبي الساج فإذا صار عنده اتفقا عليك. ثم إنّ ابنَ الفراتِ قال للمقتدر أن يرسل ابنَ حمدان لحرْبه فقُتِلَ ابنُ حمدان في جُمادى الأُولى، وقبض ابن الفرات في جُمادى الآخرة.

قال: وكان بعض العمال قد ذَكَر لابن الفرات ما يتحصَّلُ لحامِدِ بن العبّاس من أعمال واسط، زيادةً على ضمانه فاستكثره، وكاتبه في ذلك، فخاف حامدٌ أن يُؤْخَذَ ويطالبَ بالمال، فكتب إلى نصر الحاجب وإلى والدة المقتدر وضمن لهما مالاً لِيَتَحدَّثا لَه في الوزارةِ. فذُكِرَ المقتدر حالُه وسعةُ نَفْسِه وكثرةُ أتباعه وأنَّ له أربعمائةَ مملوك يحملون السِّلاح، ووافق ذلك نفرة المقتدر عن ابن الفرات فأمره بالحضور من واسط، فحضر وقبض على ابن الفرات وولده المحسن وأصحابهما وأتباعهما.

ولما وصل حامدٌ إلى بغداد أقام ثلاثةَ أيامٍ في دار الخلافةِ، فكان يتحدَّث مع النّاس ويضاحكهم ويقوم لهم، فبان للخَدمِ وحاشيةِ الدَّارِ قلةُ معرفته بالوزارة، وقال له حاجِبه يا مولانا.. الوزيرُ يحتاجُ إلى لبسة وجلسة وعبسة! فقال له: تعني أنه يلبس ويقوم ويقعد ولا يقوم لأحدٍ ولا يضحك في وجه أحد؟ قال نعم! قال حامد: إنَّ الله تعالى أعطاني وجهًا طَلْقًا وخلقًا حسنًا وما كنت بالذي أُعبس وجهي وأقبّح خلقي لأجل الوزارة! فأمر المقتدر بإطلاق عليٍّ بن عيسى من محبسه، وجعله يتولى الدواوين شبه النائب عن حامد فكان يراجعه في الأُمور ويصدر عن رأيه.

ثم إنه استبدّ بالأُمور دون حامد، ولم يبقَ لحامد غير اسم الوزارة ومعناها لعليّ حتى قيل فيهما: [من مخلّع البسيط]

أَعْــجَــبُ مــن كــلِّ مـــا تــراه أنَّ وزيـــريـــن فـــي بـــلاد
هـــذا ســـوادٌ بـــلا وزيـــرٍ وذا وزيـــرٌ بـــلا ســـوادِ[1]

قال أبو الفرج عبد الرحمٰن بن الجوزي: وفي هذه السنة أمرت السيدة أُم المقتدر، قهرمانةً لها تعرف بثَمَل أن تجلس بالتُّرْبَةِ التي بنتها بالرُّصافة للمظالم وتنظر في رقاع الناس في كل جمعة، فجلست وأحضرت القاضيَ أبا الحسين الإشناني وخرجت التوقيعات على السداد ـ قال ـ وقال أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد

---

(١) سواد الأمير أو الوزير: أتباعه وحاشيته وأمتعته ونحوها.

الحافظ[١]: قَعَدَتْ ثَمَلُ القهرمانةُ في أيام المقتدر بالله للمظالم، وحضَر مجلسها القضاةُ والفقهاء.

وفيها غزا يُسْرُ الأفشيني بلادَ الرُّوم فافتتح عِدَّةَ حصونٍ وغَنِمَ وسَلِمَ، وغزا ثمال في بحر الروم فغنِم وسَبَى وعاد. وفيها أمر المقتدر ببناء بيمارستان فَبُنيَ وأُجْري عليه النفقات الكثيرة، وكان يُسمَّى المقتدريّ، وحجّ بالناس الفضل بن عبد الملك الهاشمي.

ودخلت سنة سبع وثلاثمائةٍ.

في هذه السنة وصل القائِم بن المهدي من إفريقية من قِبل أبيه بجيشٍ كثيفٍ فكان وصولُه إلى الإسكندريةِ في شهر ربيع الآخر، فخرج عنها عاملُ المقتدر ودخل القائم، ثم رحل إلى مصر فدخل الجيزةَ[٢] وملك الأشمونين وأكثر الصعيد. وكتب إلى أهلِ مكّةَ يدعوهم إلى الدُّخول في طاعته فلم يُجيبوه، فبعث المقتدر بالله مؤنسًا الخادم في شعبان وَجَدَّ في السير فوصل إلى مصر وكان بينه وبين القائم عدةُ وقعاتٍ.

ووصل من إفريقية ثمانون مركبًا نجدةً للقائم، فأمر المقتدر بالله أن تسير مراكبُ طرسوسَ إليهم، فسارت خمسةٌ وعشرون مركبًا وفيها النِّفْط والعُدَدُ ومقدِّمُها أبو اليمن، فالتفت المراكب بالمراكب واقتتلوا على رشيد[٣]، فظفر أصحاب مراكب المقتدر بالله وأحرقوا كثيرًا من مراكب إفريقية وأُسر منهم كثير. وكان ممن أُسر سليمان الخادم ويعقوب الكتامي وهما مقدما المراكب فمات سليمان في الحبس بمصر، وحمل يعقوب إلى بغداد ثم هرب منها وعاد إلى إفريقية.

---

(١) هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان بن يزيد، مولى يزيد بن أبي سفيان... أصله من فارس، وجده خلف أول من دخل الأندلس من آبائه.. كان حافظًا عالمًا بعلوم الحديث وفقهه، مستنبطًا للأحكام من الكتاب والسنة بعد أن كان شافعي المذهب، فانتقل إلى مذهب أهل الظاهر، وكان متفننًا في علوم جمة، عاملاً بعلمه، زاهدًا في الدنيا بعد الرياسة التي كانت له ولأبيه من قبله في الوزارة وتدبير الممالك... (وفيات الأعيان ٣:٣٢٥).

(٢) الجيزة: بالكسر: بليدة في غربي فسطاط مصر قبالتها، ولها كورة كبيرة واسعة، وهي من أفضل كور مصر... (معجم ياقوت).

(٣) رشيد: بفتح أوله وكسر ثانيه: بليدة على ساحل البحر والنيل قرب الإسكندرية، خرج منها جماعة من المحدثين.

وفيها ضَمِنَ حامدُ بنُ العباسِ الوزير أعمالَ الخراج والضِّياع الخاصَّةِ والعامَّةِ والمستحدثة والفراتية بسواد بغدادَ والكوفةِ والبصرةِ وواسطِ والأهواز وأصبهان. وسبب ذلك أنه رأى أنه قد تَعَطَّلَ عن الأمر والنَّهي وتفرَّدَ بِهِ عليُّ بنُ عيسى، فشرع في هذا ليصير له حديثٌ وأمْرٌ ونَهْيٌ، ثم استأذن المقتدرَ في الانحدار إلى واسط لِيُدَبِّرَ أمْرَ ضَمانِهِ الأوَّلَ فأذِنَ له فانْحَدَر إليها، واسم الوزارةِ عليه، وعليٌّ يدبر الأمور! وأظْهَرَ حَامدٌ زِيادةً عظيمةً ظاهرةً في الأموالِ، فَسُرَّ المقتدِرُ بذلك وبَسَطَ يدَ حامدٍ في الأعمالِ حتى خافَه عليُّ بنُ عيسى.

ثم تَحَرَّكَ السِّعْرُ[١] ببغداد فثارت العامَّةُ والخاصَّةُ، لذلك، واستغاثُوا وكسروا المنابِر، وكان حامد يخزن الغلال، وكذلك غَيْرُه من القواد، فأمر المقتدرُ بإحْضَار حامدٍ فحضر من الأهواز، فعاد النَّاسُ إلى شَغَبِهِمْ. فأنْفَذَ حامِدٌ جماعةً لمنْعِهِم، فقاتلهم العامَّةُ، وأحرقوا الجِسْرَين وأخرجوا المحبسين من السجن ونهبوا دارَ صاحبِ الشُّرْطَة، فأنفذ المقتدرُ جيْشًا مع غريبِ الخال فقاتل العامَّةَ، فانهزموا بين يَدَيْه ودخلوا الجامع بباب الطَّاق[٢]، فأُخِذوا وحُبِسوا، ثم ضُرِب بعضُهم وقُطِعتْ أيْدي من عُرِفَ بالفسادِ.

ثم أمر المقتدرُ مِن الغَدِ فَنودي في النَّاسِ بالأمان فسكنت الفِتنة، ثم رَكِبَ حامدُ إلى دارِ المقتدر في الطيّار[٣] فرجمه العامّةُ، فأمر الخليفةُ بفتح مخازِنِ الحِنْطَةِ والشَّعيرِ التي لحامدٍ ولأُم المقتدره وغيرهما، وبيع ما فيها فَرَخُصتِ الأسعارُ وسكنتِ الناسُ، فقال علي بن عيسى للمقتدر: إنَّ سَبَب غلاءِ الأسْعارِ ضمانُ حامد، فإنه منعَ بيْع الغِلال في البيادرِ وخَزَنَها! فَأمر المقتدِرُ بفَسْخِ الضَّمان عن حامدٍ وصرف عُمّاله عن السواد، وأمر عليَّ بنَ عيسى أن يتولى ذلك، فسكن الناسُ واطمأنوا.

وفيها قُلِّدَ إبراهيمُ بنُ حمْدانَ دِيار ربيعة، وحجَّ بالناس في هذه السنة أحمد بن العباس أخو أمِّ موسى القهرمانة.

ودخلت سنة ثمان وثلاثمائة.

في هذه السنة خلع المقتدر بالله على أبي الهيجاء عبدِ الله بن حمدان، وقَلَّده طريق خراسانَ والدينَوَر، وخلع على إخوته أبي العلاء وأبي السرايا.

---

(١) تحرك السعر: ارتفع.

(٢) باب الطاق: محلة كبيرة ببغداد بالجانب الشرقي.

(٣) الطيار: ضرب من السفن.

وفيها توفي إبراهيمُ بن حمدان في المحرم، وحجَّ بالناس في هذه السنة أحمد بن العباس.

ودخلت سنة تسع وثلاثمائة.

ذكر قتل الحسين بن منصور الحلاج[١] وشيء من أخباره

وفي هذه السنة قُتل الحسينُ بنُ منصور الحلاَّج الصوفي، وأُحرِق بالنار وكان ابتداء حاله أنه كان يظهر الزُّهدَ والتصوّف، ويظهر الكرامات ويُخرج للناس فاكهةَ الصيف في الشتاء وفاكهةَ الشتاء في الصيف. ويمدُّ يده في الهواء فيعيدها مملوءةً دراهم وعليها مكتوب ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ①﴾ ويسميها دراهم القدرة. ويخبر الناس بما أكلوه وما صنعوه في بيوتهم، ويتكلم بما في ضمائرهم. فافتتن به خَلْقٌ كثيرٌ واعتقدوا فيه الحلول، واختلفت فيه اعتقاداتهم؛ فمِن قائلٍ إنه حَلَّ فيه جزء إلهي ويدَّعي فيه الربوبية، ومِنْ قائل إنه وَليُّ اللّهِ تعالى وإنَّ الذي يَظْهَر منه من جُمْلَةِ كراماتِ الصلحاءِ، ومن قائلٍ إنه مُشَعْبِذٌ ومُمَخْرِقٌ وساحِر كذابٌ ومتكَهِّنٌ وإن الجنَّ تطيعه فتأتيه بالفاكهة في غير أوانها.

وكان قَدِم من خراسان إلى العراق وسار إلى مكة وأقام بها سنة في الحجر[٢] لا يستظل تحت سقف صيفًا ولا شتاءً، وكان يصوم الدَّهر فإذا جاء وقت العشاء أحضر له القَوْم كوزًا من ماءٍ وقرصًا فيشرب ويعض من القرص ثلاث عضات من جوانبها فيأكلها ويترك الباقي فيأخذونه، ولا يأكل شيئًا آخر إلى وقت الفِطْر من الليلة الثانية. وكان شيخ الصوفيةِ يومئذ بمكةَ عبدَ الله المغربي فأخذ أصحابه وجاء لزيارةِ الحلاّج فلم يجِدْه في الحجر، وقيل قد صَعد إلى جبل أبي قُبَيْس، فصعد إليه فوجده على صخرةٍ حافيًا مكشوف الرأس، والعرقُ يجري منه إلى الأرض، فأخذ أصحابَه وعاد ولم يُكَلِّمْه وقال: هذا يتصَبَّرُ على قضاءِ الله وسوف يبتليه الله بما يَعْجَزُ عنه صبرُه وقدرته! وعاد الحسين إلى بغداد.

---

(١) هو أبو مغيث الحسين بن منصور الحلاج الزاهد المشهور؛ هو من أهل البيضاء وهي بلدة بفارس، ونشأ بواسط والعراق، وصحب أبا القاسم الجنيد وغيره، والناس في أمره مختلفون: فمنهم من يبالغ في تعظيمه ومنهم من يكفره... (وفيات الأعيان ٢: ١٤٠).

(٢) الحجر: اسم ديار ثمود بوادي القرى بين المدينة والشام؛ وهي قرية صغيرة قليلة السكان... (معجم البلدان).

وأما سببُ قَتْلِه فإنه نُقِل عنه عند عَوْدِه إلى بغداد إلى الوزيرِ حامد بنِ العباس أنه أحيا جماعةً وأنه يُحْيي الموْتَى وأن الجنَّ يخدمونه فيحضرون عنده بما يشتهي، وإنّه قَدَّموه على جماعةٍ من حاشية الخليفة، وإنَّ نَصْرًا الحاجب قد مال إليه هو وغيرُه. فالتمس حامِدٌ من المقتدر أن يُسلِّم إليه الحلاجَ وأصحابه فدفع عنه نصرٌ الحاجبُ وألحّ الوزير في طلبه، فأمر المقتدر بتسليمه إليه، فأُخِذَ وأُخِذَ معه إنسان يعرف بالشميري وغيْرُه - قيل إنهم كانوا يعتقدون أنه إله - فَقَرَّرهم حامِدٌ فاعترفوا أنهم قد صَحَّ عندهم أنه إله وأنه يحيي الموتى، وقابلوا الحلاَّجَ على ذلك. فأنكره وقال: أعوذ بالله أن أدَّعي الربوبيةَ والنُّبوَّةَ وإنما أنا رجل أعبد الله عزَّ وجل! فأحضر الوزير القاضيَ أبا عمر والقاضيَ أبا جعفرِ بن البهلول وجماعةً من وجوه الفقهاءِ والشهودِ واستفتاهم فقالوا: لا نفتي في أمره بشيء إلا أن يصحَّ عندنا ما يوجب قتله، ولا يجوز قبول قَوْل مَنْ يدَّعي عليه ما ادّعاه إلا ببيِّنَةٍ أو إقرار!

وكان حامد يُخرج الحلاَّجَ إلى مجلِسه ويستنطقه فلا يَظْهرُ منه ما تكرهه الشريعة، وطال الأمر وحامدٌ مُجِدٌّ له في أمْره، وجَرى له معه قِصَصٌ يطول شَرْحُها. وفي آخرِها أن الوزيرَ رأى له كتابًا حكى فيه أنَّ الإنسان إذا أراد الحج ولم يمكنْه أفْرد من داره بيتًا لا يلحقه شيء من النجاسات ولا يدخله أحدٌ، فإذا حضرت أيام الحج طاف حوله وفعل ما يفعله الحاج بمكة، ثم يجمع ثلاثين يتيمًا ويعمل أجْوَدَ طعام يمكنه ويطعمهم في ذلك البيت ويتَوَلّى خِدْمَتَهم بنفسِه، فإذا فرغوا كساهم وأعطى كلَّ واحد منهم سبعةَ دراهم، فإذا فَعَلَ ذلك كان كمن حَجّ.

فلما قُرِىء هذا على الوزير قال القاضي أبو عمر للحلاج: من أين لك هذا؟ قال: من كتاب الإخلاص للحسن البصري. قال له القاضي: كذبت يا حَلالَ الدم قد سمعناه بمكةَ وليس فيه هذا. فلما قال له «يا حلال الدم» وسمعها الوزيرُ قال له: اكتب بهذا رقعةً، فدافعه أبو عمر فألزمه حامدٌ فكتب بإباحة دمِهِ وكتب بعْده مَنْ حضر المجلس. قال: ولما سَمِعَ الحلاَّجُ ذلك قال: ما يحلُّ لكم دمي واعتقادي الإسلامُ ومذهبي السنةُ ولي فيها كتب موجودة فالله الله في دمي!

وتفرّق الناس، وكتب الوزير إلى الخليفة يستأذنه في قتله وأرسل إليه الفتاوى فأذِن في قتله فَسلَّمه الوزير إلى صاحب الشُّرطة فضربه ألْفُ سَوْط فما تأوّه ثم قَطَع يَدَه ثم رِجْلَه ثم يده ثم رجله ثم قتل وأُحْرِق في النار، فلما صار رمادًا أُلْقِيَ في دجلة ونُصِبَ رأْسُه ببغدادَ وأُرسل إلى خراسانَ لأنه كان له بها أصحاب، وأقبل بعض أصحابِهِ يقولون: إنه لم يُقْتَلْ وإنما أُلْقِي شَبهُهُ على دابَّة وإنه يعود بعد أربعين يومًا!

وبعضهم يقول: لقيته على حمارٍ بطريق النهروان وإنه قال لهم «لا تكونوا مِثْلَ هؤلاء النَّفَر الذين يظنون أني ضُرِبت وقُتِلْت»!

وفيها استعمل المقتدر على حرب الموصل ومعونَتِها محمد بنَ نصرِ الحاجب، فسار إليها وأوقع بمن خالفه من الأكراد فقتل وأسر، وأرسل إلى بغدادَ نَيِّفًا وثمانين أسيرًا فشُهروا، وفيها قُلِّد داودُ بنُ حمدان ديار ربيعة.

ودخلت سنة عشر وثلاثمائة.

في هذه السنة أُطْلِق يوسف بن أبي السَّاج من الحبس بشفاعةِ مؤنسٍ الخادم، ودخل إلى المقتدر وخَلَعَ عليه، ثم عَقَد له على الرَّيِّ وقزوين وزنجان وأبهر. وقَرَّر عليه خمسمائة ألف دينار محمولة إلى بيت المال في كلِّ سنة سوى أرزاقِ العساكر الذين بهذه البلادِ.

وفيها وصلت هدية أبي زُنبورِ الحسين الماذَرائي من مصر، وفيها بغلةٌ معها فلو[1] يتبعها ويرضع منها وغلام طويل اللسان يلحق لسانه أرنبةَ أَنْفِهِ!

وفيها قبض المقتدر على أمِّ موسى القهرمانة وكان سبب ذلك أنها زَوَّجَتْ ابنة أخيها من أبي العباس أحمد بن محمد بن إسحاق بن المتوكل على الله وكان يُرشَّحُ للخلافة، فلما صاهرته أكثرت من النِّثارِ[2] والدعواتِ وخَسَرتْ أموالاً جليلة، فتكلم أعداؤُها وسَعَوْا بها إلى المقتدر وقالوا: إنها قد سعت لأبي العباس في الخلافة، وحَلَفَت له القُوَّادُ، وكَثُر القولُ فيها، فقبض عليها وأخذ منها أموالاً جليلة وجواهر نفيسة، قال ابنُ الجوزي: صحَّ منها لبيت المال ألفُ ألفِ دينارٍ.

ودخلت سنةُ إحدى عشرة وثلاثمائة.

ذكر عزل حامد بن العباس ولاية ابن الفرات

في هذه السنة في شهر ربيع الآخر عَزَل المقتدرُ حامدَ بنَ العباسِ عن الوزارة، وعليَّ بن عيسى عن الدواوين، وخَلَع على أبي الحسنِ بنِ الفرات وأُعيد إلى الوزارة. وكان سبب ذلك أن المقتدر ضجر من استغاثة الأولاد والحُرم والخدم والحاشية من

---

(١) الفلو: الجحش أو المهر يعظم أو يبلغ السنة.

(٢) النثار: ما نثر في حفلات السرور من حلوى أو نقود.

تأخير أرزاقهم؛ فإن عليَّ بنَ عيسى كان يؤخِّرُها، فإذا اجتمع لهم عِدَّةُ شهورٍ أعطاهم البعضَ، وحطَّ من أرزاق العمال في كل سنةٍ شهرين وكذلك من أرزاقِ مَنْ له رِزْقٌ فزادت عداوةُ النَّاسِ له. وكان حامد بن العباس قد ضجر من المقام ببغداد وليس له من الأمر شيء غير لبس السواد، وأنِفَ من اطِّراح علي بنِ عيسى لجانبه؛ فإنه كان يهينه في توقيعاته بالإطلاق عليه لضمانه بعضَ الأعمال، فكان يكتب ليطلق جُنْدَ الوزير أعزّه الله، وليبادر نائب الوزير، وكان إذا شكا إليه بعضُ نُوَّابِ حامدٍ يكتب على القصة «إنما عُقِد الضَّمانُ على النائِب الوزيريِّ عن الحقوق الواجبةِ السلطانية فَلْيتقدم إلى عُمَّالِهِ بكف الظلم عن الرَّعِيَّة».

فاستأذن حامدٌ وسار إلى واسط لينظر في ضمانه فأذنَ له، وجرى بين مُفْلِح الأسود وبين حامدٍ كلامٌ فقال له حامد: لقد هممت أن أشتريَ مائة خادم أسود أُسميهم مفلحًا وأهبهم لغلماني فحقدها مُفْلح ـ وكان خصيصًا بالمقتدر ـ فسعى معه المحسِنُ بنُ الفراتِ لوالده بالوزارة وضمن أموالاً جليلَة، وكتب على يده رقعة يقول إن سُلِّم إليه الوزيرُ وعليُّ بن عيسى وابن الحواري وشفيع اللؤلؤي ونصر الحاجب وأم موسى القهرمانة والماذَرائيون[1] استخرج منهم سبعة آلاف ألفِ دينارٍ! وكان الحسن مطلقًا، وكان يواصل السِّعايةَ بهؤلاء الجماعة، وذكر ابنُ الفرات للمقتدر ما كان يأخذه ابنُ الحواري في كلِّ سنةٍ من المال فاستكثره.

فَقُبِضَ على عليِّ بنِ عيسى في شهر ربيع الآخر وسُلِّم إلى زيدان القهرمانة فحبسته في الحجرة التي كان ابن الفرات محبوسًا فيها، وأُطلق ابنُ الفرات وخُلِع عليه، وتولَّى الوزارةَ وخُلع على ابنِهِ المحسنِ، وهذه الوزارة الثالثة لابن الفرات.

قال: وسيَّر ابنُ الفراتِ إلى واسط مَنْ يقبض على حامدٍ فَهَرب واختفى ببغداد، ثم إن حامدًا لبس زِيَّ راهب وخرج من مكانه الذي كان فيه ومشى إلى نصر الحاجب ودخل عليه وسأله إيصالَ حالِه إلى الخليفة إذا كان عند حرمه، فاستدعى نصر مُفْلحًا الخادم فلما رآه قال: أهلاً بمولانا الوزير أين مَماليكُ السودان الذين سمَّيْتَ كلَّ واحدٍ منهم مفلحًا؟ فسأله نصر أن لا يؤاخذه وقال له: حامد يسأل أن يكونَ محبسهُ في دارِ الخلافةِ ولا يُسَلَّم إلى ابن الفراتِ.

فدخل مُفلِحٌ وقال ضدَّ ما قيل له فأمر المقتدر بتسليمه إلى ابنِ الفرات، فأَرْسلَ إليه فحبسه في دارٍ حَسَنَةٍ وأجرى له من الطَّعام والكُسْوَة والطِّيب وغير ذلك ما كان له

(١) الماذرائيون: كتاب الطولونية بمصر أبو زينور وآله.

وهو وزير، ثم أحضره وأحضر الفُقَهاءَ والعمالَ وناظره على ما وصل إليه من المال وطالبه به، فَأقرَّ بجهاتٍ تُقارب ألف ألفِ دينارٍ، وضَمِنَه المحسنُ بنُ أبي الحسن بن الفرات الوزير من المقتدر بخمسمائة ألف دينار فسلّمه إليه فعذّبه بأنواع العذاب، وأنفذه إلى واسط مع بعض أصحابه ليبيع مالَه هناك، وأمرهم أن يسقوه سُمًّا فسقَوْه سُمًّا في بيض مشويٍّ كان طلبه، فأصابه إسهال فلما وصل إلى واسط أفرط القيام به. وكان قد تسلّمه محمدُ بنُ علي البروجري فلما رأى حاله أَحْضَرَ القاضيَ والشهودَ ليشهدوا عليه أنه ليس له في أمره صنع! فلما حضروا عند حامد قال لهم: إن أصحاب المحسن سَقَوْني سمًّا في بيضٍ مشوِيٍّ فأنا أموت منه وليس لمحمد في أمري صنع، لكنه أخَذَ قطعةً من أموالي وأمتعتي وجعل يحشوها في المساور وتباع المسورة[1] بمحضر من أمين السلطان بخمسةِ دراهم فبضع[2] من يشتريها ويحملها إليه فيكون فيها أمتعةٌ تساوي ثلاثة آلاف درهم، فاشهدوا على ذلك! وكان صاحب الخبر حاضرًا فكتب بذلك، ثم مات حامد في شهر رمضان من هذه السنة.

وصودر علي بن عيسى بثلاثمائة ألف دينار وعذّبه المحسن بن الفرات وصفعه فأنكر عليه أبوه لأن عليًا كان محسنًا إليهم في أيام ولايته وأعطى المحسنَ في أيام نكبته عشرة آلاف درهم، فلم يَرْعَ له حقَّ إحسانِهِ. قال: ولما أدّى علي بن عيسى مال المصادرة سيّره ابنُ الفرات إلى مكة وكتب إلى أميرها أن يُسَيِّرَه إلى صنعاء، ثم قبضَ ابنُ الفراتِ على أبي عليٍّ بن مُقْلة لأنه بلغه أنه سعى به أيامَ نكبته وتقلّد بعض الأعمال في أيام حامدٍ ثم أطلقه ابنُ الفرات.

وقبض أيضًا على ابن الحواري وكان خصيصًا بالمقتدر وسلمه إلى ابنه المحسن فعذّبه عذابًا شديدًا ـ وكان المحسن وقحًا ظالمًا سيىء الأدب ذا قسوةٍ شديدة، وكان الناس يسمونه الخبيث بن الطيب، وسير ابن الحواري إلى الأهواز ليستخرج منه الأموال فضربه الموكَّلُ به حتى مات. وقبض أيضًا على الحسين بن أحمد ومحمد بن علي الماذرائيين فصادرهما على ألف ألف دينار وسبعمائة ألف دينار، ثم صادر جماعة من الكتّاب ونكبهم. ثم إنّ ابن الفرات ـ خَوَّف المقتدر من مؤنسٍ الخادم وأشار عليه أن يُسيِّرَه إلى الشام فأخرجه عن الحضرة في يوم شديد المطر، ثم سعى بِنَصْرِ الحاجبِ وأطمع المقتدرَ في ماله وكثرته فالتجأ نصر إلى أم المقتدر فحمتْهُ من ابنِ الفرات.

---

(١) المسورة: متكأ من جلد؛ أو هي الوسادة.

(٢) بضع فلان: أتجر؛ وأبضع الشيء: جعله بضاعة.

وفيها غزا مؤنس المظفر بلادَ الروم فغنم وفتح حصونًا وغزا ثمال في البحر فغنم من السبي ألف رأس، ومن الغنم ألف رأس، ومن الذهب والفضة شيئًا كثيرًا.

وفيها دخل القرمطيُّ البصرة وقتل عاملها وأقام بها سبعة عَشْرَ يومًا يقتل وينهب ويأسر.

ودخلت سنة اثنتي عشرة وثلاثمائة.

في هذه السنة ظهر في دار الخليفة إنسان أعجمي عليه ثيابٌ فاخرة وتحته مما يلي بَدنه قميصُ صوفٍ ومعه قَدَّاحةٌ وكبريتٌ ودواةٌ وأقلامٌ وسكينٌ وكاغد[١]، وفي كيسٍ سويقٌ وسكر وحبل طويل من القنَّب[٢]، فأُحضِر إلى ابن الفرات الوزير فسأله عن حالهِ فقال: لا أُخبِر إلا صاحب الدارِ! فأمر بضربه ليقر فقال: بسم الله بدأْتم بالشر! ولزم هذا القوْلَ ثم جعل يقول بالفارسية ما معناه «لا أدري» ثم أُمِرَ به فأُحرق، وأنكر ابنُ الفرات على نصرِ الحاجبِ هذا الحالَ وعظَّم الأمْر بَين يَدَي المقتدرِ ونسبه إلى أنه أخفاه ليقتل المقتدر، وتفاوضا فقال الحاجب: لِمَ أسعى في قَتْلِ أميرِ المؤمنين وقد رفعني من الثرى إلى الثريا؟ إنما يسعى في قَتْلِهِ مَنْ صادَره وأخذ أموالَه وضياعه وأطال حَبْسَه!

وفيها أخذ القرمطي الحاجَّ بعد عودتهم من الحجاز ـ وكان لأبي الهيجاء طريقُ مكة ـ فسار إلى القرمطي فأوقع به، وأُسِر أبو الهيجاء وأحمدُ بن كشمرد ونحريرٌ وأحمد بنُ بدر عمُّ والدة المقتدر وغيرُهم، وأخذ القرمطِي جِمال الحاجِّ جميعها وما أراد من الأمتعة والأموال والنساء والصبيان، وعاد إلى هَجَر[٣] وترك الحاجَّ في مواضِعِهم فمات أكثرُهُم جوعًا وعطشًا، فاجتمع حرم المأخوذين إلى حرم المنكوبين الذين نكبهم ابنُ الفراتِ وجعَلْنَ ينادين: القرمطي الصغير قَتَلَ المسلمين بطريقِ مكة والقرمطي الكبير قتل المسلمين ببغداد! وشَنَّعُوا عليه وكَسَرَ العامَّةُ منابرَ الجوامِع وسَوّدوا المحاريبَ يوم الجمعةِ لِستٍّ خَلَوْن من صفرٍ، فَضَعُفَت نفسُ ابنِ الفراتِ وحَضَر عند المقتدر ليأخذَ أمْرَه فيما يصنع.

---

(١) الكاغد: الورق.

(٢) القنب: نبات حولي زراعي ليفي من الفصيلة القنبية، تفتل لحاؤه حبالاً.

(٣) هجر: بفتح أوله وثانيه: قال ابن الحائك: الهجر بلغة حمير والعرب العاربة القرية، فمنها: هجر البحرين، وهجر نجران، وهجر حصنة من مخلاف مازن.. وهجر: مدينة وهي قاعدة البحرين، وقيل: ناحية البحرين كلها هجر... (معجم البلدان).

وحضَرَ نَصْرٌ الحاجبُ المشورةَ فانبسط لسانُه على ابنِ الفرات وقال: الساعة تقول: أي شيء نصنع وما هو الرأيُ بعد أن زعزعتَ أركانَ الدولة وعرضتَها للزوالِ؛ في الباطِن بالميل مع كل عَدُوٍّ يظهر ومكاتبتِه ومُهَاداتِه، وفي الظاهر بإبعادِك مؤنسًا ومن معه إلى الرَّقَّةِ وهم سيوف الدولة، فمن يدفع الآنَ هذا الرجُلَ إذا قَصَدَ الحضرةَ أنت أم ولدك؟ وقد ظهر الآن مقصودُكَ بإبعادِ مؤنسٍ وبالقبض عليَّ وعلى غيري، أن تستضعَف الدولةَ وتُقَوِّي أعداءها لتشفي غيظَك مِمَّنْ صادَرَك وأخذ أموالَك! ومن الذي سلَّم النَّاسَ إلى القرمطي غيرُك لما يجمع بينكما من التَّشَيُّع والرَّفْضِ؟ وقد ظهر أيضًا أنَّ ذلك العجمي من أصحاب القرمطي وأنت أوصلته! فَحَلَفَ ابنُ الفراتِ أنه ما كاتب القرمطي ولا هَادَاه ولا رأى ذلك الأعجمي إلا تلك الساعةَ، والمقتدرُ مُعْرِض عنه.

وأشار نَصْرٌ على المقتدر بالله أن يحضر مؤنسًا ومن معه فَفَعل ذلك، وكتب إليه بالحضورِ ففعل وسارع، وقام ابنُ الفراتِ فركب فَرَجَمَهُ العامَّةُ، ثم وصل مؤنسٌ المظفر إلى بغدادَ، ولما رأى المحسنُ. ابن الفرات انحلالَ أُمورهم أخذ كل من كان محبوسًا فقتله، لأنه كان قد أخذ منهم أموالاً جليلةً ولم يوصلها إلى المقتدر فخاف أن يقروا عليه بما أخذه منهم.

ذكر القبض على ابن الفرات الوزير وولده المحسن

قال: ثم كثر الإرجافُ[1] على ابن الفراتِ فكتب إلى المقتدر يُعَرِّفه بذلك، وأن الناس إنما عادوه لشفقتِهِ ونُصْحِهِ وأخْذِ حقوقِه منهم فأنفذ المقتدرُ إليه يُسَكِّنه ويطيِّبُ قلبه فركب هو وولدُه إلى المقتدر فطيّب قلوبهما، وخرجا من عنده فمنعهما نَصْرٌ الحاجبُ ووكل بهما، فدخل مُفْلح على المقتدر وأشار عليه بتأخير عَزْلِه فأمر بإطلاقهما فخرجا، فأما المحسن فإنه اختفى، وأما الوزير فإنه جلس عامَّة نَهارِه يقضي الأشغال إلى الليل ثم بات مفكرًا، فلما أصبح سمع بعض خدمه ينشد:

وأصْبَحَ لا يدرِي وإن كان حازمًا أقُدَّامَهُ خَيْرٌ لَهُ أم وراءه

فلما ارتفع النهار وهو الثامنُ من شهر ربيع الأول أتاه نازوك ويلبق في عدة من الجند فدخلوا عليه وهو عند حرمه فأخرجوه حافيًا مكشوفَ الرأس فألقى عليه يلبقُ طيلسانًا غَطَّى به رأسَه وحُمل إلى طيَّارٍ فيه مؤنسٌ المظفر ومعه هلال بن بدر فاعتذر

(١) الإرجاف: الخبر الكاذب المثير للفتن والاضطراب.

إليه ابن الفرات وألان كلامَه له فقال له: أنا الآن الأُستاذُ وكنتُ بالأمس الخائنَ الساعيَ في فساد الدَّوْلة وأخرجتني والمطرُ على رأسي ورؤوس أصحابي ولم تُمْهلني! وسُلِّم إلى شفيعِ اللؤلؤي فَحُبِسَ عنده، وكانت مدَّةُ وَزارتِه هذه عَشْرةَ أشْهرٍ وثمانيةَ عشرَ يومًا، وأُخِذَ أصحابُه وأولادُه ولم يَنْجُ منهم إلا المحسن، وصودر ابنُ الفراتِ على ألف ألف دينارٍ.

ذكر وزارة أبي القاسم الخاقاني

قال: ولما تَغَيَّر حالُ ابنِ الفرات سَعى عبدُ الله بن أبي علي محمد بن عبد الله بن يحيى بن خاقان في الوزارة، وكتب خطهُ أنه يتكفّل ابنُ الفرات وأصحابِه بمصادرةِ ألفي ألْف دينارٍ. وسعى له مؤنس الخادم وهارون بن غريبِ الخال ونصر الحاجب فتولى أبو القاسم الوزارة في تاسع شهر ربيع الأول، وكان المقتدر يكرهه فلما سمع ابن الفرات وهو محبوس بولايته قال: الخليفة هو الذي نُكب لا أنا! يعني أن الوزير عاجزٌ لا يعرف أمر الوزارة، ولما ولي الخاقانيُّ شَفَعَ إليه مؤنسٌ الخادم في إعادة عليٍّ بن عيسى من صنعاء إلى مكةَ، فكتب بإعادته وأذِن له في الاطِّلاع على أعمال مصر والشام.

ذكر مقتل ابن الفرات وولده

قال: كان المحسنُ بنُ الوزيرِ أبي الحسن بن الفرات مختفيًا كما ذكرنا، وكان عند حماته خنزابة ـ وهي والدة الفضل بن جعفر بن الفرات ـ وكانت تأخذه كلَّ يوم وتتوجَّهُ به إلى المقبرة في زِيِّ النِّساء وتعود به إلى المنازل التي تثق بها، فمضت به يومًا إلى مقابر قريش. وأدركها اللَّيْلُ فبعدت عليها الطريق وأشارت عليها امرأةُ معها أن تَقْصِدَ امرأةً صالحةً تعرفها بالخير، فأخذته وقصدت به تلك المرأة وقالت لها: معنا صبيةٌ بنت بكر نريد منك بيتًا تكون فيه! فأمرتهم بالدُّخول إلى بيتها وسَلَّمتْ إليهم قُبَّةً في الدار، فأدخلوا المحسنَ إليها، وجلس النساء الذين معه في صَفِّه أمام القبة، فجاءت جاريةٌ سوداءُ فرأت المحسنَ فأخبرت مولاتها أنَّ في الدار رجلًا، فجاءت المرأةُ صاحبة الدار فرأته وعرفته ـ وكان المحسن قد أخذ زَوْجَها ليصادِره فلما رأى الناس يعذبون في داره مات فجأة ـ فلما رأت المرأةُ المحسنَ ركبت في سفينة وقصدت دار الخليفة وقالت عندي نصيحة.

فأحضرها نصر الحاجبُ فأخبرته الخبر فطالع به المقتدر، فأمر صاحب الشرطة أن يسير معها فسار معها إلى منزلها أخذ المحسن وجاء به إلى المقتدر، فبعث به إلى دار الوزارة فَعُذِّب بأنواعِ العذابِ ليجيب إلى مالٍ يحمله فقال: لا أجمع بين الروح والمال! فأمر المقتدر بحمله مع أبيه إلى دار الخلافة فقال الوزير أبو القاسم لمؤنسٍ وهارون بن غريبِ الخالِ ونصرِ الحاجب: إنْ نُقِل ابنُ الفرات إلى دار الخلافة بَذَلَ أمواله وأطمع المقتدرَ في أموالنا وضَمِنَنا منه وتسلَّمَنا فأهلكنا! فوضعوا القواد والجُنْدَ وقالوا: لا بُدَّ من قَتْل ابنِ الفرات وولده فإننا لا نأمن على أنفسنا ما داما في الحياة! فأمر المقتدرُ نازوكَ بقَتْلهما فبدأ بقتل المحسن فَذَبَحه كما تُذْبَحُ الشاةُ وحَمَلَ رأسه إلى أبيه فارتاع لذلك، ثم عَرض أبوه على السَّيْف فقال: راجعوا في أمري فإنَّ عندي أموالاً جمَّةً وجواهر كثيرة، فقيل له جَلَّ الأمر عن ذلك. ثم ذُبح في يوم الاثنين لثلاث عشرة خلت من شهر ربيع الآخر منها، وكان عمره إحدى وسبعين سنةً وعمُرُ وَلَدِه ثلاثًا وثلاثين سنةً وحمِلَ رأساهما إلى المقتدر فأمر بتغريقهما.

ولما قتلا ركب هارونُ بنُ غريبِ الخال مسرِعًا إلى الوزير الخاقاني وهنأه بقتلهما فأُغمِي عليه حتى ظَنَّ هارونُ ومَنْ هناك أنه مات، وصرخ عليه أهْلُه، ثم أفاق من غَشْيَتِه وأعطى هارونَ ألْفَيْ دينار. وشفع مؤنس في ابنَيْ ابنِ الفرات عبد الله وأبي نصر فأُطْلِقا له، فخلع عليهما ووَصلهما بعشرين ألف دينار من ماله.

قال: وكان ابنُ الفرات كريمًا ذا رياسة وكفاية في عمله، حسن السؤال والجواب، وكان مصطنعًا للناس؛ فإنَّ جميع كتَّابه الذين اصطنعَهُم صاروا وزراءَ. وكان يَسْتَغلُّ من ضِياعِه في كلِّ سنة ألْفَي ألْفِ دينارٍ وينفقها، وكان إذا وَزَرَ غلا الشَّمْعُ والكاغد والسكر والكافور[1] لكثرة استعماله لذلك! وكان يجري على خمسة آلاف من أهل العلم والدين والبيوتات والفقراء، قال الصولي[2]: ومن فضائله التي لم يُسْبَقْ إليها أنه كان إذا رُفِعَتْ له قضيةٌ فيها سِعايةٌ بأحدٍ خرج من حضرته غلامٌ فينادي. ابن فلانٌ بنُ فلانٍ الساعي! فامتنع النَّاسُ من السِّعاية بأحد، ولم يكن فيه ما يعاب إلا

---

(١) الكافور: اسم لصمغ شجرة هندية تكون بتخوم سرنديب وآسية وما يلي المحيط كجزائر معلقة. وتعظم حتى تظل مائة فارس، خشبها سبط شديد البياض خفيف ذكي الرائحة وليس لها زهر ولا حمل. والكافور إما متصاعد منها إلى خارج العود ويسمى الرياحي لتصاعده مع الريح.. وإما مختلط بالخشب غليظ خشن الملمس فيه زرقة ما ويسمى الأزرار والأزاد... (تذكرة داود الأنطاكي).

(٢) هو أبو بكر محمد بن يحيى الشطرنجي.. كانت وفاته سنة ٣٣٥هـ.

أنَّ أصحابه كانوا يفعلون ما يريدون ويظلمون فلا يمنعهم؛ فمن ذلك أن بعضهم ظلم امرأةً في مِلْكٍ لها فكتبت إليه تشكو غير مرة ولا يردّ لها جوابًا فلقيته يومًا فقالت: أسألك بالله أن تسمع كلامي! فوقف لها فقالت: قد كتبت إليك في ظُلامتي غَيْرَ مرةٍ فلم تُجِبْني وقد تركتك وكتبتها إلى الله تعالى! فلما رأى تَغَيُّرَ حالِه قال لمن معه: قد خرج جوابُ رقعةِ تلك المظلومةِ.

وفي هذه السنة دخل أبو طاهر القرمطيّ الكوفة وأقام بها ستةَ أيام يقيم بالجامع نهارًا فإذا أمْسَى خرج إلى عَسْكَرِه وحمل منها ما قدر على حمله من الأموال وغيرها وعاد إلى هَجَر، ولم يحج في هذه السنة أحد.

وفيها ظهر عند الكوفة رجلٌ ادعى أنه محمد بن إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وهو رئيس الإسماعيلية وجمع جَمعًا عظيمًا من الأعرابِ وأهلِ السَّوَاد واستفحل أمْرُه في شوال، فَسُيِّر إليه جيش من بغداد، فقاتلوه وظفِروا به وانهزم وقُتل كثيرٌ ممَّن معه.

ودخلت سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة.

ذكر عزل الخاقاني عن الوزارة
ووزارة أبي العباس الخصيبي

في هذه السنة في شهر رمضان، عزل أبو القاسم الخاقاني عن الوزارة. وكان سبب ذلك أنَّ أبا العباس الخصيبي عَلِمَ مكان امرأة المحسن بن الفرات فسأل أن يتولى النَّظَرَ في أمرها فأذِنَ له المقتدرُ في ذلك، فاستخلص منها سبعمائةَ ألف دينارٍ إلى المقتدر، وصار له معه حديث. فخافه الخاقاني فوضع من وقع عليه وسَعى به فلم يُصْغِ المقتدر إلى ذلك، فلما علم الخصيبي بالحال كتب إلى المقتدر يذكر معائب الخاقاني وابنهِ عبد الوهاب وعجزَهما وضياعَ الأموال وطمع العمال. ثم مرض الخاقاني مرضًا شديدًا وطال به، فوقفت الأحوال وطلب الجند أرزاقهم وشغبوا فأرسل المقتدر إليه في ذلك فلم يقدر على شيء فعزله، واستوزر أبا العباس وخلع عليه. وكان يكتب لأم المقتدر قبل ذلك، ولما ولي أقر عليَّ بن عيسى على الإشراف على أعمال مصر والشام فكان يتردد من مكة إليهما في الأوقات.

وفيها كتب مِلِكُ الرُّوم إلى أهل الثغور يأمرهم بحمل الخراج إليه فإن فعلوا وإلا قصدهم فقتل الرجال وسبى الذريّة، وقال: إنني صَحَّ عندي ضعف وُلاتِكم! فلم

يفعلوا ذلك، فسار إليهم وأخرب البلاد، ودخل مَلَطْيَةَ[١] في سنة أربعَ عشرة وثلاثمائة؛ فأخربها وسبى ونهب، وأقام بها ستةَ عشر يومًا.

ودخلت سنة أربع عشرة وثلاثمائة.

ذكر عزل أبي العباس الخصيبي ووزارة عليّ بن عيسى

في هذه السنة في ذي القعدة عَزَل المقتدرُ أبا العباس الخَصيبي عن الوزارة، وسبب ذلك أنه أضاق إضاقةً شديدة. ووقفت أمورُ السلطان، واضطرب أمْرُ الخَصيبي، وكان حين وَلِي الوزارة قد اشتغل بالشرب كلَّ ليلةٍ ويصبح وهو سكرانُ لا فَضْلَ فيه لعمل. وكان يترك الكتبَ الواردةَ عليه من العمال، فلا يقرؤها إلا بعد مُدَّةٍ ويُهْملُ الأجوبةَ عنها فضاعت الأموال وفاتت المصالح، ثم وكَلَ الأُمور إلى نُوّابِه وأهمل الاطِّلاعَ عليهم فباعوا مصلحتَه بمصلحة نفوسهم.

فلما صار الأمر إلى هذهِ الصورةِ أشار مؤنس المظَفرُ بعزله وتَوْلية عليِّ بنِ عيسى، فقُبض عليه، فكانت وزارتُه سنة وشهرين، وأُخِذَ ابنُه وأصحابُه فَحُبِسوا. وأرسل المقتدر يستدعي عليَّ بن عيسى، وأمر أبا القاسم عبيد الله بن محمد الكلوذانيّ بالنيابة عن علي إلى أن يحضر وقدم عليٌّ بغداد في أوائل سنة خمسَ عشرةَ، واشتغل بأُمور الوزارة، ولازم النظر فيها. فمشت الأُمور واستقامت الأحوال. وكان قد اجتمع عندَ الخَصيبي عِدَّةٌ من رِقاع المصادَرين وكفالات من كفل منهم وضماناتِ العمال بما ضمنوا من الأموال بالسَّواد وفارس والأهواز والمغرب، فنظر فيها وأرسل في طلب الأموال فأتته شيئًا بعد شيء فَأَدَرَّ الأرزاق وأخرج العطاءَ، وأسقط من الجند من لا يحمل السلاح، ومن أولاد المرتزقة مَنْ هو في المهد.. فإنَّ آباءهم أثبتوا أسماءهم! ومن أرزاق المغنين والمساخرة[٢] والصَّغاغنة[٣] والندماء. وتولى الأعمال بنفسِه ليلاً ونهارًا، فاختار الكفاة[٤] من العمال واستعملهم في الولايات. وأمره المقتدرُ بالله بمناظرة أبي العباس الخصيبي، فأحضره، وأحضر الفقهاء والقضاة والكُتَّاب وغيرَهم

---

(١) ملطية: بفتح أوله وثانيه، وسكون الطاء، وتخفيف الياء: بلدة من بلاد الروم مشهورة مذكورة تتاخم الشام وهي للمسلمين... (معجم البلدان).

(٢) المساخرة: الذين يسخرون منه ويضحكون.

(٣) الصغاغنة: ضرب من الملاهي. (٤) المراد بالكفاة: الأكفاء.

فسأله عما صَحَّ من الأموال والمصادرات والبواقي القديمة وغيرِ ذلك فقال: لا أعلم! وما أجاب عن شيء، فأنْكر عليه كَوْنهُ دخَلَ في الوزارة وهو لا يعرفها، ووبّخه توبيخًا كثيرًا.

وفيها في شهر ربيع الأول خرجت الروم إلى ملَطْية وما يليها مع الدُّمستق ومعه مليح الأرمني صاحب الدروب، فحصروا ملطية ودخلوا الرَّبَضَ فقاتلهم أهله وأخرجوهم منه، فلم يظفروا من المدينة بشيء، وخرّبوا قرى كثيرةً من قُراها، ونبشوا الأموات ومثّلوا بهم ثم رحلوا، وقصد أهلُ ملَطْيَة بغدادَ مستغيثين فلم يُغاثوا، فعادوا إلى بلدهم بغير مقصودٍ!.

ودخلت سنة خمس عشرةَ وثلاثمائة.

ذكر ابتداء الوحشة بين المقتدر بالله وبين مؤنس

في هذه السنة هاجت الرُّوم وقصدوا الثغور ودخلوا شمْشَاط[١] وغنموا جميع ما فيها من مالٍ وسلاح وغير ذلك، ودقُّوا الناقوسَ[٢] في الجامع ثم خرج المسلمون في أثَرِ الروم فقاتلوهم وغنموا منهم غنيمة عظيمة، فأمر المقتدر بالله بتجهيزِ العساكرِ مع مؤنسٍ المُظَفَّرِ، وخَلَع عليه في شهر ربيع الآخر ولم يبق غير الوداع، فامتنع مؤنسٌ من الدخول إلى دار الخليفة واستوحش من المقتدر بالله وظهر ذلك. وكان قد أتاه بعض خُدَّام المقتدر وقال له: إنَّ الخليفة أمر خَوَاصَّ خَدَمِه أن يحفروا جُبًّا[٣] في دارِ الشجرةِ ويُغَطُّوه بِبُرَايةٍ[٤] وتراب فإذا حضرتَ أُلقيتَ فيه وخُنِقت!

فامتنع وركب إليه جميعُ الأجنادِ وفيهم عبدُ اللّهِ بن حمدان وإخوتُه وخلت دار المقتدر بالله، وقالوا لمؤنس: نحن نقاتل بين يديك حتى تَنْبُتَ لك لحيةٌ! فوجّه المقتدرُ رقعةً بخَطِّه يحلف أنه ما أراد به سوءًا، فصرف مؤنسٌ الجيش وكتب الجواب أنه العبد المملوك، وأنَّ الذي أبلغه ذلك قد كان وضعه مَنْ يريد إيحاشه «من مولانا» وأنه ما استدعَى الجند وإنما هم حضروا وقد فرَّقَهُم!

---

(١) شمشاط: مدينة بالروم على شاطىء الفرات شرقيها بالوية وغربيها حز قبرخت... (معجم البلدان).

(٢) الناقوس: مضراب النصارى الذين يضربونه إيذانًا بحلول وقت الصلاة.

(٣) الجبّ: البئر.

(٤) البراية: ما تساقط من كل ما بري أو نحت. أو حثالة القوم.

ثم قَصَد دارَ الخليفةِ في جميع القُوَّاد ودخل إليه وقَبَّل يده وحلَف له المقتدر على صفاء نيته له وَوَدَّعه وسار إلى الثَّغْر وخرج لوداعه أبو العباس بن المقتدر والوزير عليُّ بنُ عيسى.

وفيها قَتَل أبو طاهرِ القرمطيُّ يوسفَ بنَ أبي السَّاج في وَقْعَةٍ كانت بينهما. وكان يوسف قد نُدِبَ لقتال القَرامطةِ فأسره القرمطي، ثم قَتَله.

وفيها سار الدمستق في جيش عظيم من بلاد الروم إلى مدينة ديبل[1] وبها نصر السبكي في عسكر يحميها وكان مع الدمستُق دبَّاباتٌ ومجانيقُ[2]، فحاصروا المدينةَ ونَقَبُوا السُّور ودخلوها فقاتلهم أهلُها ومَنْ فيها قتالاً شديدًا، فانتصر المسلمون وأخرجوا الرُّومَ منها وقتلوا منهم نحو عشرة آلاف رجل.

ودخلت سنة ست عشرة وثلاثمائة.

ذكر عزل علي بن عيسى عن الوزارة ووزارة أبي عليّ بن مقلة

في هذه السنة عُزِلَ عليُّ بنُ عيسى عن وزارة الخليفة ورُتِّب فيها عليُّ بنُ مقلةَ، وكان سبب ذلك أن عليًا لما رأى نَقْص الارتفاع واختلالَ الأعمالِ بوزارة الخاقانيِّ والخَصيبي وزيادةَ النفقات اسْتعْفى من الوزارة واحْتَج بالشيخوخة وقِلَّةِ النَّهْضَةِ، فأمره المقتدر بالصَّبر وقال له: أنت عندي بمنزِلَةِ والدي المعتضد! فأَلَحَّ في الاستعفاء، فشاور المقتدرُ مؤنِسًا في ذلك فأشار بمداراتِه وإبقائه. ثم لقي مؤنسٌ الوزير ولاطَفه وسكَّنَه فأبى إلا العَزْل، وبلغ الخبر ابن مقلةَ فَسَعَى وضَمِن الضمانات الكثيرةَ وواصل بالهدايا واستمال نَصْرًا الحاجبَ، فساعده عند المقتدر، فأمر في نصف شهر ربيع الأول بالقَبْض عَلَى عليٍّ بن عيسى وأخيه عبد الرحمٰن، وخلع على أبي علي بنِ مقلةَ واستوزره وأعانه عليها أبو عبد الله البريدي لمودَّةٍ كانت بينهما.

ذكر الحرب بين نازوك وهارون بن غريب الخال واستيحاش مؤنس

في هذه السنة وقعت الفتنةُ بين نازوك ـ صاحبِ الشرطة ـ وهارون بن غريبٍ، وأدّت إلى خَلْع المقتدر. وسبب ذلك أنَّ ساسةَ دوّابِّ هارون وساسةَ دوّابِّ نازوك

---

(١) ديبل: مدينة قريبة من السند.

(٢) المجانيق: جمع المنجنيق: هي آلة من آلات الحصار ترمى بها الحجارة.

تغايروا[١] على غلام أمرد[٢] وتضاربوا بالعِصيّ، فضرب نازوكُ ساسةَ هارون وحبسهم. فسار أصحاب هارون إلى مجلس الشرطة، ووثبوا على نائب نازوك وانتزعوا أصحابهم من الحبس، فركب نازوك وشكا إلى المقتدر بالله فقال: كلاكما عزيزٌ ولست أدخل بينكما!

فعاد وجمع رجاله وجمع هارون رجاله، وزحف أصحاب نازوك إلى دار هارون فأغلق بابه، وبقي بعضُ أصحابه خارجَ الدار فقَتَّلَ فيهم أصحابُ نازوك وجرحوا. ففتح هارونُ الباب، وخرج أصحابُه فوضعوا السلاح في أصحاب نازوك، فقتلوا منهم وجرحوا، واشتبكت الحربُ بينهم. وأرسل المقتدرُ ينكر عليهما ذلك فكَفَّا، وسكنتِ الفتنةُ، واستوحش نازوك. ثم ركب إليه هارون وصالحه، وخرج بأصحابه ونزل بالبستان النجمي ليبعد عن نازوك، فأكْثَرَ النّاسُ الأراجيف وقالوا: قد صار هارونُ أميرَ الأمراء!

فعظم ذلك على أصحاب مؤنسٍ وكتبوا له بذلك وهو بالرَّقَّة، فأسرع العَوْدَ إلى بغداد، ونزل بالشَّمَّاسية في أعلى بغداد. ولم يلْق المقتدرَ فصعد إليه أبو العباس بن المقتدر والوزير ابنُ مقلةَ فأبلغاه سلام المقتدرِ واستيحاشَه له ثم عادا واستشعر كلٌّ من المقتدرِ ومؤنسٍ من صاحبه فأحضر المقتدر هارونَ بنَ غريبِ الخالِ ـ وهو ابنُ خالِه ـ فجعله معه في داره. فلما علم مؤنسٌ بذلك ازداد نُفورًا واستيحاشًا وأقبل أبو الهيجاء بن حمدان من بلاد الجبل في عسكر كبير فنزل عند مؤنسٍ وترددتِ المراسلاتُ من الخليفة إلى مؤنسٍ، وانْقَضَتِ السَّنَةُ وهم على ذلك.

ودخلت سنة سبع عشرة وثلاثمائة.

ذكر خلع المقتدر بالله وبيعة القاهر

في هذه السنة خُلِعَ المقتدرُ بالله من الخلافة وبويع أخوه القاهرُ بالله محمدُ بنُ المعتضد، فبقي يومين ثم أُعيد المقتدرُ بالله. قال: ولما نزل مؤنس باب الشَّمَّاسِية وانضم إليه ابنُ حمدانَ ونازوك صاحبُ الشرطة وغيرُهما جمع المقتدر عنده هارونُ بن غريب وأحمد بن كَيْغَلَغ والغلمان الحجرية والرجّالة المصافية وغيرُهم. فلما كان آخر النهار مستهلَّ المحرم انفَضَّ أكثر مَنْ عند المقتدرِ، وخرجوا إلى مؤنسٍ. ثم كتب إلى

(١) المراد بقوله: تغايروا: تبادلوا.

(٢) الأمرد: الذي طر شاربه ولم تنبت لحيته.

المقتدر رقعةً يذكر أنَّ الجيشَ عاتبٌ منكر للسَّرَف فيما يطلق باسم الخَدمِ والحُرم من الأموال والضياع، ولدخولهم في الرَّأيِ وتدبير المملكة، ويطالبون بخروجهم من الدار وأخْذِ ما في أيديهم من الأموال والأملاك، وإخراج هارون بنِ غريبٍ من الدار. فأجابه المقتدرُ أنه يفعل من ذلك ما يمكنه ويقتصر على ما لا بُدَّ له منه، واستعطفه وذكره ومَنْ معه بِبَيْعته التي في أعناقِهم مرةً بعد أخرى وخَوَّفَهم عاقبة النكث. وأمر هارون أن يخرجَ من بغداد وأقطعه الثغور الشاميةَ والجزيرية فخرج في تاسع المحرم، فعندها دخل مؤنس وابن حمدان ونازوك إلى بغدادٍ، وأرجف[1] النَّاسُ أن مؤنِسًا ومَنْ معه قد عزموا على خلع المقتدر.

فلما كان في الثاني عشر من المحرم خرج مؤنس بالجيش إلى باب الشماسية فتشاوروا ساعةً ثم زحفوا بأسرهم إلى دار الخليفة، فلما قربوا منها هرب المُظَفَّرُ بنُ ياقوت الحاجب وسائرُ الحُجَّابِ والخدم والوزير ابنُ مُقْلةٍ، ودخل مؤنسٌ والجيشُ إلى دار الخليفة وأخرج المقتدرَ ووالدته وخالتَه وخواصَّ جواريه وأولاده من دار الخلافة، وحُمِلوا إلى دار مؤنسٍ واعتُقلوا بها. وبلغ الخبر هارون وهو بِقُطْرُبُّل[2] فدخل بغداد واستتر، ومضى ابنُ حمدانَ إلى دار ابنِ طاهرٍ فأحضر محمدَ بنَ المعتضد وبايعوه بالخلافةِ ولقَّبوه القاهرَ بالله، وأحضروا القاضي أبا عمر عند المقتدر ليشهدوا عليه بالخَلْعِ وعنده مؤنسٌ ونازوكُ وابنُ حمدان وبُنَيُّ بنُ يعيش فقال مؤنسٌ للمقتدر ليَخْلَعَ نَفْسَه من الخلافةِ فأجاب وأشْهَدَ عليه القاضيَ بالخلع، فقام ابنُ حمدان وقال للمقتدر: يا سيدي يعزُّ عليّ أن أراك على هذه الحالِ وقد كنتُ أخافُها عليكَ وأحْذَرُها وأنْصَحُ لك وأُحَذِّرُك عاقبةَ القبول من الخدم والنساء فتؤثر أقوالَهم على قولي، وكأني كنت أرى هذا، وبعدُ فنحنُ عبيدُك وخَدَمُك! ودمعت عيناه وعينا المقتدر وشهد الجماعةُ على المقتدر بالخلع وأودعوا الكتاب عند القاضي أبي عمر فكتمه ولم يظهر عليه غيره. فلما عاد المقتدر إلى الخلافة سلَّمه إليه وأعلمه أنه ما أَطْلَعَ عليه أحدًا، فاستحسن ذلك منه، وولاَّه قضاءَ القضاة.

قال: ولما اسْتَقَرَّ أمْرُ القاهرِ باللّهِ أخرج مؤنسٌ المظفرُ عليَّ بنَ عيسى من الحبس وأقرّ أبا عليٍّ بن مقلةَ على وزارته، وأضاف نازوك مع الشرطة حَجَبَةَ الخليفة

---

(١) أرجف القوم: خاضوا في الأخبار السيئة وذكر الفتن.

(٢) قطربل: بالضم ثم السكون ثم فتح الراء، وباء موحدة مشددة مضمومة، ولام: اسم قرية بين بغداد وعكبرا ينسب إليها الخمر، وما زالت متنزهًا للبطالين وحانة للخمارين، وقد أكثر الشعراء من ذكرها. . . (معجم البلدان لياقوت).

وأقطع ابنَ حمدان مُضافًا إلى ما بيده من أعمال طريق خرسانَ حُلوانَ[١] والدِّينوَر وهمَذَان وكِنكور[٢] وكرمان شاهان[٣] والراذانات ودقوقا[٤] وخانيجار[٥] ونهاوند والصيمرة[٦] والسَّيْرَوَان[٧] وماسبَذَان[٨] وغيرها. ونُهِبَتْ دار الخليفة ومضى بُنَنيُّ بن يعيش إلى بَرِيَّةٍ لوالدة المقتدر فأخرج من قبرٍ فيها ستمائة ألفِ دينارٍ وحَملَها إلى دار الخليفة. وكان خَلْعُ المقتدر للنصف من المحرم منها، ثم سَكَن النَّهْبُ وانقطعت الفتنةُ.

قال: ولما تَقَلَّد نازوكُ حجبةَ الخليفة أمر الرجّالة المصافية[٩] بِقَلْعِ خيامِهِم من دارِ الخليفةِ وأن لا يَعْبُرَ الدار إلا مَنْ له وَطَرٌ، وأمَرَ رجالَه وأصحابَه أنْ يقيموا مقام المصافية، فعظم ذلك عليهم وتقدم إلى خلفاءِ الحُجّاب أن لا يمكِّنوا أحدًا أن يدخُلَ إلى دارِ الخليفة إلا مَنْ كانت له مرتبةٌ، فاضطرب الحجريةُ من ذلك.

ذكر عود المقتدر بالله إلى الخلافة وقتل نازوك وابن حمدان

قال: ولما كان في يوم الاثنين سابع عشر المحرم بكَّر النَّاسُ إلى دار الخلافة لأنه يوم موكبٍ ودولةٍ جديدةٍ، فامتلأت الممراتُ والرِّحابُ وشاطىء دجلة من الناس، وحضر الرجالة المصافيةُ في السلاح يطالبون بِحَقِّ البيعةِ ورزقِ سنةٍ وهم حَنِقون لما فعل بهم نازوك، ولم يحضر مؤنس المظفَّر ذلك اليومَ. وارتفعت الأصواتُ وزعقاتُ الرِّجالِ، فسمعها نازوكُ فأشفق أن يقعَ بينهم وبين أصحابِه فتنةٌ وقتال. فأمر أصحابه أن لا يتعرَّضُوا لهم ولا يقاتلوهم، فزاد شَغَب الرجالة وهجموا يريدون الصَّحْنَ التسعيني، فلم يمنعهم أصحابُ نازوك. ودخل مَنْ كان على الشَّطِّ بالسِّلاح، وقويت زعقاتُهم من مجلس القاهر بالله وعنده الوزير ابنُ مقلةَ ونازوكُ وأبو الهيجاءِ بن

---

(١) حلوان: مدينة في آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد.

(٢) كنكور: بليدة بين همذان وقرميسين.. بها قصر عجيب يقال له قصر اللصوص.

(٣) كرمان شاه: يراد بها قرميسين، وهي بلدة قرب الدينور.

(٤) دقوقا: مدينة بين إربل وبغداد.

(٥) خانيجار: بليدة قرب دقوقا بين بغداد وإربل.

(٦) الصيمرة: وهي بلد بين ديار الجبل وديار خوزستان، بها نخل وزيتون وفواكه وثلج.

(٧) السيروان: بلد أو كورة بالجبل.

(٨) ماسبذان: قرب حلوان والصيمرة... (معجم البلدان).

(٩) المصافية: فرقة من فرق الحرس.

حمدان، فقال القاهر لنازوك: اخرج إليهم فسكِّنْهم وطيِّبْ قلوبهم! فخرج إليهم نازوك وهو مخمور قد شرب طول ليلته، فلما رآه الرجالة تقدموا إليه ليشكوا إليه حالَهم بسببِ أرزاقهم فخافهم على نفسه وهرَب منهم، فطمعوا فيه وتبعوه، فانتهى به الهربُ إلى باب كان هو سَدَّه بالأمس فقتلوه عنده، وقتلوا خادمه عجيبًا وصاحوا: مقتدِرُ يا منصورُ! فهَرب كلُّ مَن كان في الدَّارِ من الوزير والحجَّاب وسائرِ الطبقات وبقيت الدار فارغةً. وصلبوا نازوك وعجيبًا بحيث يراهما مَنْ على شاطىء دجلة، ثم صار الرجَّالةُ إلى دار مؤنس يصيحون ويطالبونه بالمقتدر بالله. وبادر الخَدَمُ فأغلقوا أبوابَ دارِ الخليفةِ وكانوا جميعًا خَدَمَ المقتدرِ ومماليكه وصنائعه.

وأراد ابنُ حمدانَ الخروجَ من الدار فَتَعَلَّقَ به القاهرُ وقال: أنا في ذمامك فقال: والله لا أُسَلِّمك أبدًا! وأخذ بيده وقال: قم بنا نخرجْ جميعًا، وأدعو أصحابي وعشيرتي فيقاتلون دونك! فقاما ليخرجا فوجدا الأبواب مغلقةً ومعهما فائقٌ المعروفُ بِوجْهِ القَصْعَةِ، فأشرف القاهرُ من سطحٍ فرأى كثرةَ الجمْع، فنزل هو وابنُ حمدان وفائقٌ فقال ابن حمدان للقاهرة: قِفْ حتى أعود إليك! ونزع سوادَه وثيابه وأخذ جُبَّةَ صوفٍ لغلام هناك فلبسها ومشى نحو باب النوبيّ فرآه مغلَقًا والناسُ حوله. فعاد إلى القاهر وتأخر عنهما وجه القصعة، وأمر مَنْ معه من الخدم بقتلهما أخْذًا بِثأرِ المقتدرِ وما صنعا به، فعاد إليهما عشرةٌ من الخدم بالسِّلاح، فعاد إليهم أبو الهيجاءِ وسَيْفُه بِيَدِه فقاتلهم فقتلوه، وهرب القاهرُ إلى آخر البستان واختفى.

وأما الرجَّالة فإنهم لما انْتَهوْا إلى دارِ مؤنسٍ وسمع زعقاتِهم قال: ما الذي تريدون؟ قالوا: نريد المقتدر! فأمر بتسليمه إليهم فامتنع المقتدرُ من ذلك وخاف أن تكونَ حيلة، فَحُمِلَ وأُخرِج إليهم فحملوه على أعناقِهم حتى أدخلوه دار الخلافةِ. فلمَا حصَلَ في الصَّحْنِ التسعيني اطمأنَّ وجلس وسأل عن أخيه القاهر وعن ابن حمدان فقيل إنهما حيّان فأمَّنَهُما بخطِّه، وأمر خادمًا بالسُّرْعة بكتاب الأمان لئلا يحدث على أبي الهيجاء حادثٌ، فمضى بالخط إليه فلقيه خادمٌ ومعهُ رأْسُه فرجع به إلى المقتدر، فلما رآه استرجع وقال: ما كان يدخل إليَّ ويسليني ويُظْهِر لي الغَمَّ غيره! ثم أُخِذَ القاهر وأُحْضِر إلى المقتدر فأجلسه إلى جانبه وقبَّل جبينه وقال: قد علمت أنَّكَ لا ذنبَ لك وأنك قُهرت ولو لقَّبوك بالمقهور كان أولى بك من القاهر! والقاهرُ يبكي ويقول: يا أمير المؤمنين نفسي نفسي اذكرنَّ الرَّحم التي بيني وبينك! فحلف له أنه لا يناله بسوء أبدًا، فسكن.

قال: ثم أخرج رأس نازوك ورأس أبي الهيجاء وشُهِرا، ونودي عليهما «هذا جزاءُ مَنْ عَصَى مولاه» وأما بُنَيُّ بن يعيش فإنه كان من أشَدِّ القوم على المقتدر بالله، فهرب عن بغداد وغيَّر زِيَّهُ وسار حتى بلغ الموصل[1] ومنها إلى أرمينية، وسار حتى دخل القسطنطينية وتَنَصَّر. وهرب أبو السرايا نصر بن حمدان أخو أبي الهيجاء إلى الموصل وسكنت الفتنة. وعاد الوزير ابنُ مقلةَ إلى وزارته، وكتب إلى البلاد بهذه الحادثة، وأطلق للجند أرزاقَهم وزادهم وباع ما في الخزائن من الأمتعة والجواهر، وأذِنَ في بيْع الأملاك من الناس فبيع ذلك بأرخص الأثمان لتتم أعطياتُ الجند. وقيل إن مؤنسًا المظفر لم يكن مؤثرًا لما جرى على المقتدر من الخلع، وإنما وافق الجماعةَ مغلوبًا على رأيه ولعلمه أنه إن خالفهم لم ينتفع به المقتدر فوافقهم ليأمنوه وسعى مع الغلمان المصافية والحجرية ووضع قوادهم على أن عملوا ما عملوا، فلهذا أمَّنَهُ المقتدر. وأما القاهر فإن المقتدر حبسه عند والدته فأحسنت إليه وأكرمته ووسعت عليه النَّفَقة واشترت له السراري والجواري للخدمة وبالغت في إكرامه.

نعود إلى بقية حوادث سنة ست عشرة وثلاثمائة فيها وصل الدمستق في جيش كبير من الروم إلى أرمينية فحصروا خِلاط[2] فصالحه أهلُها، وأُخْرج المنبرُ من الجامع وجُعِلَ مكانَه صليبًا. ورحل إلى بَدْليس[3] ففعل بها مثل ذلك وخافه أهلُ أرزنَ[4] الروم وغيرهم، ففارقوا بلادهم، وانحدر أعيانهم إلى بغداد فلم يغاثوا.

وفيها وصل سبعمائة رجل من الروم والأرمن إلى مَلَطْية ومعهم الفؤوس والمعاول وأظهروا أنهم يتكسبون بالعمل، ثم ظهر أن مُلَيْحًا الأرمني صاحب الدروب وضعهم ليكونوا بها، فإذا حضر سلَّموها إليه، فعلم بهم أهل ملطية فقتلوهم عن آخِرِهم.

وفي سنة سبع عشرة جاء أبو طاهر القرمطي إلى مكة يوم التروية[5]، فنهب أموال الحجاج، وقتلوهم حتى في المسجد الحرام وفي البيت، وقلع الحجر الأسود، وفعل ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخباره.

(١) الموصل: المدينة المشهورة العظيمة إحدى قواعد بلاد الإسلام، قليلة النظير كبرًا وعظمًا وكثرة خلق وسعة رقعة، فهي محط رحال الركبان ومنها يقصد إلى جميع البلدن، فهي باب العراق ومفتاح خراسان ومنها يقصد إلى أذربيجان... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) خلاط: قصبة أرمينية الوسطى.

(٣) بدليس: بلدة من نواحي أرمينية قرب خلاط ذات بساتين.

(٤) أرزن: مدينة مشهورة قرب خلاط.

(٥) التروية: يوم التروية: الثامن من ذي الحجة.

ودخلت سنة ثماني عشرة وثلاثمائة.

ذكر هلاك الرجالة المصافية

في هذه السنة هلك الرجالة المصافية في المحرم. وسبب ذلك أنهم لما أعادوا المقتدر إلى الخلافة ـ كما ذكرنا ـ زاد إدلالُهم واستطالَتُهم، وصاروا يقولون أشياء لا يحتملها الخلفاء، منها أنهم يقولون: مَنْ أعان ظالمًا سُلِّط عليه، ومن يُصْعدُ الحمار إلى السَّطْح يقدر أن يحطه وإن لم يفعل المقتدرُ معنا ما نستحقه قابلناه بما يستحق! إلى غير ذلك، وكثر شَغَبُهم ومطاولَتُهم وأدخلوا في الأرزاق أولادهم وأهليهم ومعارفَهم وأثبتوا أسماءَهم، فصار لهم في الشهر مائةُ ألفٍ وثلاثون ألف دينارٍ.

واتفق أن الفرسان شغبوا في طلب أرزاقهم فقيل لهم إن بيتَ المالِ فارغٌ وقد انصرفت الأموال إلى الرَّجَّالةِ، فثار بِهم الفرسانُ واقتتلوا فقُتل من الفرسان جماعةٌ فاحتج المقتدر على الرجالة بِقَتْلِهم وأمر محمد بنَ ياقوت صاحب الشرطةِ فطرد الرَّجَّالة من دارِ المقتدر ونُودِي فيهم بخروجهم عن بغداد ومن أقام حُبِس، وهُدِّمتْ دورُ عُرَفَائهم[1] وقُبِضَت أملاكُهم، وظَفر بعد النِّداء بجماعةٍ منهم فضربهم وحلق لحاهم وشعورهم وشهرهم. وهاج السودان تَعصُّبًا للرَّجَّالةِ فركب محمد أيضًا في الحجرية وأوقع بهم وأحرق منازلهم، فاحترق فيها جماعةٌ منهم ومن أولادِهم ونسائهم، فخرجوا إلى واسط واجتمع منهم جمع كبير وتغلَّبوا عليها وطردوا عامل الخليفة، فسار إليهم مؤنس فأوقع بهم وأكثر القتل فيهم، فلم يقم لهم بعدها قائمة.

ذكر عزل ابن مقلة ووزارة سليمان

في هذه السنة عُزِلَ أبو علي محمد بن مقلةَ عن وزارة الخليفة. وكان سبب عزْله أن المقتدر كان يتهمه بالميل إلى مؤنسٍ المظَفَّر وكان المقتدر مستوحشًا من مؤنس ويُظْهر له الجميل، فاتَّفَق أنَّ مؤنسًا خرج إلى أوانا[2] وعكبرا[3]، فركب ابنُ

(١) العرفاء: جمع عريف: وهو القيم بأمر القوم وسيدهم.

(٢) أوانا: بالفتح، والنون: بليدة كثيرة البساتين والشجر نزهة، من نواحي دجيل بغداد، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ من جهة تكريت، وكثيرًا ما يذكرها الشعراء الخلفاء في أشعارهم... (معجم ياقوت).

(٣) عكبرا: بضم أوله، وسكون ثانيه، وفتح الباء الموحدة: بليدة من نواحي دجيل قرب صريفين وأوانا، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ... (معجم البلدان).

مقلةَ إلى دار المقتدر آخر جُمادى الأُولى فقبض عليه وكان بين ابن مقلة وبين محمد بن ياقوت عداوة فأنفذ إلى داره من حرقها ليلاً.

قال: وأراد المقتدر أن يستوزر الحسينَ بنَ القاسم بن عبد الله وكان مؤنس قد عاد، فأنفذ إلى المقتدر يسأل أنْ يعاد ابنُ مقلةَ فلم يُجِبْه إلى ذلك وأراد قَتْلَه، فردَّه عليُّ بن عيسى عن ذلك فسأل مؤنسٌ أن لا يستوزر الحسين، فتركه واستوزر سليمان بن الحسن في منتصف جُمادى الآخرة، وأمر المقتدرُ عليَّ بنَ عيسى بالاطِّلاعِ على الدواوين وأن لا ينفرد سليمانُ عنه بشيء. وصودر ابنُ مقلة بمائتي ألف دينار، وكانت مدةُ وزارته سنتين وأربعةَ أشهر وثلاثة أيام.

وفيها أمر المقتدر بالقبض على أولاد البريدي. وكان ابنُ مقلةَ لما وَلي الوزارةَ قلَّدهم الأعمالَ، فقلد أبا عبد الله الأهوازَ جميعها سوى السوس[١] وجُنْديْسابور وقلَّد أخاه الحسين الفراتية، وقلد أخاهما يوسُف الخاصة والأسافل، وارتشى منهم على ذلك عشرين ألف دينارٍ من أبي عبد الله. فلما قُبِضَ على ابنِ مقلة كتب المقتدر بِخَطِّه إلى أحمد بن نصرٍ القشوري الحاجب يأمره بالقَبْض عليهم، ثم استحضرهم إلى بغداد، وصودروا على أربعمائة ألف دينار، وكان لا يطمع منهم بهذا المبلغ وإنما طلب منهم ليجيبوا إلى بعضه فأجابوا إلى الجميع.

ذكر خروج صالح والأغر

في هذه السنة في جُمادى الأُولى خرج خارجي من بجيلة من أهل البوازيج[٢] بها اسمه صالح بن محمود وعبر إلى البريّة، واجتمع إليه جماعةٌ من بني مالك. وسار إلى سنجار[٣] فأخذ من أهلها مالاً وخطب بها، فذكَّر بأمر الله وحذَّر وأطال في هذا ثم قال: نتولّى الشيخَيْنِ ونبرأُ من الخبيثَيْن ولا نرى المَسْحَ على الخُفَّيْنِ! وسار منها إلى الشجاجية من أرض الموصل فطالب أهلها بالعشر ثم انحدر إلى الحديثة تحت الموصل وطالب المسلمين بزكاة أموالهم والنَّصارى بِجِزْيَةِ رؤوسهم فجرى بينهم حرْبٌ فَقُتلَ من أصحابِه جماعةٌ، فعبر إلى الجانب الغربي فأسر أهلُ الحديثة ابنًا له اسمه

---

(١) السوس: بلدة بخوزستان.
(٢) البوازيج: بلد قرب تكريت على فم الميزاب الأسفل حيث يصب في دجلة.
(٣) سنجار: مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة بينها وبين الموصل ثلاثة أيام، وهي في لحف جبل عال... (معجم البلدان).

محمد فأدخلوه الموصل. ثم صار صالح إلى السن[١] فصالحه أهلها على مال أخذه، وانحدر إلى تكريت فحاربه أهلُها فَقَتَل منهم جماعةً ثم صالحوه على مال أخذه منهم، وانصرف إلى البوازيج وتنقَّلَ في بلادِ الْموصِل فسار إليه نَصْرُ بنُ حمدان لخمسٍ خلوْنَ من شعبان من السنة فقاتله قتالاً شديدًا فقتل من رجال صالح نحو مائةِ رجلٍ، وأُسِر صالحٌ وابنان له فأُدْخِلوا إلى الموصل، وحُملوا إلى بغداد فأُدْخِلوا مُشَهَّرين.

وخرج في شعبان خارجيٌّ بأرضِ المَوْصِل اسمه الأغرُّ بنُ مطرِ الثغلبي، وسار من رأس عين[٢] إلى كفرتوثا[٣] واجتمع عليه أَلْفُ رجلٍ فدخلها ونهبها وقَتَّل فيها، وسار إلى نصيبين فنزل بالقرب منها فقاتله أهلها ومعهم جمْعٌ من الجُنْدِ فقتل منهم مائةَ رجلٍ وأسر أَلْفَ رجلٍ فباعهم نفوسَهم، وصادر أهلها على أربعمائة ألف درهم. وبلغ خبره ناصر الدولة بن حمدان ـ وهو أمير ديار ربيعة ـ فسيَّر إليه جيشًا فقاتلوه فظفِروا به وأسروه فسيَّره ناصرُ الدولةِ إلى بغداد.

وفيها خلع المقتدرُ بالله على ابنِه هارون، وركب معه الوزير والجيش وأعطاه ولايةَ فارس وكرمان وسجستان ومكران. وفيها أيضًا خلع على ابنه أبي العباس الراضي وأقطعه بلاد المغرب ومصر والشام وجعل مؤنسًا المظفر يخلفه فيها، وحجّ بالناس عبد السميع بن أيوب بن عبد العزيز الهاشمي.

ودخلت سنة تسع عشرة وثلاثمائة.

ذكر عزل سليمان عن الوزارة وتولية أبي القاسم الكَلْوَذَاني الوزارة

في هذه السنة قَبضَ المقتدر على وزيره سليمان. وسبب ذلك أن الأموال ضاقت عليه، وكثرت المطالباتُ من الجند وغيرِهم بأرزاقِهم، واتصلت رقاع منْ يُرشَّحُ للوزارة بالسِّعاية فيه والضمانِ بالقيامِ بأرزاقِ الجُنْدِ وأربابِ الوظائف، فأمر

(١) السن: مدينة على دجلة فوق تكريت لها سور وبها جامع ضخم للمسلمين، وكنائس للنصارى، وفي أهلها علماء، وعندها مصب الزاب الأسفل.

(٢) رأس عين: ويقال رأس العين: هي مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين ودنيسر، وبينها وبين نصيبين خمسة عشر فرسخًا وقريب من ذلك بينها وبين حران... (معجم ياقوت).

(٣) كفر توثا: بضم التاء المثناة من فوقها، وسكون الواو، وثاء مثلثة: قرية كبيرة من أعمال الجزيرة، بينها وبين دارا خمسة فراسخ، وهي بين دارا ورأس العين.

المقتدر بالقبض عليه وكان المقتدر يميل إلى وزارةِ الحسينِ بن القاسم، فامتنع مؤنسٌ من الموافقة عليه، وأشار بِتَوْلية أبي القاسم الكَلْوذانيّ فاستوزره المقتدر بالله لثلاث بقين من شهر رجب، فكانت وزارة سليمان سنةً واحدة وشهرين، ولم يستمر الكَلْوذانيّ في الوزارة غير شهرين وثلاثة أيام.

ذكر عزل الكلوذاني ووزارة الحسين

في هذه السنة عُزِلَ أبو القاسم الكَلْوذَانِيُّ عن وزارة الخليفة، ووزر الحسينُ بن القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب. وكان سبب ذلك أنه كان ببغداد إنسانٌ يعرف بالدانيالي وكان زرّافًا[1] ذكيًّا محتالاً، فكان يُعتِّق الكاغدَ ويكتب فيه أشياء قد وقَعتْ فيما مضى من الزمان وأشياء تقع في المستقبل ويُرِي ذلك للناس. واتصل هذا الدانيالي بمفلح الخادم وأظهره على أشياءَ استماله بها. فَتَوصَّل الحسينُ لهذا الرجل حتى جعلَ اسمَه في جُمْلَة كتابٍ وضَعَهُ وعتَّقَه، وذكر فيه علامةً في وجْهِهِ وما فيه من الآثار ويقول «إنه يزرُ للخليفةِ الثامن عشر من الخلفاءِ العباسيين وتستقيم الأُمور على يديه ويقهر الأعادي» وذكر في هذا الكتاب حوادثَ وقَعتْ وحوادثَ تقع في المستقبل، ونسب ذلك إلى دانيال. وقرأ الكتاب على مفلح فأخذه منه وأوقف المقتدر عليه فقال له: أتعرف في الكتاب مَنْ هو بهذه الصفة؟ فقال: ما أعرف إلا الحسين بن القاسم قال: صدقت، قلبي يميل إليه، فإن جاءتْك رقعةٌ منه فاعْرِضْها عليّ واكتُم حالَه.

فخرج مفلح إلى الدنيالي وقال: هل تعرف في الكُتَّابِ مَنْ هو بهذه الصفة؟ قال: لا! قال: فمن أين لك هذا الكتاب؟ قال: ورِثته عن أبي، وورثه أبي عن آبائه، وهو من ملاحم دانيال عليه السلام! فأعاد ذلك إلى المقتدر بالله فقبله. فكتب الحسينُ رقعةً إلى مفلح وهو يطلب الوزارة، فكان ذلك من أعظم الأسباب لوزارته مع كثرةِ الكارهين له.

ثم اتفق أنَّ الكَلْوذَانِيّ عمل حِسبةً بما يحتاج إليه من النفقات وما لهم من الأموال وعليها خطوط الدواوين فبقي يحتاج إلى سبعمائة ألف دينارٍ لا جهةَ لها، فعرضها على المقتدر وقال: ليس لهذه جهة إلا ما يطلقه أمير المؤمنين من بيت مال الخاصة! فعظم ذلك على المقتدر، وكتب الحسينُ رقعةً عندما بلغه ذلك سأل فيها

(١) الزراف: الذي يشرف على الزرافة، وهي منزمة الماء يسقى بها الزرع.

الوزارة وأنه يضمن جميع النفقات ويستخرج سِوى ذلك ألْف ألْف دينارٍ تكون في بيت المال، فاستقال الكَلْوذَاني، فَعُزل لليلتين بقيتا من شهر رمضان، واستوزر المقتدر بالله الحسين بن القاسم في هذا التاريخ.

ذكر تأكيد الوحشة بين مؤنس والمقتدر

في هذه السنة في ذي الحجة تجددت الوحشة بينهما. وسببُ ذلك أن مؤنسًا بلَغَهُ أنَّ الوزير قد وافق جماعةً من القُوَّاد في التدبير عليه، فتنكَّر له مؤنس. وبلغ الوزير أن مؤنسًا يريد أن يكبِس داره ليلاً ويقبضَ عليه، فتنقل في عِدَّةِ مواضع ثم انتقل إلى دار الخلافة. وطلب مؤنسٌ من المقتدر عزْلَ الحسينِ ومصادرتَه فأجابه إلى عزله ولم يصادره، وأمر الحسين بلزوم دارِه فلم يقنعْ مؤنسٌ بذلك فبقي في وزارته. فأوقع الحسين عند المقتدر أن مؤنسًا يريد أخْذَ ولده أبي العباس ويسيره إلى الشام ويبايع له، فَردَّه المقتدر إلى دارِ الخلافة فعلم ذلك أبو العباس، فلما أفْضَتْ إليه الخلافةُ فعل بالحسين ما نذكره إن شاء الله تعالى. وكتب الحسين إلى هارون ـ وهو يريد العاقول ـ بعد انْصرافه من حرب مرداويج وانهزامه وهو يستقدمه إلى بغداد، وكتب إلى محمد بن ياقوت ـ وهو بالأهواز ـ يأْمره بالإسراع إلى بغداد، فَصحَّ عند مؤنس أن الوزير يدبِّر عليه وزاد مؤنسًا نفارًا.

ودخلت سنة عشرين وثلاثمائة.

ذكر مسير مؤنس إلى الموصل

في هذه السنة في المحرم سار مؤنس المظفر إلى الموصل مغاضبًا، للمقتدر لما صحّ عنده إرسال الوزير إلى هارون بن غريبِ الخالِ ومحمد بن ياقوت يستحضرهما. قال: وسير مؤنس خادمه بشرى برسالة إلى المقتدر، فسأله الحسين عن الرسالة فقال: لا أذكرها إلا لأمير المؤمنين. فأنفذ إليه المقتدر يأْمره بذكر رسالته للوزير فامتنع وقال: ما أمرني صاحبي بهذا! فسبّه الوزير وشتم صاحبه وأمر بضربه وصادره بثلاثمائةِ ألْف دينارٍ وأخذ خَطَّه بها وحبسه ونهب داره. فلما بلغ مؤنسًا ما جرى على خادمِه وكان ينتظر أنَّ المقتدر يطيّب قلبه ويعيده، سار ومعه جميعُ قُوَّادِه ومماليكه، ومعه من الساجية ثمانمائة رجل. فتقدم الوزير بقَبضِ إقطاعِ مؤنسٍ وأملاكِه وأملاكِ مَنْ معه، فَحصَّلَ من ذلك أموالاً عظيمة فزاد ذلك في محلّه عند المقتدرِ ولقَّبه عميد الدولة وضرب اسْمه على الدنانير والدراهم وتمكّن من الوزارة وولي وعزل ثم أخذ في التهوير فعزله المقتدر بالله.

ذكر عزل الحسين عن الوزارة ووزارة ابن الفرات

كان سبب عزله أنه ضاقت عليه الأموالُ وكثر الخَرْجُ، فاستسلف جملةً مِنْ مالِ هذه السنة وأخرجها في سنة تسعةَ عشر. فأنهى هارون بن غريب ذلك إلى المقتدر، فرتَّب معه الخَصِيبي. فلما تَولّى معه نَظَر في أعمالِه فرآه قد عملَ حِسْبَةً للمقتدر ليس فيها عليه وجه فأظهر ذلك للمقتدر، فأمر بجمع الكُتَّاب وكَشفِ الحال. فاعترفوا بصدق الخَصِيبي وقابلوا الوزير، فقبض عليه في شهر ربيع الآخر فكانت وزارته سبعة أشهر إلا أيامًا. واستوزر المقتدر بالله الفضل بن جعفر بن محمد بن الفرات، وسلم إليه الحسين بن القاسم فلم يؤاخِذْه بإساءته.

ذكر استيلاء مؤنس على الموصل

قال: ولما سار مؤنسٌ إلى الموْصل كَتَب الحُسين الوزيرُ إلى سعيدٍ وداودٍ ابني حمدان وإلى ابن أخيهما ناصرِ الدولة الحسنِ بنِ عبد الله بنِ حمدانَ يأمرهم بمحاربته وصدِّه عن الموصل، فاجتمع بنو حمدانَ على محاربته إلا داود فإنه امتنع لإحسان مؤنسٍ إليه؛ فإنه قد كان ربّاه في حِجره بعد أبيه فما زال به إخوتُه حتى وافَقهم، ولما أجابهم قال لهم: إنكم لتحملوني على البَغْي وكُفْرانِ النِّعمةِ والإحسانِ وما آمن أن يجيئني سهم عاثر فيقع في نحري فيقتلني! فلما الْتَقَوْا أتاه سهمٌ كما وصف فقتله، ولما قَرُب مؤنسٌ من الموصل كان في ثمانمائة فارسٍ. واجتمع بنو حمدان في ثلاثين ألفًا فالْتَقَوْا واقتتلوا فانهزم بنو حمدانَ ودخل مؤنس الموصلَ واستولى على أموالِ بني حمدانَ وديارِهم، فخرج إليه كثيرٌ من العساكرِ من بغدادَ والشام ومصر، وعاد إليه ناصرُ الدولة بن حمدان فصار معه وكان دخولُ مؤنس إلى الموصل في ثالث صفر، وأقام بها سبعةَ أشْهرٍ، وعزم على الانحدار إلى بغداد.

ذكر مقتل المقتدر بالله

قال: ولما اجتمعتِ العساكر إلى مؤنس بالموصل قالوا له: اذهبْ بِنا إلى الخليفة فإنْ أنصفنا وأجْرى أرزاقَنا وإلا قاتلناه فانحدر مؤنس من الموصل[1] في

---

(١) الموصل: بالفتح وكسر الصاد: المدينة المشهورة العظيمة إحدى قواعد بلاد الإسلام قليلة النظير كبرًا وعظمًا وكثرة خلق وسعة رفعة، فهي محط رحال الركبان ومنها يقصد إلى جميع البلدان، فهي باب العراق ومفتاح خراسان ومنها يقصد إلى أذربيجان. . . (معجم البلدان لياقوت).

شَوَّال، وبلغ خبرُه جندَ بغدادَ فشغبوا وطلبوا أرزاقَهم، ففرّق المقتدرُ فيهم أموالاً كثيرة إلا أنها لم تَسَعْهُم وأنفذ المقتدرُ أبا العلاء سعيد بن حمدان وصافيًا البصري في خَيْلٍ عظيمةٍ إلى سامراء، وأنْفَذَ أبا بكر محمد بنَ ياقوت في أَلْفَيْ فارسٍ ومعه الغلمان الحجرية إلى المعشوق[1]. فلما وصل مؤنس إلى تكريتَ جعل العسكر الذين مع ابن ياقوت يتسللون ويهربون إلى بغداد، ونزل مؤنس بباب الشمّاسية، فلما رأى ذلك رجع ابن ياقوت إلى عكبرا، وسار مؤنسٌ فتأخر ابنُ ياقوت وغيره وعادوا إلى بغداد. ونزل مؤنس بباب الشماسيَّة، ونزل ابنُ ياقوت وغيرُه مُقَابِلَهُم واجتهد المقتدرُ بخاله هارون بنِ غريبٍ ليخرج فلم يفعلْ وقال: أخاف من عسكري فإنَّ بعضَم أصحابُ مؤنسٍ وبعضهم قد انهزم أمس من مرداويج فأخافُ أن يسلموني وينهزموا عني! فلم يزَلْ به حتى أخرجه، وأشار النَّاسُ على المقتدرِ بإخراج المال منه ومن أُمِّه ليرضي الجند وقالوا: إنه متى سمع أصحاب مؤنس بتفريق الأموال تفرقوا عنه، فاضطُر إلى الهرب فقال: لم يبْقَ لي ولا لوالدتي شيء!

وأراد المقتدر أن ينحدر إلى واسط ويكاتب العساكر من البصرة والأهواز وفارس وكرمان وغيرها ويترك بغداد لمؤنس إلى أن يجتمع إليه العساكر ويعود إلى قتاله، فَردَّه ابن ياقوت عن ذلك، وزيّن له اللقاء وقَوّى نفسَه أنَّ القوم متى رأوْه عادوا بأجمعهم إليه فرجع إلى قَوله وهو كاره، ثم أشار عليه بحضور الحرب فخرج وهو كارهٌ وبين يديه الفقهاءُ ومعهم المصاحف منشورةً وعليه البُردة[2] والناس حوله، فوقف على تلٍّ عالٍ بعيدٍ من المعركة فأرسل إليه قواده يسألونه التَّقَدُّمَ مرة بعد أُخرى، فلما ألَحُّوا عليه تَقَدَّم من مَوْضِعِه فانهزم أصحابُه قبل وصولِهِ إليهم. وكان قد أمر فَنُودِي «من جاء بأسيرٍ فَلَهُ عشرةُ دنانيرَ ومن جاء برأسٍ فله خمسةٌ». فلما انهزم أصحابُه لَقِيهُ عليُّ بنُ يلبق ـ وهو من أصحابِ مؤنسٍ ـ فَتَرَجَّلَ وقَبَّلَ الأرضَ وقال له: أين تمضي؟ ارجعْ، فَلَعَنَ اللّهُ مَنْ أشار عليك بالحُضور!

فأراد الرُّجوع، فَلَحِقَهُ قومٌ من المغاربة والبربر، فتركه عليٌّ وسار، فشهروا سُيوفَهم فقال: ويْحكمْ أنا الخليفة! فقالوا: قد عرفناك يا سفلة، أنت خليفةُ إبليس، تبذل في كلِّ رأسٍ خمسةَ دنانير وفي كلِّ أسيرٍ عشرة دنانير. وضربه أحدهم بسيفه

(١) المعشوق: هو اسم لقصر عظيم بالجانب الغربي من دجلة قبالة سامراء في وسط البرية.. ليس حوله شيء من العمران يسكنه قوم من الفلاحين إلا أنه عظيم مكين محكم لم يبن في تلك البقاع على كثرة ما كان هناك من القصور غيره. وبينه وبين تكريت مرحلة... (معجم ياقوت).

(٢) البردة: كساء مخطط يلتحف به، والمراد هنا بردة الخلافة.

على عاتقه فَسقَط إلى الأرض، وذبحه بعضُهم - وقيل إنّ عليّ بن يلبق رمز إلى بعضهم فقتله - وذلك في يوم الأربعاء لثلاثٍ بقين من شوّال سنة عشرين وثلاثمائة.

قال: ولما قُتل رفعوا رأسه على خشبةٍ وهم يكبِّرون ويلعنونه، وأخذوا جميع ما عليه حتى سراويله، وتركوه مكشوفَ العوْرةِ إلى أن مرَّ به رجل أكّار فستره بحشيش، ثم حُفِر له في موضعه ودُفِن، وعفا قبره. هذا ومؤنس في الراشدية[1] لم يشهدِ الحرب، فلما حُمِلَ رأسُ المقتدرِ إليه بكى ولطم وجهه ورأسه وقال: يا مفسدون ما هكذا أوصيتُكم، والله لَنُقْتَلنَّ كلُّنا، وأقلُّ ما في الأمر أن تظهروا أنكم قتلتموه خَطَأً ولم تعرفوه!

وتقدم مؤنسٌ إلى الشمّاسية، وأنفَذَ إلى دارِ الخلافة من يمنعها من النَّهْبِ. ومضى عبد الواحد بن المقتدر وهارُونُ بنُ غريبٍ ومحمدُ بنُ ياقوت وابنا رائق إلى المدائن. وكان ما فعله مؤنسٌ سببًا لجرأة أصحابِ الأطرافِ على الخلفاء وطمعهم واستبدادهم، وانحرفت حرمة الخلافة لقتل المقتدر، وضعف أمرها حتى انتهى إلى ما نذكره إن شاء الله تعالى.

قال: وقُتل وعمره ثمانٍ وثلاثون سنةً وخمسةُ أيام، وكان مُدَّةُ خلافته أربعًا وعشرين سنةً وأحد عشر شهرًا وستةَ عشَر يومًا، وكان رَبْعَ[2] القامة دُرِّيَّ اللون أحور أصهب[3]، وكان نقش خاتمه الحمد لله الذي ليس كمثله شيء وهو السميع خالق كل شيء» ويقال إن المقتدر بَذَّر من الأموال تضييعًا في غير وجهها نيِّفًا وتسعين ألفَ ألفِ دينارٍ سوى ما أنفقه في الوجوه، وكان يصرف إلى الحرمين وفي طريقهما في كلِّ سنةٍ ثلاثمائة ألفٍ وخمسةَ عشرَ ألفَ دينارٍ وأربعمائة وستة وعشرين دينارًا، وإلى الثغور أربعمائةَ ألفٍ وواحدًا وتسعين ألفًا وأربعمائةً وستةً وخمسين دينارًا وكان يُجري على القُضاة في كلِّ الممالك سنةً وخمسين ألفًا وخمسمائة وواحدًا وأربعين دينارًا، وعلى الفقهاء بالحضْرةِ ثلاثة عشر ألفًا وخمسمائةً وتسعةً وستين دينارًا، وعلى منْ يتَولّى الحِسْبَةَ والمظالم في جميع البلاد أربعةً وثلاثين ألفًا وأربعمائةً وتسعةً وثلاثين دينارًا، وعلى أصحابِ البريد تسعة وسبعين ألفًا وأربعمائة دينار، وغير ذلك من الجِرايات على أصناف الناس وطبقاتهم. وعجز ارتفاعُ ممالكه عن نفقاته ألْفَيْ ألفِ ألفٍ وتسعةً وثمانين ألفًا وثمانمائةً وأربعةً وسبعين دينارًا، ولم يُنْقِصْ أحدًا شيئًا فأنفق ما كان في بيوت الأموال قبله.

---

(١) الراشدية: قرية من قرى بغداد. (٢) الربع من الرجال: الوسيط القامة.
(٣) الأصهب: ذو اللون الأصفر الضارب إلى شيء من الحمرة والبياض.

قال: ومات في أيامه خمسةَ عشر ألفَ أميرٍ ومقدّم مذكور فكانت والدته تطوي عنه الرزايا[1] والفجائع وتقول: إظهارها يؤلم قلبه! فأدّى ذلك إلى انتشار الفساد في ممالكه.

وكان الناسُ قد ملُّوا أيّامَه لطولها، حتى إذا تَصرَّمَتْ تَمنَّوْا ساعةً منها، فأعوزتهم، وشملتهم الحوادثُ والطوارق. وكان له من الأولاد الرّاضي والمتقي والمطيع وعبد الواحد وعباس وهارون وعليّ وإسماعيل وعيسى وموسى وأبو العباس.

ووزر له من ذكرنا وهم: العباسُ بن الحسن، وأبو الحسن بن الفرات ثلاثَ دفعات وقد ذكرنا أخباره، ومحمد بن عبد الله بن خاقان، وعلي بن عيسى دفعتين، وكان موصوفًا بالعلم والدين والعقل، وساس الدنيا السياسةَ التي عمَّرت البلاد، وكان يستغلُ ضياعَه في السنة سبعمائةَ ألفِ دينارٍ يُخرج منها في وجوه البرِّ ستمائةَ ألف دينار وينفق أربعين ألفَ دينارٍ على خاصته، وكان يصوم نهاره ويقوم ليله، ولما حُبِس كان يلبس ثيابه ويتوضأُ ويقوم ليخرجَ إلى صلاة الجمعة فيرده الموكلون به فيقول: اللَّهُمَّ اشهد! وكانت له آثارٌ حسنةٌ ومآثر جميلةٌ منها أنه أشار على المقتدر أن يوقف المستَغَلاَّتِ ببغدادَ على الحرس والثغور ـ وغلَّتُها في كلِّ شهرٍ ثلاثةَ عشرَ ألفَ دينارٍ ـ والضياعَ الموروثةَ بالسَّواد وارتفاعها نيِّفٌ وثمانون ألف دينارٍ سوى الغلة، ففعل ذلك وأفرد لهذا الوقف ديوانًا سمّاه ديوان البرِّ، وكان يُجري على خمسة وأربعين ألفَ إنسانٍ جراياتٍ تكفيهم، وخدم السلطان سبعين سنةً لم يُزِلْ فيها نعمةَ أحد ولم يقْتُلْ أحدًا، ولم يسْعَ في دَمِّه ولم يهتك حُرْمَةَ أحد، ومات في آخر ذي الحجة سنةَ خمسٍ وثلاثين وثلاثمائة وله تسعٌ وثمانون سنةً وستة أشهر ويوم واحد، رحمه الله!

ووزر له حمد بن العباس، وأبو القاسم الخاقاني، وأحمد بن عبد الله الخَصيبي، وأبو علي بن مقلة، وسليمان بن الحسين بن مخلد، وعبد الله الكَلْوذانيّ، والحسين بن القاسم بن عبيد الله، والفضل بن جعفر بن الفرات.

قضاته: يوسف بن يعقوب ثم ابنه محمد بن يوسف، ثم أبو عمر، ثم عبد الله بن أبي الشوارب، ثم ابنه محمد، ثم أحمد بن إسحاق بن البهلول، ثم عمر بن محمد بن يوسف، والحسن بن عبد الله، وعمر بن الحسن بن أبي الشوارب.

حجّابه: سوْسنُ مولى المكتفي، ونصر القشوريّ، وياقت مولى المعتضد، وغيرهم.

---

(١) الرزايا: جمع الرزية، وهي المصيبة.

الأُمراء بمصر: عيسى النُّوشري، ثم تَكين الخزري، ثم وصل مؤنسٌ إلى مصر فصرف تكينَ وولاّها ذكاءَ الأعور ثم مات فأُعيد تكينُ، ثم هلال بن بدر، ثم أحمد بن كيغَلَغ، ثم تَكين مرةً ثالثةً.

القضاة بها: أبو عبيد الله بن علي بن الحسين البزّاز(١) إلى أن ورد كتاب ابن الفرات بصرفه وردّ القضاءِ إلى عبد الله بن مُكْرَم شابٌ من شهود أبي عمر، فاستُخْلِف له أبو الذكر محمد بن يحيى التَّمّار، ثم ورد إبراهيم بن محمد الطبري خليفةً لعبد الله، ثم صُرِف عبد الله ووَلِيَ إبراهيم بن حمّاد فاستخلف أبا عليٍّ عبد الرحمٰن بن إسحاق، ثم صرف هارون وَوَلى أبو محمد عبد الله بن أحمد بن رزين، وولّى تَكينُ أبا هاشم إسماعيل بن عبد الواحد الرَّبعي.

ذكر خلافة القاهر بالله

هو أبو منصور محمد بن المعتضد بالله أبي العباس أحمد وقد تقدم ذِكْرُ نَسبه، وأمّه أمٌّ ولد اسمها قَبول. وهو التاسع عشَر من الخلفاءِ العباسيين، بويع له بعد مقتل أخيه المقتدر في يوم الخميس لِلَيْلتين بقيتا من شوال سنة عشرين وثلاثمائة. قال: ولمّا قتل المقتدر بالله عظم قتله على مؤنس كما ذكرناه فقال: الرأْي ننصب ولده أبا العباس في الخلافة فإنه تربيتي، وهو صبِيٌّ عاقلٌ فيه دين وكرم ووفاء بما يقول، فإذا جلس في الخلافة سمحت نفسُ جدَّتِه والدةِ المقتدر وإخوته وغلمان أبيه ببذْلِ الأموال ولم ينتطح في قتل المقتدر عنزان!

فعارضه أبو يعقوب إسحاق بن إسماعيل النوبخْتي وقال: بعد الكَدِّ استرحنا من خليفةٍ له أُم وخالة وخدم يدبرونه فنعود إلى تلك الحالة، لا والله لا نَرْضَى إلا برجل كامل يدبر نفسه ويدبرنا! وما زال حَتى رَدَّ مؤنسًا عن رأيه، وذكر له أبا منصورٍ محمد فأجابه مؤنس إلى ذلك. وكان النوبختي في ذلك كالباحثِ عن حتْفِهِ بظلفه! فإنَّ القاهر قتله كما نذكر إن شاء الله تعالى، فأمر مؤنس بإحضاره فبايعوه بالخلافة، ولقَّبوه بالقاهر بالله. وكان مؤنس كارِهًا لخلافته والبيعة له ويقول: أنا عارفٌ بِشَرِّه وسوءِ نيته ولكن لا حيلة! قال: ولما بويع استحلفه مؤنس لنفسه ولحاجبه عليِّ بن يلبق، وأخذ خَطَّه بذلك.

---

(١) البزاز: بائع البز، والبز: نوع من الثياب، أو السلاح.

ولما اسْتَقَرَّتِ الخلافةُ له وبايعه النَّاسُ استوزر أبا عليِّ بنَ مقلةَ وكان بفارس فاستقدمه، واستحجب عليَّ بنَ يلبق. وشرع القاهرُ في البحث عمن استتر من أولادِ أخيه المقتدر وحُرمه، وأحضر والدتَه ـ وكانت مريضةً بالاستسقاء[١] ـ وسألها عن المال فاعترفت له بما عندها من المصوغ والثياب ولم تعترفْ بشيءٍ من المال والجوهر، فضربها أشَدَّ ما يكون من الضرب وعلَّقَها بِرجْلها وضرب المواضع المستورةَ من بدنِها فَحَلَفَتْ أنها لا تملك غَيْر ما أَطْلَعتْه عليه وقالت: لو كان عندي مال لما سلَّمْتُ ولدي للقتل! ولم تعترف بشيء.

وصادر جميعَ حاشية المقتدر بالله وأصحابَه، وأخرج والدتَهُ لِتُشْهد على نفسِها القضاةَ والعدولَ بأنها قد حلَّتْ أوقافَها ووكَّلتْ في بيعها، فامتنعت من ذلك وقالت: قد أوقفتها على أبواب البرِّ والقُرُبات بمكةَ والمدينة والثُّغورِ وعلى الضعفاءِ والمساكينِ ولا أستحل حلَّها ولا بَيْعَها، وإنما أوكل في بيع أملاكي! فلما علم القاهرُ بذلك أحضر القاضي والشهود وأشْهدهم على نَفْسِه أنه قد حلّ وقُوفَها جميعها ووكل في بيعها، فبيع ذلك كله واشتراه الجُنْدُ من أرزاقِهم.

وتقدم القاهر بكبس الدار التي سُعِي إليه أنَّ أولاد المقتدرِ اختفَوْا بها، فلم يزل كذلك إلى أن وجد منهم أبا العباس الراضيَ وعليًّا والعباسَ وهارون وإبراهيم والفضل فَحُمِلوا إلى دارِ الخلافة فصودروا على مالٍ كثير، وسلَّمهم علي بنُ يلبق لكاتبه الحسن بن هارون، فأحسن صُحبتهم وخدمهم. قال: وقبض الوزير على جماعة من العمال وعزَل بني البريديِّ وصادرهُم.

ودخلت سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة.

ذكر خبر عبد الواحد بن المقتدر ومن معه

كان عبد الواحد بن المقتدر باللّهِ قد هرب عند قتل أبيه ومعه هارون بن غريبٍ ومفلحٌ ومحمد بن ياقوت وابنا رائق إلى المدائن[٢] كما قدمنا، ثم انحدروا منها إلى

---

(١) الاستسقاء: تجمع سائل مصلي في التجويف البريتوني، لا يكاد يبرأ منه. والاستسقاء الدماغي: مرض خلقي في الغالب يزداد فيه السائل المخي الشوكي في بطون الدماغ، فيمددها ويرققه.

(٢) المدائن: موضع بين أرض الفرات ودجلة كان مسكن الملوك من الأكاسرة الساسانية وغيرهم فكان كل واحد منهم إذا ملك بنى لنفسه مدينة إلى جنب التي قبلها وسماها باسم، فأولها المدينة العتيقة التي لزاب، ثم مدينة الإسكندر ثم طيسفون من مدائنها ثم اسفانبر ثم مدينة يقال لها رومية فسميت المدائن بذلك... والمدائن أيضًا: اسم قريتين من نواحي حلب في نقرة بني أسد... (معجم ياقوت).

واسط، فخافهم الناس. فأما هارون بن غريبٍ فإنه كتب إلى بغداد في طلب الأمان لنفسه ويبذل مصادرة ثلاثمائة ألف دينار على أن يطلق له أملاكه وينزل عن الأملاك التي استأجرها، ويؤدي من أملاكه حقوق بيت المال القديمة. فأجابه القاهر ومؤنس إلى ذلك، وكُتِبَ له كتابُ أمانٍ. وقلّد أعمالَ ماه الكوفة وماسبذان ومِهْرجانْقَذَق، وسار إلى بغداد.

وأما عبد الواحد فإنه خرج من واسط فيمن بَقِيَ معه ومضَوْا إلى السوس وسُوق الأهواز فَجنَوْا المالَ وطردوا العمالَ، وأقاموا بالأهواز؛ فجهز مؤنس إليهم جيشًا كثيفًا وجعل عليه يلبق. وكان الذي حرَّضَهُم على إيفادِ الجيش أبو عبد الله البريدي وبذل مساعدتَه معجلةً خمسين ألف دينار على أن يُولَّى الأهوازَ وعند استقراره في الولاية يعجّل ما بقي. فسار الجيش وفيهم أبو عبد الله، وكان محمدُ بن ياقوت قد اسْتَبدَّ بالأموالِ والأمر، فنفرت قلوبُ مِنْ معه من القُوَّاد لذلك. فلما قرب يلبق من واسط أظهروا ما في نفوسهم وفارقوه. ولما وصل إلى السوس فارق عبدُ الواحدِ ومحمدُ بنُ ياقوت الأهوازَ وسار إلى تستر[1]، وفارقهما من مَعهُما من القواد إلى يلبق بأمان.

وبقي مُفْلح وسرورٌ الخادم مع عبد الواحد فقالا لمحمد بن ياقوت: أنت معتصم بهذه المدينةِ وبمالك ورجالِك ونحن لا مالَ معنا ولا رجال ومقامنا يضرُّك ولا ينفعك وقد عزمنا على أخْذِ الأمان لنا ولعبدِ الواحدِ بن المقتدر! فأذن لهما في ذلك فكتب إلى يلبق فأمَّنهم، فعبروا إليه. وبقي محمد بن ياقوت منفردًا فتحير وضعفت نفسه فتراسل هو ويلبق واستقر بينهما أنَّ يلبق يؤمنه ويضمن له أمان مؤنسٍ والقاهر، ففعل. وخرج محمد بن ياقوت معه إلى بغداد ولما وصلوا وَفَى لهم القاهر بالله، وأطْلَقَ لعبد الواحد أملاكه وترك لوالدته المصادرة التي كان صادرها بها. واستولى أبو عبد الله البريديّ على البلاد، وعسف أهلها، وأخذ أموال التجار وعمل بأهل البلاد ما لا تعمله الفَرَنْجُ ولم يمنَعْه أحد عما يريد وأعاد إخوانه إلى أعمالهم.

ذكر استيحاش مؤنس وأصحابه من القاهر

في هذه السنة استوحش مؤنس المظفر ويلبق الحاجب وولده عليّ والوزير أبو علي بن مقلة من القاهر بالله وضيّقوا عليه وعلى أسبابه. وكان سبب ذلك أن محمد بن

---

(١) تستر: بالضم ثم السكون، وفتح التاء الأخرى، وراء: أعظم مدينة بخوزستان. . وهي مختطة على شكل فرس، ونهر تستر أعظم أنهار خوزستان. . وتستر على مكان مرتفع من الأرض، وفيها قبر البراء بن مالك الأنصاري، وكان يعمل بها ثياب وعمائم فائقة. . . (معجم البلدان).

ياقوت تقدم عند القاهر وعلتْ منزلته وصار يخلو به ويشاوره، فعظم ذلك على ابن مقلة لعداوةٍ كانت بينَه وبين ابن ياقوت؛ فألقى إلى مؤنسٍ أن محمدًا يسْعى به عند القاهر وأن عيسى الطبيب يسفر بينهما في التدبير عليه، فَوجَّه مؤنس عليّ بن يلبق لإحضار عيسى الطبيب فوجده بين يدي القاهِر، فأخذه وأحضره عند مؤنسٍ فسيره من ساعته إلى الموصل، واجتمعوا على الإيقاع بمحمد بن ياقوت وكان في الخيام. فركب علي بن يلبق في جند لِيَكْبِسَه[1]، فوجده قد اختفى فَنَهب أصحابه، واستتر محمد بن ياقوت.

ووكل علي بن يلبق على دار الخليفة أحمدَ بنَ زيزك وأمره بالتضييق على القاهر بالله وتفتيش كل من يدخل الدار ويخرج منها، وأن يكشف وجوه النساء، وإن وجد رقعةً رفعها إلى مؤنسٍ ففعل ذلك وزاد عليه حتى إنه حُمِل إلى دار القاهر لبنٌ فأدخل يدَه فيه. ونقل يلبق من كان بدار القاهرِ محبوسًا إلى داره كوالدة المقتدر وغيرها، وقطع أرزاق حاشيتِه. فعلم القاهر أن العتاب لا يفيد وأنَّ ذلك بِرأْيِ مؤنس وابن مقلة، فأخذ في الحيلة والتدبير على جماعتهم. وكان قد عرف فَساد قَلْبِ طريفٍ السبكري وبشري خادم مؤنس وحسدهُما ليلبق وولدِه على مراتبهما، فشرع في إغرائهما بيلبق وابنه. وعلم أيضًا أن مؤنسًا ويلبقَ أكثرُ اعتمادِهما على الساجية أصحاب يوسف بنِ أبي الساج وغلمان المنتقلين إليهما بعده، وكانا قد وعداهم بالموصل مواعد أخلفاها فأرسل القاهر إليهم وأغراهم بهما وحلف لهم على الوفاء بما أخلفاه، فتغيرت قلوبُ الساجية. ثم أرسل أبا جعفر محمد بن القاسم بن عبيد الله وكان صاحب مشورة ابن مقلة، ووعده بالوزارة فكان يطالعه بالأخبار.

ذكر القبض على مؤنس المظفر ويلبق الحاجب وابنه

وسبب ذلك أنه صحّ عندهم أن القاهر يُدبِّر عليهم فخافوه، وحملَهُم الخوفُ على الجدِّ في خَلْعِه، واتَّفَقَ رأْيُهم على البيْعةِ لأبي أحمد بن المكتفي، فاستخلفوه وعقدوا له البيعةَ سِرًّا، وحلَفَ له يلبقُ وابنُه عليٌّ والوزير ابنُ مقلة والحسنُ بن هارون ثم كشفوا الأمر لمؤنسٍ فقال: لست أشكُّ في شَرِّ القاهِر وخُبْثِه، ولقد كنت كارِهًا لخلافَتِه وأشرْتُ بابن المقتدر بالله فخالفتم رأْيي، وقد بالغْتُم في الاستهانَةِ به وما صبر

(١) يقال: كبس على فلان، أو دار فلان: أي هجم عليه واحتاط به.

على الهوانِ إلا من خُبْثِ طَويَّتِه ليدبِّر عليكم، فلا تعجلوا حتى تؤنسوه وينبسطَ إليكم ثم تعرفوا من وطَأه من القواد والساجية والحجرية واعملوا بعد ذلك! فقال عليّ بن يلبقَ والحسنُ بن هارون: ما يحتاج إلى هذا التطويل فإن الحَجَبَةَ لنا والدار في أيدينا وما نحتاج إلى أن نستعين في القبض عليه بأحدٍ لأنه بمنزلةِ طائرٍ في قفصٍ! وعملوا على معالجته.

فاتفق أنْ سقَطَ يلبقُ من الدَّابة فاعْتَلَّ ولزم بيتَه، فاتفق عليٌّ وابنُ مقلةَ وحسَّنَا لمؤنسٍ خَلْع القاهر وهوَّنا عليه أمره، فأذِن لهما. فاتَّفَقَ رأيُهما على أن يُظْهِرا أنَّ أبا طاهرٍ القرمطي دخَلَ الكوفة وأن عليَّ بنَ يلبق سائر لِقِتَالِهِ ومنْعِهِ من بغداد، فإذا دخل لوداع القاهر باللّهِ قَبضَ عليه، فأشاعا ذلك، وكتب ابنُ مقلةَ رقعةً إلى الخليفة يُعرِّفُه ذلك ويقول: «إنني قد جهَّزْتُ عليَّ بنَ يلبق ليسير في هذا اليوم وأن يحضر الْعصْرَ للخدمة ليأمره مولانا بما يراه» فكتب القاهر في جَوَابِه يشكره ويأذن في حضور ابن يلبق. فجاء جواب الخليفةِ وابنُ مقلةَ نائم فتركوه ولم يوصلوه إليه. فلما استيقظ كتب رقعةً أُخرى في المعنى، فأنكر القاهرُ الحالَ.

فهو في هذا إذ وصلته رقعة طريف السبكري يذكر أن عنده نصيحة وأنه قد حضر في زِيِّ النِّساءِ لينهيها إليه، فاجتمع به القاهر، فذكر له جميع ما عزموا عليه وما هم فيه وما فعلوه من التدبير. فأنفذ القاهرُ إلى الساجية فأحضرهم متفرقين وكمنهم في الدهاليز والممرات والرّواقات، وحضر علي بن يلبق بعد العصر وفي رأسه نبيذٌ ومعه عددٌ يسير من أصحابه في طيارٍ له. وأمر جماعةً من أصحابه بالركوب إلى الأبواب وصعد من الطيارِ وطلب إذْنَ القاهرِ فلم يأذن له فغضب وأساء أدبه وقال: لا بُدَّ من لقائه شاء أو أبى! فأمر القاهرُ الساجيةَ بِردِّه، فخرجوا إليه وشتموه وشتموا أباه، وشهروا سلاحهم وتقدموا إليه، فَفَرَّ أصحابُه عنه وألقى نفسه في الطيّارِ وعبر إلى الجانب الغربي واختفى من ساعته.

وبلغ ابن مقلة الخبر فاستتر، واستتر الحسن بن هارون، فلما سمع طريفٌ الخبر ركب في أصحابه بالسلاح، وحضر إلى دار الخليفة ووقف عند القاهر بالله. فعظم الأمر حينئذ على ابن يلبق وجماعتهم وأنكر يلبق ما جرى على ابنه، وسبَّ الساجيةَ وركب إلى دار الخليفة في جميع القُوَّادِ الذين بدار مؤنس، فلم يصل إلى القاهر وقَبضَ عليه وعلى أحمد بن زيزك صاحب الشرطة وحبسهما وحَصَرَ الجيش كلُّهم في الدَّارِ فأنفَذَ القاهر إليهم وطيَّب قلوبهم ووعدهم الزيارة، وأنه يوقف هؤلاء على ذنوبهم ثم يطلقهم ويحسن إليهم فعادوا.

وراسل القاهرُ مؤنسًا في الحضور عنده ليعرضَ عليه ما وقعَ عليهم ليفعل ما يراه وقال: إنه عندي بمنزلة الوالد، وما أُحِبُّ أن أعمل إلا عن رأيه! فاعتذر مؤنس عن الحركة، ونهاه أصحابهُ عن الحضور إليه فلما كان من الغد أحضر القاهر طريفًا السبكري وناوله خاتمه وقال له: قد فَوَّضْتُ إلى ولدي عبد الصَّمد ما كان المقتدر فَوَّضه إلى ابنه محمد وقلدتُك خلافَتَه ورئاسةَ الجيش وإمارةَ الأُمراء وبيوتَ الأموال كما كان ذلك إلى مؤنسٍ فامْض إليه واحمله إلى الدار فإنه ما دام في منزله يجتمع إليه من يريد الشر ولا نأمن أمره! فمضى إلى دار مؤنس وعنده أصحابُه في السلاح فسأله أصحاب مؤنس عن الحال فذكر سوءَ صنيع يلبقَ وابنِه فكلُّهم سبَّهما، وعرَّفهم ما أخذ لهم من الأمان والعهودِ فسكنوا. ودخل إلى مؤنس وقد استولى عليه الكِبَرُ والضَّعْفُ وأشار عليه بالحضور عند القاهر وقال: إن تأخرت طمع ولو رآك نائمًا ما تجاسر أن يوقظك! فسار إليه، فلما دخل الدَّار قبض عليه وحبسه، وذلك في مستهل شهر شعبان.

وأمر القاهر بالختم على دور مَنْ قَبض عليهم ونقل دوابّهم ووكل بحريمهم، وأمر بنقل ما في دار ابن مقلة وحرقها، ونُهبَتْ دورُ المعتقلين بها. وظهر محمد بن ياقوت وقام بالحجبة، ثم رأى كراهة طريف والساجية له فاختفى وهرب إلى ابنه بفارس، فكاتبه القاهر يلومه على عجَلَتِه بالهرَبِ وقلده كور[1] الأهواز، واستقدم القاهرُ عيسى الطبيب من الموصل، وجَدَّ القاهرُ بالله في طلب أحمد بن المكتفي، فظفر به، فبنى عليه حائطًا وهو حَيٌّ فمات. وظفر بعلي بن يلبق، واستعمل على الحجبة سلامةَ الطولونيَّ وعلى الشرطة أحمد بن خاقان.

ذكر مقتل مؤنس ويلبق وابنه علي والنوبختي

كان مقتل هؤلاء في شعبانَ سنةَ إحدى وعشرين وثلاثمائة. وسبب ذلك أن أصحاب مؤنس شغبوا وثاروا، وتبعهم سائر الجند، ونادوا بشعار مؤنس، وقالوا لا نرضى إلا بإطلاقه. وكان القاهر قد ظفر بعليِّ بن يلبق، وأفرد كلَّ واحدٍ منهم في بيت، فلما شغب الجند دخل القاهر إلى علي بن يلبق فأمر به فَذُبح وجُعلَ رأسُه في

(١) الكور: واحدتها الكورة: وهي على حد قول ياقوت في مقدمة معجم البلدان، كل صقع يشتمل على عدة قرى، ولا بد لتلك القرى من قصبة أو مدينة أو نهر يجمع اسمها ذلك اسم الكورة كقولهم: دارابجرد، مدينة بفارس لها عمل واسع يسمى ذلك العمل بجملته كورة دارابجرد.

طست. ومضى والطست بين يديه حتى دخل على يلبق، فلما رأى رأس ابنه بكى وقبّله، فأمر به القاهر فَذُبح وجُعل رأسه في طست. وحُمِلا بين يديه، ومضى حتى دخل على مؤنسٍ فوضعهما بين يديه.

فلما رآهما تَشَهَّدَ واسترجع[١] ولعن قاتلهُما، فقال القاهر: جُرُّوا بِرِجْلِ الكلب الملعون! فَجَرُّوا بِرِجْله وذبحوه، وجعلوا رأسهُ في طست. وطيف بالرؤوس في جانبي بغداد ونودي عليها «هذا جزاء من يخون الإمام ويَسْعَى في فساد دولته» ثم أعيدتْ فنظِّفت وجُعلت في خزانةَ الرؤوس على العادة. ولما قتلهم القاهر بالله اشتد أمره، وقَوِيتْ نفسه، وخافه منْ حوله مِمَّنْ وافقه وباطَنَه على قتلهم. وقتل أبا يعقوب النوبختي، ولقّب نفسه بعد ذلك «القاهر بالله المنتقم من أعداء الله لدين الله» وضرب ذلك على الدنانير والدراهم.

ذكر وزارة أبي جعفر محمد بن القاسم وعزله وولاية الخَصيبي

قال: ولما قَبَضَ القاهرُ باللّهِ على مَنْ ذكرناه وهَرب ابنُ مقلةَ سأل: من يصلح للوزارة؟ فَدُلَّ على أبي جعفر ابن القاسم بن عبيد الله، فاسْتَوْزَرَه في شعبان فبقي وزيرًا إلى يوم الثلاثاء ثالث عشر ذي القعدة من السنة، فقبض القاهر بالله عليه وعلى أولاده وأخيه عبيد الله وحرمه، وكان مريضًا بقولنج[٢]، فبقي محبوسًا ثمانية عشر يومًا ومات، فَحُمِل إلى منزله وأُطْلِقَ أولادُه. واستوزر أبا العباس أحمدَ بنَ عبيد الله بن سليمان الخَصيبي فكانت وزارة أبي جعفر ثلاثةَ أشهر واثني عشر يومًا والله تعالى أعلم.

ذكر القبض على طريف السبكري

كان طريف كما ذكرناه قد أعان القاهرَ بالله على القبض على مَنْ ذكرنا، وثَبَّتَ قواعدَ دَوْلَتِه. فلما قَوِي القاهرُ بالله لم يقف عند أيمانِه لطريف وبقي يُسْمِعُه ما يكره، ويستَخِفُّ به، ويَعرِضُ له بالأذى. فلما رأى ذلك خافَه وتيقن السوءَ، فلما قبض

---

(١) المراد بقوله «استرجع» أي قال: «إنا للّه وإنا إليه راجعون».

(٢) القولنج: (يوناني) معناه وجع الأمعاء وهو في الحقيقة مغص قوي مشتد النخس يقال لنوع منه إيلاوس يقيء الأبراز ويخيل أنه يثقب الجنب ويفارق المغص بالثقل وعموم الظهر والجنب ووجع الكلى كذلك أيضًا مع ابتدائه من الأيسر وذلك بالعكس... (تذكرة داود الأنطاكي).

القاهرُ على الوزير أبي جعفر أحضر طريفًا وقَبض عليه، فبقي محبوسًا يتوقع الْقتل صباحًا ومساءً إلى أن خُلع القاهر بالله.

وفي هذه السنة أمر القاهر بتحريم الخمرة والغناء وسائر الأنبذة، ونَفَى بعْض مَنْ كان يُعْرفُ بذلك إلى البصرةِ والكوفة وأمر بِبيْع الجواري والمغنيات على أنَّهُنَّ سواذِجُ لا يَعْرِفْنَ الغناء، ثم وضع منْ يشتري له كلَّ حاذقةٍ في صنْعَةِ الغناء، فاشترى له منهن ما أراد بأبْخَسِ الأثمان. وكان القاهر مُشْتهرًا بالغناء والسَّماع، فجعل ذلك طريقًا إلى تحصيل غَرَضِهِ، وهذه نهايةُ في الخِسَّةِ والشُّحِّ، نعوذ بالله من ذلك!

وفيها كان ابتداء الدولة الدَّيلمية البويهية، وسيأْتي ذكرها إن شاء الله تعالى.

وفيها أمر عليُّ بن يلبق - قبل القَبْض عليه - بِلَعْنِ معاويةَ بنِ أبي سفيان وابنه يزيد على المنابر.

ودخلت سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة.

ذكر خلع القاهر وسمله[1] وشيء من أخباره

كان خلع القاهر وسمْلُه في يوم الأربعاء لِستٍّ خلون من جُمادى الأُولى من هذه السنة، وسبب ذلك أنَّ أبا عليٍّ بن مقلةَ والحسنَ بنَ هارون كانا قد استترا من القاهر، وجدَّ في طلبهما فلم يظفر بهما فكانا يراسلان قُوّاد السَّاجية والحجرية ويخوّفانهم من شَرِّه ويذكران غَدْرَه، وأنه لا يتمسَّك بأيْمانه، وأنه قَبَضَ على طريفٍ بعد نُصْحِه له، إلى غير ذلك. وكان ابنُ مقلةَ يجتمع بالقُوّاد ليلاً - تارةً في زيٍّ أعمى وتارةً في زيٍّ مكدٍ وتارةً في زيٍّ امرأةٍ - ويغريهم بالقاهر. ثم إنه أعطى منجمًا كان لِسِيما رئيس الساجية ومقدّمهم مائتي دينار، وأعطاهُ الحسنُ مائةَ دينارٍ فكان يذكر لِسِيما أن طالعه يقتضي أنَّ القاهر ينكُبُه ويقتُلُه. وأعطى ابنُ مقلةَ أيضًا شيئًا لمُعبِّرٍ كان لسيما، فكان يُحذِّره من القاهرِ بالله فازداد نُفورًا ونَقَل إلى سيما أنَّ القاهر يريد الْقَبْضَ عليه، فجمع الساجيةَ وأعطاهم السِّلاح، وأنفذ إلى الحجرية فاجتمعوا وتحالفوا على اجْتماع الكلمة وقَتْلِ منْ خَالَفَ منهم. فاتصل ذلك بالقاهر وبوزيره الخَصيبي فأرسل إليهم «ما الذي حملكم على هذا؟» فقالوا: قد صحَّ عندنا أنَّ القاهر يريد الْقَبْضَ على سيما وقد عمل مطامير[2] ليحبس قوادنا فيها!.

---

(١) سمل العين: فقأها بمسمار أو حديدة محماة.

(٢) المطامير: جمع المطمورة: مكان تحت الأرض قد هيىء ليطمر فيه البر والفول ونحوه؛ أو السجن.

فلما كان في يوم الأربعاء لستٍّ خلون من جُمادى الأُولى اجتمع الساجية والحجرية عند سيما وتحالفوا على القبض على القاهر، فقال سيما: قوموا بنا الساعةَ حتى نُمْضِيَ الْعزم، فإنه إنْ تأخر عَلِم به واحترز وأهلكنا! وبلغ ذلك الوزير فأرسل سلاَّمًا الحاجب وعيسى الحاجب وعيسى الطبيب ليعلماه بذلك، فوجداه نائمًا قد شرب أكثرَ ليلته، فلم يقدر على إعلامه بذلك، وزحف الحجرية والساجيةُ إلى دار الخلافة، ووكل سيما بأبوابها من يحفظها، وبقي هو على باب العامَّةِ وهاجموا الدَّارَ من سائر الأبواب. فلما سمع القاهر الأصوات والجلَبَةَ استيقظ وهو مخمور، وطلب بابًا يهرب منه، فقيل له إن الأبواب جميعها مشحونةٌ بالرجال فهرب إلى سطْح حمام ودخل القومُ فلم يجدوه، فَدلَّهُم خادمٌ صغير على مَوْضِعِه فقصدوه. فإذا بيده سيف فألانوا له واجتهدوا به، فلم ينزلْ وقال: من صعد إليَّ قتلتُه! فأخذ بعضُهم سهمًا وقال: إن نزلتَ وإلا وضَعْتُه في نحرك! فنزل حينئذٍ إليهم وساروا إلى الموضع الذي فيه طريفٌ السبكري فأخرجوه وحبسوا القاهر مكانه واستدعَوْا في تلك الليلة أحمدَ بنَ أبي الحسين الصابىء فكَحلَ القاهر بعد أن أُقيم بين يَدَي الراضي بالله، وسلَّم عليه بالإمارة.

وقيل في سبب خَلْعِه إنه لما تمكَّنَ من الخلافة تنقَّص الساجية والحجريةَ على مَرِّ الأيام حتى كان لا يقضي لأكابرهم حاجةً، ويلزمهم النَّوْبةَ في دارِه، ويؤخر أعطياتهم ويغْلظ لمن يخاطبه منهم في أمرٍ، فأقبل بعضهم ينذر بعضًا ويتشاكون. ثم كان يقول لسلامة حاجبه: أنت بين يَدَيَّ كَنْزُ مال يمشي فأيَّ شيء يتبيَّنُ في مالك لو أعطيتني ألف ألف دينارٍ! فيحمل ذلك على الهزل، وكان وزيره الخَصِيبي خائفًا لما يرى منه.

ثم إنَّه حَفَرَ في الدار نحو خمسين مطمورةً وأحكم أبوابها، فقيل إنها لمقدّمي الساجية والحجرية، فازدادوا نفورًا، ثم إنَّ جماعةً من القرامطة أُخِذُوا من فارس وأُرْسلوا إلى بغداد فحبسوا في تلك المطامير، فتقدم القاهر سِرًّا بفتح الأبواب عليهم والإحسان إليهم، وعَزَم على أن يتَقَوَّى بهم بالقبض على مقدّمي الساجية والحجرية. فأنكروا حالَ القرامطةِ وكونَهم معه في داره وهو يحسن إليهم، وذكروا ذلك لوزيره وحاجبه فقالا له، فأخرجهم من دارِ الخلافةِ وسلَّمهم إلى محمدِ بنِ ياقوت وهو على شُرْطَةِ بغداد فأنزلهم في دارٍ وأحسَن إليهم. ثم صار القاهر يذمُّ الساجيةَ والحجرية في مجْلسه ويظهر كراهتهم، فلما تبينوا ذلك من وجهه وحركاته أظهروا أنَّ لبعض قوادهم عُرْسًا، فاجتمعوا بِحَجْبتِهِ وقرروا بينهم ما أرادوا وافترقوا. وأرسلوا إلى سابور خادم

والدة المقتدر وكان قد اخْتَصَّ به فقالوا له: قد علمتَ ما فعل القاهر بمولاتِك وقد ركبتَ في موافقته كلَّ عظيم فإن وافقتنا على ما نحن عليه وتقدمت إلى الخدم بِحفْظِه فعفا الله عما سلف منك وإلا فنحن نبدأُ بك! فأعلمهم ما عنده من الخوفِ والكراهةِ للقاهر، وأنه موافقهم، هذا وابنُ مقلةَ يسعى كما ذكرنا.

قال: ولما قُبِضَ على القاهر هرب وزيره الخَصيبي وحاجبُه سلامة، فكانت خلافةُ القاهر باللّهِ سنةً واحدةً وستةَ أَشْهُرٍ وثمانيةَ أيام وهو أولُ خليفةٍ سُمِلَ، ولم يزل في دار السلطان إلى أن أخرجه المستكفي بالله في شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة وردَّه إلى داره فأقام مدةً ثم خرج إلى جامع المنصور في يوم الجمعة، وقام فعرَّفَ النَّاسَ نَفْسَهُ وتصدَّقَ منهم وقال: أنا خليفتكم بالأمس وسائلكم اليوم! فأعطاه ابنُ أبي موسى أَلْف درهم وردَّه إلى داره وتوفي في خلافة المطيع في يوم الجمعة ثالث جُمَادى الآخرة سنةَ تسع وثلاثين، ودُفن في دار طاهر وله اثنتان وخمسون سنةً. وكان أبيضَ يعلوه حمرة مربوعًا أعين[1] وافر اللحية ألثغ شديدَ الإقدام على سَفْكِ الدِّماء، أهوجَ مُحِبًا لجمع المال قبيحَ السياسة. وقد تقدم من أفعاله وضَرْبِه لوالدة أخيه المقتدر ومصادرتِها ومصادرة أولاد أخيه وأمهات أولاده ما يُستدل به على قبح أفعاله وسوءِ طَوِيَّتِه وعدم تمسكه بما يبذله من الأيمانِ المغلَّظة والعهود المؤكَّدةِ ثم لا يقف عند ذلك. وكان نقش خاتمه «محمد رسول الله» وكان له من الأولاد أبو الفضل عبد الصمد وأبو القاسم عبد العزيز وهو ولي عهده.

وزراؤه: أبو علي بن مقلة، ثم محمد بن القاسم، ثم أحمد بن عبد الله الخَصيبي.

حُجَّابُه: علي بنُ يلبق، ثم سلامة الطولوني.

قاضيه: عمر بن محمد بن يوسف.

الأُمراء بمصر: تَكين ثم محمد بن طُغْج الفَرْغاني المعروف بالإخشيد، ثم أحمد بن كَيْغَلَغ، وتغلَّب محمد بن تكين في أيامه ثم عاد الأمر إلى ابن كَيْغَلغ.

القضاة بها: ولَّى القاهرُ محمد بن الحسين بن أبي الشوارب فاسْتَخْلَف أبا جعفر أحمد بن عبد الله بن قُتَيْبَة فشغب الرعية عليه ولم يزل إلى أن صُرِف ابن أبي الشوارب، ورد القضاء إلى أبي عثمان أحمد بن إبراهيم بن حماد وإلى عبد الله بن موسى السرخسي.

---

(١) الأعين: الذي اتسعت عينه وحسنت.

ذكر خلافة الراضي بالله

هو أبو العباس أحمد بن المقتدر بالله أبي الفضل جعفر بن المعتضد بالله، وأُمه أُم ولد اسمها ظَلوم، وهو الخليفةُ العشرون من الخلفاء العباسيين بويع له بعد خلع عمِّهِ القاهرِ في يوم الأربعاء لستٍّ خلون من جُمادى الأُولى سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة، وذلك أنه لما قُبض القاهر كما ذكرناه سألوا الخدم عن المكان الذي هو فيه وكان محبوسًا هو ووالدته، فَدلُّوهم عليه فقصدوه وفتحوا عليه وسلّموا عليه بالخلافةِ وأخرجوه وأجلسوه على سرير القاهر بالله ولقبوه الراضي بالله، وبايعه القُوَّادُ والناسُ، وأُقيم القاهر بين يديه وسلَّم عليه بالإمارة..

قال: ولما ولي أمر بإحضار عليِّ بنِ عيسى وزيرِ المقتدر بالله وأخيه عبد الرحمٰن وصدر عن رأْيهما فيما يفعله. وأراد عليَّ بنَ عيسى على الوزارةِ فامتنع، لِكِبره وضَعْفِهِ، وأشار بابن مقلة ثم قال سيما للراضي بالله: إن الوقت لا يحتمل أخلاق عليٍّ وابنُ مقلةَ أليق، فكتب له أمانًا فحضر واستوزره.

فلما وزَر أحسن إلى كلٍّ من أساء إليه وقال عاهدتُ الله عند اسْتِتَاري بذلك! وأرسل إلى الخَصيبي وعيسى الطبيب بالأمان فظهرا، فأحسن ابنُ مقلةَ إليهما، فاستعمل الخصيبي واستعمل أبا الفضل بن جعفر بن الفرات نائبًا عنه على سائر الأعمال بالموصل والجزيرة وديار بكر وطريق الفرات والثغور الجزيرية والشامية، وأجناد الشام ومصر. واستعمل الراضي بالله على الشرطة بدرًا الخرشني[1] واستعمل محمد بن ياقوت على الحجبة ورئاسة الجيش، وأدخل يده في أمر الدواوين، وتقدم إليهم بأن لا يقبلوا توقيعًا بولايةٍ وعزلٍ وإطلاقٍ إلا إذا خَطُّه عليه، وأمرهم بحضور مجلسه فصبر ابنُ مقلةَ على ذلك وألزم نفسه بالمصير إلى دار ابن ياقوت في بعض الأوقات كالمتعطل.

ذكر مقتل هارون بن غريب

في هذه السنة قُتل هارون بن غريبِ الخالِ، وسبب ذلك أن القاهر باللّهِ كان استعمله على ماه الكوفةِ وماسبذان وغير ذلك كما ذكرناه. فلما استخلف الراضي بالله رأى هارونُ أنه أحق بالدولةِ من غيره لِقَرابتِه من الراضي بالله. وكاتَب القُوَّاد ببغداد

(١) نسبة إلى خرشنة؛ وهي بلد قرب ملطية من بلاد الروم.

يعدهم الإحسانَ والزيادة في الأرزاق، ثم سار من الدّينور إلى خانقين(١)، فعظم ذلك على ابن مقلة وابن ياقوت والحجرية والساجية، وشكوا ذلك إلى الراضي بالله فأعلمهم أنه كاره له وأذن لهم في منعه. فراسلُوا له وبذلوا طريقَ خراسان زيادةً على ما بيده، فلم يقنعْ وتَقدَّم إلى النَّهْرَوَان(٢) وشَرع في جِبايةِ الأموال، وظَلَم النَّاس وعسفَهم وقَويتْ شوكته. فخرج إليه محمدُ بنُ ياقوتِ في سائرِ جيوش بغداد ونزل قريبًا منه، فهرب بعض أصحاب محمد بن ياقوت إلى هارون. فراسله ابن ياقوت يستميله، ويبذل له فقال: لا بُدَّ من دخول بغداد!

فلما كان في يوم الثلاثاء لِستٍّ بقين من جُمادى الآخرة تزاحف العسكران واشتد القتال فاستظهر أصحاب هارون لكثرتهم، وانهزم أكثر من مع ابن ياقوت ونهب أكثر سوادهم وكَثُر فيهم الْقَتْلُ والجراح، فسار محمد حتى قطع قنطرة نهر هناك. فبلغ ذلك هارون، فسار نحو القنطرة منفردًا عن أصحابه طمعًا في أسر محمد بن ياقوت وقتله، فتقنطر به فرسُه فسقط عنه في ساقية فلحقه غلام له اسمه يمن فضربه بالطبرزين حتى أثخنه وكسر عظامه ثم نزل إليه فذبحه، ثم رفع رأسه وكبّر فانهزم أصحابُه وتفرقوا ودخل بعضُهم بغداد سِرًّا. ونُهِب سوادُ هارون، وقُتل جماعةُ قوادِه، وأُسر جماعةٌ، وسار محمد إلى موضع جثة هارون فأمر بحملها إلى مضربه وأمر بغَسْلِه وتكفينه وصلَّى عليه ودفَنَه، ودخل بغداد ورأسُ هارونَ بين يديه ورؤوس جماعةٍ من قواد هارون فنُصبتْ ببغداد!.

ذكر مقتل ابن الشلمغاني ومذهبه

في هذه السنة قتل أبو جعفر محمد بن علي الشَّلَمْغاني المعروف بابن أبي العراقيد، وشَلَمغان التي ينسب إليها قرية بنواحي واسط، وكان سبب ذلك أنه قد أحدث مذهبًا غاليًا فِي التشُّيع والتناسخ وحلول الإلهية فيه، إلى غير ذلك، وكان ظهورُه في مبدأ وزارة حامد بنِ العباس أحدِ وزراء المقتدر بالله، ثم اتصل الشَّلَمْغَاني بالمحسن بن الفرات في وزارة أبيه الثالثة، ثم طُلب في وزارة الخاقاني فاستتر وهرب

(١) خانقين: بلدة من نواحي السواد في طريق همذان من بغداد، بينها وبين قصر شيرين ستة فراسخ لمن يريد الجبال. . . قيل: بها عين للنفط عظيمة كثيرة الدخل، وبها قنطرة عظيمة على واديها تكون أربعة وعشرين طاقًا. . . (معجم البلدان).

(٢) النهروان: هي ثلاثة نهراوات: الأعلى والأوسط والأسفل، وهي كورة واسعة بين بغداد وواسط من الجانب الشرقي حدها الأعلى متصل ببغداد وفيها عدة بلاد متوسطة. . . (معجم ياقوت).

إلى الموصل. وبقي سنين عند ناصر الدولة بن حمدان، ثم انحدر إلى بغداد واستتر، ثم ظهر عنه أنه يدَّعي الربوبيةَ لنفسه. وقيل إنه اتَّبعه على ذلك الحسينُ بن القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب الذي وزر للمقتدر بالله، وأبو جعفر، وأبو علي ابنا بسطام، وإبراهيم بن محمد بن أبي عون، وابن شبيب ويزيد وأحمد بن محمد بن عبدوس.. كانوا يعتقدون ذلك فيه وظهر ذلك عنهم، وطُلبوا في وزارة ابن مقلة للمقتدر فلم يوجدوا.

فلما كان في شوال سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة ظهر ابن الشَّلْمَغانيّ فَقَبضَ عليه الوزيرُ ابنُ مقلةَ وسجنَه وكبس داره فوجد فيها رِقاعًا وكتبًا ممَّن يدعي فيه الربوبيةَ يخاطبونه بما لا تخاطب به البشر بعضهم بعضًا. وفيها خط الحسين بن القاسم، فعرضت الخطوط عليه فأقَرَّ أنها خطوطُهم وأنكر مذهَبه، وأظهر الإسلامَ وتَبرَّأ مما يقال فيه. فأُخِذَ ابنُ أبي عون وابن عبدوس فأُحضرا معه عند الخليفة وأُمِرا بصفعه فامتنعا، فلما أُكرها صفعه ابن عبدوس، ومدَّ ابن أبي عون يده إلى لحيته ورأسه فارتعدت يده فَقَبَّل لحيتَه ورأسه وقال: إلهي وسيدي ورازقي! فقال له الراضي: قد زعمت أنك لا تَدَّعِي الإلهية فما هذا؟ فقال: وما عليّ مِنْ قَوْلِ ابن أبي عون، والله يعلم أنني ما قلتُ له إني إله قط! فقال ابنُ عبدوس: إنه لم يدَّعِ الإلهيةَ وإنما ادَّعى أنه البابُ إلى الإمام المنتظر مكان الحسين بن روح!

ثم أُحْضِروا عدةَ مراتٍ ومعهم القضاةُ والفقهاءُ وغيرهم، وفي آخر الأمر أفتى الفقهاءُ بإباحة دمِه فَصُلِب هو وابن أبي عون، وأُحْرِقا بالنَّار في ذي القعدة. وكان الحسينُ بن القاسم بالرَّقَّة[1] فأرسل الراضي بالله إليه فقتل في ذي القعدة، وحُمِلَ رأْسه إلى بغداد.

وكان مذهب الشلمغاني أنه إله الآلهة بحقِّ الحق، وأنه الأول القديم، الظاهر الباطن، الرازق التام، المومأ إليه بكلِّ معنى. وكان يقول: إن الله سبحانه وتعالى يحلُّ في كل شيء على قدر ما يحتمل، وإنه خَلَقَ الضِّدَّ ليدلَّ على المضدود، فمن ذلك أنه حلَّ في آدم عليه السلام لما خلقه، وفي إبليس لما خلقه وكلاهما ضِدٌّ لِصاحِبه لمضادته إياه في معناه، وأنَّ الدليلَ على الحقِّ أفضلُ من الحقِّ، وأن الضد أقرب إلى الشيء من شبيهه، وأن الله عزَّ وجلَّ إذا حلَّ في جسدِ ناسوتي أظهر من المقدرة

(١) الرقة: بفتح أوله وثانيه وتشديده: هي مدينة مشهورة على الفرات، بينها وبين حران ثلاثة أيام، معدودة في بلاد الجزيرة لأنها من جانب الفرات الشرقي... (معجم البلدان).

المعجزة ما يدل على أنه هو، وأنه لما غاب آدم ظهر اللاهوتُ في خمسةِ ناسوتيةٍ كلما غاب منهم واحد ظهر مكانه آخر في خمسة أبالسة أضدادٍ لتلك الخمسة، ثم اجتمعت اللاهوتيةُ في إدريسَ وإبليسهِ وتَفَرَّقَتْ بعدهما كما تفرقت بعد آدم، واجتمعت في نوح عليه السلام وإبليسهِ وتفرَّقت بعدهما، واجتمعت في صالح وإبليسه عاقرِ الناقة وتفرقت بعدهما، واجتمعت في إبراهيم عليه السلام وإبليسه نمرود وتفرقت لمَّا غابا واجتمعت في موسى وإبليسه فرعون وتفرقت بعدهما، واجتمعت في سليمان وإبليسه وتفرقت بعدهما، واجتمعت في عيسى وإبليسه فلما غابا تفرقت في تلاميذ عيسى وأبالستهم، ثم اجتمعت في علي بن أبي طالب وإبليسه.

وإنَّ الله يظهر في كل شيء وكلِّ معنى، وإنه في كل أحد بالخاطر الذي يخطُر في قلبه فيتصوَّرُ له ما يغيب عنه حتَّى كأنه يشاهده. وإن الله اسم لمعنىً، وإن من احتاج الناس إليه فهو إله، ولهذا المعنى يستوجب كل أحد أن يسمّى إلهًا، وأن كل أحد من أشياعه لعنه الله يقول: إنه ربٌّ لمن هو في دون درجته. وأن الرجل منهم يقول «أنا رب لفلان وفلان رب ربي» حتى يقع الانتهاء إلى ابن الشلمغاني فيقول: أنا رب الأرباب لا ربوبية بعده! ولا ينسبون الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما إلى عليٍّ، لأن من اجتمعت له الربوبية لا يكون له ولد ولا والد.

وكانوا يسمون موسى ومحمدًا صلوات الله عليهما الخائنين، لأنهم يدّعون أن هارون أرسل موسى وعليًّا أرسل محمدًا فخاناهما. ويزعمون أن عليًّا أمهل محمدًا عدة سنين أصحاب الكهف فإذا انقضت العدة وهي ثلاثمائة وخمسون سنة انتقلت الشريعة.

ويقولون: إن الملائكة كل من ملك نفسه وعرف الحق، وإن الجنةَ معرفتُهم وانتحالُ مذهبهم والنار الجهلُ بهم والعدولُ عن مذهبهم ويعتقدون تَرْكَ الصلاةِ والصيام وغيرِهما من العبادات، ولا يتناكحون بعقد ويبيحون الفروج، ويقولون: إن محمدًا ﷺ بعث إلى كبراء قريش وجهابذة[1] العرب ونفوسهم أبيه فأمرهم بالسجود، وإن من الحكمة الآن أن يُمْتَحنَ النَّاسُ بإباحة فروج نسائهم، وإنه يجوز أن يجامع الإنسانُ مَنْ شاء من ذوي رحِمه وحُرم صديقه وابنه بعد أن يكون على مذهبه، وإنه لا بدَّ للفاضلِ منهم أن ينكح المفضول ليولج النورَ فيه، ومن امتنع من ذلك قُلِبَ في الدور الذي يأْتي بعد هذا العالم امرأةً؛ إذ كان مذهبهم التناسخ.

---

(١) جهابذة: جمع الجهباذ: وهو النقاد الخبير بغوامض الأمور.

وكانوا يعتقدون إهلاك الطالبيين والعباسيين، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علوًّا كبيرًا! وهذه المقالة شبيهةٌ بالمقالة النصيرية، فإنهم يعتقدون في ابن الفرات، ويجعلونه رأسًا في مذهبِهِم.

ذكر ظهور إنسان ادّعى النبوة

وفي هذه السنة ظهر بباسند[١] من أعمال الصغانيان رجل ادّعى النبوة فقصده فوج بعد فوج واتّبعه خلقٌ كثير وحارب من خالفه، فقتل خلقًا كثيرًا ممن كذبه، وكثر أتباعه خصوصًا من أهل الشاش[٢]. وكان صاحبَ حِيَلٍ ومخاريق، وكان يدخل يده في حوض ماء فيخرجها مملوءةً دنانير إلى غير ذلك من المخاريق، فكثر جمْعُه. فأنفذَ إليه، أبو علي بن المظفر، جيشًا فحاربوه وضيّقوا عليه ـ وهو فوق جبلٍ عالٍ ـ حتى قبضوا عليه، وقتلوه وحملوا رأسه إلى أبي علي، وقتلوا خلقًا كثيرًا ممن اتبعه وآمن به. وكان يدَّعِي أنه متى مات عاد إلى الدنيا، فبقي جماعة كبيرة بتلك الناحية مدةً طويلةً على ما دعاهم إليه ثم اضمحلوا وفنوا.

وفيها سار الدمستق قرقاش في خمسين ألفًا من الروم فنازل مَلَطْية وحصرها مدةً طويلة حتى هلك أهلها بالجوع، وضرب خيمتين على إحداهما صليبٌ وقال: مَنْ أراد النصرانية انحاز إلى خيمة الصليب لِيُردَّ عليه أهله وماله، ومن أراد الإسلام انحاز إلى الخيمة الأُخرى وله الأمان على نَفْسِه ونبلغه مأمنه، فانحاز أكثر المسلمين إلى خَيْمةِ الصّليب طمعًا في أهلِهم ومالِهم. وسيَّر مع الباقين بطريقًا يبلغهم مأْمنهم، وفتحها بالأمان في مستهل جُمادى الآخرة، وملكوا شِمْشَاط[٣]. وخرَّبوا الأعمال، وأكثروا القتل، وفعلوا الأفاعيلَ الشنيعةَ، وصار أكثر البلاد في أيديهم.

---

(١) باسند: مدينة فيما وراء النهر، وهي في الصغانيان الولاية الضخمة التي تتصل بأعمال ترمذ، ومشاربها من أنهار تمد إلى جيحون، وهي شديدة العمارة كثيرة الخيرات. . . (معجم البلدان).

(٢) الشاش: بالشين المعجمة: بالري قرية يقال لها شاش، النسبة إليها قليلة، ولكن الشاش التي خرج منها العلماء ونسب إليها خلق من الرواة والفصحاء فهي بما وراء النهر ثم ما وراء نهر سيحون متاخمة لبلاد الترك وأهلها شافعية المذهب. . . (معجم البلدان لياقوت).

(٣) شمشاط: بكسر أوله، وسكون ثانيه، وشين مثل الأولى، وآخره طاء مهملة: مدينة بالروم على شاطىء الفرات شرقيها بالوية وغربيها خرتبرت.

ودخلت سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة.

ذكر القبض على ابني ياقوت

في هذه السنة في جُمادى الأُولى قبض الراضِي بالله على محمد والمظفر ابني ياقوت، وكان سبب ذلك أن الوزير أبا علي بن مقلة كان قد قَلِقَ لتحكُّم محمدِ بنِ ياقوت في الدولة بأسرها، وأنه هو ليس له حكم في شيء، فَسعى به إلى الرَّاضي وأدام السِّعاية. فلما كان في خامس الشهر ركب جميع القواد إلى دارِ الخليفة على عادتهم، وحضر الوزير وأظهر الرَّاضي أنه يريد يقلد جماعةً من القواد أعمالاً، وحضر محمد بن ياقوت للحجبة ومعه كاتبه أبو إسحاق القراريطي. فخرج الخدم فاستدعوا محمد بن ياقوت إلى الخليفة فدخل مبادِرًا، فعدلوا به إلى حجرة هناك فحبسوه، ثم استدعوا القراريطي فدخل فعدلوا به إلى حجرة، ثم استدعوا المظفر من بيته وكان مخمورًا فحبسوه أيضًا، وأنفذ الوزير ابن مقلة إلى دار محمد من يحفظها من النَّهْب، وكان ياقوت حينئذ مقيمًا بواسط، فلما بلغه القبض على ابنيه انحدر يطلب فارس ليحارب ابن بويه، وكتب إلى الراضي باللّهِ يستعطِفُه ويسألُ إيفادَ ولَدَيْه ليساعداه على حرْبِه.

ذكر حال أبي عبد الله محمد البريدي وتقدمه

في هذه السنة قَوي أمْرُ أبي عبد الله البريدي وعظُم شأْنُه، وسببُ ذلك أنه كان ضامنًا لأعمال الأهواز، ثم استولى عليها عسْكَرُ مرداويج الدَّيْلمي، وهزم ياقوت، فجاء إلى البصرة وصار يتصرف في أسافل أعمال الأهواز مضافًا إلى كتابة ياقوت. وادّعى أخواه ـ وكان إليهما ضمان السوس وجُنْديسابور[1] ـ أنَّ دَخْل البلاد لسنة اثنتين وعشرين أَخَذَه عسْكَرُ مرداويج وأنَّ دخْلَ البلاد لسنةِ ثلاث وعشرين لا يحصل منه شيء، لأنَّ نُوَّاب مرداويج ظلموا الناس فلم يبْقَ لهم ما يزرعونه. وكان الأمر بِضِدِّ ذلك في السنتين، فبلغ ذلك الوزير ابن مقلة فأنفذ نائبًا له ليحقِّقَ الحالَ فواطأ ابني البريدي وكتب بصدقهما فحصَّل لهما بذلك مالاً عظيمًا وقويت نفوسهما وكان مبلغ ما أَخَذَاه أربعة آلاف ألف دينار.

(١) جنديسابور: بضم أوله، وتسكين ثانيه، وفتح الدال، وياء ساكنة، وسين مهملة، وألف، وباء موحدة مضمومة، وواو ساكنة، وراء: مدينة بخوزستان بناها سابور بن أردشير فنسبت إليه وأسكنها سبي الروم وطائفة من جنده. . . (معجم البلدان).

وفيها قَتل ناصرُ الدولة بن حمدانَ عمَّه أبا العلاء بن حمدان، وسبب ذلك أن أبا العلاء سعيدًا ضمن الموصل وديار ربيعة سرًّا، وكان بها ناصر الدولة أميرًا. فلما وصل إلى الموصل خَرج ابنُ أخيه للقائه فخالفه في الطريق قَصْدًا منه، فوصل أبو العلاء ودخل دار ابن أخيه وقعد ينتظره، فأنفذ ناصر الدولة جماعةً من غلمانه فقبضوا عليه ثم أنفذ جماعة غيرهم فقتلوه.

ذكر مسير ابن مقلة إلى الموصل وما كان بينه وبين ناصر الدولة

قال: لما قَتَل ناصرُ الدَّوْلةِ عمَّه أبا العلاء واتَّصل خَبَرُه بالراضي بالله عظُم ذلك عليه وأنكره، وأمر الوزيرَ ابنَ مقلةَ بالمسير إلى الموصل، فسار إليها في شعبان بالعساكر. فلما قاربها رَحلَ عنها ناصر الدولة ودخل الزوزان[1]، وتبعه الوزير إلى جبل التنِّين[2] ثم عاد عنه، وأقام بالموصل يجبي أموالَها. فلما طال مقامُه بالموصل احتال بعضُ أصحاب ابن حمدان على ولد الوزير - وكان ينوب عنه في الوزارة ببغداد - فبذل له عشرةَ آلافِ دينار ليكتب إلى أبيه يستدعيه فكتب إليه يقول: إن الأُمور بالحَضْرَةِ قد اخْتلَّتْ وإنَّ تأَخُّرَه لم يؤمن معه حدوث ما يبطل أمرهم. فانزعج الوزير لذلك، واستعمل على الموصل عليَّ بنَ خلف بن طباب وماكرد الدَّيْلَمي - وهو من الساجية - وانحدر إلى بغداد في منتصف شوال. فلما فارق الموصل عاد إليها ناصر الدولة بن حمدان فاقتتل هو وماكرد الديلمي، فانهزم ابن حمدان. ثم عاد وجمع عسكرًا آخر، والتقوا على نصيبين[3] في ذي الحجة فانهزم ماكرد إلى الرَّقَّة ثم إلى بغداد، وانحدر ابنُ طباب أيضًا، واستولى ابنِ حمدان على الموصل والبلادِ وكتب إلى الخليفة يسأله الصُّلْح وأن يضْمنَ البلاد فأُجيب إلى ذلك. وفيها في المحرم قَلَّدَ الراضي بالله ولَدَيْه أبا جعفر وأبا الفضل ناحيتي المشرق والمغرب مما بيده، وكتب بذلك إلى البلاد.

---

(١) الزوزان: بفتح أوله وثانيه ثم زاي أخرى، وآخره نون: كورة حسنة بين جبال أرمينية وبين أخلاط وأذربيجان وديار بكر والموصل، وأهلها أرمن وفيها طوائف من الأكراد... (معجم ياقوت).

(٢) تنين: بكسرتين وتشديد النون، وياء ساكنة، ونون أخرى: جبل التنين مشهور قرب جبل الجودي من أعمال الموصل... (معجم البلدان).

(٣) نصيبين: بالفتح ثم الكسر ثم ياء: هي مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام وفيها وفي قراها على ما يذكر أهلها أربعون ألف بستان، بينها وبين سنجار تسعة فراسخ وبينها وبين الموصل ستة أيام... (معجم البلدان).

وفيها في ليلة الثاني عشر من ذي القعدة انْقَضَّتِ الكواكبُ انقضاضًا دائمًا مستمرًا من أوَّل الليل إلى آخره، وهي الليلةُ التي أوْقَع القرمطي فيها بالحجاج.

وفيها مات محمد بن ياقوت في الحبس، واتهم ابن مقلة أنه سمّه وأطلق أخوه المظفر من الحبس بشفاعةِ ابنِ مقلة، وحَلَف للوزير أنه يواليه ولا ينحرف عنه ولا يسعى له ولا لولده بمكروه فلم يفِ له.

وفيها أرسل الوزير ابنُ مقلةَ رسولاً إلى محمد بن رائق بواسط، وكان قَطَعَ الحِمْلَ عن الخليفة فطالبه بارتفاع أموال واسط والبصرة وما بينهما فأحسن إلى رسوله وَرَدَّه برسالةٍ ظاهرة إلى ابن مقلة يغالطه، وأُخرى باطنة إلى الخليفةِ الراضي باللّهِ مضمونُها أنه إنِ اسْتُدْعِي إلى الحضور وَفُوِّضَتْ إليه الأمورُ وتدبير الدولة، قام بجميع ما يحتاج إليه من نفقات الخليفة وأرزاق الجند. ولما سمع الخليفةُ، لم يُعِدْ إليه جَوَابها.

ودخلت سنةُ أربعٍ وعشرين وثلاثمائة.

ذكر القبض على الوزير ابن مقلة ووزارة عبد الرحمٰن بن عيسى وغيره

في هذه السنة عَزَم الوزيرُ على المسير إلى ابنِ رائقٍ لما عاد رسوله بغير مال، وحضر إلى دار الراضي في منتصف جُمادى الأُولى. فلما حضر الدَّارَ قبض عليه المظفر بن ياقوت والحجرية وأعلموا الراضي بذلك، فوافق رأيه فيه، واستحسن فِعْلَهُم. واختفى أبو الحسين بن أبي علي بن مقلة الوزير، وسائر أولادِه، وحُرمُه وأصحابُه. وطلب الحجرية والساجية من الخليفة أن يشير بوزيرٍ فَرَدَّ الاختيار إليهم، فأشاروا بوزارة علي بن عيسى، فأحضره الراضي بالله، فامتنع وأشار بأخيه عبد الرحمٰن فاستوزره. وسُلِّم إليه ابنُ مقلةَ فصادره، ثم عجز عبد الرحمٰن عن تمشية الأُمور وضاق عليه المال فاستعفى من الوزارة وقبض عليه وعلى أخيه عليّ في سابع شهر رجب، واستُوزِر أبو جعفر محمد بن القاسم الكرخي، وخلع عليه وسُلِّم إليه علي بن عيسى فصادره على مائة ألف دينار، وصادر أخاه عبد الرحمٰن بسبعين ألف دينار.

وفيها قتل ياقوت، وعظم البريدي وإخوته، وكان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر عزل أبي جعفر ووزارة سليمان بن الحسن

قال: ولما تولى أبو جعفر الكرخي الوزارة رأى قلة الأموال وانقطاع المواد فعجز عن تدبير الحال. وضاق الأمر عليه، وقطع ابنُ رائقٍ حِمْلَ واسط والبصرة، وقطع البريدي حِمْلَ الأهواز وأعمالها. وكان ابنُ بويه قد تغلب على فارس، فتحير أبو جعفر وكثرت المطالبات عليه ونَقُصتْ هيْبتُه، فاستتر بعد ثلاثة أشهر ونصف من وزارته، فاستوزر الراضي أبا القاسم سليمان بن الحسن فكان في الوزارة كأبي جعفر في وقوف الحال وقلة المال!.

ذكر استيلاء ابنِ رائقٍ على العراق وتغلب الملوك على الأعمال وخروجهم عن الطاعة وتغير أحوال الوزارة وإبطال الدواوين

قال: لما رأى الراضي بالله وقوف الحال بالحضرة ألجأته الضرورة إلى أن راسل أبا بكر محمد بن رائق وهو بواسط يعرض عليه إجابته إلى ما كان بذله من القيام بالنفقات وأرزاق الجند ببغداد. فلما أتاه الرسول فرح بذلك وشرع يتجهز للمسير إلى بغداد، فأنفذ إليه الراضي بالله الساجية وقلَّده إمارَةَ الجيش وجعله أمير الأُمراء وولاَّه الخراج والمعاون في جميع البلاد والدواوين. وأمر أن يُخْطَب له على جميع المنابر، وأنفذ إليه الخلع وانحدر إليه أصحابُ الدواوين والكُتَّابُ والحُجَّابُ وتأخر الحجرية. فلما استقر الذين نزلوا إلى واسط بها قَبضَ على الساجيةِ في ذي الحجة ونَهب أموالَهم ودوابَّهم، وأظهر أنه إنما فعل ذلك لِتَتَوفَّر أرزاقُهم على الحجرية، فاستوحش الحجريةُ من ذلك وقالوا: اليومَ لِهؤلاء وغدٌ لنا وخَيَّموا بدارِ الخلافة. وصعد ابنُ رائقٍ إلى بغداد ومعه بجكم، فخلع الخليفةُ عليه في أواخر ذي الحجة، وأتاه الحجريةُ يُسلِّمون عليه فأمرهم بقلع خيامهم فقلعوها وعادوا إلى منازلهم.

وبطُلَت الدواوينُ من ذلك الوقت، فلم يكن الوزير ينظر في شيء من الأمور، إنما كان ابن رائقٍ وكاتبه ينظران في الأُمور جميعها، وكذلك كل من تولَّى إمرةَ الأُمراء بعده، وصارت الأموالُ تحمل إلى خزائنهم فيتصرفون فيها كما يريدون، وبطلت بيوتُ الأموال. وتغلب أصحاب الأطراف وخلعوا الطاعة، ولم يبْق بِيدِ الخليفة غَيْرُ بغداد وأعمالِها، والحكم في جميعها لابن رائقٍ ليس للخليفة حُكْمٌ. وأما باقي الأطرافِ فكانت البصرةُ بِيدِ ابنِ رائقٍ، وخوزستان والأهواز في يد البريدي، وفارس في يد

عِمَادِ الدَّوْلَةِ ابن بويه، وكرمان[١] في يد أبي محمد علي بن إلياس، والري وأصفهان والجبل في يد ركن الدولة بن بويه ويد شمكير أخي مرداويج يتنازعان عليها، والموصل وديار بكر ربيعة ومُضَر في يد بني حمدان، ومصر والشام في يد الإخشيد أبي بكر محمد بن طُغْج والمغرب وإفريقية في يد أبي القاسم القائم بأمر الله بن المهدي، والأندلس في يد عبد الرحمٰن بن محمد الملقب بالناصر الأموي، وخراسان وما وراء النهر في يد نصر بن أحمد الساماني، وطبرستان[٢] وجرجان في يد الدَّيْلم، والبحرين واليمامة في يد أبي طاهر القرمطي.

ذكر وزارة الفضل بن جعفر ابن الفرات

قال: ولما ولي ابن رائق كتب كتابًا عن الراضي بالله إلى أبي الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات يستقدمه للوزارة. وكان يتولى الخراج بمصر والشام، فظن ابن رائق أنه إن استوزر جبى له أموال الشام ومصر، فنفذت إليه الخِلَع قبل وصوله فلقيته بهيت[٣]، فلبسها ودخل بغداد وتولى وزارة الخليفة ووزارة ابنِ رائقٍ جميعًا.

ودخلت سنة خمس وعشرين وثلاثمائة.

ذكر مسير الراضي بالله لحرب البريدي

في هذه السنة أشار ابن رائق على الراضي بالله بالانحدار معه إلى واسط ليقرب من الأهواز ويراسل أبا عبد الله البريدي، فإن أجاب إلى ما يطلَب منه وإلا قرَّب قصده عليه، فأجاب الراضي بالله إلى ذلك. وانحدر أول المحرم فخالف الحجرية وقالوا: هذه حيلة علينا ليعمل بنا مثل ما عمل بالساجية! فلم يلتفت ابن رائق إليهم،

---

(١) كرمان: بالفتح ثم السكون، وآخره نون، وربما كسرت والفتح أشهر بالصحة: هي ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان... (معجم البلدان).

(٢) طبرستان: بفتح أوله وثانيه، وكسر الراء: هي بلدان واسعة كثيرة يشملها هذا الاسم؛ خرج من نواحيها من لا يحصى كثرة من أهل العلم والأدب والفقه... ومن أعيان بلدانها دهستان وجرجان وأستراباذ وآمل، وهي قصبتها، وسارية وهي مثلها، وشالوس، وهي مقاربة لها... (معجم ياقوت).

(٣) هيت: بالكسر وآخره تاء مثناة: هي بلدة على الفرات من نواحي بغداد فوق الأنبار ذات نخل كثير وخيرات واسعة، وهي مجاورة للبرية.

وانحدر ومعه بعضهم، ثم انحدروا بعده. فلما صاروا بواسط اعترضهم ابن رائق فأسقط أكثرهم، فاضطربوا وثاروا فقاتلهم قتالاً شديدًا، فانهزم الحجرية وقتل منهم جماعة. ولما وصل المنهزمون إلى بغداد ركب لؤلؤ صاحب الشرطة ببغدادَ، ولقيهم وأوقع بهم، فاستتروا، فَنُهِبَتْ دورُهم وقبِضَتْ أملاكُهم، وقُطِعَتْ أرزاقهم.

ولما فرغ ابنُ رائقٍ منهم قَتَلَ مَنْ كان قد اعتقله من الساجية سوى صافي الخازن وهارون بن موسى، ثم أخرج مضاربه ومضارب الراضي بالله نحو الأهواز[1]، وراسل البريديَّ في تأخير الأموال وما قد ارتكبه من الاستبداد وإفساد الجيوش إلى غيرِ ذلك، ثم قال له بعد ذلك: إنه إنْ حمل الواجب عليه وسلَّم الجند الذين أفسدهم أُقِرَّ على عملِه وإن أبَى قوبِل بما يستحق. فلما سمع الرسالة جدَّد ضمانَ الأهواز في كل سنة بثلاثمائة ألف وستين ألف دينار يحمل كل شهر بقسطه وأجاب إلى تسليم الجيش إلى مَن يؤمر بتسليمه إليه، ممن يسير بهم إلى قتال ابن بويه إذْ كانوا كارهين للعود إلى بغداد لضيق الأموال بها واختلاف الكلمة. فعقد عليه الضمان وعاد الراضي وابن رائق إلى بغداد فدخلاها في ثامن صفر، وكان هذا القول من البريدي خديعة ومكرًا؛ فإنه ما حمل من المال درهمًا واحدًا ولا سلَّم الجيش.

قال: ثم سعى ابنُ مقاتل عند ابن رائقٍ في عَزْلِ وزيره الحسين بن علي النُّوبختي، وأشار عليه بالاعتضاد بالبريدي وأن يجْعلَه وزيرًا، وبذل له ثلاثين ألفَ دينارٍ، فأجاب ابنُ رائقٍ إلى ذلك بعد امتناعِ شديدٍ وأمر ابنَ مقاتل أن يكتبَ إلى البريديّ أن يرسلَ من ينوبُ عنه في وزارته فكَتب إليه بإنفاذ أحمد الكوفي لينوبَ عنه في وزارة محمد بن رائق فأنفذه واسْتَولَى على الأُمور هو وابن مقاتل، وشرعا في تضمين البصرة من أبي يوسف أخي أبي عبد الله البريدي. فامتنع ابنُ رائقٍ فَخَدعاه حتى أجاب إليه، وكان نائب ابن رائقٍ بالبصرة محمد بن يزداد، وقد أساء السيرةَ وظَلَم أهلَها، فَوعَدَهُم يوسُف ومنَّاهم وذمَّ ابنَ رائقٍ عنده بما كان يفعله ابن يزداد، فدعوا له. ثم أنفذ أبو عبد الله البريديُّ غلامَه إقبالاً في ألْفَي رجلٍ وأمرهم بالمقام بحصن مهدي[2] إلى أن يأْمرَهم بأمرِه، فلما علم ابنُ يزداد بهم علم أن البريديَّ يريد

---

(١) الأهواز: آخره زاي، وهو جمع هَوْز: قيل اسمها هرمزشهر وهي الكورة العظيمة التي ينسب إليها سائر الكور. . . (معجم ياقوت).

(٢) حصن مهدي: بلد من نواحي خوزستان، قال الإصطخري: ليس بخوزستان أعمر وأزكى من نهر المسرقان، ومياه خوزستان من الأهواز والدورق وغير ذلك، تنحدر فيه حتى تنتهي إلى حصن مهدي فيصير هناك نهرًا كبيرًا ذا عرض وعمق، ثم يصب من حصن مهدي إلى البحر. . . (معجم البلدان).

التغلُّبَ على البصرة، وأمر البريديُّ بإسقاطِ بعض ما كان ابنُ يزداد يأْخذُه من أهل البصرة، فاطمأنوا وقاتلوا معه عسكر ابنِ رائقٍ، ثم عطف عليهم بعد ذلك وعمل بهم أعمالاً تَمنَّوْا أيَّام ابنِ رائق وعدُّوها أعيادًا!.

ذكر الوحشة بين محمد بن رائق والبريدي والحرب بينهما

في هذه السنة ظهرت الوحشةُ بينهما، وكان لذلك أسبابٌ منها أن ابنَ رائقٍ لما عاد إلى بغدادَ أمر بظهورِ من اخْتَفَى من الحجرية، واستخدم منهم نحو ألفَيْ رجلٍ، وأمر من بقي بِطَلَبِ أرزاقِهم؛ فخرجوا من بغداد والتحقوا بأبي عبد الله البريديِّ فأكرمهم وأحسن إليهم وذمَّ ابنَ رائقٍ وعابه، وكتب إلى بغدادَ يقول: إني خفتهم فلهذا قبلتهم! وجعلهم طريقًا إلى قطْعِ ما استقر عليه من المال، وذكر أنهم اتفقوا مع الجيش الذي عنده ومنعوه من حملِ المال؛ فأنفذ إليه ابنُ رائقٍ يلزمه بإيفادهم فاعتذر ولم يفعل. ومنها أنه بلغه ما ذمّه به عند أهل البصرة فَساءه ذلك وبلغه مقام إقبال في جيشه بحصن مهدي فعظم عليه، فأمر الكوفي أن يكتب إلى البريدي يعاتبه على هذه الأشياء ويأمره بإعادةِ عَسْكَرِه من حِصْن مهديّ، فكتب إليه في ذلك فأجاب «أن أهلَ البصرة يخافون القرامطة[1] وأنَّ ابنَ يزداد عاجزٌ عن حمايتهم وقد تمسكوا لخوفهم بأصحابي».

فسار ابنُ رائق إلى واسط فبلغ البريدي، فكتب إلى عسكره بحصن مهديٍّ يأمرهم بدخول البصرة وقتال من منعهم، وأنفذ إليهم جماعةً من الحجرية فَقَدِموا وقاتلوا ابن يزداد مرة بعد أُخرى وهُزموا إلى الكوفة، فكتب ابن رائقٍ إلى البريديِّ يأْمره بإعادة أصحابه من البصرة وتهدَّدَه إن لم يفعل، فاعتذر إليه وغالطه!.

ذكر استيلاء بَجْكَم على الأهواز وخروج ابن البريدي منها

قال: ولما وصل جوابُ رسالة ابنِ البريديِّ إلى محمدِ بنِ رائقٍ بالمغالطةِ عن إعادة جُنْدِه مِنَ البصرة استدعى بدرًا الخرشني وخَلَع عليه وعلى بَجكم وسيَّرهما في

(١) القرامطة: فرقة من غلاة الشيعة، نشأت بالعراق واتسع سلطانها بالحجاز، وكان من أهم أغراضها طلب المساواة.

جيش وأمرهما أن يقيما بالجامدة[١]، فبادر بُجكم ولم يتوقف على بدرٍ وسار إلى السوس[٢]، فأخرج إليه البريديُّ جيشًا مع غلامه المعروف بالحمال عدته ثلاثة آلاف مقاتل، فالتقوا واقتتلوا بظاهر السوس. وكان مع بُجكم مائتان وسبعون رجلاً من الأتراك فانهزم أصحابُ البريدي وعادوا إلى صاحبهم فضرب الحمال وسَبَّهُ ووَبَّخهُ على انهزامه ثم ردّه وأضاف إليه مَنْ لم يشهدوا الواقعةَ فبلغوا ستةَ آلافِ رجلٍ.

فلما التقوا انهزموا من غير قتالٍ، فلما رآهم البريدي ركب هو وإخوَته ومَنْ يلزمه في سفينة ومعه ما بقي عنده من المال وهو ثلاثمائة ألفِ دينارٍ فغرقت السفينة بهم، فأخرجهم الغواصُّون وقد كادوا يهلكون، وأخرج الغواصُّون باقي المال لبُجْكَم ووصل أولاد البريدي إلى البصرة وأقاموا بالأُبلة[٣] وأعدُّوا المراكب للهرب إن هُزِم إقبال، وسيَّرَ أبو عبد الله البريدي غلامه إقبالاً إلى مطارا[٤] فالتقوا مع أصحاب ابن رائق فانهزمت الرائقية وأسر منهم جماعة فأطلقهم البريدي، وكتب إلى ابن رائق يستعطفه، وأرسل إليه جماعة من أعيان البصرة فلم يجبهم وطلبوا منه أن يحلف لأهل البصرة ليكونوا معه، فامتنع وحَلَف لئن ظفر بها ليحرقنها ويقتل كل من فيها فازدادوا بصيرة في قتاله واطمأن البريديُّ وأقام بالبصرة.

ثم جهز ابن رائقٍ جيشًا آخر وسيَّره في البَرّ وفي الماء، فالتقى عسكره الذي في البَرّ مع عسكر البريدي فانهزم الرائقية، وأما عسكر الماء فإنهم استولوا على الكلاءِ[٥] فلما رأى أبو عبد الله البريدي ذلك ركب في السفن وهرب إلى جزيرة أوال[٦]، وترك أخاه أبا الحسين بالبصرة في عسكر يحميها. فخرج أهل البصرة مع أبي الحسين لدفع عسكر ابن رائق عن الكلاء فقاتلوهم وأجلوهم عنه فسار ابن رائقٍ بنفسِه من واسط إلى البصرة على الظهر وكتب إلى بجْكم ليلحقَ به فأتاه فيمن عنده من الجند، فتقدَّموا

---

(١) الجامدة: بكسر الميم: قرية كبيرة من أعمال واسط بينها وبين البصرة... (معجم البلدان).

(٢) السوس: بضم أوله، وسكون ثانيه، وسين مهملة أخرى: بلدة بخوزستان فيها قبر دانيال النبي عليه السلام... (معجم ياقوت).

(٣) الأبلة: فرضة البصرة وأحد أحيائها.

(٤) في معجم ياقوت: مطارة: وهو اسم جبل، ومطارة أيضًا: من قرى البصرة على ضفة دجلة والفرات في ملتقاهما بين المذار والبصرة.

(٥) الكلاء: حي مشهور من أحياء البصرة كانت تصل إليه المراكب من الأبلة عن طريق نهر معقل وفيه دار الرزق.

(٦) أوال: بالضم: جزيرة يحيط بها البحر بناحية البحرين، فيها نخل وليمون وبساتين... (معجم البلدان لياقوت).

وقاتلوا أهْلَ البصرة فاشتد القتال. فرجع ابن رائقٍ وبجْكَم إلى معسكرهم، وأما أبو عبد الله البريدي فإنه سار إلى عماد الدولة بن بويه واستجار به وأطمعهُ في العراق وهَوَّنَ عليه أمْرَ الخليفةِ وابنِ رائق، فَنَفَّذَ معه أخاه معز الدولةِ وكان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

قال: ولما سمع ابن رائق إقبالهم من فارس إلى الأهواز سيّر بَجْكَم إليها، ثم قَصَد جماعة من أصحاب البريديِّ عسكر ابنِ رائقٍ ليلاً فصاحوا في جوانبه، فانهزموا. فلما رأى ابن رائقٍ ذلك أمر بإحراق سوَادِه وآلاته لئلا يغنمه البريديون. وسار إلى الأهواز جريدةً[١] وأقام بها أيامًا، وعاد إلى واسط وكان باقي عسكره قد سبقه إليها.

ودخلت سنة ست وعشرين وثلاثمائة.

ذكر استيلاء معز الدولة بن بويه على الأهواز

في هذه السنة سار مُعزُّ الدَّوْلةِ أبو الحسين بنِ بويه إلى الأهواز وتلك النواحي فملكها، وسببُ ذلك ما ذكرناه من مسير أبي عبد الله البريدي إلى عماد الدولة بن بويه وتَرْكِ البريدي ولديه أبا الحسن محمدًا وأبا جعفر الفيّاض عند عماد الدولة رهينةً. وساروا فبلغ الخبر بجْكَم بنزولهم أرّجان[٢]، فسار لحربهم فانهزم من بين أيديهم إلى الأهواز، ثم إلى واسط. وأرسل إلى ابن رائقٍ يعلمه الخبر ويقول له «إن العسكر يحتاج إلى المال فإن كان معك مائتا ألف درهم فأقم بواسط حتى نصل إليك وتنفق فيهم المال وإلا فالرأي أن تعود إلى بغداد» فعاد ابن رائقٍ من واسطٍ إلى بغداد، ووصل بجْكَم إلى واسط.

قال: ودخل معز الدولة بن بويه الأهواز فأقام بها خمسة وثلاثين يومًا، ثم هرب البريدي خوفًا منه على نفسه، وأمر جيشه الذين بالسوس فصاروا إلى البصرة، وكاتب معز الدولة أن يُفْرِج له عن الأهواز حتى يتمكن من ضمانه؛ فإنه كان قد ضمن الأهوازَ والبصرة من عماد الدولة في كل سنةٍ بثمانيةَ عشرَ ألفَ ألفِ درهم. فرحل عنها عسكر مكرم وأنفذ البريدي خليفته إلى الأهواز وأنفذ إلى معز الدولة يذْكر خَوْفَه

(١) جريدة: هي الفرقة من الخيل لا رجالة فيها.

(٢) أرجان: بفتح أوله وتشديد الراء، وجيم وألف ونون: هي مدينة كبيرة كثيرة الخير بها نخيل كثير وزيتون وفواكه الجروم والصرود، وهي برية بحرية، سهلية جبلية، ماؤها يسيح بينها وبين البحر مرحلة، وبينها وبين شيراز ستون فرسخًا... (معجم البلدان).

ويطلب منه أن ينتقل إلى السوس ليبعد عنه ويأمن بالأهواز، فامتنع معز الدولة من ذلك وعلم بجْكَم بذلك فأنفذَ جماعة من أصحابه واسْتَوْلَوا على السوس وجُنْدَيْسَابور وبقيت الأهواز بيد البريدي، ولم يبق مع مُعزِّ الدَّوْلةِ من كور الأهواز إلا عسكر مكرم فاشتد الحال عليه وفارقه بعض جندِه وأراد الرجوع إلى فارس فكتب إلى أخيه عمادِ الدَّوْلة يعرِّفه الحال فأنفذ إليه جيشًا تَقَوَّى بهم، وعاد اسْتَوْلى على الأهواز، وهرب البريدي إلى البصرة. واستقر ابن بويه بالأهواز، وبَجْكَم بواسطِ طامعًا في الاستيلاء على بغداد ومكانِ ابنِ رائقٍ، وهو لا يُظْهِرُ ذلك.

قال: ولمّا رأى أبو الفتح الوزيرُ ببغداد إدبارَ الأُمور أطْمعَ ابنَ رائق في مصر والشام، وصاهره وعقد بينه وبين ابنِ طغْج عهدًا وصهرًا وقال لابن رائق: أنا أجبي لك مال مصر والشام إن سيّرتني إليهما! فسيّره إلى الشام في شهر ربيع الآخر.

ذكر الحرب بين بجكم والبريدي والصلح بعد ذلك

قال: ولما أقام بجْكم بواسطِ وعظم شأنه خافه ابن رائق أن يتغلَّبَ على العراق، فراسل أبا عبد الله البريدي وطلب منه الصلح على بجْكَم، فإذا انهزم تَسلَّم البريديُّ واسطًا وضمنها بستمائة ألف دينار في السنة. فسمع بجْكَم بذلك فاستشار أصحابَه فيما يفعله فأشاروا عليه أن يبتدىءَ بأبي عبد الله البريديِّ وأن لا يهجم إلى حضرة الخلافة ولا يكاشف ابنَ رائقٍ إلا بعد الفراغ من البريديِّ. فجمع عسْكَره وسار إلى البصرة يريد البريدي، فسيّر أبو عبد الله البريديُّ جيشًا بلغت عدَّتهم عشرة آلاف رجل عليهم علامة أبو جعفر محمد الحمال، فالتقوا واقتتلوا فانهزم عسكر البريدي فلم يتبعهم بجكم وكَفَّ عنهم. ثم أرسل إلى البريدي في ثاني يوم الهزيمة يعتذر إليه مما جرَى ويقول له: أنت بدأت وتَعرَّضْتَ لي وقد عفوت عنك وعن أصحابك ولو تبعتهم لقتلت أكثرَهُم، وأنا أُصالحك على أن أُقلدك واسطًا إن ملكت الحضرة وأُصاهرك! فسجد البريدي شكرًا لله تعالى وحلف لبجكم وتصالحا، وعاد إلى واسطِ وأخذ في التدبير على ابن رائق.

ذكر قطع يد ابن مقلة ولسانه

في هذه السنة في منتصف شوال قطعت يد الوزير أبي علي بن مقلة وكان سبب ذلك أنَّ الوزير أبا الفتح بن جعفر بن الفرات لما عجزَ عن الوزارة وسار إلى الشام اسْتَوْزَرَ الراضي بالله أبا علي بن مقلة وليس له من الأمر شيء، وإنما الأمْرُ والنَّهْيُ

لمحمد بن رائقٍ. وكان ابن رائق قد قَبضَ على أموالِ ابنِ مقلةَ وأملاكِه وأملاكِ ابنِه، فخاطبه في ردِّها فلم يفعل، فاستمال أصحابَه وسألهم مخاطبتَه في ردِّها فوعدوه ولم يفعلوا. فلما رأى ذلك سعى بابن رائق فكاتب بجكم يُطْمِعُه في موضعِ ابنِ رائقٍ، وكتب إلى وشمكير مِثْلَ ذلك، وكتب إلى الراضي باللّهِ يشير عليه بالْقَبْضِ على ابنِ رائقٍ وأصحابِه ويضمن أنه يستخرج منهم ثلاثةَ آلافِ ألفِ دينارٍ، وأشار باستدعاء بجكم وإقامته مقام ابنِ رائق فأطمعه الراضي وهو كاره لما قاله، فعجل ابن مقلة وكتب إلى بجْكَم يعرفه إجابةَ الراضي ويستحثه على الحركة والمجيء إلى بغداد. وطلب ابن مقلةَ من الراضي بالله أن ينتقلَ ويقيمَ عنده بدارِ الخلافة إلى أن يتم على ابنِ رائقٍ ما اتَّفَقَا عليه، فأذِن له في ذلك فحضر متنكرًا في آخر ليلةٍ من شهر رمضان. فلما حضر إلى دارِ الخلافةِ لم يصل إلى الراضي وأمر باعتقالِه فاعتُقِل في حجرةٍ.

فلما كان من الغد أرسل الراضي إلى ابن رائقٍ يعرفه الحال، وعرَض عليه خطَّ ابنِ مقلةَ، وما زالت الرسل تتردد بينهما في المعنى إلى منتصف شوال، فأخرج ابنَ مقلةَ من محبسه وقُطِعتْ يدُه، وعولج فبرأ.

ثم كاتب الراضي يخطب الوزارة ويذكر أنَّ قَطْع يده لم يَمْنَعْه من عمله، وكان يشدُّ القَلَم على يده المقطوعةِ ويكتب، فلما قرب بجكم من بغداد سمعَ الخدمَ يتحدثون بذلك فقال: إن وصلَ بجْكَم فهو يستخلصني وأُكافىء ابن رائقٍ! وصار يدعو علَى من ظَلَمه وقَطَع يده، فوصل خَبَرُه إلى الراضي بالله وابن رائقٍ فأمر بقطع لسانِه، ثم نقِلَ في محبسٍ ضَيِّقٍ ولم يكن عنده من يخدمه، فآلت به الحال إلى أن كان يستقي الماءَ من البئر بيده اليسرى ويمسك الحبل بِفيه وناله شقاء شديدٌ إلى أن مات في حادي عشر شوال سنة ثَمانٍ وعشرين وثلاثمائة ودفن بدار الخلافة.

ثم إن أهله سألوا فنُبش وسُلِّم إليهم فدفنوه، ثم نبشته زوجته ودفنته في دارها. ومن العجب أنه ولي الوزارة ثلاث دفعات، وَوَزَرَ لثلاثة خلفاء وسافر ثلاث سفرات اثنتين منفيًا إلى شيراز[١] وواحدة إلى الموصل في وزارته، ودفن بعد موته ثلاث مرات وخُصَّ به من خدمه ثلاثة، وكان في سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة في شهر ربيع الآخر ضرب ابن شَنَّبُوذ[٢] سَبْع درر لقراءات أُنكِرَتْ عليه، فدعا عليه بِقَطْع اليَدِ وتشتيت الشَّمْلِ، فاستجاب الله له!.

---

(١) شيراز: بالكسر وآخره زاي: بلد عظيم مشهور معروف مذكور، وهو قصبة بلاد فارس في الإقليم الثالث... وهي في وسط بلاد فارس، بينها وبين نيسابور مائتان وعشرون فرسخًا... (معجم البلدان).

(٢) هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن أيوب المقرىء البغدادي، توفي سنة ٢٧٤هـ.

ذكر استيلاء بجكم على بغداد وشيء من أخباره وكيف تَنَقَّلَتْ به الحال إلى أن بلغ هذه الرتبة

قال ابن الأثير الجزريّ في تاريخه الكامل: كان بجكم هذا من غلمان أبي العارض وزير ماكان بن كالي الدَّيْلَمي فطلبه ماكانُ منه فوهبه له، ثم فارق ماكان مع مَن فارقه من أصحابه، والتحق بمرداويج، وكان من جملة من قتله، وسار إلى العراق والتحق بمحمد بن رائق. وكان من أمره ما ذكرناه، فلما استقر بواسط تعلقت همته بالاستيلاء على حضرة الخليفة، وهو مع ذلك يظهر التبعية لابن رائقٍ، وكان على أعلامه وترأسه بجكم الرائقي. فلما وصلته كتب الوزير ابن مقلة تذكر أنه اسْتَقَرَّ مع الراضي أن يقلده إمْرة الأُمراء زاد طَمعُه في ذلك وكاشف ابنَ رائق وقلع نسبته إليه من أعلامه، وسار من واسط نحو بغداد في غرة ذي القعدة. واسْتَعَدَّ ابن رائقٍ لحربه وسأل الراضيَ أن يكتب إلى بجكم يأمره بالعوْد إلى واسط، فكتب إليه فلما قرأ الكتاب ألقاه من يده وسار حتى نزل شرقي نهر ديالى[1]. وكان أصحابُ ابنِ رائقٍ على غَيْرِ تَعْبِئَةٍ، فألقى أصحاب بجكم نفوسَهم في الماء فانهزم أصحابُ ابنِ رائقٍ، وعبر أصحاب بجكم وساروا إلى بغداد، وخرج ابن رائقٍ عنها إلى عكبرا[2]. وكان دخول بجكم بغداد في ثالث عشر ذي القعدة، ولَقِي الراضيَ مِن الغَدِ وخلَع عليه وجعله أمير الأُمراء، وكتب كتابًا عن الراضي إلى القواد الذين كانوا مع ابنِ رائقٍ بالرجوع إلى بغداد، ففارقوه جميعهم وعادوا. فلما رأى ابن رائقٍ ذلك عاد إلى بغداد واستتر، فكانت مدة إمارته سنةً واحدةً وعشرة أشهرٍ وستةَ عشرَ يومًا.

ودخلت سنة سبع وعشرين وثلاثمائة.

ذكر مسير الراضي بالله وبُجكَم إلى الموصل وظهور ابن رائقٍ ومسيره إلى الشام

في هذه السنة في المحرم سار الراضي وبجْكَم إلى الموْصِل وديار ربيعة لِقَصْدِ ناصرِ الدَّوْلَةِ بن حمدان، فإنه كان قد أخّر المال المُقرَّر عليه من ضمان البلادِ، فلما

---

(١) ديالى: بفتح أوله، وإمالة اللام: نهر كبير بقرب بغداد وهو نهر يعقوبا الأعظم يجري في جنبها، وهو الحد بين طريق خراسان والخالص، وهو نهر تامرّا بعينه... (معجم ياقوت).

(٢) عكبرا: بضم أوله، وسكون ثانيه، وفتح الباء الموحدة، وقد يمد ويقصر: هو اسم بليدة من نواحي دجيل قرب صريفين وأوانا، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ... (معجم البلدان).

بلغا تكريت أقام الراضي بها وسار بجكم، فلقيه ناصر الدولة بن حمدان على سِتَّةِ فراسخ من الموصل، فاقتتلوا قتالاً شديدًا، فانهزم ابن حمدان إلى نصيبين وتبعه بجكم إليها، فسار إلى آمد[١] ثم وقع الصُلْحُ بينهما على أن يحمل ابن حمدانَ خمسمائة ألف درهم معجلة فأجابه إلى ذلك.

قال: وفي هذه الغيبة ظهر ابن رائق ببغداد واستولى عليها ولم يتعرض لدار الخليفة فعاد الراضي وبجكم إليها فراسلهما ابن رائق في طلب الصلح فأجابا إلى ذلك، فعقد له الخليفة على طريق الفرات، وديار مضر حَرّان والرُّها[٢] وما جاورهما، وجند قنسرين والعواصم، فأجاب ابن رائقٍ أيضًا وسار عن بغداد إلى ولايته، ودخل الراضي وبجكم بغداد في تاسع شهر ربيع الآخر، ثم استولى ابن رائقٍ على الشام ومَلَكَ مدينةَ حِمْص ثم سار إلى دمشق وبها بدْرُ بن عبد الله الإخشيدي المعروف بِبُدَيْر واليًا عليها من قبل الإخشيد، فأخرجه ابن رائق وملكها. وسار إلى الرَّمْلَةِ وإلى عريشِ مصر يريد الدِّيار المصرية، فلقيه الإخشيدُ وحاربه فانهزم الإخشيد. واشتغل أصحابُ ابن رائقٍ بالنَّهْب ونَزلوا في خيم الإخشيدية، فخرج عليهم كمينٌ للإخشيدِ فأوقع بهم وهزمهم، فنجا ابن رائق في سبعين رجلاً ووصل إلى دمشق في أقبح صورة.

فسيَّر إليه الإخشيد أخاه أبا نصر بن طغج في جيشٍ كثيفٍ، فالْتَقَوْا في رابع ذي الحجة سنة ثمانٍ وعشرين فانهزم الإخشيديون وقتل أبو نصر فأخذه ابن رائق وكفَّنه وحمَلَه إلى أخيه بمصر، وأنفذ معه ابنه مزاحمًا، وكتب إلى الإخشيد يعزِّيه بأخيه ويعتذر مما جرى ويحلف أنه ما أراد قَتْلَه، وأنه قد أنقذ ابنَه لِيُقيده به إن أحبَّ ذلك، فَلَقِيَ الإخشيدُ مزاحمَ بنَ محمدِ بنِ رائق بالجميل وخَلَعَ عليه وَرَدَّه إلى أبيه واصطلحا، على أن تكون الرَّمْلَة وما وراءها إلى مصر للإخشيد وباقي الشام لمحمد بنِ رائقٍ، ويحمل إليه الإخشيدُ عن الرَّمْلة في كلِّ سنةٍ مائةَ ألفِ دينارٍ وأربعين ألف دينارٍ.

نعود إلى أخبار الراضي وبجكم.

---

(١) آمد: بكسر الميم: هو بلد قديم حصين ركين مبني بالحجارة السود على نشز دجلة محيطة بأكثره مستديرة به كالهلال، وفي وسطه عيون وآبار قريبة نحو الذراعين، يتناول ماؤها باليد، وفيها بساتين ونهر يحيط بها السور. . . (معجم البلدان).

(٢) الرها: بضم أوله، والمد، والقصر: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام بينهما ستة فراسخ سميت باسم الذي استحدثها، وهو الرهاء بن البلندى بن مالك بن دعر. . . (معجم ياقوت).

ذكر وزارة أبي عبد الله البريدي للخليفة الراضي بالله

وفي سنة سبع وعشرين وثلاثمائة سعى أبو جعفر محمد بن يحيى بن شِيرْزاد وزير بجكم في الصلح بين بَجْكَم والبريديّ حَتَّى تَمَّ وضمن البريديُّ أعمالَ واسطٍ بستمائة ألفِ دينارٍ في كل سنة. ثم شرع ابن شيرزاد في تقليد البريديِّ الوزارة، فأرسل إليه الراضي في ذلك فأجاب إليه، وذلك في شهر رجب واستناب بالحضرة عبد الله بن علي النقري.

قال أبو الفرج عبد الرحمٰن بن الجوزي: كان الحج قد بطَلَ من سنة سبع عشرةَ وثلاثمائة. فلم يحج أحدٌ من العراق، فلما كان في هذه السنة كاتَب أبو علي عمر بن يحيى العلوي القرامطَةَ وسألهم أن يؤمِّنوا الحاج ليسيرَ بهم ويعطيهم عن كل جمل خمسةَ دنانير ومن المُحمَّلِ سبعةَ دنانير، فأذنوا له في الحج فحجّ الناسُ. وهي أوَّل سنة مَكَس[١] فيها الحاجُّ. وخرج في تلك السنة القاضي أبو علي بن أبي هريرة الشافعي فلما طولب بالخفارة[٢] لوى راحلته ورجع وقال: لم أرجع شحًّا على الدراهم ولكن قد سقط الحج بهذا المكْس!

ودخلت سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة.

في هذه السنة سار ركن الدولة أبو علي الحسن بن بويه إلى واسط فنزل بالجانب الشرقي، وكان البريدي بالجانب الغربيّ فاستأمن من أصحاب ابن بويه مائةٌ إلى البريدي. ثم سار الراضي وبجكم من بغداد نحو واسط يريدان حَرْب ابن بويه فعاد إلى الأهواز ثم إلى رامهرمُز[٣].

وفيها استولى بجكم على واسط في ذي الحجة، وسار إليها ففارقها ابن البريدي إلى البصرة، وأسقط بجكم اسم البريدي من الوزارة، وجعل مكانه أبا القاسم سليمان بن الحسن بن مخلد.

---

(١) يقال: مكس الضريبة: إذا قدرها وجباها.

(٢) الخفارة: أجرة الخفير.

(٣) رامهرمز: مدينة مشهورة بنواحي خوزستان تجمع النخل والجوز والأترنج وليس ذلك يجتمع بغيرها من مدن خوزستان. . . (معجم البلدان).

ودخلت سنة تسع وعشرين وثلاثمائة.

ذكر وفاة الراضي بالله وشيء من أخباره

كانت وفاته في منتصف شهر ربيع الأول من هذه السنة، وكانت مدة خِلاَفَتِه سِتَّ سنين وعشرةَ أشهر وعشرةَ أيام، وعمره اثنتان وثلاثون سنة وأشهرًا، وكانت علَّته الاستسقاء، وكان أديبًا شاعرًا، فمن شعره: [من المنسرح]

يَـصْـفَـرُّ وجـهـي إذا مـا تـأمَّـلـهُ ... طـرفـي ويـحـمَـرُّ وجـهـه خـجـلا
حـتـى كـأنّ الـذي بـوجـنـتـه ... مـن دم جـسـمـي إلـيـه قـد نُـقِـلا

وقال يرثي أباه المقتدر بالله: [من الطويل]

ولـو أنَّ حـيًّـا كـان قـبـرًا لـمـيِّـتٍ ... لـصيَّرْتُ أحشائي لأعـظُـمـهِ قـبـرا
ولـو أنَّ عـمـري كـان طَـوْع مشيئتي ... وساعدني التقديرُ قاسمتُه العمرا
بنفسي ثَرى ضاجعتُ في تربةِ البِلى ... لقد ضَمَّ منك الغَيْثَ واللَّيْث والبدرا

وكان سَمْحًا سخيًا، يحبُّ محادثةَ الأُدباء والفضلاء. وكان الراضي بالله أسْمَرَ أغينَ، خفيفَ العارِضَيْن[١]. وختمَ الخلفاءَ في عِدَّةِ أشياءِ فمنها أنه آخرُ خليفةٍ له شعر يُدَوَّن، وأخرُ خليفةٍ خَطَب على المنبر كثيرًا - وإن كان غيره خَطَب نادرًا - وآخرُ خليفة جالس الجلساء ووصَل النُّدماء، وآخرُ خليفة كانت له نفقاته وجوائزه وعطاياه وخزائنه ومطابخه وجراياته وخدّامه وحجّابه وأُموره على ترتيب الخلفاء المتقدمين. وكان له من الأولاد أبو جعفر أحمد، وأبو الفضل عبد الله.

وزراؤه: أبو علي بن مقلة، وابنه الحسن، ثم عبد الرحمٰن بن عيسى، ثم محمد بن القاسم الكرخي، ثم سليمان بن الحسين بن مخلد، ثم الفضل بن جعفر بن الفرات، ثم أبو عبد الله البريدي.

قضاته: عمر بن محمد بن يوسف، ثم ابنه يوسف بن عمر.

حجابه: محمد بن ياقوت، وذكا مولاه.

الأمير بمصر: الإخشيد محمد بن طغج بن جُفّ الفَرْغاني.

(١) العارض: صفحة الخد؛ ويقال: هو خفيف العارضين: أي شعر العارضين.

القضاة بها: محمد بن الحسن بن أبي الشوارب من قبل الراضي واستخلف أبا بكر محمد بن بدر، ثم صرفه بعبد الرحمٰن بن أحمد بن الزين، ثم ولّى الإخشيد الحسين بن محمد بن أبي زُرْعة القضاء، واستخلف له أبا بكر محمد بن أحمد بن الحدّاد الشافعي، ثم ورد العهدُ للحسين بن محمد بن أبي زرعة من قِبَل محمد بن أبي الشوارب، ثم صرفه محمد بأبي نصر يوسف بن عمر بن أبي عمر القاضي، وأقرَّ الحسين بن أحمد إلى أن توفي وأبو بكر بن الحداد خليفته، ثم صرف يوسف بن عمر عن قضائها بمحمد بن أبي الشوارب واستخلف أحمد بن بدر ثانية، ثم صرف ابن أبي الشوارب بالحسين بن عيسى بن هارون فأقرَّ محمد بن بدر، ثم عاد ابن أبي الشوارب فاستخلف عبيد الله بن أحمد بن رزين، ثم استخلف عبد الله بن الوليد من قبلِ الحسين بن علي.

ذكر خلافة المتقي لله

هو أبو إسحاق إبراهيم بن المقتدر بالله أبو الفضل جعفر بن المعتضد بالله، وأُمُّه أُم ولدٍ اسْمُها خَلوبُ. وهو الخليفة الحادي والعشرون من الخلفاء العباسيين، بويع له يوم الأربعاء لعشرٍ بقين من شهر ربيعِ الأول سنةَ تسع وعشرين وثلاثمائة.

قال: ولما مات الراضي بالله بقِيَ الأمْرُ في الخلافة موقوفًا انتظارًا لورود خبرِ من بجْكَم، فإنه كان بواسطِ واحتيط على دار الخلافة. فَوَرد كتاب بَجْكَم مع كاتبه أبي العباس عبد الله الكوفي يأمر فيه بأن يجتمع مع أبي القاسم سليمان بن الحسن وزير الرّاضي وكلُّ مَنْ تَقَلَّدَ الوزارةَ وأصحابُ الدواوين والعلويون والعباسيون والقضاة ووجوهُ البلد ويشاورهم الكوفي فيمن يُنْصَبُ للخلافة مِمَّنْ يَرْضَى مذْهَبه وطريقَه. فجمعهم الكوفي واستشارهم، فذكر بعضهم إبراهيم بن المقتدر وتفرَّقوا على هذا، فلما كان الغدُ اتَّفق النَّاسُ عليه فأحضروه إلى دارِ الخلافة وبويع له في التاريخ الذي تقدم، وعرضت عليه ألقابٌ فاختار منها المتقي لله. وبايعه الناسُ كافَّةً وسيَّر الخِلَعَ واللواءَ إلى بَجْكَم بواسط وكان بجكم بعد موت الراضي وقبل استخلاف المتقي أرسل إلى دار الخلافة أخذ منها فرُشًا وآلاتٍ كان يستحسنها، وجعل سلامة الطولوني حاجبه، وأقَرَّ سليمانَ بنَ الحسين على وزارته وليس له من الوزارة إلا اسمُها والتدبير كله للكوفي كاتب بَجْكم.

ذكر مقتل بجكم

كان سبب قتله أن أبا عبد الله البريدي أنفذ جيشًا من البصرة إلى المذار[١]، فأنفذ بجكم جيشًا إليهم عليه توزون فاقتتلوا قتالاً شديدًا. كانت الحرب أولاً على توزون فكتب إلى بجكم أن يلحق به فسار من واسط في منتصف شهر رجب، فَلَقِيَهُ كِتَابُ توزون «أنه ظفر بهم وهزمهم» فأراد الرجوعَ إلى واسط، فأشار عليه بعض أصحابِه أن يتصيَّد فقبل منه وتصيَّد حتى بلغ نهر جور[٢]، فسمع أن هناك أكرادًا لهم مال وثروة فَشَرِهَتْ نفْسُه في أموالهم فقصدهم في قلةٍ من أصحابه وهو بغير جُنَّةٍ[٣] تقيه، فهرب الأكرادُ من بين يَدَيْه فأتاه غلامٌ من الأكراد من خلفه وطعنه في خاصرته فقتله وهو لا يعرفه، وذلك لأربع بقين من شهر رجب واختلف عسكره فَمَضَى الدَّيْلَمُ خاصةً نحو البريدي ـ وكانوا ألفاً وخمسمائةً ـ فأحسن إليهم وأضعف أرزاقهم وأوصلها إليهم دفعة واحدةً، وعاد الأتراك إلى واسط وكان تكينك محبوسًا بها ـ حبسه بجْكَم ـ فأخرجوه فسار بهم إلى بغدادَ وأظهروا طاعة المتقي. وصار أبو الحسين أحمد بن ميمون يدبِّر الأمورَ.

قال: واستولى المتقي لله على دار بجكم وأخذ ما فيها، وكان مبلغ ما أخذه من دفائنه ألف ألف ومائتي ألف دينار، وكانت مدة إمارة بجكم سنتين وثمانية أشهر وتسعة أيام.

ذكر إصعاد أبي عبد الله البريدي إلى بغداد

قال: لما قُتِلَ بجْكَم وسارت الدَّيْلَمُ إلى أبي عبد الله البريدي تَقَوَّى بهم وعظمتْ شوكته، فأصعدوا من البصرة إلى واسط في شعبان، فأرسل المتقي إليهم يأمرهم أنْ لا يصْعدوا فقالوا: نحن محتاجون إلى مال! فأنفذ إليهم مائةَ ألفٍ وخمسين ألْف دينارٍ، فقال الأتراك للمتقي: نحن نقاتل بني البريديّ فأطلقْ لنا مالاً وانصبْ لنا مُقَدّمًا! فأنفق فيهم وفي جند بغدادَ القدماء أربعمائةَ ألفِ دينارٍ وجعل عليهم سلامةَ الطولوني، وبرزوا مع المتقي لله إلى نهر دَيالى يوم الجمعة لثمان بقين من شعبان.

---

(١) المذار: بالفتح، وآخره راء: في ميسان بين واسط والبصرة وهي قصبة ميسان، بينها وبين البصرة مقدار أربعة أيام... (معجم البلدان).

(٢) نهر جور: بضم الجيم، وسكون الواو، وراء: بين الأهواز وميسان فيما يحسب ياقوت صاحب معجم البلدان.

(٣) الجنة: كل ما وقى.

وسار البريدي من واسط إلى بغداد، فلما قرب منها اختلفت الأتراك البجكمية، واستأمن بعضهم إلى البريدي، وبعضهم استتر وسار إلى الموصل، واستتر سلامة الطولونيُّ وأبو عبد الله الكوفي، ولم يحصل الخليفة إلا على أخراج المال[1]، وَهَمَّ أربابُ النِّعَمِ والأموالِ بالانتقال من بغدادَ خوفًا من ظلم البريدي وَتَهَوُّرِه.

ودخل أبو عبد الله البريدي إلى بغداد في ثاني شهر رمضان ونزل بالشفيعي، ولَقِيَه الوزيرُ أبو الحسين والقضاة والكتَّابُ وأعيان الناس. وأنفذ إليه المتقي يُهنِّئه بالسلامة، وأنفذ له طعامًا وغَيْره عدَّةَ ليالٍ، وكان يخاطَبُ بالوزير، وكذلك أبو الحسين بن ميمون وزير الخليفة، ثم عُزِل أبو الحسين، وكانت مدة وزارته ثلاثةً وثلاثين يومًا، وقَبَضَ عليه وسيَّرَه إلى البصرة فحبسه بها إلى أن مات في صفر سنة ثلاثين وثلاثماية.

قال: ثم أنفذ البريديُّ إلى المتقي لله يطلب منه خمسمائةَ ألفِ دينارٍ ليفرِّقَها في الجند، فامتنع فأرسل إليه يَتَهَدَّدُه ويذكِّرُه بما جرَى على المعتز والمستعين والمهتدي، وترددت الرسائل حتى أنفذ إليه تَمَام خمسمائةِ ألْفِ دينارٍ، ولم يلْقَ أبو عبد الله البريديُّ المتَّقِي مدةَ مقامِه ببغدادَ.

ذكر عود البريدي إلى واسط هاربًا

قال: كان البريدي يأمر الجند بطلب الأموال من الخليفة، فلما أنفذ إليه الخليفة المالَ انصرفت أطماعُ الجند عن الخليفة إلى البريدي، فشغب الجند عليه. وكان الديلم قد قَدَّموا على أنفسِهم كورتكين الديلمي، وقدَّم الأتراك عليهم تكينك التركي غلام بجكم. وسار الدَّيْلمُ إلى دار البريدي فأحرقوا دار أخيه أبي الحسين التي كان ينزلها، وانضاف تكينك التركي إليهم واتفقوا على قَصْدِ البريديِّ ونَهْبِ ما عنده. فساروا إلى النجمي ووافقهم العامة، فقطع البريديُّ الجِسْر ووقعت الحرب في الماء ووثَبَ العامَّة بالجانب الغربي على أصحابِ البريديِّ، فهرب هو وإخوته وابنه وانحدروا في الماء إلى واسط، ونهبت داره ودور قواده، وكان هربُه في سلخ شهر رمضان من السنة.

---

(١) الخراج: الإتاوة.

ذكر إمارة كورتكين الديلمي

لما هرب البريدي استولى كورتكين الديلمي على الأُمور ببغداد، ورَحل إلى المتقي لِلَّهِ فقلَّده إمارةَ الأُمراء، وخلع عليه. واستدعى المتقي عليَّ بنَ عيسى وأخاه عبد الرحمٰن، فأمر عبدَ الرحمٰن فدبَّر الأمر من غير تسميته بوزارة، ثم قبض كورتكين على تكينك التركي في خامس شهر شوال وغرَّقه وتَفَرَّد بالأمر. ثم اجتمع العامَّة يوم الجمعة سادس شوال وتظلموا[1] من الدَّيْلم ونزولِهم في دورِهم فلم يُنْكَرْ ذلك، فمنعوا الخطيبَ مِن الصلاة واقتتلوا هم والدَّيلمُ فقُتِلَ من الفريقين جماعة.

ذكر عود محمد بن رائق إلى بغداد وولايته إمرة الأُمراء

كان سبب عوْدِه أن الأتراك البجكمية لما ساروا إلى الموصل لم يرَوْا عند ابن حمدان ما يريدون، فساروا نحو الشام إلى ابنِ رائق، وكان فيهم من القوَّادِ توزون وجُخجُخ ونوشتكين وصيغون. فلما وصلوا إليه أطمعوه في العَوْدِ إلى العراق، ثم وَصَلَ إليه كُتُبُ المتقي تستدعيه، فسار من دمشق في العشرين من شهر رمضان واسْتَخْلَفَ على الشام أبا الحسن أحمد بنَ علي بن مقاتل، وسار حتَّى وصل إلى الموصل فَتَنحَّى عن طريقه ناصر الدولة بن حمدان، ثم تراسلا وتصالحا على مائة ألف دينار يحملها ناصر الدولة بن حمدان إليه.

وسار ابن رائق إلى بغداد، وخرج كورتكين إلى عكبرا، ووصل إليه ابن رائقٍ فوقعت الحربُ بينهما عِدَّةَ أيام. فلما كان ليلة الخميس لتسع بقين من ذي الحجة سار ابن رائق ليلاً من عكبرا هو وجيشه فأصبح ببغداد، فدخلها من الجانب الغربي، ونزل في النجمي، وعبر من الغد إلى الخليفة فلقيه، وركب المتقي معه.

ووصل في هذا اليوم بعد الظهر كورتكين من الجانب الشرقي بجميع جيشه وهم يستهزئون بأصحابِ ابن رائق ويقولون: أين نزلت هذه القافلة الواصلة من الشام؟ ولما دخل كورتكين بغداد أيس ابن رائقٍ من ولايتها وعزَم على العود، وأمر بحمل أثقاله فَرُفِعَت، ثم عزم على أن يناوشَهم شيئًا من قتالٍ قبل مسيره، فأمر طائفةً من عسكره أن يعبروا دجلة ويأتوا الأتراك من ورائهم. ثم ركب هو في سميرية[2] وركب معه عِدَّةٌ

---

(١) تظلموا: شكوا الظلم.

(٢) السميرية: ضرب من السفن.

من أصحابه في عشرين سميرية ووقفوا يترامون بالنشاب، ووصل أصحابه وصاحوا من خلفهم، واجتمعت العامة وصاحوا على أصحاب كورتكين فانهزم هو وأصحابه واختفى هو. ورَجمتْهُم العامَّةُ بالآجُرِّ وغيره، وَقَوِيَ أمر ابن رائق، وقَتَل من أساء إليه من الدَّيْلم وكانوا نحو أربعمائة، وقتل من قوادهم بضعة عشر رجلًا، وخلع عليه المتقي وجعله أميرَ الأُمراء، ثم ظفر بكورتكين فحبسه بدار الخليفة.

وفي هذه السنة في شوال استوزر المتقي لله أبا إسحاق محمد بن أحمد الإسكافي المعروف بالقراريطي بعد عَوْدِ البريدي، وجعل بدرًا الخرشني حاجبه، فبقي وزيرًا إلى الخامس والعشرين من ذي القعدة فقبض عليه كورتكين واستوزر بعده أبا جعفر محمد بن القاسم الكرخي[1]، فبقي وزيرًا إلى الثامن والعشرين من ذي الحجة منها فعزله ابن رائق، ودبَّر الأُمورَ أبو عبد الله أحمد الكوفي كاتب ابنِ رائقٍ من غير تسمية بوزارة.

وفيها انقطع الغَيْث بالعراق فاستسقى الناس في شهر ربيع الأول فسقوا مطرًا قليلًا لم يَجْرِ منه ميزاب[2]، فاشتد الغلاء والوباء وكثر الموت حتى دُفِنَ الجماعة في القبر الواحد من غير غسْلٍ ولا صلاةٍ عليهم، ورخص العقار والأثاث ببغداد حتى بيع ما ثمنه دينار بدرهم، وانقضى تشرين الأول وتشرين الثاني وكانون الأول وكانون الثاني وشباط الأول ولم يمطر الناس غير المطرة التي كانت عند الاستسقاء، ثم جاء المطر في آذر ونيسان.

قال أبو الفرج عبد الرحمٰن بن الجوزي في سبب هذا المطرِ بِسَنَد رَفعه إلى أبي محمد الصُّلَيْحي الكاتب أنه قال: لما نادى المتقي في زمن خلافته في الأسواق أن أمير المؤمنين يقول لكم معشرَ رعيته: إنَّ امرأةً صالحةً رأت النبيَّ ﷺ في منامها فشكت احتباسَ المطرِ فقال لها: «قولي للناس يخرجون في يوم الثلاثاء الأدنى

---

(١) الكرخي: نسبة إلى الكرخ: كرخ البصرة... وكان لأبي جعفر محمد بن القاسم على ما بلغني في غير عمل تقلده وخرج إليه ستمائة دابة وبغل ونيف وأربعون طباخًا ثم آلت حاله في آخر عمره إلى الفقر الشديد ومات بعد سنة ٣٤٠هـ في منزله ببغداد... (معجم البلدان لياقوت).

(٢) المئزاب: والميزاب: المرزاب، وهو المثعب الذي يبول الماء، وهو من ذلك، وقيل: بل هو فارسي معرب معناه بالفارسية بُل الماء، وربما لم يهمز، والجمع المآزيب، ومنه مئزاب اللعبة، وهو مصب ماء المطر... وقال الجوهري: الميزاب: المثعب، فارسيّ معرب؛ قال: وقد عرب بالهمز، وربما لم يهمز، والجمع مآزيب إذا همزت، وميازيب إذا لم تهمز... (اللسان مادة: أزب ووزب).

ويستسقون ويدعون فإنه يسقيهم في يومهم» وإن أمير المؤمنين يأمركم كما أمركم رسول الله ﷺ، وأن تدعوا وتستسقوا بإصلاحِ من نيَّاتكم وإقلاع عن ذنوبكم ـ قال ـ فأخْبَرَني الجمُّ الغفيرُ أنهم لما سمعوا النداء ضَجَّتِ الأسواق بالبكاء والدعاء، فشق ذلك عليّ وقلت: «منامُ امرأةٍ لا نَدْرِي ما تأويله، هل يصحُّ أم لا، ينادَى به في الأسواق في مدينة السلام، فإن لم يسقوا كيف يكون حالنا مع الكفار؟ فليته أمر الناس بالخروج ولم يذكر هذا» وما زلتُ قَلِقًا حتى أتَى يوم الثلاثاء فقيل لي: إن الناس قد خرجوا إلى المصلَّى مع أبي الحسين أحمد بن الفضل بن عبد الملك إمام الجامع، وخرج أكثر أصحابِ السلطان والفقهاء والأشراف، فلما كان قبل الظهر ارتفعت سحابة ثم طبقت الآفاق ثم أسلمت عزاليها[١] بمطر جود، فرجع الناس حفاة من الوحَل.

ودخلت سنة ثلاثين وثلاثمائة.

ذكر وزارة أبي عبد الله البريدي

في هذه السنة وَزَرَ أبو عبد الله البريدي للخليفة المتقي لله، وسبب ذلك أن ابن رائقٍ استوحش منه لأنه أخَّر حمل المال وانحدر إلى واسط عاشر المحرم، فهرب البريدي إلى البصرة وسعى أبو عبد الله الكوفي للبريدي وإخوته حتى عادوا وضمنوا بقايا واسط بمائة وتسعين ألفَ دينارٍ، وضمنوها كلَّ سنة بستمائة ألفِ دينارٍ. وعاد ابن رائقٍ إلى بغدادَ فشغب الجندُ عليه ثاني شهر ربيع الآخر وفيهم توزون وغيرُهُ من القواد، وتوجَّهُوا إلى البريدي في العُشْر الآخر من شهر ربيع الآخر بواسط، فقوي بهم فاحتاج ابن رائق إلى مداراته فكاتبه بالوزارة، وأنفذ إليه الخِلعَ واستخلف أبا عبد الله بن شيرْزاد. ثم وردَتِ الأخبارُ إلى بغدادَ فعزم البريديُّ على الإصعاد إلى بغداد، فأزال ابنُ رائقٍ اسم الوزارةِ عنه، وأعاد أبا إسحاق القراريطي وَلُعِن بنو البريدي على المنابر بجانبي بغداد.

ذكر استيلاء البريدي على بغداد وإصعاد المتقي لله إلى الموصل

قال: وسيّر أبو عبد الله البريدي أخاه أبا الحسين إلى بغداد في جميع الجيش من الأتراك والدَّيْلم، فعزم ابنُ رائقٍ على أن يتحصن بدار الخلافة، فأصلح سورَها

---

(١) عزاليها: مصبات الماء من الراوية.

ونَصَب عليها العرّاداتِ[١] والمجانيقَ وعلى دجلة، وأنهض العامة وجَنَّد بعضهم؛ فثاروا في بغداد وأحرقوا ونهبوا، وأخذوا الناسَ ليلاً ونهارًا. وخرج المتقي لله وابن رائق إلى نهر دَيالى في منتصف جُمادى الآخرة، ووافاهم أبو الحسين في الماء والبر، واقتتل النَّاسُ فانهزم أهل بغداد، واستولى أصحاب البريديِّ على دار الخلافة ودخلوا إليها من الماء، وذلك لتسع بقين من جُمادى الآخرة. وهرب المتَّقي وابنُه الأمير أبو منصور في نحو عشرين فارسًا، ولحق بهما ابن رائقٍ في جيشه، وساروا جميعًا إلى الموصل.

وقَتَلَ أصحابُ البريديِّ مَنْ وجدوه في دار الخليفة من الحاشية، ونهبوا دور الحُرم، وكثر النَّهْبُ في بغدادَ ليلاً ونهارًا، وأخرجوا كورتكين من محبسه، فأنفذه أبو الحسين إلى أخيه بواسط، فكان آخر العهد به. ونزل أبو الحسين بدار مؤنسٍ التي يسكنها ابن رائقٍ، وأقام أبو الحسين توزونَ عَلى الشرطة بشرقي بغداد، وجعل نوشتكين على شُرْطَةِ الجانبِ الغربيِّ فسكن الناس، وأخذ أبو الحسين رهائن القواد فسيَّرهم إلى أخيه أبي عبد الله بواسطٍ.

قال: وعسَف أهل العراق وظَلَمهم ظلمًا لم يُسْمَعَ بِمِثْلِه قَطُّ، ذكر ابن الأثير رحمه الله ذلك في تاريخه الكامل وأفرده بترجمةٍ وهي «ذكر ما فعله البريديُّ ببغداد»، ولما انتهى كلامه قال «وإنما ذكرنا هذا الفصل ليعلم الظَّلَمَةُ أن أخبارهم تُنْقَل وتبقى على وجْهِ الدهر، فربما تركوا الظلم لهذا إذا لم يتركوه لله سبحانه وتعالى» وأظنه رحمه الله تعالى قال هذا لما علمه من حال الظلمة في عصره، وأنهم يستقبحون الظلم. ويتركونه خشية أن ينقل عنهم. وإنما تركت أن أشرح ما قاله من ظلم البريدي خوفًا أن يسمعه ظَلَمَةُ هذا العصرِ فيقتدون بأفعاله ويحملون الناس على مثاله؛ فإن فيهم من يتحلّى بالظلم ولا يتحاشى من فِعْله ويردُّ فرع كل مظلمة إلى أصله ويقول: قد فعله فلان وفلان وجرت عليه القاعدة في كل عصر وأوان! ويبرز بالظُّلْم بروزَ الليث من غابه، وتصدر عنه الحوادث كصدورِ الغَيْث من سحابه، ويرى أنَّ ذلك فرصةٌ يغتنمها وكعبةٌ يستلمها، ثم لا يقنعه ذلك إلى أن يُسَمِّي المظالمَ بالحقوق الواجبة، ويرى الملازمةَ عليها من السنن الراتبة. لا جرمَ أن الله تعالى يأخذه من مأمنه، ويسلبه ما حَوله من نِعَمِه ومِنَنِهِ، لأن مَلِكَ هذا العصر ـ خَلَّد الله سلطانَه وثبَّت أركانَه ونَصر جيوشَه وأعوانَه ـ ينكر المظالم إذا أُنْهيَت إليه ويزيل اسمها، ويمحو من

(١) العرادة: آلة تستعمل في الحرب أصغر من المنجنيق وتقوم بدوره.

دواوين دولته رسمَها، ويكف الأكُفَّ العاديةَ إذا عدت، ويقبض الأيدي الجارية إذا انبسطت في العالم واعتَدَتْ.

ذكر قتل ابن رائق
وولاية ابن حمدان إمرة الأُمراء

كان المتقي لله قد أنفذ إلى ناصر الدولة بن حمدان يستمده على البريديِّ، فأرسل أخاه سيف الدولة[1] نجدةً في جيشٍ كثيفٍ، فلقي المتقي لله وابن رائقٍ بتكريت قد انهزما، فخدم سيفُ الدَّوْلةِ المتقي خدمةً عظيمة، وسار معه إلى الموصل ففارقها ناصر الدولة إلى الجانب الشرقي وتوجه نحو معلثايا[2] وترددتِ الرسائل بينه وبين ابن رائقٍ. ثم تعاهدا واتفقا فحضر ناصر الدولة ونزل على دجلة بالجانب الشرقي، فعبر إليه الأمير أبو منصور بن المتقي وابن رائق يسلمان عليه، فنثر الدنانير والدراهم على ولد المتقي. فلما أراد الانصراف من عنده ركب ولد المتقي وأراد ابن رائق الركوب فقال له ناصر الدولة: أقم اليوم عندي لنتحدث فيما تفعله! فاعتذر بابن المتقي، فألح عليه ابن حمدان فاستراب[3] به وجذب كُمَّه من يده فقطعه، وأراد الركوب فَشبَّ به فَرَسُه فسقط، فصاح ابنُ حمدان «أنِ اقتلوه» فقتلوه وألقوه في دجلة. وأرسل ابنُ حمدان إلى المتقي يقول: إنه علم أن ابنَ رائقٍ أراد أن يغتاله ففعل ما فعل، فَرَدَّ عليه المتقي ردًّا جميلاً وأمره بالمسير إليه فسار ناصر الدولة إليه فخلع المتقي عليه ولقَّبه ناصرَ الدَّوْلةِ وجعلَه أميرَ الأُمراء، وذلك في مستهل شعبان، وخلع على أخيه أبي الحسين ولقَّبه سيف الدولة، وكان قَتْل ابنِ رائقٍ يوم الاثنين لسبعٍ بقين من شهر رجب، ولما قُتل سار الإخشيد من مصر إلى الشام فتسلمها.

ذكر عود المتقي لله إلى بغداد
وهرب البريدي عنها

قال: ولما قتل ابن رائقٍ سارع الجندُ إلى الهربِ من البريديِّ لسوء سيرته فهرب جُخجخ وتوزون إلى المتقي في جماعةٍ من الأتراك، فأتَوْا الموصل في خامس شهر

(١) هو أبو الحسين علي بن عبد الله بن حمدان؛ يقال: إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر... (وفيات الأعيان ٣:٤٠١).

(٢) معلثايا: بليدة قرب جزيرة ابن عمر من نواحي الموصل... (معجم البلدان).

(٣) استراب به: رأى منه ما يريبه.

رمضان فقوِيَ بهم ابن حمدان، وسار هو والمتقي لله إلى بغداد. فلما قارباها هرب أبو الحسين البريديُّ منها إلى واسط، وكان مقامُه ببغداد ثلاثة أشهر وعشرين يومًا. ودخل المتقي إلى بغداد ومعه بنو حمدان في جيوش كثيرة، واستوزر المتقي أبا إسحاق القراريطي وقلّد توزون جانبي بغداد وذلك في شوال.

ذكر الحرب بين ابن حمدان والبريدي

قال: ثم خرج بنو حمدان نحو واسط لقتال البريدي، وسار أبو الحسين البريدي من واسط أيضًا لقتالهم. فأقام ناصر الدولة بالمدائن وسيّر أخاه سَيْفَ الدولة وابن عمه الحسين بن سعيد في الجيش لقتاله، فالتقوا تحت المدائن بِفَرْسَخَيْنِ واقتتلوا عِدَّةَ أيام آخرُها رابعُ ذي الحجة فانهزم سيف الدَّوْلةِ إلى أخيه، فأضاف إليه جماعةً وَرَدَّه، فقاتل وهزَمَ أبا الحسين البريديَّ وأسر جماعةً من أصحابه وقتل جماعةً. وعاد ناصر الدَّوْلةِ إلى بغدادَ، فدخلها في ثالث عشر ذي الحجة، وانحدر سيفُ الدولة من موضع المعركة إلى واسط فرأى البريديَّ قد انحدر منها إلى البصرة، فأقام سيف الدولة بها.

ودخلت سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة.

ذكر ما اتفق لسيف الدولة بواسط ورجوع ناصر الدولة إلى الموصل

قال: ولما أقام سيف الدولة بواسط، قصد الانحدار إلى البصرة ليأخذَها من البريديين، فلم يمكنْهُ لقلةِ المال عنده. فكتب إلى أخيه ناصر الدولة مرةً بعد أُخرى فأنفذ إليه مالاً مع أبي عبد الله الكوفي ليفرِّقَه في الأتراك فأسمعه توزون وجُخجخ المكروه وثارا به فَغَيَّبَهُ سَيْفُ الدولةِ عنهما، وسيّره إلى بغداد. وأمر توزون أن يسير إلى الجامدة[١] ويأخذها وينفرد بحاصلها، وأمر جُخجخ أن يسير إلى المذار[٢] ويأخذ حاصلَها.

وكان سيفُ الدولة يُزَهِّدُ الأتراكَ في العراقِ ويُحَسِّن لهم قَصْدَ الشّام معه والاستيلاء عليه وعلى مصر ويقع في أخيه عندهم، فكانوا يصدقونه في أخيه ولا يجيبونه إلى الشام ويتجنَّوْن عليه، ثم ثاروا به في سَلْخ شعبان وكبسوه ليلاً، فهرب من معسكره إلى بغداد وَنُهِبَ سوادُه وقتِلَ جماعةٌ من أصحابِه.

---

(١) الجامدة: قرية كبيرة بين البصرة وواسط.

(٢) المذار: قصبة ميسان بينها وبين البصرة أربعة أيام.

وأما ناصر الدولة فإنه لما وصل إليه الكوفيُّ وأخبره الخَبَرَ برز للمسير إلى الموصل، فركب المتقي إليه وسأله التوقُّفَ عن المسير، فأظهر له الإجابة إلى أن عاد ثم سار إلى الموصل، ونُهِبَتْ دارُه، ودبَّر الأمرَ أبو إسحاق القراريطي من غيرِ تَسْمِيَةٍ بوزارة، وكانت إمارة ناصر الدولة ببغدادَ ثلاثةَ عشرَ شهرًا وخمسةَ أيامٍ، ووصل سيْفُ الدولةِ إلى بغداد!.

ذكر حال الأتراك بعد إصعادِ سيفِ الدولةِ من واسط

قال: ولما هرب سيف الدولة عاد الأتراك إلى معسكرهم، فوقع الخلاف بين توزون وجُخجخ وتنازعا الإمارة، ثم استقرت الحال أن يكون توزون أميرًا وجُخجخ صاحب الجيش، وتصاهرا. وطمع البريدي في واسط فأصعد إليها، وتراسل هو وتوزون ولم يتفقا، ثم بلغ توزون أن جُخجخ يريد الانتقال إلى البريدي فكبسه في فراسه في ليلةِ الثاني عشر من شهر رمضان وسمله.

ذكر عود سيف الدولة إلى بغداد وهربه منها

قال: ولما هرب سيف الدولة من واسط قصد بغداد، وأرسل إلى المتقي لله يطلب منه مالاً ليقاتل توزونَ إن قصد بغداد، فأنفذ إليه أربعمائة ألف درهم ففرقها في أصحابه. وكان وصوله في ثالث عشر شهر رمضان، ولما بلغ توزون وصول ابن حمدان سيف الدولة إلى بغداد ترك كيغلغ بواسط في ثلاثمائة رجل وأصعد إلى بغداد، فلما سمع سيف الدولة بإصعاده رحل من بغداد.

ذكر إمارة توزون

قال: ولما فارق سيفُ الدولةِ بغدادَ دَخلها توزون، وكان دخولُه في الخامس والعشرين من شهر رمضان، فَخَلَعَ عليه المتقي لِلَّهِ وجعلَه أميرَ الأُمراء، وصار أبو جعفر الكَرْخي ينظر في الأُمورِ كما كان الكوفي ينظر فيها. ولما سار توزون عن واسطِ أصعد إليها البريدي، فهرب مَنْ بها مِنْ أصحابِ توزون إلى بغداد، فلم يمكنه المبادرة إلى واسط، حتى استَقَرَّتِ الأمورُ ببغداد، ثم انحدر إلى واسط في ذي القعدة، فأتاه أبو جعفر بن شِيرْزاد هاربًا من البريديِّ، ففرح توزون به وقلّده جميع أُموره.

ذكر الوحشة بين المتقي وتوزون

قال: كان محمد بن ينال الترجمان أكبر قواد توزون ـ وهو خليفته ببغداد ـ فلما انحدر إلى واسطٍ سعى بمحمد إليه وقَبَّح ذكره عنده فبلغ ذلك محمدًا، فنفر منه. وكان الوزير أبو الحسين بن مقلة ضَمِنَ القُرى المختصة بتوزون ببغداد فخسر فيها جملةً، فخاف أن يطالب بها، وانضاف إلى ذلك اتصال ابن شيرزاد بتوزون فخافه الوزيرُ وغَيْرُه، وظنوا أن مسيره إلى توزون باتِّفاقٍ من البريديِّ، فاتفق الترجمان وابن مقلة، وكتبا إلى ابن حمدان لينفذ عسكرًا يسير صُحْبَةَ المتقي لله، وقالا للمتقي: قد رأيتَ ما فعل البريديُّ معك بالأمس، أخذ منك خمسمائة ألف دينار وأخرجْتَ على الأجناد مثلها، وقد ضمنك البريدي من توزون بخمسمائة ألف دينار أخرى رغم أنها في يدك من تركة بجكم، وابن شيرزاد واصل ليتسلمك ويخلعك ويسلمك إلى البريديّ! فانزعج لذلك، وعزم على الإصعاد إلى ابن حمدان، وورد ابن شيرزاد جريدة في ثلاثمائة رجل، فوصل في خامس المحرم.

وفيها تزوج الأمير أبو منصور بن المتقي لله بابنة ناصر الدولة بن حمدان، وكان الصداق ألف ألف درهم، والحِمْل مائة ألف دينار.

وفيها صرف ناصر الدولة أبا إسحاق القراريطي عن الوزارة وقبض عليه، واستوزر أبا العباس، أحمد بن عبد الله الأصفهاني في شهر رجب، ثم استوزر المتقي لله بعد إصعاد ناصر الدولة من بغداد إلى الموصل أبا الحسين بن مقلةَ في ثامن شهر رمضان.

وفيها أرسل ملك الروم إلى المتقي لله يطلب منديلاً زعم أن المسيح مَسَحَ به وجهه فصارت صورة وجهه فيه، وأنه في بيعة[1] الرُّها[2]، وذكر أنه إن أرسل إليه أطلق عددًا كبيرًا من أسارى المسلمين، فأحضر المتقي لله الفقهاءَ والقضاةَ واستفتاهم فاختلفوا فيه، فقال بعضهم إنَّ في تسليمه غَضَاضَةً على الإسلام، وبعضهم رأى تسليمه وفكاك الأسرَى أوْلَى من بقائه، فقال علي بن عيسى الوزير: إن خلاص المسلمين من الأسر والضُّرِّ والضَّنْك[3] الذي هم فيه أولى من حفظ هذا المنديل! فأمر الخليفة المتقي لله بتسليمه إليهم وإطلاق الأسْرَى من بلاد الروم، فأطلقوا!.

---

(١) البيعة: معبد النصارى.

(٢) الرها: مدينة عظيمة في جزيرة أقور بينها وبين حران يوم.

(٣) الضنك: الضيق من كل شيء.

ودخلت سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة.

ذكر مسير المتقي لله إلى الموصل

في هذه السنة أصعد المتقي لله إلى الموصل، وسبب ذلك ما ذكرناه من إغراء من أغراه بتوزون وخَوْفه منه ووصولِ ابنِ شيرزاد إلى بغداد في خامس المحرم جريدة، فازداد خوف المتقي لله. وأقام ابن شيرزاد ببغداد يأمر وينهي ولا يراجع المتقي في شيء، وكان المتقي قد أنفذ في طلب جيشٍ من ناصر الدولة ليصحبه إلى الموصل، فأنفذهم مع ابن عمه الحسين بن سعيد، فوصلوا إلى بغداد ونزلوا بباب حرب. فاستتر ابن شيرزاد وخرج المتقي لله إليهم في حرمه وأهله ووزيره وأعيان بغداد، ولما سار المتقي لله من بغداد ظلم ابن شيرزاد الناس وعسفهم وصادرهم، وأرسل إلى توزون وهو بواسط يخبره بذلك. فلما بلغه الخبر عقد ضمان واسط على البريدي وزوّجه ابنته وسار إلى بغداد، وسار ناصر الدولة للقاء المتقي إلى تكريت[1] فوصل في الحادي والعشرين من شهر ربيع الآخر وركب إليه الخليفة وأكرمه. وأصعد الخليفة إلى الموصل، وأقام ناصر الدولة بتكريت، وسار توزون نحو تكريت فالتقى هو وسيف الدولة بن حمدان تحت تكريت بِفَرْسخَيْن فاقتتلوا ثلاثةَ أيام ثم انهزم سيفُ الدولة لثلاث بقين من شهر ربيع الآخر، وغنم توزون سواده وسواد أخيه ناصر الدَّوْلة. وعادا من تكريت إلى المَوْصل ثم التقوا مرة ثانية فانهزم سيفُ الدولة وتبعه توزون، فسار المتقي لله وبنو حمدان إلى نصيبين ودخل توزون المَوْصلَ وسار المُتَّقي إلى الرَّقَّة، ولحقه سيف الدولة.

وأرسل المتقي لله إلى توزون يذكر أنه استوحش منه لاتصاله بالبريديِّ، فإن آثر رضاه يصالح ناصرَ الدولة وسيف الدولة ليعود إلى بغداد، وترددت الرسائل بين المتقي وتوزون حتى تم الصلحُ، وعقد الضمان على ناصر الدولة عَمَّا بيده من البلاد ثلاثَ سنين كلَّ سنة بثلاثة آلاف ألف وستمائة ألف درهم، وعاد توزون إلى بغداد وأقام المتقي لله عند بني حمدان.

---

(١) تكريت: بفتح التاء والعامة يكسرونها: بلدة مشهورة بين بغداد والموصل، وهي إلى بغداد أقرب، بينها وبين بغداد ثلاثون فرسخًا، ولها قلعة حصينة في طرفها الأعلى راكبة على دجلة، وهي غربي دجلة... (معجم البلدان).

ذكر قتل أبي يوسف البريدي

في هذه السنة قَتَلَ أبو عبد الله البريديّ أخاه أبا يوسف، وسبب ذلك أنَّ أبا عبد الله كان نفذ ما عنده من المال في محاربة بني حمدان ومقامهم بواسط ومحاربة توزون، فلما رأى جُنْدُه قلةَ مالِه مالوا إلى أخيه أبي يوسف لكثرة أمواله، فاستقرض أبو عبد الله منه المال مرة بعد أُخرى فكان يعطيه القليلَ من المال ويعيبه ويذكر تضييعه وهَوجَه وتهوُّرَه، فبلغ ذلك أبا عبد الله. ثم صَحّ عنده أنه يريد الْقَبْضَ عليه والاستبدادَ بالأمر وحدَه، واستوحش كلٌّ منهما من صاحبِه؛ فدبَّر أبو عبد الله عليه وأقام غلمانَه في طريقٍ مسقف بين داره والشط[1]، فدخل أبو يوسف في ذلك الطريق فثار به الغلمان فقتلوه وهو يستغيث: يا أخي قتلوني! وهو يقول: إلى لعنة الله! ولما قتل دفنه فثار الجند وشغبوا ظَنًّا منهم أنه حي، فأمر به فَنُبِشَ وألقاه على الطريق، فلما رأوه سكتوا فأمر بدفنه. وانتقل أبو عبد الله إلى دار أبي يوسف، فأخذ ما فيها ولم يحصلْ من مالِ أخيه على طائلٍ فإن أكثره انكسر عند الناس!.

ذكر وفاة أبي عبد الله البريدي ومن قام بعده بالأمر

وفي هذه السنة في شوال مات أبو عبد الله البريدي بعد أن قتل أخاه بثمانية أشهر واستقر الأمر بعدَه لأخيه أبي الحسين؛ فأساء السيرةَ في الجند، فثاروا به ليقتلوه فَهَرَب إلى هَجَر[2] واستجار بالقرامطة، ونصب الجند أبا القاسم بن أبي عبد الله.

قال: وسار أخوان لأبي طاهر مع أبي الحسين في جيش إلى البصرة، فرأوا أبا القاسم قد حفظها فأصلحوا بينه وبين ابن أخيه، وعادوا ودخل أبو الحسين البصرة، فتجهز منها وسار إلى توزون ببغداد، واستقام أمر أبي القاسم بن أبي عبد الله البريدي.

---

(١) شطّ: بفتح أوله وتشديد ثانيه: قرية في حجر اليمامة قبلتها بين الوتر والعرض قد اكتنفها حجر اليمامة.. وشط عثمان: موضع بالبصرة كانت سباقًا ومواتًا فأحياها عثمان بن أبي العاص الثقفي... (معجم البلدان).

(٢) هجر: بفتح أوله وثانيه: في عدة مواضع: هجر البحرين، وهجر نجران، وهجر جازان، وهجر حصنه من مخلاف مازن.. وهجر: مدينة وهي قاعدة البحرين... (معجم ياقوت).

ودخلت سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة.

ذكر ما كان من أمر المتقي لله إلى أن خُلِع وسُمل

كان المتقي لله قد راسل توزون في طلب العود إلى بغداد، وسبب ذلك أنه رأى من بني حمدان تضجُّرًا منه وإيثارًا لمفارقته، فاضطر إلى مراسلة توزون. فأرسل إليه الحسن بن هارون وأبا عبد الله بن أبي موسى الهاشمي في الصلح، فلقيهما توزون وابن شيرزاد بنهاية الرَّغْبَةِ فيه والحِرْصِ عليه واستوثقا من توزون وحلّفاه للمتقي وحَضَرَ اليمينَ خلق كثير من القضاةِ والعدولِ، والعباسيون والعلويون وغيرُهم. وحلف توزون للمتقي والوزير، وكتبوا خطوطهم بذلك، وكان ذلك في سنة اثنتين وثلاثين.

وكان أيضًا قد كتب إلى الإخشيد محمد بن طغج صاحب مصر يشكو إليه حالَه ويستقدمه، فقدم إليه إلى الرَّقَّة في منتصف المحرم من هذه السنة ووقف بين يديه موقف الغلمان، ومشى بين يديه، وحمل إلى المتقي لله هدايا جليلة وإلى الوزير أبي الحسين بن مقلة وسائر الأصحاب، واجتهد بالمتقي ليسير معه إلى مصر والشام ويكون بين يديه فلم يفعل، فأشار عليه بالمقام مكانَه ولا يرجعُ إلى بغداد وخوَّفه من توزون فأبى إلا العود إلى بغداد. وَعَرَضَ على ابنِ مُقْلَةَ المسير معه إلى مصر ليحكِّمَه في جميع بلاده، فلم يُجبْه إلى ذلك، فخوّفه أيضًا من توزون، فكان ابنُ مقلة يقول بعد ذلك: نصحني الإخشيد فلم أقبل نصيحته!.

ثم انحدر المتقي لله إلى بغداد لأربع بقين من المحرم، وعاد الإخشيد إلى مصر، فلما وصل المتقي لله إلى هيت أقام بها وأنفذ من يجدِّدُ اليمينَ على توزون، فَحَلَفَ وسار عن بغدادَ لعشر بقين من صفر للقاء المتقي لله، فلقيه بالسندية[1] ونزل توزون وقبَّل الأرض بين يدي المتقي وقال: ها أنا قد وفيت بيميني والطاعة لك! ثم وكَلَ به وبالوزير وبالجماعةِ وأنزلهم في مضربه مع حُرَم المتقي ثم كَحلَه فأذهب عينيه، فصاح وصاح مَنْ عنده من الحرم والخَدَم فارْتَجّتِ الأرض فأمر توزون بضرب الدبادب[2] فخفيت الأصوات، وعمي المتقي.

---

(١) السندية: بكسر أوله، وسكون ثانيه: قرية من قرى بغداد على نهر عيسى بين بغداد وبين الأنبار... والسندية أيضًا: ماء غربي المغيثة على ضحوة من المغيثة، والمغيثة على ثلاثة أميال من حفير... (معجم البلدان).

(٢) الدبادب: جمع دبداب، وهو الطبل.

وانحدر توزون من الغد إلى بغداد، وكان خلع المتقي لله وسمله في يوم السبت لعشر بقين من صفر، فكانت مدة خلافته ثلاث سنين وأحد عشر شهرًا، وعاش إلى أيام المطيع، وتوفي في منتصف شعبان سنة سبع وخمسين وثلاثمائة وله ستون سنة وأمر المطيع أبا تمام الزينبي فصلَّى عليه وكبّر خمسًا، ودفن في داره ثم ابتاعها عز الدولة بختيار من ورثته بثلاثين ألف دينار فنقلوه إلى تربة بإزائها فامتحن في الحياة وفي الممات.

قال أبو الحسين عياش اجتمع في أيام المتقي إسحاقات كثيرة، فانسحقت خلافة بني العباس في أيامه وانْهَدَمَتْ قُبَّة المنصور الخضراء التي كان فَخْرُهم بها، قيل له ما كانت الإسحاقات؟ قال: كان يُكنى أبا إسحاق، وكان وزيره القراريطي يكنى بأبي إسحاق، وكان قاضيه ابن إسحاق الخِرَقي[1] وكان محتسبَه أبو إسحاق بن بطحاء، وكان صاحبَ شرطته أبو إسحاق بن أحمد أمير خراسان، وكانت داره القديمة دار إسحاق بن إبراهيم المصعبي وهي دار إسحاق بن كنداج.

وكان المتقي لله أبيضَ أشهل العينين أشقر الشعر. قال بعض المؤرخين: كان في أيامه غلاء وشدة حتى بيع كُرُّ[2] الحنطة بمائتين وعشرة دنانير، وخرج عدة من الخدم من قصر الخلافة بالرصافة ينادون: الجوع الجوع! وكان نقش خاتمه «المتقي لله».

ولده ولي عهده: أبو منصور، وزراؤه: قد تقدم ذكرهم في أنباء دولته، ولم يكن لهم من الأمر شيءٌ على ما قدمناه.

قضاته: أبو نصر يوسف بن عمر، ثم أخوه أبو محمد الحسين، ثم محمد بن عيسى بن إبراهيم، ثم أبو طاهر محمد بن أحمد بن نصر، ثم أبو الحسن أحمد بن أبي موسى.

حجابه: سلامة الطولوني مولى خمارويه، ثم بدر الخرشني ثم أحمد بن خاقان. الأمير بمصر: الإخشيد محمد بن طغج. القضاة بها: عبد الله بن الوليد، ثم محمد بن بدر، ثم أبو الذكر التمّار، ثم الحسن بن عبد الرحمٰن بن إسحاق، ثم أحمد بن عبد الله الليثي، ثم عبد الله بن وليد.

---

(١) هو أحمد بن عبد الله بن إسحاق الخرقي، والخرقي نسبة إلى خرق: وهي قرية كبيرة عامرة شجيرة بمرو.

(٢) الكرّ من الكيل المعلوم وهو ستون قفيزًا.

ذكر خلافة المستكفي بالله

هو أبو القاسم عبد الله بن المكتفي بالله أبي محمد علي بن المعتضد بالله أبي العباس أحمد بن الموفق بالله بن المتوكل على الله أبي الفضل جعفر بن المعتصم بالله أبي إسحاق محمد بن هارون الرشيد أبي محمد بن المهدي أبي عبد الله محمد بن أبي جعفر المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس رضي الله عنهم. يجتمع هو والمتقي لله في المعتضد بالله، وأُمُّه أُمُّ ولدٍ اسمها غُصن، وهو الخليفة الثاني والعشرون من الخلفاء العباسيين، بويع له بعد خلْع المتقي للّه لعشرٍ بقين من صفر سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة.

قال: ولما قَبَضَ توزون على المتقي أحضر المستكفي إلى السندية وبايعه هو وعامَّةُ الناس، وكان سبب البيعة له ما حكاه أبو العباس التميمي الرازي وكان من خواصِّ توزون قال: أنا كنت السبب في البيعة للمستكفي، وذلك أنني دعاني إبراهيم بن الزوبيندار الديلمي فمضيت إليه، فذكر لي أنه تزوج إلى قوم وأن امرأةً منهم قالت له: «إن هذا المتقي قد عاداكم وعاديتموه وكاشفكم ولا يصفوا قلبُه لكم، وهاهنا رجل من أولاد الخلفاء من ولد المكتفي» وذكرت عقله ودينه «تنصبونه للخلافة فيكون صنيعتكم وغرسَكم، ويدلكم على أموالٍ جليلة لا يعرفها غيره، وتستريحون من الخوف والحراسة» قال: فعلمت أنَّ هذا أمرٌ لا يتم إلا بك، فدعوتك له فقلت: أُريد أسمع كلامَ المرأة، فجاءني بها فرأيت امرأةً عاقلةً جزلة فذكرتْ لي نَحْوًا من ذلك، فقلت: لا بد أن ألقى الرجل! فقالت: تعود غدًا إلى هاهنا حتى أجمع بينكما فعدت من الغَد فوجدته قد أُخرج من دار ابنِ طاهرٍ في زيِّ امرأةٍ فعرَّفني نَفْسه وضَمِنَ لي إظهار ثمانمائة ألف دينار منها مائة ألف لتوزون، وذكر وجوهها وخاطبني خطابَ رجل فَهِم عاقل، ورأيته يتشيع - قال - فأتيت توزونَ فأخبرته فوقع الكلام بقلبه وقال: أُريد أُبصِّرُ الرجلَ! فقلت: لك ذلك، ولكن اكتم أمرنا من ابن شيرزاد فقال: افعل! - قال - وعدت إليهم وأخبرتهم الذي جرى، ووعدتهم حضور توزون من الغد، فلما كان ليلة الأحد لأربع عشرة خلت من صفر مشيت مع توزون مُستَخْفِيَيْن واجتمعنا به، وخاطبه توزون وبايعه تلك الليلة وكتم الأمر. فلما وصل المتقي قلت لتوزون: أنت على ذلك العزم؟ قال: نعم! قلت: فافعله الساعةَ فإنه إن دخل الدار بَعُدَ عليك مرامُه، فوكل به وسَمَله وجرى ما جرى، وبويع للمستكفي بالخلافة، وأحضر المتقي فبايعه وأخذ منه البردة والقضيب، وصارت تلك المرأة قهرمانةَ[1] المستكفي وسمَّت نفسَها «علم»

---

(١) القهرمانة: أمينة الملك ووليكته الخاصة بتدبير دخله وخرجه.

وغلبت على أمره كلّه، واستوزر المستكفي بالله أبا الفرج محمد بن علي السامري يوم الأربعاء لست بقين من صفر منها ولم يكن له غير اسم الوزارة ومعناها لابن شيرزاد، ثم قبض عليه المستكفي في شهر ربيع الآخر وصادره على ثلاثمائة ألف درهم فكانت وزارته اثنين وأربعين يومًا.

قال: وخلع المستكفي بالله على توزون وتَوَّجه، وطلب أبا الفضل بن المقتدر بالله ـ وهو الذي ولي الخلافة ولقب المطيع لله ـ لأنه كان يعرفه يطلب الخلافةَ فاسْتَتَر مُدَّةَ خلاَفَة المستكفي بالله فَهُدِّمَتْ دارُه حتى لم يَبْقَ منها شيءٌ.

ودخلت سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة.

في هذه السنة في المحرم لَقَّب المستكفي بالله نفسَه إمام الحق، وَضرب ذلك على الدنانير والدراهم، وكان يُخطَب له بلقبين إمام الحق والمستكفي بالله.

ذكر وفاة توزون وإمارة ابن شيرزاد

في هذه السنة في المحرم مات توزون ببغداد، وكانت مدة إمارته سنتين وأربعة أشهرٍ وتسعةَ عشرَ يومًا. ولما مات كان ابن شيرزَاد كاتبهُ ببغدادَ بِهيت ليخلِّص أموالَها، فلما بلغه الخبر أراد عقْدَ الإمارة لناصر الدولة بن حمدان فاضطرب الجند، وعقدوا الرياسةَ عليهم لابن شيرزاد فعاد إلى بغداد ونزل بباب حرب[1] في مستهل صفر. وخرج إليه الأجناد جميعُهُم وحلفوا لَه ووُجِّه إلى المستكفي بالله ليحلَف له فأجابه إلى ذلك، وحلَف له بحضرة القضاة والعدول ودخل إليه وولاه إمرة الأُمراء. فزاد الأجناد زيادة كثيرة فضاقت عليه الأموال، فأرسل إلى ناصرِ الدَّوْلة يطالبه بِحمل المال ويعده بِرَدِّ الرياسة إليه، فأرسل له خمسمائة ألف درهم ففرقها في عسكره فلم تُغْنِ شيئًا، فقسط أرزاق الجُند على العمال والكُتَّاب والتجار وغيرهم، وظلم الناس ببغداد. واستعمل على واسط ينال كوشة وعلى تكريت الفتح اليشكري، فأما ينال فإنه كاتب معز الدولة بن بويه واستقدمه وصار معه، وأما الفتح فإنه الْتَحَق بناصر الدولة بن حمدان وصار معه فأقره على تكريت.

---

(١) باب حرب ببغداد: محلة تجاور قبر أحمد بن حنبل رضي الله عنه ينسب إليها حربيّ... (معجم ياقوت).

ذكر استيلاء معز الدولة بن بويه على بغداد

قال: لما كاتب ينال كوشة معز الدولة بن بويه وهو بالأهواز ودخل في طاعته سار نحوه، فاضطرب الناس فلما وصل إلى باجِسْرَى[١] اختفى المستكفي بالله وابن شيرزاد. فلما استترا سار الأتراك إلى الموصل، فلما بعدوا ظهر المستكفي بالله وعاد إلى دار الخلافة. وقدم أبو محمد الحسن بن محمد المهلّبي صاحب معز الدلة إلى بغداد فاجتمع بابن شيرْزَاد بمكانه الذي استتر فيه، ثم اجتمع بالمستكفي بالله فأظهر السُّرورَ بقدوم مُعزِّ الدولة بن بويه وأعلمه أنه إنما استتر من الأتراك ليتفرقوا ليحصلَ الأمرُ لمعز الدولة بغير قتال.

ثم وصل معز الدولة إلى بغدادَ لإحدى عشرة خَلَت من جُمادى الأولى فنزل بباب الشمّاسية ودخل من الغد إلى المستكفي وبايعه، وحلف له المستكفي. وسأله معز الدولة أن يأذن لابن شيرْزادَ بالظهور وأن يأذن له أن يستكتبه فأجابه إلى ذلك، فظهر ولقي مُعزَّ الدولة فولاّه الخراجَ وجباية الأموال. وخلع الخليفةُ على مُعز الدولة ولقبه بهذا اللقب، وأمر بضرب ألقابه وألقاب إخوته وكناهم على الدنانير والدراهم. ونزل معز الدولة بدار مؤنس، ونزل أصحابه في دور الناس فنال الناسُ من ذلك شدةٌ عظيمة وصار رسمًا عليهم وهو أول من فَعَله ببغداد، ولم يعرف بها قبله.

وأُقيم للمستكفي بالله في كل يوم خمسةَ آلاف درهم لنفقاته، وكانت ربما تأخرت عنه فأُقرت له بعد ذلك ضياعٌ سُلِّمتْ إليه تولاها له أبو أحمد الشيرازي كاتبه!.

ذكر خلع المستكفي بالله وسمله

في هذه السنة خلع المستكفي بالله لثمانٍ بقين من جُمادى الآخرة، وكان سبب ذلك أن عَلَمْ القهرمانةَ صنعت دعوةً عظيمةً حضرها جماعةٌ من قواد الدَّيْلم والأتراك، فاتهمها معزُّ الدولة أنها فعلت ذلك لتأخذ البيعةَ للمستكفي بالله ويزيلوا معز الدولة، فساء ظنه لذلك. فلما كان في التاريخ المذكور حضر معز الدولة والناس عند الخليفة، وحضر رسول صاحب خراسان ومعز الدولة جالس، ثم حضر رجلان من نُقَباء الدَّيْلم فتناولا يدَ الخليفة فَظَنَّ أنهما يريدان يُقَبِّلان يَدَه، فجذباه عن سريرِه وجعلا عمامته في حلقه.

---

(١) باجسرى: بكسر الجيم، وسكون السين وراء، والقصر: بليدة في شرقي بغداد، بينها وبين حلوان، على عشرة فراسخ من بغداد؛ وهي عامرة نزهة كثيرة النخل والأهل... (معجم البلدان).

ونهض مُعزُّ الدولة، واضطر بالنَّاسُ وأخرج الديلميان المستكفي بالله إلى دار معز الدولة ماشيًا واعتُقِل بها، ونُهِبَتْ دارُ الخلافة حتى لم يبْق فيها شيء، وقبض على أبي أحمد الشيرازي كاتب المستكفي وأُخذت عَلَمْ القهرمانةُ فقطع لسانها. وكانت مدةُ خلافةِ المستكفي بالله سنةً واحدةً وأربعةَ أشهرٍ وما زال مغلوبًا على أمره.

ولما بويع للمطيع لله سُلِّم إليه المستكفي فسمله، وبقي محبوسًا إلى أن توفي في شهر ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة، وله ست وأربعون سنة. وكان أبيضَ حسنَ الوجه قد وَخَطه الشيب، ولقَّب نفسه في آخر سنة ثلاثٍ وثلاثين إمامَ الحق، ونقشه على الدنانير والدراهم وقد تقدم ذكر ذلك، وكان نقْشُ خاتمه «المستكفي بالله».

وزراؤه: محمد بن علي السامري وهو آخر من دُعيَ بالوزارَة، ثم استكتب أحمد بن عبد الرحمٰن الشيرازي. قضاته في الجانبين: أبو الحسن أحمد بن عبد الله بن إسحاق الخِرَقي وقَلَّد محمد بن أبي الحسن بن أبي الشوارب الجانب الشرقيَّ والمدينةَ ثم صرفه عن الشرقي بأبي الطَّاهر محمدِ بن أحمد بن نصر، وعن المدينة بأبي السَّائبِ عُتبةَ بنِ عبد الله الهمداني، ثم جمع لعتبةَ الجانبين بعد وفاة ابن أبي موسى، وجعل المدينة إلى محمد بن صالح بن شيبان الكوفي الهاشمي. حاجِبُه: أحمدُ بن خاقان. الأمير بمصر: الإخشيد بن طغُج. القضاة بها: الحسين بن عيسى بن هارون، ثم الوليد من قبلِ المستكفي.

ذكر خلافة المطيع لله

هو أبو القاسم الفضل وقيل أبو العباس بن المقتدر بالله أبي الفضل جعفر بن المعتضد بالله أبي العباس أحمد، وأُمُّه أم ولد اسمها مشعلة، وهو الخليفة الثالث والعشرون من الخلفاء العباسيين بويع له يوم خلع المستكفي، وهو يوم الخميس لثمانٍ بقين من جُمادى الآخرة سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، وكان مستترًا كما قدمناه من أول خلافة المستكفي بالله. فلما قَدِمَ مُعِزُّ الدَّولةِ إلى بغداد قيل إن المطيع انتقل إليه واستتر عنده وأغراه بالمستكفي بالله حتى قَبَضَ عليه وسمله، وبويع للمطيع بالله ولقب بهذا اللقب، وحضر المستكفي عنده فسلّم عليه بالخلافة وأشْهدَ على نفسه بالخلع.

وزاد أمْرُ الخلافةِ إدبارًا ولم يَبْقَ لهم من الأمر شيء أَلْبَتَّةَ، وقد كانوا يراجعون قبل ذلك والحرمةُ قائمةٌ بعضَ شيءٍ، فلما كان في أيام معزِّ الدولة زال ذلك جميعُه بحيث إن الخليفةَ لم يبْقَ له وزيرٌ، إنما كان له كاتب يدير إقطاعَه وأخراجاتِه لا غَيْر.

وصارت الوزارة إلى معز الدولة يستوزر لنفسه من يريد، وكان الديلم يغالون في التشيع ويعتقدون أن بني العباس قد غَصَبوا الخلافةَ وأخذوها من مستحِقِّيها فلم يكن باعثٌ ديني يحثهم على الطاعة حتى قيل إنَّ معز الدولة قَصد إخراجَ الأمرِ عن بني العباس والبيعة للمعتز لدين الله العلوي أو لغيره من العلويين.

واستشار جماعةً من خواصِّ أصحابِه فكلُّهم أشار عليه بذلك إلا بعضَ خواصِّه، فإنه قال: ليس هذا برأيٍ فإنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابُك أنه ليس من أهل الخلافةِ ولو أمرتهم بِقَتْلِه لقتلوه مستحلِّين دمَه، ومتى أجلستَ بعضَ العلويين خليفةً كان معك من تَعْتَقِدُ أنتَ وأصحابُك صحةَ خلافَتِه ولو أمرتَهم بِقَتْلِه لقتلوك! فأعرض عن ذلك.

ومن حيث استقل مُعِزُّ الدَّوْلةِ بالأمر اختصرنا الأخبارَ في أيام الخلفاء، ونذكر ذلك في أخبار الدَّوْلَةِ البويهية وغيرها من الدول، فإن الأمر والنَّهْيَ صار لهم دون الخلفاءِ، ولم يبقَ للخليفة من الأمر شيءٌ إلا ما أقطعه له مُعِزُّ الدَّوْلة ما يقوم بِبَعْضِ حاجتِه. فالذي نذكره الآن في أيام الخلفاء بني العباس ما يتعلق بحال الخليفة وأتباعه وأقاربه ومن خرج عليه من أهل بيته، وننبه على ابتداء دول الملوك وانقراضها ونحيل عليها في موضعها الذي تشرح فيه، ونذكر أيضًا في أيام الخلفاء ما غلب عليه الروم والفرنج من البلاد الإسلامية وما وقع من الحوادث العامة كالزلازل العظيمة والسيول، وما يناسب ذلك على ما يراه المطالع في مواضعه إن شاء الله تعالى.

وفي هذه السنة توفي القائم بن المهدي صاحب إفريقية والمغرب، وولي بعده ابنه المنصور.

وفيها توفي الإخشيد صاحب مصر والشام وولي بعده ابنه أبو القاسم ودبر الأمر كافور الخادم بمصر، واستولى سيف الدولة بن حمدان على دمشق.

وفيها اشْتَدَّ الغلاءُ ببغدادَ حتى أكل الناسُ الميتةَ والكلاب والسنانيرَ[١]، وأُخِذ بعضهم ومعه صبيٌّ قد شواه ليأكله، وأعقبه وباءٌ حتى عجز النَّاسُ عن دفْنِ موتاهم فكانت الكلابُ تأكل الناس والناسُ تأكل الكلابَ.

قال أبو الفرج بن الجوزي: وفي هذه السنة كَثُر القملُ برستاق[٢] اليمن الكبرى

(١) السنور: حيوان أليف من الفصيلة السنورية ورتبة اللواهم. من خير مآكله الفأر؛ ومنه أهلي وبريّ، جمع سنانير.

(٢) الرستاق: كل موضع فيه مزارع وقرى ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة وبغداد، فهو عند الفرس بمنزلة السواد عند أهل بغداد، وهو أخص من الكورة والأستان... (مقدمة معجم ياقوت).

حتى يئس الناس من غلاتهم فانحط من الطير طائر يزيد على جِرْم العصفور، فكان الطائر يعلو على شجرة فيصفر فتطير الطير أفواجًا، فينحطُّ كلُّ فوجٍ منها على ضيعة فيلقط القمل حتى فني!.

ودخلت سنة خمسٍ وثلاثين وثلاثمائة.

في هذه السنة كان الفداءُ بين المسلمين والروم على يد نَصْرٍ الثملي أميرِ الثغور لسيف الدولة، وكان عدَّة الأسرى ألْفَيْن وأربعمائةَ أسير وثمانين أسيرًا.

وفي سنة ستٍّ وثلاثين وثلاثمائة استولى مُعزّ الدولة بن بويه على البصرة وهرب أبو القاسم بن أبي عبد الله البريدي منها إلى هجر إلى القرامطة، ثم استأمن بعد ذلك، ووصل إلى بغداد في سنة ثمانٍ وثلاثين وثلاثمائة فأحْسن إليه وأقطعه.

وفي سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة ملك الرومُ مرعش[1] من سيف الدولة بن حمدان، وكان قد قاتلهم فهزموه.

وفي سنة ثمانٍ وثلاثين وثلاثمائةٍ كانت وفاة عماد الدولة أبي الحسن علي بن بويه بمدينة شيراز.

ذكر إعادة القرامطة الحجر الأسود

وفي سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة أعاد القرامطة الحجر الأسود إلى مكة شرفها الله تعالى وقالوا: أخذناه بأمرٍ وأعدناه بأمرٍ! وكان بجكم قد بذل لهم في رده خمسين ألف دينار فلم يجيبوا إلى رده وردوه الآن بغير شيء في ذي القعدة، وكانوا أخذوه في سنة سبع عشرة وثلاثمائة، وكان مكثه عندهم اثنتين وعشرين سنة. ولما أرادوا رده حملوه إلى الكوفة وعلقوه بجامعها، حتى رآه الناس ثم حملوه إلى مكة.

وفي سنة تسعٍ وثلاثين أيضًا توفي أبو نصر محمد بن الفارابي الحكيم الفيلسوف صاحب التصانيف، وكانت وفاته بدمشق.

وفي سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة توفي المنصور العلويُّ صاحبُ المغرب، وملَكَ بعده ابنه المعزُّ لدين الله.

وفيها ملَكَ الرُّومُ مدينةَ سروج[2] وسَبَوْا أهلها وغنموا أموالهم وخرَّبوا المساجد.

وفي سنة ست وأربعين نقص البحر ثمانين باعًا فَظهر فيه جبال وجزائرُ لم تعرف

---

(١) مرعش: مدينة في الثغور بين الشام وبلاد الروم... (معجم البلدان).

(٢) سروج: بفتح أوله..: وهي بلدة قريبة من حران من ديار مضر.. وقد نسبوا إليها أبا الفوارس إبراهيم بن الحسين إبراهيم بن برية السروجي الخطيب... (معجم ياقوت).

قبل ذلك. وفيها كان بالعراق وبلاد الجبل وقُمّ ونواحيها زلازل كثيرة متتابعة دامت نحو أربعين يومًا، تسكن وتعود؛ فتهدمت الأبنية، وغارت المياه وهلَكَ تحت الرَّدْمِ ما لا يُحصى من العالَم، وكذلك كانت أيضًا بالرَّيِّ والطالقان[١].

ذكر ظهور المستجير بالله

وفي سنة تسع وأربعين وثلاثمائة ظهر بأذربيجان رجلٌ من أولاد عيسى بن المكتفي بالله وتَلَقَّب بالمستجير بالله وبايع للوصي من آل محمد، ولَبس الصُّوف، وأظهر العدلَ، وأمر بالمعروف، ونَهَى عن المنكر. وكثر أتباعه واستفحل أمره، فسار إليه جستان وإبراهيم ابنا المرزبان صاحب أذربيجان والتقوا فاقتتلوا، فانهزم أصحاب المستجير وأخذوه أسيرًا فعدم فقيل إنه مات! وفيها أسْلَم من الأتراك نحو مائتي ألف خركاه[٢].

ذكر ضمان الحسبة والقضاء والشرطة ببغداد

وفي سنة خمسين وثلاثمائة مات القاضي أبو السائب عتبة بن عبد الله وقُبضت أملاكه وتولى قضاء القناة أبو العباس عبد الله بن الحسن بن أبي الشوارب، وضمن أن يؤدي في كل سنة مائتي ألف درهم ولم يسمع بمثل ذلك فيما سلف! فلم يأذن له الخليفة المطيع لله بالدخول إليه، وأمر أنْ لا يحضرَ الموكب لِما ارتكبه من ضَمان القضاء، ثم ضُمِنت الحسبة والشرطة. ثم عزَلَ ابنَ أبي الشوارب عن القضاء وأمر بإبطال أحكامِه وسجلاته، وذلك في سنة اثنتين وخمسين وتقلَّد القضاءَ بعده أبو بشر بن أكثم بغير ضمان.

ذكر استيلاء الروم على عين زربة[٣] وما حولها من الحصون

وفي سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة في المحرم نزل الدمستق بالروم على عين زَرْبَة، وهي في سفح جبل عظيم والجبل مشرف عليها. وكان في جمع عظيم فأنفذ بعض عسكره، فصعدوا الجبل وملكوه. فلما رأى أهلُها ذلك وأنَّ الدمستق قد ضيّق

---

(١) الطالقان: هما بلدتان إحداهما بخراسان بين مرو الروذ وبلخ بينهما وبين مرو الروذ ثلاث مراحل.. وقيل: الطالقان: أكبر مدينة بطخارستان... (معجم البلدان).

(٢) خركاه: (فارسية معربة): الخيمة الكبيرة.

(٣) في معجم ياقوت: عين زربى: بفتح الزاي وسكون الراء، وباء موحدة، وألف مقصورة: هو بلد بالثغر من نواحي المصيصة.

عليهم ووصل إلى السور وشرع في التقرب طلبوا الأمان، فأمَّنهم الدمستق ففتحوا أبواب المدينة فدخلها، فرأى أصحابه الذين في الجبل نزلوا إلى المدينة فندم على إجابتهم إلى الأمان ونادى في البلد أن يخرج أهلُه إلى المسجد الجامع ومن تأخَّرْ في منزله قتل.

وكان ذلك في أول الليل، فخرج إلى الجامع مَن أمكنه الخروج، فلما أصبح أنفذ رجَّالتَه إلى المدينة وأمرهم بِقَتْل من يجدونه في منزله، فقتلوا خَلْقًا كثيرًا. ثم أمر منْ بالمسجد أن يخرجوا من البلد حيث شاؤوا، فخرجوا على وجوههم لا يرون أين يتوجهون فماتوا في الطرقات. وقَتَلَ الرُّومُ من وجدوه بالمدينة إلى آخر النهار، وهُدِم سور المدينة.

وأقام الدمستقُ في بلاد الإسلام واحدًا وعشرين يومًا، وفتح حول عين زربة أربعةً وخمسين حِصنًا للمسلمين بعضها بالسيف وبعضها بالأمان، فلما أدركه الصوم انصرف على أن يعود بعد العيد، وخلف جيشه بقيسارية[١] وراسله أهل بغراس[٢] وبذلوا له مائة ألف درهم فأقرهم وترك معارضتهم.

وفيها استولى الدمستق على مدينة حلب وعاد عنها، على ما نذكره في أخبار ابن حمدان.

ذكر استيلاء الروم على المصيصة وطرسوس

كان استيلاؤهم عليهما في سنة أربع وخمسين وثلاثمائة وذلك أن الدمستق حصر المصيصة في سنة ثلاث وخمسين وقاتلَ أهلها ونقب أسوارها واشتد القتال وأحرق الروم رستاقها ورستاق أذنه[٣] وطرسوس لمساعدتهم أهلها، وقُتِلَ من المسلمين خمسةَ عشرَ ألف رجلٍ. ثم ضاقت المِيرة على الروم فرحل الدمستق إلى بلاد الروم، وأرسل إلى أهل المصيصة وأذنه وطرسوس «أني منصرف عنكم لا لِعجْزٍ ولكن لضيق العلوفة وشدة الغلاء، وأنا عائد إليكم، فمن انتقل منكم فقد نجا ومن وجدته بعد عودي قتلته».

---

(١) قيسارية: بلد على ساحل بحر الشام، تعد في أعمال فلسطين، بينها وبين طبرية ثلاثة أيام.

(٢) بغراس: مدينة في لحف جبل اللكام، بينها وبين أنطاكية أربعة فراسخ، على يمين القاصد إلى أنطاكية من حلب، في البلاد المطلة على نواحي طرسوس.

(٣) أذنة: بحذاء توز جبل يقال له الغمر شرقي توز، ثم يمضي الماضي فيقع في جبل شرقيه أيضًا.. وأذنة أيضًا: بلد من الثغور قرب المصيصة مشهور... (معجم البلدان).

ونزل ملك الروم أيضًا على طرسوس وحصَرها وجرى بينه وبين أهلها حروبٌ كثيرة سقط في بعضها الدمستق بن الشمشقيق إلى الأرض وكاد يؤسر فقاتل عليه الروم وخلصوه. وأسر أهلُ طرسوس بطريقًا كبيرًا من بطارقة الروم، ورحل الرومُ عنهم لاشتداد الغلاء والعناء.

وكان نقفور ملك الروم قد بنى بِقَيْسَارية مدينة وأقام بها بأهله ليقْرُب من بلادِ الإسلام، فلما كان في سنة أربعٍ وخمسين أرسل أهلُ طرسوس والمصيصة[١] إليه يبذلون الطاعةَ ويطلبون منه أن يُنْفِذَ إليهم بعضَ أصحابه ليقيم عندهم، فعزم على إجابتهم إلى ذلك فأتاه الخبرُ أنهم قد ضعفوا وعجزوا وأنهم لا ناصرَ لهم وأن الغلاءَ قد اشتد عندهم وعدِموا القوتَ وأكلوا الكلابَ والميتة وكثر فيهم الوباءُ فيموت منهم في اليوم ثلاثمائةُ نفسٍ، فرجع نقفور عن إجابتهم وأحضر الرسولَ وأحرقَ الكتاب على رأسه فاحترقت لحيته وقال لهم: أنتم كالحية في الشتاء تخدر وتذبل حتى تكاد تموت، فإن أخذها إنسان وأحسن إليها وأدفأها انتعشت ونهشته، وأنتم إنما أطعتم لضعفكم، وإن تُركتم حتى تستقيمَ أحوالكم تأذَّيت بكم!

وأعاد الرسولَ وجمع جيوشَ الروم وسار إلى المصيصة بنفسه، فحاصرها وفتحها عنْوَةً يومَ السبت ثالث عشر شهر رجب سنة أربع وخمسين وثلاثمائة، ووضع السيف في أهلها فقتل منهم مقتلةً عظيمةً. ثم أمر برفع السيف عنهم، ونقل كل من بقي منهم إلى بلد الروم، وكانوا نحو مائتي ألف إنسان. ثم سار إلى طرسوس فحاصرها فأذعن أهلُها بالطاعة وطلبوا الأمان فأمّنهم، وفتحوا له البلدَ فلقيهم بالجميل[٢] وأمرهم أن يحملوا من سلاحِهم وأموالهم ما يطيقون حمله ففعلوا ذلك برًّا وبحرًا، وسيّر معهم من يحميهم حتى بلغوا أنطاكية.

وجعل الملِكُ المسجدَ الجامع اسطبلاً لدوابه، وأحرق المنبر، وعمَّرَ طرسوسَ وحصَّنَها، وجلب إليها الميرة حتى رخُصتِ الأسعارُ ورجع إليها كثيرٌ من أهلها ودخلوا في طاعة الملك وتنصَّر بعضهم، وأراد المقام بها ليقرب من بلاد الإسلام ثم عاد إلى

---

(١) المصيصة: بالفتح ثم الكسر، والتشديد، وياء ساكنة، وصاد أخرى: هي مدينة على شاطىء جيحان من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم تقارب طرسوس. . . (معجم البلدان).

(٢) جميل: ببغداد، ينسب إليه إبراهيم بن محمد بن عمر بن يحيى بن الحسين أبو طاهر العلوي الجميلي، نزل درب جميل فنسب إليه. . . (معجم ياقوت).

القسطنطينية. وأراد الدمستق وهو ابن الشمشقيق أن يقصد ميافارقين[١] وبها سيفُ الدولة بن حمدان فأمره الملك باتباعه إلى القسطنطينية فمضى إليه. ثم فتح نقفور أذنه.

وفي سنة أربع وخمسين أيضًا قتل المتنبي الشاعر واسمه أحمد بن الحسين الجُعْفِيّ بالقرب من النعمانية[٢] وقُتِلَ معه ابنه، وكان قد عاد من عند عضد الدولة بفارس فقتله الأعراب وأخذوا ما معه.

وفي سنة ست وخمسين وثلاثمائة كانت وفاة معز الدولة بن بويه وولاية ابنه عز الدوبة بختيار على ما نذكره في أخباره. ومات وشمكير بن زيار، والحسن بن الفيرزان، وكافور الإخشيدي، ونقفور ملك الروم، وأبو علي محمد بن إلياس صاحب كرمان، وسيف الدولة بن حمدان.

وفيها توفي أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد بن أحمد الأصفهاني الأموي، وهو من ولد مروان بن الحكم وكان شيعيًا وهذا من العجب، وهو صاحب كتاب الأغاني.

ذكر البيعة لمحمد بن المستكفي وما كان من أمره

وفي سنة سبعٍ وخمسين وثلاثمائة ظهر ببغداد بين الخاص والعام دعوةٌ إلى رجل من أهل البيت اسمهُ محمد بن عبد الله، وقيل إنه الرجل الذي وعد به النبي ﷺ، وإنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحدد ما عفى من أمور الدين، فمن كان من السُّنة قال: إنه عباسي، ومن كان من الشيعة قال: إنه علوي. فكثرت دعاته وظهرت بيعته، وكان الرجل بمصر وقد أكرَمه كافورٌ الإخشيديّ وأحسن إليه. وكان في جملة من بايع له سَبُكْتَكِين العجمي من أكابر قواد معز الدولة وكان يتشيع فظنه علويًا، فكتب إليه يستدعيه

(١) ميافارقين: بفتح أوله وتشديد ثانيه ثم فاء، وبعد الألف راء، وقاف مكسورة، وياء، ونون: أشهر مدينة بديار بكر... ما بني منها بالحجارة فهو بناء أنوشروان بن قباذ، وما بني بالآجر فهو بناء أبرويز... وهي من أبنية الروم لأنها في بلادهم... (معجم البلدان).

(٢) النعمانية: بالضم: بليدة بين واسط وبغداد في نصف الطريق على ضفة دجلة معدودة من أعمال الزاب الأعلى وهي قصبته وأهلها شيعة غالبة كلهم... والنعمانية أيضًا: قرية بمصر، وفي كل واحدة منها مقلع للطين الذي تغسل به الرؤوس في الحمامات... (معجم ياقوت).

من مصر. فسار حتى بلغ الأنبار[١]، وخرج سبكتكين إلى طريق الفرات وهو يتولى حمايتها فلقي ابن المستكفي وترجل له وخدمه وأخذه، وعاد به إلى بغداد وهو لا يشك في حصول الأمر له. ثم ظهر لسبكتكين أنه عباسيٌّ فعاد عن رأيه فيه، فخاف ابن المستكفي وهرب هو وأصحابه وتفرقوا، ثم أُخِذَ ومعه أخٌ له وأُحْضِرا عند بختيار فأمنهما ثم تسلمه المطيعُ لله من بختيار فَجَدع أنفه، ثم خَفِي خبرُه.

وفي سنة ثمانٍ وخمسين وثلاثمائةٍ انقطعت الدعوةُ العباسيةُ من الديار المصرية والشامية، وقامت الدعوةُ العلويةُ بها للمعز لدين الله صاحب إفريقية والمغرب، على يد جوهرِ القائدِ غلامِ المنصور ووالد المعز على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار الدولة العُبَيْدية.

وفيها مات ناصر الدولة بن حمدان.

ذكر ما فعله الروم بالشام والجزيرة

في هذه السنةِ دخل ملك الروم الشامَ فَلَمْ يَمْنَعْه أحدٌ ولا قاتله، فسار في البلاد إلى طرابلس وأحرق بلدَها، وملك قلعة عرقة[٢]. وكان صاحب طرابلس قد أخرجه الرومُ لِشِدَّةِ ظُلْمِه، فقصد عرقة فأخذه الرُّومُ وجميعَ ماله، وقصدَ ملكُ الروم حِمْص وكان أهلها قد انتقلوا عنها وأخلوها، فأحرقها الرومُ ورجع إلى بلد الساحل، فأتى عليها نَهْبًا وتخريبًا وملك ثمانيةَ عشرَ شهرًا وما لا يُحْصى من القرى، وأقام بالشام شهرين يقصد أي موضع شاء ويخرب ما شاء فلا يمنعه أحد، وعاد إلى بلادِه ومعه من السَّبْي نحو مائةِ ألف رأسٍ ولم يأخذْ إلا الصِّبيان والصبايا والشبابَ، وأما الكهول والشيوخ والعجائز فمنهم من قتله ومنهم من أطلقه، وسيَّر سريَّةً إلى بلد الجزيرة فبلغوا كفرتوثا وتعصبوا وسَبَوْا وأحرقوا وعادوا.

ذكر ملك الروم مدينة أنطاكية

وفي سنة تسعٍ وخمسين وثلاثمائة ملك الروم مدينة أنطاكية[٣]، وسبب ذلك

(١) الأنبار: بفتح أوله: مدينة قرب بلخ وهي قصبة ناحية جوزجان وبها كان مقام السلطان، وهي على الجبل، وهي أكبر من مرو الروذ وبالقرب منها... (معجم البلدان).

(٢) عرقة: هي من نواحي الروم، غزاها سيف الدولة.

(٣) أنطاكية: قصبة العواصم من الثغور الشامية، وهي من أعيان البلاد وأمهاتها، موصوفة بالنزاهة والحسن وطيب الهواء وعذوبة لماء وكثرة الفواكه وسعة الخير... (معجم البلدان).

أنهم حَصروا حِصْنًا بالقرب منها يقال له حصن لوقا، فوافقوا أهلَه وهم نصارى على أن يرتحلوا منه إلى أنطاكية، ويظهر أنهم انتقلوا منه خوفًا من الروم فإذا صاروا بأنطاكية أعانوهم على فَتْحِها. وانصرف الرومُ عنهم بعد هذا التقرير، وانتقل أهل الحِصْن ونزلوا بأنطاكية بالقرب من الجبل الذي بها. فلما كان بعد انتقالهم بشهرين وافَى الرومُ مع أخي نقفور وكانوا نحو أربعين ألف رجل، فأحاطوا بالسور وصعدوا الجبل إلى الناحيةِ التي بها أهل الحصن فأخْلَوْا لهم السور، فملكه الرومُ وملكوا البلدَ ووضعوا السيفَ في أهله، ثم أخرجوا العجائزَ والأطفالَ والمشايخَ من البلد وقالوا لهم: اذهبوا حيث شئتم! وأخذوا الشباب من الرجال والنساء والصبيان والصبايا فحملوهم إلى بلاد الروم سبيًا، وكانوا يزيدون على عشرين ألف إنسان.

قال: وأنفذ الرُّومُ جيشًا كثيفًا إلى حلب وبها قرعوية غلام سيف الدولة بن حمدان قد تغلب عليها ونزع يده من طاعة أبي المعالي بن سيف الدولة، فملك الرّومُ المدينةَ دون القلعة وحصروا القلعةَ، وترددتِ الوسائطِ والرسائل بينهم وبين قرعوية، فاسْتَقَرَّ الأمرُ على هدنة مؤبدة على مالٍ يحمله قرعوية إليهم وأن يكونَ الرّومُ إذا أرادوا الغزو لا يُمكن قرعوية أهلَ القرى عن الجلاء عنها ليبتاعَ الرّومُ ما يحتاجون إليه منهم. وكان مع حلب في الهدنة حماه وحمص وكفرطاب[1] والمعرة وأفامية[2] وشيرز[3] وما بين ذلك من الحصون والقلاع والقرى، وسَلَّموا الرهائنَ إلى الروم، وعادوا عن حلب.

ذكر ملك الروم ملازكرد

وفيها أرسل الروم جيشًا إلى ملازكرد من أعمال أرمينية، فملكها عنْوةً وقهرًا من المسلمين، وعظمت شوكتهم، وخافهم المسلمون في أقطار البلاد.

ذكر مقتل ملك الروم نقفور

وفي سنة تسع وخمسين وثلاثمائة قتل نقفور ولم يكن من أهل بيت المملكة، وإنما كان دمستقًا والدمستق عندهم الذي يلي بلاد الروم التي هي شرقي خليج

---

(١) كفرطاب: بالطاء مهملة، وبعد الألف باء موحدة: بلدة بين المعرة ومدينة حلب في برية معطشة ليس لهم شرب إلا ما يجمعونه من مياه الأمطار في الصهاريج. . . (معجم البلدان).

(٢) أفامية: مدينة حصينة من سواحل الشام وكورة من كور حمص كما يقول ياقوت.

(٣) شيرز: من قرى سرخس شبيهة بالمدينة بينهما مسيرة يومين للجمال على طرف من طريق هراة، بها سوق عامرة وخلق كثير وجامع كبير. . . (معجم البلدان).

قسطنطينية. وكان نقفور هذا شديدًا على المسلمين، وهو الذي فتح طرسوس والمصيصة وأذنه وعين زَرْبة وغيرها، ولم يكن نصرانيَّ الأصل وإنما هو من ولد رجل مسلم من أهل طرسوس يعرف بابن الفقاس تنصر، وكان ابنه هذا شَهْمًا شجاعًا حسنَ التدبير لما يتولاه. فلما عظم أمره وصار دمستقًا قتل الملكَ الذي كان قبلَه وملَكَ الرومَ بعده، وتزوّج امرأة الملك المقتول على كُرْهٍ منها وكان لها ابنان من الملك، فعزم على أن يخصيهما ليقطع نَسْلَهما ويبقى المُلْك فيه وفي ذُرِّيته. فلما علمت أُمهما ذلك احتالت في قتله، فأرسلت إليه ابن الشمشقيق ـ وهو الدمستق حينئذ ـ ووافقته على أن يسيرَ إليها في زِيِّ النساء ومعه جماعةٌ وقالت لزوجها: إن نسوة من أهلها قد زرنها! فلما سار إليها هو ومن معه جعلتهم في بيعة تتصل بدار الملك. فلما كان في ليلة الميلاد نام نقفور واستثقل في نَوْمه، ففتحت امرأته البابَ وأدخلتهم إليه فقتلوه، وثار بهم جماعةٌ من خاصته وأهلِه فقُتِل منهم نيِّفٌ وسبعون رجلًا، وأُجْلِس في المُلْكِ الأكبَرُ من وَلَدي الملكِ المقتول، وصار المدبر له ابن الشمشقيق، ويقال: إن نقفور ما بات قَطُّ بغير سلاح إلا في تلك الليلة التي قتل فيها.

ذكر الفتنة ببغداد
ومصادرة الخليفة المطيع لله

وفي سنة إحدى وستين وثلاثمائةٍ وقعت ببغداد فتنةٌ عظيمة، وكان سببها أن الرّوم استطالوا على أهل بلاد الجزيرة وامتدوا في البلاد وعظم أمْرُهم وقويت شوكتهُم، فسار جماعةٌ من أهل تلك البلاد إلى بغداد مستنفرين، وقاموا في المساجدِ والمشاهدِ واستنفروا المسلمين وذكروا ما فعله الرّومُ من النَّهْبِ والأسْرِ والسَّبْي. فاستعظمه النَّاسُ واجتمع أهلُ بغداد وقصدوا دار الخليفة، وأرادوا أن يهجموا عليه فَمُنِعوا وأُغْلِقَتِ الأبوابُ فأسمعوه القبيح، ثم تجمعوا وثاروا في البلَدِ، ونهبتِ الأموال وقُتِلَتِ الرِّجال، وأُحْرقَتِ الدورُ، وفي جملةِ ما أُحرق محلة الكرخ وكانت معدن التجار والشيعة.

فأنفذ عز الدولة بختيار إلى المطيع لله يطلب منه مالاً يخرجه على الغزاة فقال المطيع: إنَّ النفقة على الغزاة وغيرها من مصالح المسلمين تلزمني إذا كانت الدُّنيا في يَديَّ والأموال تُجبى إليّ، وأما إذا كانت حالي هذه فلا يلزمني شيءٌ من ذلك، وإنما يُلْزَمَ مَنِ البلادُ في يَدِه وأنا ليس لي إلا الخطبةُ، فإن شئتم أن أعتزل فعلت!

وترددتِ الرسائلُ بينهما حتى بلَغَا إلى التهديد، فبذل المطيعُ لله أربعمائة ألفِ درهمٍ فاحتاج إلى بيْع ثيابه وإنقاصِ داره وغير ذلك. وشاع عند النَّاسِ من أهل العراق وحجّاج خرسان وغيرهم أن الخليفة قد صودر فلما قَبَضَ بختيارُ المال صَرَفَه في مصالح نَفْسه وبطُلَ حديث الغزاة، ولم يسمع بمثل هذا فيما مضى.

وفي سنة ثلاث وستين وثلاثمائة وقعت الفتنة بين بختيار وسبكتكين التركي الحاجب، فانتصر الحاجبُ عليه واستولى على بغداد، وأخرج مَنْ فيها من أهل بختيار وأصحابِه، وترك الأتراكَ في دُورِ الدَّيْلَم، وأخذوا أموالَهم على ما نذكر ذلك مبيَّنًا في أخبار الدولة البويهية إن شاء الله تعالى.

ذكر خلع المطيع للّه نفسه من الخلافة وخلافة ابنه الطائع لله

وفي منتصف ذي القعدة سنة ثلاث وستين وثلاثمائة، وقيل في الثالث عشر منه خَلَع المطيعُ لِلَّهِ نَفْسه من الخلافة. وكان سبب ذلك أنه أصابه مرض الفالج وثقُل لسانه وتَعذَّرَتِ الحركة عليه، وكان يستُر ذلك، فانكشف حاله لسبكتكين فدعاه إلى خَلْع نَفْسِه وتسليمها لولده ففعل ذلك وأشهد عليه به. فكانت مُدَّة خلافتِهِ تسعًا وعشرين سنة وأربعة أشهرٍ وعشرين يومًا، وكان له من الأولاد أبو بكر وهو الطائع وعبد العزيز وجعفر.

وزراؤه: أبو الحسن محمد بن علي بن مقلة، وأبو الفضل أحمد الشيرازي. قضاته: محمد بن الحسين بن أبي الشوارب، ومحمد ابن أُمّ شيبان الهاشمي، وأبو السائب، وأبو بشر عمر بن أكثم. حجابه: بختيار بن معز الدولة ويخلفه عبد الواحد ابن أبي عمر الشرابي[1]. الأمير بمصر: الإخشيد إلى أن مات، ثم ابنه أنوجور، ثم أخوه، ثم كافور الإخشيدي إلى أن مات، ثم عُقد الأمرُ لأحمدَ بنِ عليِّ بنِ الإخشيد وهو ابن إحدى عشرةَ سنةً، ثم خرجت مصر عن الدولة العباسية باستيلاء المغاربة عليها. القضاة بمصر: أبو الوليد، ثم عمر بن الحسين بن عبد العزيز العباسي من قِبَلِ أخيه محمد، واستخلف ابنَ الحدَّادِ، ثم وَلِيَها أبو بكر عبد الله بن محمد بن الخَصيب، ثم ابنه محمد، ثم أبو طاهر محمد بن نصر.

---

(١) لقب بالشرابي لأنه كان يقدم الشراب في القصر كالساقي.

ذكر خلافة الطائع لله

هو أبو بكر عبد الكريم بن المطيع لله الفضل بن المقتدر بالله أبي الفضل جعفر، وأُمه أُم ولد اسمها عتب. وهو الخليفة الرابع والعشرون من الخلفاء العباسيين، وبويع له في يوم الأربعاء لثلاثَ عشرةَ ليلةً خلَتْ من ذي القعدة سنة ثلاث وستين وثلاثمائة، وسِنُّه يوم ذلك ثمانٍ وأربعون سنةً، ولم يلِ الخلافةَ أكبرُ منه سِنًّا من بني العباسي، ولم يتقلَّدِ الخلافةَ من له أبٌ حيٌّ بعد أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه غيره!.

ذكر الحوادث في أيام خلافته

في هذه السنة خُطِب للمعزِّ صاحبِ مصر بمكةَ والمدينة. وفي سنة أربع وستين وثلاثمائة استولى عَضُدُ الدولة على العراق وقبض على بختيار، ثم عاد بختيار إلى مُلْكِهِ على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وفي سنة خمس وستين وثلاثمائة توفي المعز لدين الله صاحب مصر، وقام بعده ابنه العزيز.

وفي سنة ست وستين وثلاثمائة توفي ركن الدولة بن بويه، وملك ابنه عضد الدولة وفيها كان ابتداء الدولة الغزنوية وأول من ملك منهم بغزنة سبُكْتَكِين، وسنذكر أخباره في دوْلَتِهِم إن شاء الله تعالى.

وفيها في جُمادى الأُولى نُقِلَتْ ابنة عِزِّ الدولة بختيار إلى الطائع لله، وكان قد تَزَوَّجَها.

وفي سنة سبع وستين وثلاثمائة استولى عضد الدولة على العراق وأخرج بختيار عنها ثم قتله، على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبارهم.

وفي سنة تسع وستين وثلاثمائة تزوج الطائع ابنة عضد الدولة، وكان عضد الدولة قد زوجه بها، وقال: لعلها تلد منه ولدًا ذكرًا فنجعله ولي عهده فتكون الخلافة في ولدهم! وكان الصداق مائة ألف دينار، وزُفت إليه في سنة سبعين وكان معها من الجواهر والجهاز ما لا يحصى.

وفي سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة تُوفِيَ عضدُ الدولةِ بن بويه، ووَلي صمصامُ الدولة ولدُه.

وفي سنةِ خمسٍ وسبعين وثلاثمائةِ خرج طائر من البحر بعمان وهو أكبر من الفيل، ووقف على تل هناك وصاح بصوت عالٍ ولسان فصيح: قد قرب قد قرب قد قرب! ثلاثًا، ثم غاص في البحر، فَعلَ ذلك ثلاثةَ أيامٍ ثم غاب ولم يُرَ بعد ذلك.

وفي سنة ست وسبعين وثلاثمائة ملك شرف الدولة العراق، وقبض على أخيه صمصام الدولة وَسَمله في سنةٍ تسعٍ وسبعين، ومات شَرَفُ الدَّوْلَةِ في السنة، وملك بعده أخوه بهاء الدولة وله إخوة.

ذكر القبض على الطائع وشيء من أخباره

وفي سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة في يوم السبت لثمانٍ من شعبان قبض بهاءُ الدولة بن بويه على الخليفة الطائع لله، وكان سبب ذلك أن بهاء الدولة قَلَّتْ عنده الأموالُ وكثر شَغَبُ الجُنْدِ عليه، فَقَبضَ على وزيره سابورَ فلم يُغْنِ عنه شيئًا. وكان أبو الحسن ابن المعلم قد غَلَب على بهاء الدولة وحكم في مملكته فحسَّن له القبضَ على الطائع وأطمعه في ماله، وهوَّن ذلك عليه وسهَّله. فأقدم عليه بهاء الدولة وأرسل إلى الطائع لله وسأله الإذْنَ في الحضور إليه ليجدِّد العهد بخدمته، فأذن له بذلك. وجلس له كما جَرتِ العادةُ، فدخل بهاءُ الدولة ومعه جمعٌ كبيرٌ فلما دخل قَبَّل الأرض. فأُجلس على كرسي، فدخل بعض الدَّيْلم كأنه يريد تقبيلَ يدِ الخليفة، فجذبه وأنزله عن سريره والخليفة يقول: إنَّا لله وإنا إليه راجعون! ويستغيث ولا يُلْتَفَتُ إليه، وأخذ ما في دار الخلافة من الذخائر، ونهب الناسُ بعضُهم بعضًا. وكان في جملتهم الشريف الرضي(١) فبادر بالخروج فسلّم وقال أبياتًا من جملتها: [من البسيط]

مِن بَعْدِ ما كان ربُّ المالِ مبتسمًا ... إليّ أدنوه في النجوى ويدنيني

أمْسيتُ أرْحمُ مَنْ قد كنت أغبطه ... لقد تقارب بين العِزِّ والهُونِ

ومنظرٍ كان بالسرّاء يُضْحِكني ... يا قُرْبَ ما عاد بالضَّرّاء يُبكيني

هيهاتَ أغْتَرُّ بالسُّلْطانِ ثانيةً ... قد ضَلَّ وَلاَّجُ أبوابِ السلاطينِ

قال: ولما حُمِلَ الطائعُ إلى دار بهاء الدولة أشهد عليه بالخلع، فكانت مدة خلافته سَبْع عَشْرَةَ سنةً وتسعةَ أشهر وثمانية أيام، وبقيَ في حبس القادِر باللّهِ إلى أن تُوفي في يوم الثلاثاء سَلْخَ شهر رمضان سنة ثلاثٍ وتسعين وثلاثمائة وصلّى عليه القادر بالله في دار الخلافة وكبّر خَمْسًا، وتحدَّث الناسُ في ذلك فقال: هكذا يصلّى

---

(١) هو الشريف الرضي أبو الحسن محمد بن الطاهر ذي المناقب أبي أحمد الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين، المعروف بالموسوي صاحب ديوان الشعر... قيل: توفي سنة ٤٠٣ ببغداد ودفن بمقابر قريش بمشهد باب التين... (وفيات الأعيان ٤: ٤١٤).

على الخلفاء! ودفن بالرصافة، ويقال: إن القادر بالله شيّع جنازته إليها ورثاه الشريف الرَّضِيّ بقصيدته التي أولها: [من البسيط]

ما بَعْدَ يوْمِك ما يَسْلو به السَّالِي ومثلُ يومِكَ لم يَخْطُرْ على بالِي

وكان مولدُه في سنةِ سبعَ عشْرَةَ وثلاثمائةٍ، وكان أبيضَ مرْبوعًا حسن الجسْم، وكان أنفه كبير جدًا، وكان شديد القوة كثير الإقدام، ولم يكن له من الحكم في ولايته ما يُعرف به حاله ويستدَلُّ على سيرته.

ذكر خلافة القادر بالله

هو أبو العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر بالله أبي الفضل جعفر بن المعتضد بالله أبي أحمد بن الموفق، وأُمه أُم ولد اسمها دمنة وقيل تمنى، وهو الخليفة الخامس والعشرون من الخلفاء العباسيين. وبويع له في يوم خلع الطائع لثمان بقين من شعبان سنةَ إحدى وثمانين وثلاثمائةٍ وكان يوم ذاك بالبطِيحةِ[1] عند مُهذّب الدولة أميرها. وكان سبب توجهه إليها أن إسحاق بن المقتدر والد القادر لما توفي جرى بين القادر وبين أخيه منازعةٌ في ضَيْعة، وطال الأمرُ بينهما. ثم إن الطائع لله مرِض مرضًا شديدًا أُشفِي منه ثم أبلّ[2] فسعت إليه بأخيها القادر وقالت: إنه شَرع في طلب الخلافةِ عند مَرَضك! فتغيّر رأْيه فيه، وأنفذ أبا الحسن ابن حاجب النُّعمان وغيره لِلْقَبض عليه وكان بالحريم الطاهري، فأصعدوا في الماء إليه.

وكان القادر قد رأى في منامه كأن رجُلًا يقرأ عليه.. ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عمران: ١٧٣] فهو يحكي هذا المنام لأهله ويقول: أنا خائف من طَلَبٍ يطلبني!

ووصل أصحابُ الطائع لله وقَبضُوا عليه، فأراد لِبْس ثيابه فمنعوه ولم يمكّنوه من مفارقتهم، فأخذه النساءُ منهم قهْرًا وخرج من داره واستتر وذلك في سنة تسع وسبعين. ثم سار إلى البطيحة فسار فنزل على مهذب الدولة، فأكرم نُزُلَه ووسّع عليه وبالغ في خِدْمتِه، ولم يزَلْ عنده حتى أُفْضِيَ إليه الأمر فجعل علامته ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾.

---

(١) البطيحة: هي أرض واسعة بين واسط والبصرة، وكانت قديمًا قرى متصلة وأرضًا عامرة... (معجم البلدان).

(٢) يقال: أبل من مرضه: إذا حسنت حاله بعد الهزال.

قال: ولما قبض على الطائع ذكر بهاء الدولة من يصلح للخلافة فاتفقوا على القادر بالله، فأرسل بهاء الدولة خواص أصحابه ليحضروه إلى بغداد.

وشَغَب الجُنْدُ والدَّيْلَمُ ببغدادَ، ومَنعُوا من الخُطبة له، فقيل على المنبر: اللَّهُمَّ أصلِحْ عبدك وخليفتَك القادر بالله! ولم يُذْكَرْ اسمُه، ثم أرضاهم بهاء الدولة.

قال: ولما وصل الرسول إلى القادر بالله كان في تلك الساعة يحكي منامًا رآه في تلك الليلةِ هو ما حكاه عبد الله بن عيسى كاتبُ مهذَّب الدولة قال: كنت أحضر عند القادر بالله كلَّ أسبوعٍ مرتين، فكان يكرمني، فدخلت عليه يومًا فوجدته قد تأهب لم تَجْرِ به عادتُه، ولم أرَ منه ما أَلِفتُ من كرامته[١] فاختلفت بي الظنونُ، فسألته عن سبب ذلك فإن كان لِزَلَّةٍ مِني اعتذرتُ عن نفسي فقال: «بل رأيتُ البارحةَ في منامي كأن نهركم هذا نهر الصليق[٢] قد اتَّسع فصار مثل دجلةَ دفعاتٍ، فسرتُ على جانبه متعجبًا منه، ورأيت عليه قنطرةً عظيمةً فقلت مَنْ قد حدَّثَ نفسه بعمل هذه القنطرة على هذا البحر العظيم؟ ثم صعدتها ـ وهي محكمة ـ فبينا أنا عليها أتعجب منها إذْ رأيتُ شخصًا يتأملني من ذلك الجانب فقال: أتريد أن تعبر؟ قلت: نعم، فَمدّ يدَه حتّى وصعلتْ إليّ فأخذَنِي وعَبَر بي فهالني، وتعاظمني فِعْلُه، فقلت: مَن أنت؟ قال: عليُّ بنُ أبي طالبٍ وهذا الأمر صائرٌ إليك ويطول عمرك فيه فأحْسِنْ إلى ولدي وشيعتي»!

قال: فما انتهى القادر إلى هذا القول حتى سمعنا صياحَ الملاّحين وغيرهم فسألنا عن ذلك فإذا هم الواردون إليه لإصعاده ليتولى الخلافةَ، فخاطبته «يا أمير المؤمنين» وقام مهذَّب الدولة بخدمته أَحْسَنَ قيام، وحمل إليه من المال وغيرِه ما يحمله كبارُ الملوك إلى الخلفاء وشَيَّعه، فسار القادرُ إلى بغداد، فلما وصلَ جَبُّل[٣] انحدر بهاء الدولة وأعيانُ الناسِ إليه واستقبلوه وساروا في خِدْمَتِه، فدخل دار الخلافةِ في ثاني عشر شهر رمضان وبايعه بهاء الدولة والناس، وخطب له في ثالث عشر الشهر المذكور.

وجُدِّد أَمْرُ الخلافةِ وعَظُم ناموسها وحُمِل إليه ما نُهِبَ من دار الخلافة، ولم يُخْطَبْ له في جميع خراسان بل كانت الخطبةُ فيها للطائع لله وحلَف له بهاء الدولة

---

(١) الكرامة: العزة.

(٢) الصليق: مواضع كانت في بطيحة واسط بينها وبين بغداد.

(٣) جبّل: بليدة بين النعمانية وواسط في الجانب الشرقي.

على الطاعة والقيام بشروط البيعة، وحلف القادر له بالوفاء والخلوص، وأشهد عليه أنه قلَّده ما وراء بابه.

ذكر تسليم الطائع لله إلى القادر
وما فعله معه

وفي شهر رجب سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائةٍ سَلَّمَ بهاءُ الدولة الطائعَ لله إلى الخليفة القادر بالله، فأنزله في حجرةٍ من خاصِّ حُجَرِه، وَوَكَل به من ثقات خَدَمِهِ من يقوم بِخِدْمَتِهِ وبالغ في الإحسان إليه، وكان الطائع يطلب الزيادة في الخدمة كما كان أيام الخلافة فيؤمر له بذلك. حكي عنه أن القادر أرسل إليه طِيبًا فقال: من هذا يتطيب أبو العباس؟ يعني القادر فقالوا: نعم! فقال: قولوا له عني: في الوضع الفلاني كندوج[1] فيه طيب مما كنت أستعمله، فَلْيُرْسِلْ إليَّ بعضَه ويأخذ الباقيَ لنفسه! ففعل ذلك، وأرسل إليه القادر يومًا عدسية فقال: ما هذا؟ قالوا: عدس وسَلْق! فقال: أوقد أكل أبو العباس من هذا؟ قالوا: نعم! قال: قولوا له عني: لَمَّا أردت أن تأكل عدسية لِمَ اختفيت فما كانت العدسية تعوزك، ولم تقلدت هذا الأمر؟ فأمر حينئذ القادرُ أن تفْردَ له جاريةٌ من طباخاته تحضر له ما يلتمسه في كل يوم، فأقام على هذا إلى أن توفي.

وفي سنة ثلاثٍ وثمانين وثلاثمائةٍ عُقِد نكاح القادر بالله على بنت بهاء الدولة على صداق مبلغه مائة ألف دينار، وماتت قبل النَّقْلَةِ إليه.

وفيها اشْتَدَّ الغلاءُ بالعراق وبيعت الكارةُ[2] الدقيق بمائتين وستين درهمًا، والكُرُّ الحنطة بستةِ آلافِ وستمائة درهم غياثية[3].

وفي سنةِ ستٍّ وثمانين وثلاثمائة توفي العزيز بالله صاحب مصر، وولي بعده ابنُه الحاكم.

وفي سنةِ تسعٍ وثمانين انقرضتِ الدَّوْلَةُ السامانية وملك التُّرك ما وراء النهر.

وفيها عمل أهل باب البصرة ببغداد يومَ السادس والعشرين من ذي الحجة زينةً عظيمةً وفرحًا كثيرًا، وعملوا في ثامن عشر المحرم مثلَ ما تعمل الشيعة في يوم

---

(١) كندوج: (فارسي معرب): صندوق أو مخزن.

(٢) الكارة: ما يجمع ويشد ويحمل على الظهر من طعام أو ثياب.

(٣) نسبة إلى غياث الأمة لقب بهاء الدولة الذي خلع عليه عام ٣٨١.

عاشوراء. وسبب ذلك أن الشيعة بالكرخ كانوا ينصبون القِباب ويعلِّقون الثياب للزينة في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة، وهو يوم الغدير. وكانوا يعْملون ـ يومَ عاشوراء ـ المآتمَ والنَّوْح، ويُظهرون الحزنَ لمقتل الحسين، فعمل أهلُ باب البصرة مقابلَ ذلك بعد يوم الغدير بثمانيةِ أيام مثلهم وقالوا: يوم دخول النبيّ ﷺ وأبو بكر رضي الله تعالى عنه الغار! وعملوا بعد عاشوراء بثمانية أيام مثل عمل الشيعة يوم عاشوراء وقالوا: هذا يوم قتل مصعب بن الزبير رضي الله تعالى عنهما.

وفي سنة تسعين وثلاثمائة ظهر في سجستان معدن الذهب الأحمر.

ذكر البيعة لوليّ العهد

وفي شهر ربيع الأول سنةَ إحدى وتسعين وثلاثمائةٍ أمر القادر بالله بالبيعة لولَدِهِ أبي الفضل بولاية العهد، ولقّبه الغالبَ بالله. وكان سبب ذلك أن أبا عبد الله بن عثمان الواثقي من ولد الواثق بالله كان من أهل نصيبين، فَقَصد بغداد ثم سار إلى خراسان وعبر النَّهْرَ إلى هارون بن أيلك بغراخان، وصحبه الفقيه أبو الفضل التميمي وأظهر أنه رسولٌ من الخليفة إلى هارون يأمره بالْبيْعةِ لهذا الواثقيّ وأنه وليُّ عهْدِهِ. فأجاب بغراخان إلى ذلك وبايع له وخطب له ببلاده، فبلغ ذلك القادر فعظم عليه وأرسل إلى بغراخان في معناه فلم يُصْغِ إلى رسالته. فلما توفي هارون وولي بعده أحمد بغراخان كاتَبه الخليفةُ في معناه، فأُمر بإبْعادِهِ فحينئذ بايع القادر لولده، وأحضر حجاج خراسان وأعلمهم ذلك.

وأما الواثِقيُّ فإنه خرَج من عند أحمد بغراخان وقصد بغداد فعُرِف بها، فطُلِبَ منها فَهرب إلى البصرة ثم إلى فارس وكرمان، ثم إلى بلاد الترك، فلم يتم له ما أراد، وأرسل الخليفةُ إلى الملوك يطلبه فضاقت عليه الأرض، فسار إلى خوارزم[١] فأقام بها ثم فارقها، فأخذه يمينُ الدولة محمود بن سَبُكْتَكِين فحبسه إلى أن مات.

وفي سنة إحدى وأربعمائة خطب قرواش بن المقلد أمير بني عقيل للحاكم العلوي صاحب مصر بالكوفة والموصل والأنبار والمدائن وغيرها من أعماله ثم قطعت في السنة.

(١) خوارزم: أوله بين الضمة والفتحة، والألف مسترقة مختلسة ليست بألف صحيحة: ليس اسمًا للمدينة إنما هو اسم للناحية، فأما القصبة العظمى فقد يقال لها اليوم الجرجانية، وأهلها يسمونها كركانج... (معجم البلدان لياقوت).

وفي سنة إحدى عشرة وأربعمائةٍ مات الحاكمُ صاحبُ مصر وولي بعده ابنُه الظاهر لإعزاز دين الله.

وفي سنة اثنتي عشرة وأربعمائة توفي علي بن هلالٍ المعروف بابنِ[١] البواب، وإليه انتهى الخطُّ، ونُقِل عنه إلى وقتنا هذا، ودفن بجوار أحمد بن حنبل، وكان يَقص بجامع بغداد، وقيل إنه مات في سنة ثلاث عشرة وأربعمائة ورثاه المرتضى[٢].

ذكر الفتنة بمكة

وفي سنة أربعَ عشْرةَ وأربعمائةٍ في يومِ النفر الأول وكان يوم الجمعة، قام رجلٌ من أهل مصر بإحدى يديه سيف مسلول والأُخرى دبوس، بعد فراغ الإمام من الصلاة فَقَصد الحجر الأسود فضربه ثلاثَ ضربات بالدبوسِ وقال: إلى متى يُعْبدُ الحجرُ الأسود ومحمدٌ وعليٌّ؟ فليمنَعْني مانعٌ من هذا، فإني أُريد هدْم هذا البيت! فخاف أكثر من حضر وتراجعوا عنه وكاد يفلت، فثار به رجل فضربه بخنجر فقتله، وقَطَّعه النَّاسُ وأحرقوه، وقُتل مِمَّن اتُّهِم بمصاحبته جماعةٌ وأُحرقوا، وثارت الفتنة، وكان الظَّاهرُ من الْقَتْلى أكثر من عشرين رجلاً غير ما أُخفي منهم.

وألَحَّ النَّاسُ في ذلك اليوم على المغاربة والمصريين بالنَّهْبِ والسَّلب، فلما كان الغدماج النّاسُ واضطربوا وأخذوا أربعة من أصحاب ذلك الرجل فقالوا: نحن مائةُ رجلٍ! فَضُرِبت أعناق الأربعة. وتَقَشَّر بعضُ وجْهِ الحجر من الضربات، فأُخذ ذلك الفتاتَ وعجن بِلَك[٣] وأُعيد إلى موضعه.

وفي سنة ثماني عشرةَ وأربعمائةٍ سقط بالعراق جميعه بردٌ كِبارٌ وَزْنُ الواحدةِ رطلٌ ورطلان، وأصغره كالبيضة، فأهْلَكَ الغَلاَّتِ ولم يصح منها إلا القليلُ، هكذا حكاه ابن الأثير في تاريخه الكامل.

---

(١) هو أبو الحسن علي بن هلال المعروف بابن البواب الكاتب المشهور؛ لم يوجد في المتقدمين ولا المتأخرين من كتب مثله ولا قاربه، وإن كان أبو علي بن مقلة أول من نقل هذه الطريقة من خط الكوفيين، وأبرزها في هذه الصورة وله بذلك فضيلة السبق وخطه أيضًا في نهاية الحسن... كانت وفاته سنة ٤١٠هـ ببغداد... (وفيات الأعيان ٣:٣٤٢).

(٢) الشريف المرتضى: هو أبو القاسم علي بن الطاهر ذي المناقب أبي أحمد الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم بن موسى الكاظم... كان نقيب الطالبيين وكان إمامًا في علم الكلام والأدب والشعر... وله تصانيف على مذهب الشيعة ومقالة في أصول الدين، وله ديوان شعر كبير... (وفيات الأعيان ٣:٣١٣).

(٣) اللك: صبغ أحمر تفرزه بعض الحشرات على بعض الأشجار في جزر الهند الشرقية، يذاب في الكحول فيكون منه دهان للخشب.

وفيها في آخر تشرين الثاني هبَّتْ ريحٌ باردة بالعراق جَمَدَ منها الماءُ والخَلُّ، وبطلَ دورانُ الدواليب التي على دجلة.

وفي سنةِ تسعَ عشرةَ وأربعمائةِ انقطع الحجُّ من العراق، فمضى بعض حجاج خراسان إلى كرمان وركبوا في البحر إلى جدة وحجُّوا!.

ذكر البيعة لولي العهد

كانَ القادر بالله قد جَعَلَ ولاية العهد لولده أبي الفضل كما قدمناه فمات فلما كان في سنة إحدى وعشرين أربعمائة مرض القادر وأُرجف بموته، فجلس جلوسًا عامًا وأذن للخاصة والعامة فدخلوا عليه. فلما اجتمعوا قام الصَّاحب أبو الغنائم فقال: خَدمُ مولانا أميرِ المؤمنين داعون له بالبقاء وشاكرون لما بلغهم من نظره لهم وللمسلمين باختيار الأمير أبي جعفر لولاية العهد! فقالَ القادر للناس: قد أذنًا لكم في العهد له! وكان أراد أن يبايع له قبل ذلك فنهاه عنه الحسن ابن حاجب النعمان، فلما عيّنه القادرُ الآن جلس على السرير الذي كان قائمًا عليه. وأُلْقِيتِ الستارة التي على القادر، فتقدم الحاضرون وخدموا وليَّ العهد وهنَّؤوه، وتقدَّم أبو الحسن ابن حاجب النعمان فَقَبَّلَ يده وهنَّأه فقال له أبو جعفر: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ﴾ [الأحزاب: ٢٥] يعرض له بإفساده رأْي القادرِ فيه فأكب على تقبيل قدميه وتعفير خدِّه بين يديه، فَقَبِلَ عذره. ودُعِي لأبي جعفر على المنابر يوم الجمعة لسِتٍّ بقين من جُمادى الأُولى، ومات أبو الحسن ابن حاجب النعمان في نفس السنة.

ذكر ملك الروم مدينة الرها

وفي سنةِ اثنتين وعشرين وأربعمائةِ ملَكَ الرّومُ مدينةَ الرُّها وكانت بيد نصير الدولة بن مروان صاحب ديار بكر، ملكها من صاحبها عطير في سنة ست عشرة وأربعمائة ثم مات عطير فَشَفع صالحُ بنُ مِرداس صاحبُ حلب إلى نصير الدولة في إعادتها إلى ابن عطير وإلى ابن شبل بينهما، فقبل شفاعته وسلمها إليهما. وكان في الرُّها بُرجانِ حَصِينان أحدهما أكبر من الآخر فتسلم ابن عطير الكبير وابن شبل الصغير، وبقيت المدينة معهما إلى هذه السنة. فراسل ابنُ عطير أرمانوس ملك الروم وباعه حِصّنَه من الرُّها بعشرين ألف دينار وعِدَّةَ قرًى من جملتها القرية التي عرفت بسن ابن عطير، وتسلموا البرج الذي له ودخلوا البلد فملكوه وهرب منه أصحاب ابن شبل. وقَتلَ الرُّومُ المسلمين، وخرَّبوا المساجد، فسمع نصير الدولة الخبر فسيَّر جيشًا

كثيفًا إلى الرها فَحصرها وفتحها عَنوةً، واعتصم مَنْ بها من الروم بالبرجيْن واحتمى النَّصارى بالبيعة التي لهم، فحصرهم المسلمون بها وأخرجوهم وقتلوا أكثرهم ونهبوا البلد، وبقي الروم بالبرجين. فسيّر إليهم ملِكهم عسكرًا نَحْو عشرةِ آلافِ مقاتلٍ، فانهزم أصحابُ ابن مروان من بين أيديهم، ودخل الروم البلد ونهبوا ما جاورهم من بلاد المسلمين وصالحهم ابن وثّاب النميري على حَرّان وسَروج[1] وحملَ إليهم خراجًا.

ذكر وفاة القادر بالله وشيء من أخباره وسيرته

كانت وفاتُه رحمه اللّهُ في اليوم الحادي والعشرين من ذي الحجة سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة، وعمره ستٌّ وثمانون سنةً وعشرةُ أشهرٍ. وكانت مدّةُ خِلافتِه إحدى وأربعين سنةً وأربعةَ أشهرٍ إلا أيامًا. وكان حليمًا كريمًا خَيِّرًا يُحِبُّ الخَيْر وأهلَه ويأمر به، وينْهي عن الشَرِّ ويبغض أهلَه. وكان حسن الاعتقاد، وصنَّف كتابًا على مذهب السنة. وكان يخرج من داره في زِيّ العامَّةِ ويزور قبور الصالحين كَقَبْرِ معروفِ الكرْخِيِّ[2] وغيرِه.

قال القاضي الحسينُ بنُ هارون: كان بالكرخ ملِكٌ ليتيم وكان له قيمةٌ جيِّدةٌ، فأرسل إلى ابن حاجب النعمان ـ وهو حاجب القادر بالله ـ يأمرني أفُكُّ الحجْر عنه ليشتريَ بعضُ أصحابه ذلك المِلْكَ فلم أفعلْ فأرسل إلي يستدعيني فقلت لغلامه: «تقدمني حتى ألْحَقك» وخفْتُه وقصدتُ قَبْرَ معروف الكرخي فدعوت الله أن يكفيَني شَرَّه وهناك شيخ فقال: «على مَن تدعو؟» فذكرت له الْخَبر ووصلت إلى الحاجب فأغلظ لي في القول ولم يقبلْ عُذري، فأتاه خادمٌ بِرُقْعةٍ ففتحها فقرأها فتغير لونُه واعتذر إلي ثم قال: «كتبتَ إلى الخليفة رقعةً؟» قلت: «لا» وعلمت أن ذلك الشَّيْخ كان الخليفة!

---

(١) سروج: بفتح أوله: هي بلدة قريبة من حران من ديار مضر، وقد نسبوا إلى سروج أبا الفوارس إبراهيم بن الحسين بن إبراهيم بن برية السروجي الخطيب. . . (معجم البلدان).

(٢) هو أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخي، وقيل الفيروزان، وقيل علي، الكرخي، الصالح المشهور، وهو من موالي علي بن موسى الرضا. . وكان أبواه نصرانيين فأسلماه إلى مؤدبهم وهو صبي. . وكان مشهورًا بإجابة الدعوة، وأهل بغداد يستسقون بقبره. . . وتوفي سنة مائتين ببغداد وقبره مشهور بها يزار. . . (وفيات الأعيان ٥: ٢٣١).

وقيل إنه كان يقسم إفطاره كلَّ ليلةٍ ثلاثةَ أقسام؛ فقِسْمٌ يتركه بين يديْه، وقِسْمق يُرْسله إلى جامع الرصافة، وقِسْمٌ يرسله إلى جامع المدينة يُفَرِّقه على المقيمين فيهما. فاتَّفق أن الفَرَّاشَ حمل الطعام ليلةً إلى جامع المدينة ففرَّقه على الجماعة، فأخذوا إلا شابًّا فإنه رده، فلما صلَّوْا المغرب خرج الشاب وتبعه الفرَّاش فوقف على بابٍ فاسْتَطْعم فأطعموه كسيراتٍ فأخذها وعاد إلى الجامع فقال له الفراش: ويْحكَ أما تستحي.. يَنْفُذُ إليك خليفةُ الله بطعام حلالٍ فتردَّه وترجع فتأخذه من الأبواب؟ فقال: والله ما رددْتُه إلا لأنك عرضْتَه عليّ قبل المغرب وكنت غير محتاجٍ إليه فلما احتجت طلبتُ! فعاد الفراش وأخبر القادر بالله فبكى وقال له: راعِ مثْلَ هذا واغتنمْ أجْره وأقم إلى وقت الإفطار.

ومناقبه كثيرةٌ مشهورة وكان أبيض نقيَّ الجسم كثَّ اللحية طويلها يخضب. ودبَّر الملك في أيامه بهاءُ الدولة إلى أن مات، ثم ابنُه سلطان الدولة أبو شجاع إلى أن مات، ثم أخوه أبو علي شرف الدولة إلى أن مات، ثم أخوه أبو طاهر جلال الدولة.

وكان للقادر بالله من الأولاد أبو الفضل الغالب بالله مات في حياته، وأبو جعفر عبد الله القائم، وأبو القاسم ومات في حياته أيضًا.

وزراؤه: محمد بن أحمد الشيرازي الصاحب، وسعيد بن نصر بن علي الفيروزابادي، وسعيد بن الحسن بن برتك البصري، وعلي بن عبد العزيز ابن حاجب النعمان، ثم ابنه أبو الفضل محمد بن علي.

حجابه: أبو الفتح محمد بن الحسين السعيدي، ثم أبو القاسم بكران، ثم ولده أبو منصور وغيرهم، نقش خاتمه «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وقيل: «حسبي الله ونعم الوكيل».

ذكر خلافة القائم بأمر الله

هو أبو جعفر عبد الله بن القادر بالله أبي العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر بالله أبي الفضل جعفر، وقد تقدم ذكر نسبه. وأُمه أُم ولد اسمها بدر الدجى، وقيل: قطر الندى وقيل: علَم، وكانت أرمنية وقيل: رومية. وهو الخليفة السادس والعشرون من الخلفاء العباسيين، بويع له الْبيْعةَ العامَّةَ بعد وفاة أبيه في الحادي والعشرين من ذي الحجة في سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة. وصلَّى بالناس عشاءَ المغربِ في صحْنِ

السلام من دار الخلافة، وكان أبوه قد بايع له بولاية العهد سنة إحدى وعشرين كما ذكرناه، وأول من بايعه الآن الشريف أبو القاسم المرتضى، وأنشد: [من المتقارب]

فـإمَّـا مـضَـى جـبـلٌ وانـقَـضَـى   فـمـنـكَ لـنـا جـبـلٌ قـد رسـى
وإمـا فُـجِـعْـنَـا بِـبَـدرِ الـتَّـمـامِ   فـقـد بـقِـيَـتْ مـنـه شَـمْـسُ الـضُّـحَـى
فـكـم حـزَنٌ فـي مـحـلِّ الـسـرور   وكـم ضَـحـكٌ فـي خـلال الـبُـكـى
فـيـا صـارمًـا أغْـمَـدَتْـهُ يَـدٌ   لـنـا بـعْـدك الـصـارمُ الـمـنـتـضـى[(١)]

وأرسل القائم بأمر الله قاضي القضاة أبا الحسن الماوردي[(٢)] إلى الملك أبي كاليجار ليأخذَ عليه البيعةَ، ويخطب له في بلاده، فأجاب وبايع، وخطب له في بلاده، وأرسل إليه هدايا جليلةً وأموالاً كثيرةً.

ذكر الحوادث في أيام القائم

في منتصف شعبان سنة سبع وعشرين وأربعمائة توفي الظَّاهِرُ صاحبُ مصر، وولي بعده ابنه المستنصر.

وفي سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة كان ابتداء الدولة السُّلجقية على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبارهم.

وفي سنة خمس وثلاثين وأربعمائة أظهر المُعِزُّ بن باديس الدَّعْوةَ للدولة العباسية، وخطب ببلاده للخليفة القائم بأمر الله فَسُيِّرتْ إليه الخلع والتقليد.

وفي سنة إحدى وأربعين وأربعمائة في ذي القعدة ارتفعت سحابةٌ سوداء مظلمةٌ ليلاً فزادت ظلمتها على ظلمةِ الليل، وظهر في جوانب السماء كالنار المضطرمة، وهبَّتْ ريحٌ قلعت روْشَن[(٣)] دار الخليفة، ثم انكشف ذلك في بقية الليل.

وفي سنة ثلاثٍ وأربعين وأربعمائة في يوم الأربعاء سابع صفر وقت العصر ظهر ببغداد كوكب غَلَب نورُه على نور الشمس له ذؤابةٌ نحو ذراعين، وسار سيرًا بطيئًا، ثم انقض والناس يشاهدونه.

---

(١) انتضى السيف: أخرجه من غمده.

(٢) هو أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري، المعروف بالماوردي، الفقيه الشافعي؛ كان من وجوه الفقهاء الشافعية ومن كبارهم، أخذ الفقه عن أبي القاسم الصيمري بالبصرة، ثم عن الشيخ أبي حامد الأسفرايني ببغداد، وكان حافظًا للمذهب وله فيه كتاب «الحاوي» وله تصانيف كثيرة غيره.. وفوّض إليه القضاء ببلدان كثيرة... (وفيات الأعيان ٣: ٢٨٢).

(٣) الروشن: الشرفة.

وفي سنة أربع وأربعين وأربعمائة زَلْزَلَتِ الأرضَ نحو رستان وأرّجان وغيرها زلازلُ كثيرةٌ كان معظمها بأرجان فَخُرِّب كثيرٌ من بلادها، وانفرج جبل كبير بالقرب من أرجان فانصدع فظهر في وسطه درجة بالآجُرِّ والجِصِّ وقد خفيت في الجبل، فعجب الناس من ذلك!

وفي سنة سبع وأربعين وأربعمائةٍ وصل طغرلبك السُّلجُقي إلى بغداد وخطب له بها، وانقرضت الدولة البويهية.

وفي سنة ثمانٍ وأربعين وأربعمائة تَزوَّج الخليفة القائم بأمر الله بأرسلان خاتون واسمها خديجة ابنة داود أخي السلطان طغرلبك، وقبل الخليفةُ النِّكاح لنفسه.

وفي سنة ثمان وأربعين وأربعمائة في العشر الثاني من جُمادى الآخرة ظهر وقْتَ السَّحر في السماء ذؤابةٌ بيضاء طولها نحو عشرة أذرع في رأْي العين وعرْضها ذراع، وبقيت كذلك إلى نصف شهر رجب واضْمحلَّت.

وفيها أمر الخليفةُ القائمُ بأمر الله أن يُؤَذِّن بالكَرْخ والمشهد وغيرهما «الصلاة خير من النوم» وأن يتركوا «حي على خير العمل» ففعلوا ذلك.

وفي سنة تسع وأربعين وأربعمائة اشْتَدَّ الغلاءُ ببغداد والعراقِ حتّى بيعت الكارة الدقيق السميذ بثلاثة عشر دينارًا والكارة الشعير والذرة بثمانية دنانير، ومقدار الكارة[١] وأكل النَّاسُ المَيْتَةَ والكلاب وغيرها وكثر الوباءُ، حتى عجز النَّاسُ عن دفن الموتى فكانوا يجعلون الجماعة في الحفيرة.

وفيها كَثر الوباء ببخارى[٢] حتى قيل: إنه مات في يوم واحد ثمانيةَ عشر ألف إنسانٍ من أعمال بُخارى، وهلك في هذه الولاية في مدة الوباء ألفُ ألفٍ وستمائة ألف وخمسون ألفًا، وكان بسمرقند مثل ذلك، ووُجِد ميِّتٌ وقد دخل عليه تركي يأخذ لحافًا عليه فمات التركي وطرُف اللِّحاف بيده، وبقيت أموال الناس سائبةً لا تجد من يجمعها!

---

(١) بياض في الأصل.. والكارة: خمسون رطلًا بالدمشقي.

(٢) بخارى: بالضم: من أعظم مدن ما وراء النهر وأجلها، يعبر إليها من آمل الشط، وبينها وبين جيحون يومان من هذا الوجه، وكانت قاعدة ملك السامانية... (معجم البلدان).

ذكر أخبار أبي الحارث أرسلان البساسيري وابتداء حاله وما كان منه إلى أن تغلب على بغداد وقطع خطبةَ القائم بأمر الله وخَطَب للمستنصر العلوي صاحب مصر

كان أبو الحارث البساسيري[١] مملوكًا تركيًا من مماليك بهاء الدولة بن عضد الدولة البويهي، وهو منسوب إلى مدينة بساسير من بلاد فارس، كان سيده الأول منها فقيل له: البساسيري لذلك. وأما ما وَلِيَهُ من المناصب التي تَرقَّى منها إلى أن صار منه ما صار، فإنه ولِي في سنة خمسٍ وعشرين وأربعمائةٍ حمايةَ الجانب الغربي ببغداد، لأن العيارين كان قد اشتد أمرهم وعظم فسادُهم وعجزَ عنهم نوابُ السلطان فاستعْمل لكفاءته ونَهْضَتِه وذلك في سلطنة جلال الدولة أبي طاهر بهاء الدولة بن بويه، فظهرت كفاءته. وتَقَلَّبتْ به الحال وصحب جلال الدولة في حروبه وأبلى بين يديه بلاءً حسنًا، فعظم شأنه وارتفع محلُّه وعلَت رتبته وتقدَّم على الجيوش، وكان بينه وبين العرب الذين خالفوا جلال الدولة وخرجوا عن طاعته وكاشفوه بالعداوة حروب كان النَّصر في أكثرها له، ثم صار يخلف الملكَ الرحيم ببغداد. واستولى على الأنبار في سنةِ إحدى وأربعين وأربعمائة وملكها من قرواش بن المقلَّد، واستولى على الدَّردار، وملكها من سعيد بن أبي الشول. ولما استولى الملك الرحيم على البصرة في سنة أربع وأربعين وأربعمائة وأخذها من أخيه أبي علي بن أبي كاليجار سلَّمها إلى البساسيري فنهض فيها وضبطها وأوقع بالأكراد والأعراب في سنةِ خمسٍ وأربعين وأربعمائة ـ وكانوا قد أفسدوا في البلاد ـ فقتل منهم خَلْقًا كثيرًا وغنم أموالهم وأجلاهم عن البلاد. ثم أتى بغداد ووقع بينه وبين الخليفة القائم بأمر الله وحشةٌ عظيمةٌ في سنة ستٍّ وأربعين وأربعمائة لأسباب يطول شرحُها أدَّت إلى إسقاطه مشاهراتِ الخليفة ومشاهراتِ رئيس الرؤساء[٢] الوزير وحواشي الدار، ودام ذلك من شهر رمضان إلى ذي الحجة! ثم سار إلى الأنبار فمنعه أبو الغنائم بن المحلبان من دخولها فحاصرها

---

(١) هو أبو الحارث أرسلان بن عبد الله البساسيري التركي مقدم الأتراك ببغداد، يقال إنه كان مملوك بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه، والله أعلم... والبساسيري هذه النسبة إلى بلدة بفارس لها بسا، وبالعربية فسا، والنسبة إليها بالعربي فسوي... وأهل فارس يقولون في النسبة إليها: البساسيري، وهي نسبة شاذة على خلاف الأصل... (وفيات الأعيان ١: ١٩٢).

(٢) هو علي بن الحسن بن أحمد بن محمد بن عمر بن المسلمة.

ونصب عليها المجانيق، وفتحها عنوةً ونهبها وأسر من أهلها خمسمائةَ رجل ومائة من بني خفاجة وأُسِر أبو الغنائم. وعاد إلى بغداد وهو بين يديه على جمل وعليه قميصٌ أحمرُ وعلى رأسه برنس وهو مقيّد، وأتى إلى مقابل التَّاج وقبّل الأرض وعاد إلى منزله وهو يجعل الذَّنْب كلَّه لرئيس الرؤساء وزير الخليفة ـ ويقول لست أشكو إلا منه فإنه أخرب البلاد.

وكاتب السُّلْجوقية وأطمعهم في البلاد، ثم توجه البساسيري إلى واسط، فلما كان في سنة سبع وأربعين وضع رئيس الرؤساء الأتراكَ البغداديين على البساسيري وثلبه ونسب ما يقع من النقص إليه، ففعلوا ذلك وزادوا عليه حتى حضروا إلى دار الخلافة في شهر رمضان واستأذنوا في قصد دور البساسيري ونهبها فأذن لهم في ذلك، فنهبوا دُوره وأحرقوها، ووكلوا بنسائه وأهله ونوابه، ونهبوا دوابَّه وجميعَ ما يملكه ببغداد. وأطلق رئيسُ الرؤساء لسانَه في البساسيري وذمَّه ونَسبه إلى مكاتبة المستنصر صاحبِ مصر، وأرسل الخليفةُ إلى الملك الرحيم يأمره بإبعاد البساسيري فأبعده، وكانت هذه الحالة من أعظم الأسباب في ملك السلطان طغرلبك العراق.

ووصل السلطان طغرلبك إلى بغداد إثر هذه الحادثة وملَكها، وانقرضت الدَّوْلة البويهية، فعند ذلك أظهر البساسيري الخلافَ وجاهر بالعصيان، وانضم إليه نور الدولة دُبَيْس بن مَزْيَد. والْتَقَوْا هم وقريشُ بن بدران صاحبُ الموصل وكان مع قريش قُتُلْمِش السَّلجوقي ـ وهو ابن عم طغرلبك ـ واقتتلوا فكانت الهزيمة على قريش وقُتُلْمِش، وكانت هذه الواقعة عند سنجار[1] في سنة ثمان وأربعين وأربعمائة. ثم صار قريش بن بدران مع البساسيري ونور الدولة دبيس، فساروا إلى الموصل وخطبوا بها للمستنصر بالله العلوي صاحب مصر ـ وكانوا قد كاتبوه بطاعتهم فأرسل إليه الخِلَعَ عن مصر ـ فلما بلغ ذلك السلطان طغرلبك سار إلى الموْصل وديار بكر لإخلائها من البساسيري وغيره من المفسدين، فاستولى على الموْصل وأعمالِها وسلَّمها إلى أخيه إبراهيم ينال وعاد إلى بغداد في سنة تسع وأربعين وأربعمائة فأقام بها إلى سنة خمسين وأربعمائة. ثم فارقها وتوجه نحو بلاد الجبل فعاد البساسيري إلى الموْصِل واستولى عليها وحصر قلعتها أربعة أشهر، وملكَها فهدمها وعفى أثرها، وكان السلطان قد فرق عساكره فكتب إلى أخيه إبراهيم واستدعاه، فحضر إليه إلى بلاد

---

(١) سنجار: بكسر أوله وسكون ثانيه ثم جيم، وآخره راء: مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة، بينها وبين الموصل ثلاثة أيام، وهي في لحف جبل عال. . . (معجم البلدان).

الجبل فسار السلطان جريدةً[١] في ألفي فارس إلى الموْصل فوجد البساسيري وقريش بن بدران قد فارقاها.

فسار إلى نَصيبين ليتبع آثارهم ويخرجهم من البلاد، ففارقه أخوه إبراهيم يِنال إلى همذان فكاتبه البساسيري وأطمعه في السلطنة، فأظهر إبراهيمُ العصيانَ على السلطان طغرلبك فسار طغرلبك إلى همذَان في منتصف شهر رمضان سنةَ خمسين وأربعمائة، واشتغل بحرب أخيه حتى ظفر به، ثم عرض له ما شغله عن العود إلى بغداد.

ذكر استيلاء أبي الحارث البساسيري على العراق وخروج الخليفة القائم بأمر الله من بغداد والخطبة للمستنصر بالله العلوي صاحب مصر وقطع الدعوة العباسية

قال: ولما اشتغل السلطانُ طغرلبك بِحرْب أخيه قصد البساسيري بغدادَ، فلما وصل إلى هيت أمر الخليفة الناس بالعبور إلى الجانب الشرقي، وكان الأتراك كلُّهم قد التحقوا بالسلطان إلى همذَان. وكان الخليفةُ قد كتب إلى نور الدولة دُبَيْس يأمره بالوصول إلى بغداد فَورد إليها في مائةِ فارسٍ، فلما قَوِيَ الإرجافُ بوصول البساسيري أرسل دُبَيْس بن مَزْيد إلى الخليفة وإلى رئيس الرؤساء والوزير يقول: الرأي عندي خروجُكما من البلد معي، فإنني أجتمع أنا وهزارسب بواسط على دفْع عدوِّكما. فأتاه الجواب أن يقيم حتى يقع الفكرُ في ذلك، فقال: العرب لا تطيعني على المقام، وأنا أتقدم إلى دَيالى فإذا انحدرتم سرت في خدمتكم! وسار وأقام بِدَيالى ينتظرهما فلم ير لذلك أثرًا، فسار إلى بلده.

ثم وصل البساسيري إلى بغداد في يوم الأحد ثامن ذي القعدة ومعه أربعمائة غلام في غاية الضر والفقر، فنزل بمشرعة[٢] الروايا وكان معه قريش بن بدران وهو في مائتي فارس فنزل مشرعة باب البصرة. وركب عميدُ العراق ومعه العسكر والعوام وأقاموا بإزاء عسكر البساسيري وعادوا، وخطب البساسيري بجامع المنصور للمستنصر العلوي صاحب مصر فأُذِّنَ «حي على خير العمل» وعقَد الجِسْر وعبر عسكره إلى الزاهر واجتمعوا فيه، وخطب في الجمعة الثانية للمصري بجامع الرصافة، وجرى بين الطائفتين حروب في أثناء الأسبوع.

---

(١) الجريدة: خيل لا رجالة فيها.

(٢) المشرعة: شريعة الماء: مورد الماء الذي يستقى منه بلا رشاء.

وكان عميدُ العراق يشير على رئيس الرؤساء وزير الخليفة بالتوقف عن المناجزة، ويرى المحاجزة ومطاولةَ الأيام انتظارًا لقدوم طغرلبك، ولِما يراه من مَيْل العوامِ للبساسيري. فاتّفق في بعض الأيام أن القاضي الهمذَاني حضر إلى رئيس الرؤساء واستأذنه في الحرب وضمِن له قَتْلَ البساسيري فأذن له من غير علم عميد الدولة، فخرج ومعه الخَدمُ والهاشميون والعجمُ والعوامُ إلى الخليفة فاستخرجهم البساسيري حتى أُبعدوا، ثم حملَ عليهم فعادوا منهزمين، وقُتِلَ جماعةٌ منهم، ومات في الزَّحْمةِ جماعةٌ، ونهب باب الأزج. وكان رئيس الرؤساءِ واقفًا دون الباب فدخل الدار وهرب كل مَنْ في الحريم، ورجع البساسيري إلى معسكره.

واستدعى الخليفةُ عميدَ العراق وأمره بالقتال على سور الحريم فلم يرُعْهُم إلا والزعقات قد علَت ونُهب الحريم، ودخلوا الباب النوبي. فركب الخليفة لابِسًا السَّواد وعلى كتفه البردة وبيده سيفٌ على رأسِه اللواء، وحوله زمرةٌ من العباسيين والخدم بالسيوف المسلولة، فرأى النَّهْبَ قد وصل إلى باب الفردوس من داره، فرجع إلى ورائه ومضَى نَحْو عميدِ العراق، فوجده قد استأمن إلى قريش فعاد وصعد إلى المنظرة.

وصاح رئيس الدولة «يا علم الدين» يعني قريشًا «أمير المؤمنين يسْتَدْنيك» فدنا منه فقال له رئيس الرؤساء: قد أنَالَكَ اللّهُ منزلةً لم ينَلْها أمثالُك، وأمير المؤمنين يستذِم[1] منك على نَفْسِه وأهلِه وأصحابه بذِمام الله تعالى وذِمام رسوله ﷺ وذِمام العربية. قال: أذَمَّ الله تعالى! قال: ولي ولمن معه؟ قال نعم! وخلع قلَنْسُوَتَه وأعطاها الخليفةَ، وأعطى رئيس الرؤساء ذِمامًا. فنزل إليه الخليفة ورئيس الرؤساء وسارا معه فأرسل إليه البساسيري: أتخالف ما استقر بيننا وتَنْقُض ما تعاهدنا عليه؟ فقال قريش: لا! وكانا قد تعاهدا على المشاركة في الذي يحصل لهما وأنْ لا يستبدَّ أحدُهما دون الآخر بشيء، فاتفقا على أن يُسلِّم قريشٌ رئيس الرؤساء إلى البساسيري لأنه عدُوُّه ويترك الخليفة عنده!.

ذكر مقتل رئيس الرؤساء وعميد العراق

قال: ولما أرسل قريشٌ رئيس الرؤساء إلى البساسيري قال له: مرحبًا بمُهلكِ الدول ومخرِّبِ البلاد! فقال: العفوُ عند المقدرة! فقال له البساسيري: قدرتَ فما

---

(١) استذم: طلب الذمام، وهو العهد والأمان.

عفوتَ وأنت صاحب طيلسان، وركبتَ الأفعالَ الشنيعةَ مع حُرَمي وأطفالي، فكيف أعفو أنا وأنا صاحب السيف؟ وأمر به فحُبس إلى آخر ذي الحجة، ثم أخرجه من محبسه مقيدًا وعليه جبة صوف وطرطور[١] من لَبَدٍ أحمر وفي رقبته - مُخَنَّقة جلد بعير وهـو يـقـرأ ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦] الآية.. وطِيف به محالَّ بغداد وهو على جمل ووراءه مَنْ يصفعه.

فلما اجتاز بِالْكَرْخ بصَقَ أهل الكرخ في وجهه لأنه كان يتعصَّبُ عليهم! وجيء به إلى البساسيري وقد نُصِبتْ له خشبة فأُنزل من على الجمل وأُلْبِس جلدَ ثورٍ قد سُلِخَ في ذلك اليوم، وجُعلت قرونهُ على رأسه وعُلِّق بكلوبيْن مِنْ حديدٍ، فلم يزَل يضطربُ إلى آخرِ النهار ومات، فقال بعض الشعراء في هذه الواقعة: [من السّريع]

أقبلتِ الرَّاياتُ مُبْيضَّةً يقْدمُهنَّ الأَسَدُ الباسلُ
وولتِ السوداءُ منكوسةً ليس لها من ذِلَّةٍ سائلُ
انظرْ إلى الباغِي على جذْعِهِ والدَّمُ من أوداجه سائلُ[٢]

يعني رئيسَ الرؤساء، قال: ودخل البساسيريُّ داره ونَهب ما فيها وشَهر حُرَمَه وأمر بِنَقْضِ داره وقال عند ذَلك: فواحدة بواحدة جزاءُ! قال: وكان رئيس الرؤساء حسنَ التِّلاوة جيِّد المعرفة بالنَّحوِ.

وقَتَل البساسيريُّ عميد العراقِ وكان فيه شجاعةٌ وله فتوة، وهو الذي بنى رباط شَيْخ الشيوخ. وأما الخليفة فإن قريشًا نقله إلى معسكره راكبًا وعليه السَّوادُ والبردة وبيده السيفُ وعلى رأسه اللواءُ وأنزله في خيمةٍ، وأخذ أرسلان خاتون ابنة أخي السلطان طغرلبك فسلَّمها إلى أبي عبد الله بن جردة ليقوم بخدمتها. ونُهِبَت دارُ الخلافة وحريمُها أيامًا، ثم سلَّم قريشٌ الخليفةَ إلى ابن عمِّه مهارش بن المُجَلّى[٣] وهو رجل فيه دين وله مروءة فحمله في هوْدج وسار به إلى حديثة عانة[٤] فنزل بها، ولما وصل إلى الأنبار شكا البرد، فأنفذ إلى مقدمها يطلب منه شيئًا يلبسه فأرسل إليه جبة فيها قطن ولحافًا.

---

(١) الطرطور: القلنسوة الطويلة الدقيقة الرأس.
(٢) الوداج: عرق في العنق، وهو الذي يقطعه الذابح فلا تبقى معه حياة. جمع أوداج.
(٣) هو أمير العرب محيي الدين أبو الحارث مهارش بن المجلّى العقيلي صاحب الحديثة وعانة... (شذرات الذهب ٣:٢٨٨).
(٤) عانة: بلدة مشهورة بين الرقة وهيت وتعد من أعمال الجزيرة.

قال: وركب البساسيري يوْم عيدِ النَّحْر[١] وعبر إلى المصلّى بالجانب الشرقي وعلى رأسه الألوية المصرية، فأحسن إلى الناس وأجْرى الجِرايات على المُتَفَقِّهةِ ولم يتعصبْ لمذْهبٍ، وأقام بالعراق إلى ذي القعدة سنةَ إحدى وخمسين وأربعمائة.

واشتغل السلطان طغرلبك في هذا لمُدَّة بأمر أخيه إبراهيم حتى ظفر به وقتله، ومات أخوه داود بخراسان فاحتاج طغرلبك إلى المقام حتى قَرَّر القواعدَ بعده لإلب أرسلان ابن أخيه داود ثم عاد إلى العراق.

ذكر عود الخليفة القائم بأمر الله إلى بغداد وخروج البساسيري منها وقتله

قال: ولما فرغ السلطان طغرلبك من أخيه إبراهيم ينال وقتله، وقتل ابنيه معه ـ وكان قد خرج عليه مرارًا فعفا عنه، وإنما قتله في هذه الوَقْعة لأنه علم أن الذي جرى على الخليفة كان بسببه فلهذا لم يَعْفُ عنه ـ عاد إلى العراق وليس له همٌّ إلا إعادة الخليفة القائم بأمر الله إلى داره. فأرسل إلى البساسيريِّ وقريشٍ في إعادة الخليفة إلى داره على أن لا يدخلَ طغرلبك العراقَ ويقنع بالخطبة والسِّكة، فلم يُجب البساسيريُّ إلى ذلك، فرحل طغرلبك إلى العراق، فلما وصلت مقدِّمَتُهُ إلى قصر شيرين[٢] خرج حُرَم البساسيري وأولاده، ورحل أهل الكرخ بنسائهم وأولادهم في دجلة وعلى الظهر.

وكان دخولُ البساسيريِّ بغدادَ في سادس ذي القعدة سنة خمسين وأربعمائة، وخروجه منها في سادس ذي القعدة سنة إحدى وخمسين وأربعمائة ووصل طغرلبك إلى بغدادَ وقد أرسل من الطريق الإمامَ أبا بكر أحمد المعروف بابن فورك إلى قريش بن بدران يشكره على فِعْلِه بالخليفة وحفْظِه وصيانَتِه ابنَةَ أخيه امرأة الخليفة، ويعرفه أنه أرسل أبا بكر بن فورك لإحضارهما. ولما سمع قريش بقصد طغرلبك العراق أرسل إلى مهارش يقول له: «إنا أودعنا الخليفة عندك ثقةً بأمانتك لينكشف بلاءُ الغزِّ عنا والآن فقد عادوا وهم عازمون على قصدك، فارحل بأهلك إلى البرية فإنهم إذا علموا أن الخليفةَ عندنا في البرية لم يقصدوا العراق ونتحكم عليهم بما نريد» فقال مهارش: «إن الخليفة قد استحلفني بعهودٍ لا أخلص منها».

---

(١) عيد النحر: عيد الأضحى.

(٢) قصر شيرين: قرب قرميسين بين حلوان وهمذان... (معجم ياقوت).

وسار مهارش ومعه الخليفة في حادي عشر ذي القعدة سنة إحدى وخمسين إلى العراق فوافيا ابن فورك في الطريق، وأرسل إليه طغرلبك الخيام العظيمةَ والسرادقاتِ والخيلَ بمراكبِ الذهب وغير ذلك من التحف فلقوه.

ووصل الخليفةُ إلى النهروان في الرابع والعشرين من ذي القعدة، وخرج السلطان إلى خدمته وقبّل الأرض بين يديه وهنأه بالسلامة واعتذر من تأخره. فشكر له ذلك وقلّده سيفًا وقال: لم يَبْقَ مع أمير المؤمنين من دارِه سواه وقد تَبرَّكَ أمير المؤمنين به!

قال: ولم يبقَ ببغداد من أعيانِها مَنْ يستقبل الخليفةَ غيرُ القاضي أبي عبد الله بن الدامغانيِّ وثلاثةِ نفرٍ من الشُّهود. وتقدّم السلطانُ في المسير ووصل إلى بغدادَ، وجلس إلى الباب النوبي مكانَ الحاجب، ووصل القائمُ بأمرِ اللّهِ فقام طغرلبك وأخذ بلجام بغلته حتى صار إلى حجرته. وكان وصوله يومَ الاثنين لخمسٍ بقين من ذي القعدة، وكانت السنةُ مجدبةً، ولم ير النَّاسُ فيها مطرًا فجاء المطرُ في تلك الليلة.

قال: ولما استقرَّ الخليفة القائم بأمر الله أنفذ السلطان جيشًا عليهم خمار تَكين الطُّغْرائي في ألْفَيْ فارسٍ نحو الكوفة، وسار في أثرهم فلم يشعر دُبَيْس والبساسيري إلا والسَّرِيَّة قد وصلت إليهم في ثامن ذي الحجة من طريق الكوفة، فجعل أصحاب دُبيْس بن مزْيد يرتحلون بأهليهم فيتبعهم الأتراك فيتقدم دُبيْسُ ليَردَّ العربَ إلى القتال فلا يرجعون! فمضى، ووقف البساسيريُّ وقاتل فسقط عن فرسه ووقع في وجهه ضربة، ودلَّ عليه بعضُ الجرْحَى فأخذه كمشتكين، وأتى عميد الملك الكندري وزير السلطان وقتله، وحمل رأسه إلى السلطان فأمر بِحمْلِهِ إلى دار الخليفة، فطيف به على قناةٍ في نصف ذي الحجة، ومضى، ومضى نور الدولة دُبَيْس إلى البطيحة.

وفي سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة رتَّب الخليفةُ أبا تراب الأثيريّ في الأنهار وحضور المواكب ولقَّبه حاجب الحُجَّاب، واستوزر أبا الفتح منصور بن أحمد بن دارست، بعد أن شَرط على نفسه أن يخدم بغير إقطاع ويحمل مالاً.

وفي سنَة أربعٍ وخمسين وأربعمائة عقَد السلطان طغرلبك على ابْنَةِ الخليفةِ القائم بأمر الله وحملَ مائَةَ ألف دينار، ولم يقعْ مثل هذا فيما تقدّم، وامتنع الخليفة من ذلك ثم أجاب إليه.

وفي هذه السنة عُزِل ابن دارست عن الوزارة ووليها أبو نصر بن جهير.

وفيها عمَّ الرخصُ جميع الأصقاع، فبيع بالبصرة ألفُ رطلٍ من الثمر بثمانية قراريط.

وفي سنةِ خمسٍ وخمسين وأربعمائةٍ وصل السلطان بابْنةِ الخليفةِ في شهر المحرم، وسار من بغداد في شهر ربيع الأول إلى الرَّيِّ فمرض بها وتوفي لثمانٍ خلون من شهر رمضان.

وفيها ملك ألب أرسلان بعد عمِّه طغرلبك.

وفي سنة ستٍّ وخمسين وأربعمائة عادت ابنة الخليفة زوجة السلطان طغرلبك وسيّر السلطان في خدمتها الأمير إيتكين السليماني وجعله شحنةً[1] على بغداد وسأل ألب أرسلان أن يُخْطَب له ببغداد واقترح أن يخاطب بالولد المؤيد فأُجيب إلى ذلك، ولُقِّب ضياءَ الدين عضُد الدولة وجلس الخليفةُ جلوسًا عامًّا وشافَهَ الرسل بتقديم ألب أرسلان في السلطنة وسيّر إليه الخلع.

وفيها في شهر ربيع الأول ظهر ببغداد والعراق وخوزستان وكثير من البلاد أن جماعة من الأكراد خرجوا يتصيدون فرأوا في البرية خِيَمًا سُودًا، وسمعوا فيها لَطْمًا شديدًا وسمعوا فيها قائلاً يقول: قد مات سيدوك ملكُ الجن وأيُّ بلدٍ لم يلطم أهله عليه ويعملون له المأتم قُلع أصله وأُهْلِك أهله! فخرج كثيرُ من النساء في البلاد إلى المقابر يلطمن ويَنُحن وينشُرْن شعورهن، وخرج رجالُ من سفلة الناس يفعلون ذلك.

قال ابن الأثير: وقد جرى في أيامنا نحن في الموْصل وما والاها إلى العراق وغيرِه أنَّ الناس في سنةِ ستمائةٍ أصابهم وَجَعٌ كثير في حُلوقهم ومات منه كثيرٌ من الناس فظهر أن امرأة من الجن يقال لها أم عنقود مات ابنها عنقود وأنَّ كلَّ من لا يعمل له مأتمًا أصابه هذا المرض! فكثر فعل ذلك، وكانوا يقولون:

يا أُمَّ عنقودِ اعذرينا ... قد مات عنقود وما درينا

وكان النساءُ يلطمن وكذلك الأوباش!

وفي سنةِ سبعٍ وخمسين وأربعمائة ابتُدِىء بعمارة المدرسة النظامية ببغداد، وكمُلت عمارتُها في ذي القعدة سنة تسع وخمسين وأربعمائة.

وفي سنة ثمان وخمسين وأربعمائة في العشر الأوسط من جُمادى ظهر كوكبٌ كبير له ذؤابةٌ طويلة ممتدة إلى وسط السماء عرضها نحو ثلاثة أذرع في رأي العيْن وهو بناحية المشرق، وبقي إلى السابع والعشرين من الشهر وغاب.

---

(١) المراد بالشحنة: رئاسة الشرطة.

وفيها في جُمادى الآخرة كان بخراسان والجبال زلزلة عظيمة بقِيتْ تتردد أيامًا تَصدَّعتْ منها الجبال وأهلكت خلقًا كثيرًا، وانخسفت منها عدة قرى، وخرج النَّاسُ إلى الصحراء.

وفيها وُلِدَتْ صَبِيَّةٌ بباب الأزج لها رأسان ورقبتان ووجهان وأربعُ أيدٍ على بدن واحد.

وفي سنة تسع وخمسين وأربعمائة في ذي القعدة قُتِل الصُّلَيْحي صاحب اليمن وخُطِب بها للدولة العباسية.

وفي سنة ستين وأربعمائة كانت زلزلةٌ عظيمة بمصر وفلسطين خربت الرملة[1]، وطلع الماءُ من رؤوس الآبار، وهلك من أهلها خمسةٌ وعشرون ألف نسمة، وانشقت صخرة البيت المقدس ثم عادت بإذن الله تعالى، وانحسر البحر عن الساحل مسيرة يوم فنزل الناس إلى أرضه يلتقطون منه فرجع الماء عليهم فأهلك منهم خلقًا كثيرًا.

وفيها عزل فخر الدولة بن جهير عن الوزارة ثم أُعيد في سنة إحدى وستين بشفاعة نور الدولة دُبَيْس بن مَزْيد فمدحه أبو الفضل فقال:

قد رَجَعَ الحقُّ إلى نصابه ... وأنت من دون الورى أولى به
ما كنت إلاّ السيفَ سَلَّتْه يَدٌ ... ثم أعادته إلى قِرابه

وهي قصيدة طويلة.

وفيها في شعبان احترق جامع دمشق، وكان سبب ذلك أنه وقع بين المغاربة والمشارقة حربٌ فأحرقوا دارًا مجاورة للجامع فاتصل الحريق بالجامع، فَدُثِرَت محاسِنُهُ وزال ما كان فيه من الأعمال النفيسة.

وفي سنةِ اثنتين وستين وَرَدَ رسولُ صاحب مكة محمد بن أبي هاشم بإقامة الخطبة للخليفة القائم بأمر الله والسلطان ألب أرسلان بمكةَ وإسقاط خطبة صاحب مصر وترك الأذان بـ«حيّ على خير العمل» فأعطاه السلطان ثلاثين ألفَ دينار وخِلَعًا نفيسةً وأجرى له في كلِّ سنة عشرةَ آلافِ دينار. وخطب محمود بن صالح بن مرداس صاحب حلب لهما أيضًا في سنة ثلاثٍ وستين على ما نشرحه في أخبار الدولة السُّلجقية فقال أبو عبد الله بن عطية يمدح الخليفة:

كم طائعٍ لك لم تَجْلِبْ عليه ولَمْ ... تَعْرِفْ لطاعَتِهِ غَيْرَ التُّقى سَبَبا
هذا البشيرُ بإذعان الحجاز وذا ... داعِي دمشقَ وذا المبعوثُ من حلَبا

---

(١) الرملة: مدينة عظيمة بفلسطين وكانت قصبتها قد خربت الآن، وكانت رباطًا للمسلمين.. والرملة أيضًا: قرية لبني عامر من بني عبد القيس بالبحرين. والرملة: محلة بسرخس... ورملة بني وبر: في أرض نجد... (معجم ياقوت).

وفيها خرج أرمانوس ملك الروم في مائتي ألف إلى خِلاط[١] وأُسِر على ما نذكره ـ إن شاء الله ـ في أيام ألب أرسلان.

وفي سنة أربع وستين وأربعمائة عُزل إيتكين السليماني من شحنكية بغداد واستعمل عليها سعد الدولة كوهر آيين، وكان سبب عزل السليماني أنه كان قد سار إلى السلطان ألب أرسلان واستخلف ابنَه شحنةَ بغدادَ فقتل أحدَ مماليك الدارية فأنفذ قميصَه من الديوان إلى السلطان ووقع الخطاب في عَزْله، فورد إلى بغداد في ربيع الأول من هذه السنة وقصد دار الخلافة وسأل الْعَفْو عنه وأقام أيامًا فلم يُجَبْ إلى ذلك، وكان نظام الملك يعتني بالسليماني فأضاف إلى إقطاعه تكريت، فكوتب واليها من ديوان الخلافة بالتوقُّف عن تسليمها. فلما رأى السلطانُ ونظامُ الملك إصرارَ الخليفة على الْغَضَبِ على السليماني عزلاه، وَسَيَّرا سعدَ الدولة إليها، فتلقاه الناس وجلس له الخليفة.

وفي سنةِ خمسٍ وستين وأربعمائة قُتِلَ السلطان ألب أرسلان وملك بعده ابنُه السلطان ملكشاه. وفيها أُقيمت الدعوة العباسية ببيت المقدس قدّسه الله...

ذكر غرق بغداد

وفي سنة سِتٍّ وستين وأربعمائةٍ غرق الجانب الشرقي وبعضُ الغربي من بغداد، وسببُ ذلك أن دجلة زادتْ زيادةً عظيمة وطفح الماءُ من البرية مع ريح شديدة، وجاء الماء إلى المنازل ونبع من البلاليع[٢] والآبار بالجانب الشرقي، وهلك خلقٌ كثير تحت الهدم، وشدت الزواريق تحت التاج خَوْف الغَرَق. وقام الخليفة يتضرّع ويصلّي وعليه البردة وبيده القضيب، وغرق من الجانب الغربي مقبرةُ أحمد بن حنبل ومشهدُ باب التنين وتهدَّم سورُه، ودخل الماءُ من شبابيك البيمارستان العضُدِيّ.

ذكر وفاة القائم بأمر الله وشيء من سيرته

كانت وفاته في ليلة الخميس ثالث عشر شعبان سنةَ سبع وستين وأربعمائة، وكان سببُ وفاته أنه كان قد أصابه مأْشر فافتصد[٣] ونام، فانتفخ فصادُه وخرج منه دمٌ

(١) خلاط: بكسر أوله، وآخره طاء مهملة: البلدة العامرة المشهورة ذات الخيرات الواسعة والثمار اليانعة، وهي قصبة أرمينية الوسطى، فيها الفواكه الكثيرة والمياه الغزيرة... (معجم البلدان).

(٢) البلاليع: جمع البالوعة: وهي ثقب يعد لتصريف الماء.

(٣) الفصد: شق العرق. وفصد الناقة: شق عرقها ليستخرج دمه فيشربه.

كثير ولم يشعر، فاستيقظ وقد ضَعُفَ وسقطت قوَّته. فأيقن بالموت وأحضر وليَّ عَهْدِه ووصّاه وأحضر نقيبَ العباسيين ونقيب الطالبيين وقاضيَ القُضاة وغيرَهم مع الوزير ابن جهير وأشهدهم على نفسه أنه جعل ابن ابنه أبا القاسم وليَّ عهده.

ولما تُوفِيَ غسله الشريف أبو جعفر بن أبي موسى الهاشمي، وصلَّى عليه المقتدي بأمر الله. ومات وله من العمر سِتٌّ وسبعون سنةً وثلاثةُ أشهر وخمسةُ أيام، ومدةُ خلافته أربعٌ وأربعون سنةً وثمانية أشهر إلا أيامًا. وقيل كان مولدهُ في ثامن عشر ذي القعدة سنةَ إحدى وتسعين وثلاثمائة فعلى هذا يكون عمره ستًّا وسبعين سنةً وتسعةَ أشهرٍ وخمسةَ أيام.

وكان جميلاً أبيضَ مشربًا بحمرةٍ، حسنَ الوجه والجسم، ورِعًا ديِّنًا زاهِدًا عالمًا قوي اليقين بالله تعالى، وله عنايةٌ بالأدب ومعرفةٌ حسنةٌ بالكتابة، ولم يكن يرضى عن أكثر ما يكتب من الديوان ويُصلح أشياء منه. وكان مؤثرًا للعدل والإحسان؛ مريدًا لقضاء حوائج الناس؛ لا يرى أن يمنع ما يطلب منه، حُكِي عن محمد بنِ علي بن عامر الوكيل قال: «دخلتُ يومًا إلى المخرن فلم يَبْقَ أحدٌ إلا وأعطاني قصةً فامتلأت أكمامي فقلت في نفسي لو كان الخليفة أخي لأعرض عن هذه كلِّها فألقيتها في البِرْكة والقائمُ ينظر ولا أشعر، فلما دخلت عليه أمر الخدم بإخراج الرِّقاع من البِركة فأُخرجت ووقف عليها، ووقَّع بأغراض أصحابِها ثم قال لي: يا عامي ما حَمَلك على هذا؟ فقلت: خوف الضجر منها! فقال: لا تعود إلى مثلها فإنا ما أعطيناهم من أموالنا شيئًا.

ومما يُحْكَى من جُمْلَةِ كَرمه أن أحدَ السلاطين في أيّامه سأله أن يَتَقَدَّمَ باعتقال وزرائه وذكر أنهم استَوْلَوْا على أموالِه فخرج توقيعه «ليست دارنا دارَ حَبْسٍ وسجنٍ بل هي دار طمأنينة وأمن» وكان له شعر رائق فمنه قوله: [من الكامل]

قالوا: الرحيل، فأنشبَتْ أظفارَها ... في خدِّها وقد اعتلقن خِضابا
واخْضَرَّ تحت بَنانِها فكأنما ... غَرَسَت بأرضِ بَنَفْسجٍ عِنَّابا[1]

وفي أيامه أَسْلَم من كفار الأتراك ألف خركاه وضَحَّوْا بثلاثين ألفَ رأسٍ من الغنم وقيل: أكثر من ذلك.

---

(١) العنّاب: شجر شائك من الفصيلة السدرية، يبلغ ارتفاعه ستة أمتار، ويطلق العناب على ثمره أيضًا، وهو أحمر حلو لذيذ الطعم على شكل ثمرة النبق.

ولم يخلف ولدًا لأن ابنَه ذخيرةَ الدين تُوفي في ذي القعدة سنة سبع وأربعين وعمره خمسَ عشرةَ سنةً.

وزراؤه وكتّابه: كتب له عميد الرؤساء أبو طالب محمد بن أيوب، ثم رئيس الرؤساء أبو القاسم علي بن الحسن بن مسلمة ـ وزر له ولقَّبه بهذا اللقب وبجمال الورى ـ ووَزَرَ له بعده أبو الفتح منصور بن أحمد بن دارست، ثم فخر الدولة أبو نصر محمد بن محمد بن جُهير. قضاته: قاضي القضاة أبو عبد الله الحسن بن علي بن ماكولا البصري إلى أن مات، فَوَلَّى أبا عبد الله محمد بن علي الدامغاني شيخ أصحاب أبي حنيفة. حُجَّابه: أبو منصور بن بكران ثم أبو عبد الله الحسن بن علي المردوسي.

ذكر خلافة المقتدي بأمر الله

هو أبو القاسم عبد الله بن ذخيرة الدين أبي العباس أحمد بن القائم بأمر الله، وأُمُّه أُمُّ ولدٍ اسمُها أرجوان وقيل شراب، وتدْعى قرة العين. وهو الخليفة السابع والعشرون من الخلفاء العباسيين، بويع له بعد وفاةِ جدِّه القائم بأمر الله في يوم وفاته وهو يوم الخميس لثلاث عشرة خلت من شعبان سنة سبع وستين وأربعمائة. وكان القائم جَدُّه قد عهد له كما ذكرنا، فلما مات القائمُ حضر مؤيد الملك بن نظام الملك والوزير فخر الدولة بن جهير وابنُه عميد الدولة والشيخ أبو إسحاق وأبو نصر الصباغ ونقيبُ النقباء طرّاد والنقيب المعمر بن محمد وقاضي القضاة أبو عبد الله الدامغاني وغيرُهم من الأعيان والأتابكة فبايعوه، وكان أولَ من بايعه الشريفُ أبو جعفر محمد بن أبي موسى الهاشمي بعد فراغه من غسل القائم وأنشد: [من الطويل]

* إذا سَـيِّـدٌ مـنـا مَـضَـى قـام سَـيِّـدٌ *
* وأُرْتـج عـلـيـه فـقـال الـمـقـتـدي: *
* قـؤول بـمـا قـال الـكـرام فـعـول *

ولما فرغوا من البيعة صلّى المقتدي بأمرِ الله بهم العصر.

ذكر الحوادث في أيام المقتدي

في ذي القعدة ملك الأقسيس دمشق وخطب بها للمقتدي بأمر الله، وكان آخر مَنْ خَطَب بها للمصريين.

وفيها مَلَكَ نصر بن محمود بن مرداس مدينة منبج[1] من الروم.

وفيها قدم سعد الدولة بن كوهر آيين شحنةً إلى بغداد من قِبَل السلطان ملكشاه ومعه العميد أبو نصر ناظرًا على أعمال بغداد.

وفي سنةِ تسعٍ وستين وأربعمائة قدِم أبو نصر ابن الأُستاذ أبي القاسم القُشَيْريّ حاجًا، وجلس في المدرسة النظامية يَعِظ النَّاسَ، وفي رباط شيخ الشيوخ، وجَرَى له مع الحنابلة فتنٌ لأنه كلَّم على مذهب الأشعري ونَصَرَه. وكثُر أتباعُهُ والمتعصبون له، فثار الحنابلةُ ومن تَبِعَهُم من سوق المدرسة النظامية وقتلوا جماعةً من المتعصبين للقشيري كالشيخ أبي إسحاق وشيخ الشيوخ وغيرِهما من الأعيان، فَجَرَى بين الطائفتين أُمورٌ عظيمة. فنسب أصحاب نظام الملك ذلك إلى الوزير فخر الدولة بن جُهير وكتب أبو الحسين محمد[2] بن علي بن أبي القصر الواسطي الفقيه الشافعي إلى نظام الملك: [من مجزوء الرَّمل]

* يا نظامَ المُلْكِ قد حلَّ ببغداد النِّظامُ *
* وابنُك القاطنُ فيها مستلانٌ مستضامُ *
* وبها أوْدَى له قتلى غلامٌ فغلامُ *
* والذي منهم تَبَقَّى سالمًا فيه سهامُ *
* يا قوامَ الدِّين لم يَبْقَ ببغدادَ قوامُ *
* عظُم الخطْبُ فَلِلْحَرْبِ اتِّصالٌ ودوامُ *
* فمتى لم يُحْسَمِ الدَّاء بأيديك الحسامُ *
* ويكفَّ القوم في بغداد قتلٌ وانتقامُ *
* فَعَلى مدرسةٍ فيها وَمَنْ فيها السلامُ *
* واعتصام بحريمٍ لك من بَعْدُ حرامُ *

---

(١) منبج: بالفتح ثم السكون، وباء موحدة مكسورة، وجيم: هي مدينة كبيرة واسعة ذات خيرات كثيرة، كان عليها سور مبني بالحجارة محكم، بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ وبينها وبين حلب عشرة فراسخ... (معجم ياقوت).

(٢) هو محمد بن علي بن الحسين بن عمر الواسطي، (أبو الحسن) فقيه، أديب، شاعر، حسن الخط. تفقه في بغداد على أبي إسحاق الشيرازي، وسمع من أبي بكر الخطيب وغيره، وروى عنه أبو منصور موهوب الجواليقي وغيره. من آثاره ديوان شعر. كانت وفاته سنة ٤٦٨هـ... (معجم الأدباء لياقوت ١٨: ٢٥٧).

فلما اتَّصل ذلك بنظام الملك عَظُمَ عليه فأعاد سعد الدولة كوهر آيين شحنةً إلى العراق في سنة إحدى وسبعين، وحمله رسالةً إلى الخليفة تتضمّن الشكْوَى من بني جُهير ويسأل عَزْلَ فخر الدولة عن الوزارة، فلما وصل إلى بغداد وأبلغ الخليفة الرسالة أمر فخر الدولة بلزوم داره واستوزر بعده أبا شجاعٍ محمد بن الحُسين! قال: ولما بلغ ابن جهير تغيَّرَ نظامِ الملك عليه أرسل ابنَه عميدَ الدولة إليه يستعطفه، فسار إليه قبل وصول كوهر آيين إلى بغداد، ولم يزل يستعطِفه حتى عاد إلى ما ألفَه منه وزوّجه بابنته. فعاد إلى بغداد فلم يرُدّ الخليفةُ أباه إلى الوزارة وأمرهما بملازمة منازلهما فأرسل نظام الملك إلى الخليفة في إعادة بني جهير إلى الوزارة فأعيد عميدُ الدولة إليها وأُذن لأبيه فخر الدولة بفتح بابه، وذلك في صفر سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة.

وفي سنة إحدى وسبعين وأربعمائة ملك تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان دمشق على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار الدولة السُّلجقية.

وفي سنةِ أربع وسبعين وأربعمائة في شوال توفي نور الدولة أبو الأغرّ دُبَيْس بن علي بن مَزْيد الأسدي، وولي بعده أبو كامل منصور ولقِّب بهاء الدولة.

وفيها أرسل الخليفة فخر الدولة إلى السلطان ملكشاه بأصبهان يخطب ابْنَتَه للخليفةِ فسار إليه وخطبها، فتقررت القاعدة على أن يكون الحِمْلُ المعجل خمسين ألف دينارٍ وأن لا يبقي الخليفة سرّ ولا زوجة غيرها فأجيب إلى ذلك.

ذكر الفتنة ببغداد بين الشافعية والحنابلة

وفي سنةِ خمسٍ وسبعين كانت الفتنةُ بين الطائفيين، وسببها أنه ورَدَ إلى بغدادَ الشريف أبو القاسم البكري المقرىء الواعظ وكان أشعريَّ المذهب، وكان قد قصد نظام الملك فأحبَّه ومال إليه وسيّره إلى بغداد، وأجرى عليه الجراية الوافرة. وكان يعِظ بالمدرسة النظامية، ويذكر الحنابلة ويعيبهم ويقول ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ١٠٢] وما كفر أحمد ولكن أصحابه كفروا ثم قصد يومًا دار قاضي القضاة أبي عبد الله الدامغاني فَجَرَى بينه وبين قومٍ من الحنابلة مشاجرة أدّتْ إلى الفتنة. وكثر جمْعُه فكبس دور بني الفَرّاء وأخذ كتُبَهم ومنها كتاب الصفات لأبي يعلى فكان يقرأه بين يديه وهو جالس على الكرسي للوعظ، وشنَّع عليهم وجرى له معهم خصومات وفتن. ولقِّب البكريُّ من الديوان بِعَلَم السُّنَّةِ، ومات ببغداد ودفن عند قبر أبي الحسن الأشعري رحمهما الله تعالى.

ذكر مسير الشيخ أبي إسحاق برسالة الخليفة إلى السلطان ملكشاه

وفي ذي الحجة سنةَ خمسٍ وسبعين وأربعمائةٍ أرسل الخليفة المقتدي الشيخَ أبا إسحاق الشيرازي برسالةٍ إلى السلطان تتضمن الشكوى من العميد أبي الفتح بن أبي الليث عميد العراق، وأمره أن يُنهيَ إليه وإلى نظام الملك ما يجري على أهل البلاد من النُّظَّارِ. فسار الشَّيْخُ، فكان الشَّيْخُ كلما وصل إلى مدينةٍ من بلاد العجم يخرج أهلها إليه بنسائهم وأولادِهم يتمسحون بِركابه ويأخذون من تراب بغلته للتبرُّك. وكان في صُحبته جماعةٌ من أعيان أصحابهِ فلما وصل إلى ساوة[1] خرج إليه جميع أهلها وسأله كلٌّ من فقهائها أن يدخلَ بيتَه فلم يفعل. ولقِيَهُ أربابُ الصناعات ومعهم ما ينثرونه على محفته، فخرج الخبازون ينثرون الخبز وهو ينهاهم فلم ينتهوا، وكذلك أصحاب الفاكهة والحلوى وغيرهم، وخرج إليه الأساكفة وقد عملوا مداساتٍ لطافًا تصلح لأرجُلِ الأطفال ونثروها فكانت تسقط على رؤوس النَّاسِ فكان الشيخ يتعجب ويذكر ذلك لأصحابه بعد رجوعه ويقول: ما كان حظكم من ذلك النثار؟ فقال بعضهم: ما كان حظ سيدنا منه! فقال الشيخ: أما أنا فتغطيت بالمحفة! يقول ذلك وهو يضحك.

قال: ولما وصل الشَّيخ إلى السلطان وإلى نظام الملك أكرماه، وأُجيب إلى جميع ما التمسه من الخليفة. ولما عاد أهين عميد العراق، ورفعت يده عن جميع ما يتعلق بحواشي الخليفة.

وفيها قدم مؤيد الملك بن نظام الملك إلى بغداد من أصفهانَ ونزل بالمدرسة النظامية، وضرب على بابه الطبول في أوقات الصلوات الخمس، فأُعْطِيَ مالاً جزيلاً حتى قَطَع ذلك، فأرسل الطبول إلى تكريت والله تعالى أعلم.

ذكر عزل عميد الدولة عن الوزارة ومسير ولده إلى ديار بكر

وفي سنَةِ سِتٍّ وسبعين وأربعمائة في صفر عزل عميد الدولة فخر الدولة بن جهير عن الوزارة، ووصل في يوم عزله له رسول من السلطان ومن نظام الملك إلى

---

(١) ساوه: بعد الألف واو مفتوحة بعدها هاء ساكنة: مدينة حسنة بين الري وهمذان في وسط، بينها وبين كل واحد من همذان والري ثلاثون فرسخًا، وبقربها مدينة يقال لها آوه، فساوه سنية شافعية وآوه أهلها شيعة إمامية. . . (معجم البلدان لياقوت).

الخليفة يطلبان معه أن يرسل إليهما بني جهير فأذن لهم. فساروا بجميع أهلهم ونسائهم، فصادفوا من السلطان ومن نظام الملك الإكرام والاحترام، وعقد السلطان لفخر الدولة بن جهير على ديار بكر وخلع عليه وأعطاه الكوسات(١) وسيّر معه العساكر وأمره أن يأخذها من بني مروان، وأن يخطب لنفسه ويذكر اسمه على السِّكَّة، فسار إليها.

قال: ولما فارق بنو جُهير بغدادَ رتَّب الديوان أبو الفتح المظفر ابن رئيس الرؤساء، ثم عزله في السنة وولّى أبا شجاع محمد بن الحسين وخلع عليه خلع الوزراء.

وفي سنة سبع وسبعين وأربعمائة استولى عميد الدولة على الموصل.

وفيها فتح سليمان بن قُتُلمِش السُّلجقي صاحب الروم أنطاكية وكانت بيد الروم من سنة ثمانٍ وخمسين وثلاثمائة.

وفي شهر صفرٍ انْقَضَّ كوكبٌ من الشرق إلى الغرب كان حجمه وضَوْؤه كالقمر، وساد مدًى بعيدًا على مَهَلٍ في نحو ساعة.

وفي سنة ثمانٍ وسبعين وأربعمائةٍ استولى الفَرَنْجُ على مدينة طُلَيْطلَة(٢) وأخذوها من المسلمين على ما نذكره ـ إن شاء الله تعالى ـ في أخبار الأندلس.

وفيها في شهر ربيع الأول هاجتْ رِيحٌ عظيمةٌ سوداء بعد العشاء، وكثُر الرَّعْدُ والبرق وسقط على الأرض رملٌ أحمرُ وترابٌ كثير، وكانت النيران تضطرم في أطراف السماء، وكان أكثر ذلك بالعراق والمَوْصل، فألقتِ النخلَ، وسقط معها صواعق في كثير من البلاد ثم انجلى ذلك نصف الليل.

وفيها في شهر ربيع الأول توفي أبو المعالي عبد الملك(٣) بن عبد الله بن يوسف الجويني إمام الحرمين، ومولده سنة سبع عشرة وأربعمائة.

---

(١) الكوسات: أي الطبول (فارسية معربة).

(٢) طليطلة: مدينة كبيرة ذات خصائص محمودة بالأندلس... وهي غربي ثغر الروم وبين الجوف والشرق من قرطبة، وكانت قاعدة ملوك القرطبيين وموضع قرارهم... (معجم البلدان).

(٣) هو إمام الحرمين أبو المعالي الجويني عبد الملك بن أبي محمد عبد الله بن يوسف الفقيه الشافعي ضياء الدين أحد الأئمة الأعلام، قال ابن الأهدل: تفقه على والده في صباه واشتغل به مدته فلما توفي والده أتى على جميع مصنفاته ونقلها ظهرًا لبطن وتصرف يها وخرج المسائل بعضها على بعض ولم يرض بتقليد والده من كل وجه حتى أخذ في تحقيق المذهب والخلاف وسلك طريق المباحثة والمناظرة وجمع الطرق بالمطالعة... (شذرات الذهب ٣:٣٥٩).

وفي سنة تسع وسبعين وأربعمائة ملك السلطان ملكشاه مدينةِ حلب واللاذقية وكفرطاب وأفامية.

وفيها في شهر ربيع الأول توفي بهاء الدولة أبو كامل منصور بن دُبيْس بن علي بن مزيد الأسدي صاحب الحلة والنيل وولّي ابنُه سيف الدولة صدقة.

وفيها أُسْقِطَ اسم العلويّ صاحب مصر من الحرمَيْن الشريفين وذُكر اسمُ الخليفة المقتدي بأمر الله.

وفيها أُسقطت المكوس من العراق.

وفي سنة ثمانين وأربعمائة في المحرم زُفَّتْ ابنةُ السلطان ملكشاه إلى الخليفة، ونُقل جهازُها على مائةٍ وثلاثين جملاً مجللة بالديباج الرومي، وكان أكثر الأحمال الذهب والفضة، وثلاث عماريات، وعلى أربعةٍ وسبعين بغلاً مجلّلة بأنواع الديباج الملكي وأجراسُها وقلائِدُها من الذهب، وعلى ستة منها اثنا عشر صندوقًا من فضةٍ فيها من الجواهر والحلي ما لا تُقدَّر قيمتُه، وأمام البغال ثلاث وثلاثون فرسًا من الخيول السَّوابق عليه مراكبُ الذهب. وسار أمام الجِهاز سعدُ الدولة والأمير برسق وغيرُهما، وكانت ليلة مشهورة، فلما كان من الغد أحضر الخليفة أمراء السلطان لِسِماطٍ[1] أمر بعمله حُكِيَ أنه عُملَ فيه أربعون ألف مَنٍّ[2] من السكر. وخلع الخلفية على جميع أُمراء السلطان ومن له ذِكْرٌ في العسكر، وأرسل الخلع إلى جميع الخواتين. وولدت في هذه السنة من الخليفة ولدًا وهو أبو الفضل جعفر.

وفي سنة إحدى وثمانين وأربعمائة في شهر ربيع الآخر أمر الخليفةُ بإخراج الأتراك الذين مع الخاتون زوجته من حريم دار الخلافة، وكان سبب ذلك أن تركيًا منهم اشترى فاكهة من طواف فتكالما فشتمه الطوافُ فضربه التركي فَشَجَّه، فاجتمعت العامَّةُ وشنَّعوا واستغاثوا، فأمر الخليفة بإخراج الأتراك فأُخْرِجوا على أقبح صورة.

وفي سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة أرسل السلطان ملكشاه إلى الخليفة يطلب ابنتَه طلبًا لا بُدَّ منه، وسبب ذلك أنها كانت قد أرسلت إليه تشكو من اطراح الخليفةِ لها

---

(١) السماط: ما يمد ليوضع عليه الطعام في المآدب ونحوها.

(٢) المنّ: معيار قديم كان يكال به أو يوزن، وقدره إذ ذاك رطلان بغداديان، والرطل عندهم اثنتا عشرة أوقية بأواقيهم.

وإعراضِه عنها فأذن لها في المسير، فسارت في شهر ربيع الأول ومعها ابنُها من الخليفة فوصلت إلى أصفهان فأقامت إلى ذي القعدة وتوفيت.

وفي سنة أربع وثمانين وأربعمائة في شهر ربيع الأول عُزل الوزير أبو شجاع، وكان عزله في يوم الخميس فقال: [من الوافر]

تـولاهـا ولـيـس لـه عَـدُوٌّ   وفـارقَـهَـا ولـيـس لـه صـديـق

فلما كان من الغد يومَ الجمعة خَرَج من دارِه إلى الجامع ماشيًا فاجتمع عليه خلق كثير، فأُمر أن لا يخرج من بيته، واستنيب في الوزارة أبو سعد بن موصلايا كاتب الإنشاء وأرسل الخليفةُ إلى السلطان يستدعي منه عميد الدولة بن جُهير يستوزره، فَسُيِّر إليه فاستوزره في ذي الحجة من السنة.

وفيها ملك الفرنج جزيرةَ صِقِلية.

وفيها في تاسع شعبان كان بالشام وكثيرٍ من البلاد زلازلُ، ففارق النَّاسُ مساكِنَهم وانهدم بأنطاكية كثير من المساكن والدور، وهلك تحتها خلق كثير، وخُرِّب من بروجها تسعون برجًا.

وفي سنة خمسٍ وثمانين وأربعمائة قُتِل نظام الملك في عاشر شهر رمضان.

وفيها توفي السلطان ملكشاه وملك بَعْده ابنُه محمود.

وفي سنة سبع وثمانين وأربعمائة خطب للسلطان بركيارق بن ملكشاه ببغداد في يوم الجمعة رابع المحرم.

ذكر وفاة المقتدي بأمر الله
وشيء من أخباره

كانت وفاتُه في يوم السبت خامس عشر المحرم سنةَ سبع وثمانين وأربعمائة فجأة، وكان قد أُحْضِر إليه تَقْلِيدُ السلطان بركيارق ليعلِّم عليه فقرأه ثم قُدِّم إليه الطعام فأكل منه وغسل يديه وعنده قهرمانتُه شمسُ النهار فقال لها: ما هذه الأشخاص التي قد دخلت علي بغير إذن؟ قالت: فالتفتُّ فلم أرَ شيئًا فرأيته قد تغيَّرت حالتُه واستَرْخَت يداه ورجلاه وانحلَّت قُوَّتُهُ فسقط إلى الأرض، فَظَنَنْتُها غشيةً لحِقته، فحللت أزرار ثوبه فوجدتُهُ قد ظهرت عليه أمارات الموت، فتماسكتُ وقلت لجارية عندي: ليس هذا وقت إظهار الجزع والبكاء! وأحضرتُ الوزيرَ وأعلمته الحالَ فشرعوا في الْبَيْعَةِ لولي العهد، وجَهَّزوا المقتدي وصلَّى عليه ابنه المستظهر بالله ودُفن.

وكان عمره ثمانيًا وثلاثين سنة وثمانية أشْهُرٍ وسبعة أيام، وخلافَتُهُ تسعَ عشرةَ سنةً وخمسةَ أشْهُرٍ ويومين، وكان عظيمَ الهمة شديد العزمة، ولم يكن له أعوان على ذلك تذبُّ عنه بل كانت له دعوة مجابة، وكانت أيامه كثيرةَ الخير واسعةَ الرزق. وعظُمَتِ الخلافةُ فيها أكثرَ ممن كان قبله، وعُمِّر ببغدادَ عدة محال في خلافته منها البصلية والقطيعية والحلبية والمعيدية والأجمة ودرب القبار وخزانة الهراس والخاتونتين.

قال: وأمر بِنَفْيِ المغنّيات والمفسدات من بغداد، وأمر ببيع دورهن ومنع دخول الحمّام إلا بمئزر، وقلع الهرادى والأبراج التي للطيور، ومنع من اللعب بها لأجل الاطلاع على حرم الناس، ومنع من إجراء ماء الحمامات إلى دجلة، وألزم أربابها بحفر آبار للمياه، ومنع الملاحين من حَمْلِ النساء والرجال مجتمعين.

ووزر له: من ذكرناهم. قضاته: أبو عبد الله الدامغاني إلى أن مات، ثم أبو بكر محمد بن المظفر الشامي الشافعي. حجابه: أبو عبد الله بن دوشتي ثم أبو منصور بن محمد محمد.

ذكر خلافة المستظهر بالله

هو أبو العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله أبي القاسم عبد الله بن ذخيرة الدين أبي العبَّاس أحمد بن القائم بأمر الله، وهو الخليفة الثامن والعشرون من الخلفاء العباسيين. قال: ولما مات المقتدي بأمر الله أُحْضِر ولدهُ المستظهر بالله وأُعْلِمَ بموته فبايعه الوزيرُ، وركب إلى السلطان بركيارق فأعلمه الحال، وأَخَذَ بَيْعَتَه للمستظهر بالله. فلما كان في اليوم الثالث من وفاة المقتدي أظهر موته، وحَضَر عِزُّ المُلْكِ بن نظام الملك وزير بركيارق، وأمر السلطان جميعَ أربابِ المناصب بالجُلوس للعزاءِ والبيعةِ للمستظهر بالله. فبويع له البيعةَ العامةَ في السادس عشر من المحرم سنةَ سبعٍ وثمانين وأربعمائة، وله من العمر ستة عشر سنة وشهران.

ذكر الحوادث في أيام المستظهر بالله

في سنة ثمانٍ وثمانين وأربعمائة كان بين الملوك السلاجقة وبين بعضِهم حروب كثيرة نذكرها إن شاء الله تعالى في أخبارهم.

وفيها شَرَع الخليفة في عمل سورٍ على الحريم، وأمر الوزير عميد الملك بالجِدِّ في عمارته.

وفيها في شهر ربيع الأول خُطِب لولي العَهدِ أبي الفضل منصور بن المستظهر بالله.

وفي سنةِ تسعٍ وثمانين وأربعمائةٍ اجتمع سِتَّةُ كواكب في برج الحوت، وهي الشمس والقمر والمشتري والزهرة والمريخ وعطارد فحكم المنجمون بطُوفانٍ يكون في الناس، وأحضر الخليفة ابنَ عسون المنجم فسأله فقال: إن في طوفان نوح اجتمعت الكواكب السبعة في برج الحوت والآن فقد اجتمع منها فيه ستة وليس فيها زحل، فلو كان فيها لكان مثلَ طوفان نوح، ولكن أقول إنَّ مدينة أو بقعة من الأرض يجتمع فيها عالَم كثير من بلادٍ كثيرة فيغرقون، فخافوا على بغداد لكثرة من يجتمع فيها! فأُحكمت المواضعُ التي يُخْشَى منها الانفجار والغَرق. واتَّفق أنَّ الحجاج نزلوا في المناقب[1] فأتاهم سيل عظيم فأغرق أكثرهم، ونجا من تعلَّق بالجبال، وذهب المال والدواب والأزواد وغير ذلك، فخلع الخليفة على المنجّم!

وفي سنة تسعين وأربعمائة كان ابتداء الدولة الخوارزمية وفيها خطب الملكُ رضوان بولايته بالشام للمستعلي صاحب مصر، ثم رجع عن ذلك وأعاد الخطبة للدولة العباسية.

وفي سنة إحدى وتسعين وأربعمائة كان ابتداء استيلاء الفَرنج على بلاد السواحل الشامية، وملكوا مدينة أنطاكية ومعرة النعمان وبيت المقدس، وغيرَ ذلك على ما نذكره في أخبار العلويين ملوك مصر، فإن أكثر ذلك كان في ولايتهم.

وفي سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة قُتِل أبو القاسم ابن إمام الحرمين أبي المعالي الجويني بنيسابور - وكان خطيبها - فاتهم العامة أبا البركات الثعلبي أنه هو الذي سعى في قتله، فوثبوا به فقتلوه وأكلوا لحمه.

وفي سنة ثلاثٍ وتسعين وأربعمائة في شهر رمضان عُزِل عميد الدولة من وزارة الخلافة وأُخِذَ من ماله خمسةُ وعشرون ألفَ دينارٍ، وتوفي في سادس عشر شوال.

وفي سنة أربع وتسعين وأربعمائة ملك الفرنج مدينة سروج من ديار الجزيرة، وقتلوا كثيرًا من أهلها، ونهبوا أموالهم وسبوْا حريمَهم، ولم يسلمْ إلا من انهزم، وملكوا مدينة حيفا وهي بقرب عكا، وملكوا أرسوف[2] بالأمان وأخرجوا منها أهلها، وملكوا قَيْسارية بالسَّيْفِ وقتلوا أهلها.

---

(١) المناقب: قالوا: وسمي بذلك لأن فيه ثنايا وطرقًا إلى اليمن وإلى اليمامة وإلى أعالي نجد وإلى الطائف... (معجم البلدان).

(٢) أرسوف: مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا، كان بها خلق من المرابطين.

وفيها تقدّم أمر الخليفة المستظهرِ بالله بِفَتْح جامع القصر وأنْ يُصَلّى فيه التراويح ولم تَجْرِ بذلك عادةٌ، وأمر الخليفة بالْجهْرِ بالبسملة وبالقنوات على مذهب الإمام الشافعي.

وفي سنةِ خمسٍ وتسعين وأربعمائة في شهر رمضان استوزر الخليفة سديد الملك أبا المعالي بن عبد الرزاق ولقبه عَضُدَ الدولة.

وفيها بنى سَيْفُ الدَّوْلة صدقة بن مَزْيد الحلَّةَ بالجامعين وسكنها وإنما كان يسكن هو وآباؤه في البيوت العربية.

وفي سنة ستٍّ وتسعين وأربعمائة في منتصف شهر رجب قُبض على الوزير سديد الملك وحُبس بدار الخليفة، وأُعيد أمينُ الدولة أبو سعيد بن موصلايا إلى الوزارة، ثم استَوْزَرَ في شعبان زعيمَ الرؤساء أبا القاسم بن جُهير واستقدمه من الحلة، وكان عند سيفِ الدولةِ صدقة، ولما حضَرَ خلع عليه وجلس في الديوان ولُقّب قوام الدين.

وفي سنة سبع وتسعين وأربعمائة ملك الفرنج جبيل[١] وعكا.

وفي سنة ثمان وتسعين وأربعمائة توفي السلطان بَرْكِيارقُ بأصفهانَ وخُطِب لابنه ملكشاه بالجوامع ببغداد.

وفي سنة خمسمائةٍ في صفر عُزِل الوزير أبو القاسم بن جُهير فَقَصَدَ دار سيفِ الدولة صدقة ببغدادَ ملتجئًا إليها فأرسلَ من أخذه وحمله إليه، فأمر الخليفة بِنَقْضِ داره، وكان في ذلك عبرة لمن يعتبر، فإن أباه أبا نصرٍ كان قد بناها بأنقاضِ دورِ الناس فخُرِبَتْ عن قريب، ولما عزل استنيب في الوزارة قاضي القضاة أبو الحسن الدامغاني، ثم تقررتِ الوزارة في المحرم سنة إحدى وخمسمائة لأبي المعالي هبةِ الله بن محمد عبد المطلب وخلع عليه.

وفي سنة إحدى وخمسمائة في شهر رجب قُتِل الأميرُ سيفُ الدولة صدقةُ[٢] بنُ منصور بن دُبَيْس بن مَزْيَد الأسدي أمير العرب، وهو الذي بنى الحلة السيفية[٣] بالعراق وكان قد عظُم شأنه واتَّسع جاهُه واستجار به كبارُ الناس وصغارُهم.

---

(١) جبيل: بلد خارج دمشق على ثمانية فراسخ من بيروت شرقيها. . . (معجم البلدان).

(٢) كان صدقة شيعيًا له محاسن ومكارم وحلم وجود، ملك العرب بعد أبيه اثنتين وعشرين سنة.

(٣) الحلة السيفية: أي مدينة الحلة المشهورة.

وفيها في شهر رمضان ورد القاضي فخر المُلكِ أبو علي بن عمار صاحب طرابلس الشام إلى بغداد مستنفِرًا على الفَرَنج، فأنزله الخليفةُ وأكرمه وأجْرَى عليه الجِرايات العظيمة، وأحضر معه من التقدمة والهدية من الأعلاق النفسية والخيل العربية، وغير ذلك ما لم يوجد مِثْلُه عند ملك، وأقام ببغدادَ إلى أن رحل السلطانُ محمد عن بغداد في شوال. فتقدم إلى الأمير حسين بن أتابك قتلغتكين أن يسيِّرَ معه العساكرَ التي سيّرها إلى المَوْصل مع أولاد مودود، وخَلَع عليه السلطان خِلَعًا سنيةً وأعطاه شيئًا كثيرًا وودعه: وسار مع الأمير حسين فلم يُجْدِ ذلك نفعًا.

وفيها عَزَل الخليفةُ وزيرَه مَجْدَ الدين هبةَ الله بن المطلب برسالةٍ من السلطان، ثم أُعيد إلى الوزارة بإذن السلطان محمد، وشَرَط عليه شروطًا منها العدلُ وحُسْنُ السِّيرةِ وأن لا يستعمل أحدًا من أهل الذمة.

وفي سنة اثنتين وخمسمائةٍ في نيسان زادت دجلةُ زيادةً عظيمةً انقطعت منها الطرق، وغرقتِ الغلالُ الشِّتْوية والصيفية، وحدث غلاءٌ عظيم بالعراق، وعدم الخبزُ، وأكل الناس التَّمْر والباقلاء الأخضر، وأما أهل السَّواد فإنهم لم يأكلوا في شهر رمضان ونصف شوال إلا الحشيشَ والتُّوتَ.

وفيها في شهر رجب عُزِلَ وزيرُ الخليفةِ أبو المعالي هبةُ الله بن المطلب، وَوَزَرَ أبو القاسم علي بن نصر بن جهير.

وفيها في شعبان تَزَوَّج الخليفة المستظهر بالله ابنةَ السلطان ملكشاه وهي أُخت السلطان محمد، وتولّى قَبولَ العقد بوكالة الخليفة نظامُ الملك وزير السلطان، والصداق مائة ألفِ دينارٍ، ونثرَتِ الجواهرُ والدنانير، وكان العقدُ بأصفهانَ، وخَطَب خُطَبَه النِّكاح القاضي أبو العلاء صاعد بن[1] محمد النيسابوري الحنفي.

وفيها تولى مجاهدُ الدين بهروز شَحْنكيةَ بغداد.

وفي سنة ثلاثٍ وخمسمائةٍ في حادي عشر ذي الحجة ملك الفَرَنج طرابلس وجبيل وبيروت وبانياس.

وفي سنة أربع وخمسمائة ملكوا صيدا في شهر ربيع الأول، وفيها في شهر رمضان المبارك زُفَّت ابنةُ السلطان ملكشاه إلى الخليفة المستظهر بالله فَزُيِّنتْ بغداد لذلك.

---

(١) هو، كما يقول ابن العماد في شذرات الذهب، صاعد بن سيار أبو العلاء الإسحاقي - نسبة إلى إسحاق جد - الهروي الدهان قرأ عليه ابن ناصر ببغداد جامع الترمذي عن أبي عامر الأزدي. قال السمعاني كان حافظًا متقنًا كتب الكثير وجمع الأبواب وعرف الرجال. . . (٤ : ٦١).

وفي سنة خمسٍ وخمسمائة تُوفي الإمام أبو حامد الغزالي[١] رحمه الله.

وفي سنة سبع وخمسمائة توفي أبو القاسم علي بن جهير وزير الخليفة، ووزر بعده الربيب أبو منصور ابن الوزير أبي شجاع محمد بن الحسين وزير السلطان.

وفي سنة ثمان وخمسمائة في جُمادى الآخرة كانت زلزلةٌ شديدة بديار الجزيرة والشام وغيرِها، فَخَرَّبَتْ كثيرًا من الرُّها وحران وسميساط وبالس[٢] وغيرها، وهلك كثيرٌ من الخَلْق تحت الرَّدم.

وفي سنة إحدى عشرة وخمسمائة تُوفي السلطان محمد بن ملكشاه وملك ابنه محمود بن محمد.

وفيها غرقت مدينة سنجار وكان سبب ذلك أن المطر دام فيها ليلاً ونهارًا واشتد، وجاء السَّيْلُ في واديها وأفسد الشباك الذي يجري فيه الماء في سورها، فاجتمع الماء وعظم على السور حتى ألقاه، وهَجَم على المدينة بِشِدَّةٍ وقوة فلم يطقِ الناس ينتقلون عنه، فخرب كل ما مرَّ به من البلد، وغرقَ جمعٌ كثير من الناس. ومن عجيب ما حكي أن الماء حَمَل مهْدًا فيه مولود فتعلَّق المهد بشجرة زيتون، ثم نَقُص الماء والمهد معلّق بالشجرة، فَسلِم المولود.

وفيها تناثرت النجوم بديار الجزيرة جميعها ـ الْموْصِل وغيرِها ـ وكثير من البلاد، وكانت الكواكب تنزل حَتَّى تَقْرُبَ من الأرض ثم تضمحل فلا يوجد لها أثر.

وفيها في يوم عرفة كانت زلزلةٌ بالعراق والجزيرة وكثير من البلاد، وخَرَّبَتْ ببغدادَ دوارًا كثيرةً بالجانب الغربي.

ذكر وفاة المستظهر بالله
وشيء من أخباره وسيرته

كانت وفاتُه في سادس عشر ربيع الآخر سنة اثنتي عشرة وخمسمائة وكان عمره إحدى وأربعين سنةً وستةَ أشهر. خلافته خَمْسٌ وعشرون سنةً وثلاثةُ أشهر، وكانت دعوتُهُ قائمةً بالمغرب، قام بها أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ولم تزل إلى أن ظهر محمد بن تومرت على ما نذكره في أخبار ملوك المغرب إن شاء الله تعالى.

---

(١) هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي، الملقب حجة الإسلام زين الدين الطوسي الفقيه الشافعي؛ لم يكن للطائفة الشافعية في آخر عصره مثله، اشتغل في مبدأ أمره بطوس على أحمد الراذكاني، ثم قدم نيسابور واختلف إلى دروس إمام الحرمين أبي المعالي الجويني... (وفيات الأعيان ٤: ٣١٦).

(٢) بالس: بلدة بالشام بين حلب والرقة.. وكانت على ضفة الفرات الغربية... (معجم البلدان).

وكان المستظهر بالله ـ رحمه الله ـ لَيِّنَ الجانب كريم الأخلاق مشكور المساعي، يحب اصطناعَ المعروف وفِعْلَ الخير ويسارع إلى أعمال البرّ والمثوبات، لا يردّ مكرمةً تُطْلَبُ منه. وكان كثير الوثوق بمن يُوَلِّيه، غير مصغ إلى سعاية ساعٍ ولا راجع إلى قَوْله. وكانت أيامه أيام سرور للرعية، وكان يسره ذلك، وكان حَسَنَ الخط جَيِّدَ التوقيعات. ولما توفي صلّى عليه ابنُه المسترشد بالله، وكبّر أربعًا، ودُفِنَ في حجرة له كان يألفها.

أولاده: أبو منصور الفضل المسترشد، وأبو عبد الله محمد المقتفي، وأبو طالب، وأبو الحسن. وكان له من الوزراء مَنْ قَدَّمنا ذِكرهم في أخباره، ومضى في أيامه ثلاثةُ سلاطين خطب لهم بالحضْرة وهم: تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان، وبركيارق ومحمد بن ملكشاه. ومن عجب الاتفاق أنه لما تُوفي السلطان ألب أرسلان توفي معه القائم بأمر الله، ولما توفي السلطان ملكشاه توفي بعدَه المقتدي بأمر الله، ولما توفي السلطان محمد توفي بعده الخليفةُ المستظهر بالله.

ذكر خلافة المسترشد بالله

هو أبو منصور الفضل بن المستظهر بالله أبي العباس أحمد، وهو الخليفة التاسع والعشرون من الخلفاء العباسيين، بويع له بالخلافة بعد وفاة أبيه في سادس عشر شهر ربيع الآخر سنة اثنتي عشرة وخمسمائة. وكان وليّ عهْدِ أبيه الخليفةِ المستظهر وخُطِبَ له في خلافةِ أبيه ثلاثًا وعشرين سنة.

قال: وبايعه أخَوَاه أبو عبد الله محمد ـ وهو المقتفي لأمر الله ـ وأبو طالب العباسي، وعمومتُه بنو المقتدي بأمر الله، وغيرُهُم من الأُمراء والقضاة والأئمة والأعيان. وكان المتولي لأخْذ البيعة القاضي أبو الحسن الدامغاني ـ وكان نائبًا عن الوزارة ـ فأقر المسترشد عليها، ثم عزله واستوزر أبا شجاع محمد بن الربيب أبي منصور وزير السلطان محمود.

ذكر هرب الأمير أبي الحسن أخي المسترشد بالله وعوده

قال: ولما اشتغل الناس بِبَيْعة المسترشد ركب أخوه الأمير أبو الحسن بن المستظهر بالله سفينةً ومعه ثلاثةُ نفرٍ وانحدروا إلى المدائن، وسار منها إلى دُبَيْس بن صَدَقة بالحلة فأكرمه دُبَيْس ورتَّب له الإقاماتِ الكثيرَة. فلما علم المسترشد بالله خَبَره

أَهَمَّه ذلك وأقلقه، وأرسل إلى دبيس يطلب منه إعادته فأجاب «إنني عبد الخليفة وواقفٌ عند أمره وقد اسْتذَمَّ بي ودخل منزلي ولا أُكرِهُه على أمرٍ أبدًا» وكان الرسول نقيب النقباء شرف الدين علي بن طرّاد الزينبي، فقصد الأميرَ أبا الحسنِ وتحدّث معه في الْعَوْد وضمن له كل ما يريد، فأجاب إلى ذلك وقال: إنني لم أُفارق خِدْمة أخي لِشَرٍّ أُريده، وإنما الخوف حَمَلَني على ذلك، فإذا أَمَّنني قصدتُه!

وتكفَّل له دُبَيْس إصلاحَ الحال والمسير معه إلى بغداد، فعاد النقيب وأعلم الخليفةَ فأجاب إلى ما طلب ثم تأخَّر بعد ذلك ولم يحضرْ وأقام عند دُبَيْس إلى ثاني عشر صفر سنة ثلاث عشرة. وسار عن الحلة[1] إلى واسط وكثر جمعه وقَوِيَ الإرجافُ بأمْرِه، وملك مدينة واسط وخيف جانبُهُ، فتَقَدَّم الخليفةُ المسترشدُ بالله بالخُطْبَة لولده أبي جعفر المنصور وجَعلَه وليَّ عهدِه وعمرُه يومئذ اثنتا عشرة سنةً. فخطب له في ثاني شهر ربيع الأول ببغداد وكتب إلى البلاد بذلك، وأرسل إلى دُبَيْس في معنى الأمير أبي الحسن وأنه الآن فارق جِواره ومدَّ يدَه إلى بلاد الخليفة وأمره بقصده ومُعَاجَلَتِه قبل فَوْته. فأرسل دُبَيْسٌ العساكر إليه ففارق واسط وقد تحيّر هو وأصحابهُ فضلُّوا الطريق، وصادفتْهُم عساكر دُبيْسٍ فنهبوا أثقالَه وهرب الأكرادُ من أصحابِهِ والأتراكُ، وعاد الباقون.

وبقِيَ الأميرُ أبو الحسن في عشرةٍ من أصحابه وهو عطشانُ وبينَه وبين الماءِ خمسةُ فراسخ، وكان الزمان قيظًا فأيقن بالتلف. وكان معه بدوِيان فأراد الهرب منهما فلم يقدِرْ، وأخذاه وقد اشتد به العطش فسقياه الماء وحملاه إلى دُبيس فسيره إلى بغداد وسلمه إلى الخليفة بعد أن بذل له عشرة آلاف دينار. وكان بين خروجه وعوده أَحَدَ عَشَرَ شهرًا، ولما دخل على المسترشد بالله قَبَّل قدمَه وقبّلهُ المسترشدُ وبكيا، وأنزله في دار حسنة كان يسكنها قبل أن يلي الخلافة، وحمل إليه الخِلَعْ والتحف وأمّنه.

وفيها نُقِل الخليفةُ الْمُسْترشد بالله من دار الخلافة إلى الرصافة، ونُقِل كلُّ من كان مدفونًا بها.

---

(١) الحلة: وهو اسم قفّ من الشريف بناحية أحناخ بين ضربة واليمامة... والحلة أيضًا: قرية مشهورة في طرف دجيل بغداد من ناحية البرية، بينها وبين بغداد ثلاثة فراسخ، تنزلها القفول... (معجم ياقوت).

ذكر ظهور قبور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

قال ابنُ الأثير وأحال على حمزة بنِ أسدِ بنِ علي بن محمد التميمي[١] أنه ذكر في تاريخه: وفي سنة ثلاث عشرةَ وخمسمائةٍ ظهر قبر إبراهيم الخليل وقبرا ولديْه إسحاق ويعقوب صلّى الله عليهم وسلّم بالقرب من المقدس، ورآهم الناس ولم تَبْلَ أجسادُهم، وعندهم قناديلُ من ذهبٍ وفضة.

وفيها تُوفي قاضي القُضاة أبو الحسن علي بن محمد الدامغاني، ومولده في شهر رجب سنة تسع وأربعين وأربعمائة، ووليَ القضاءَ بباب الطَّاقِ من بغداد إلى المَوْصِل وعمره ست عشرة سنة ولم يكن ذلك لغيره. ولما توفي ولي القضاءَ بعده الأكمل أبو القاسم علي بن طراد بن محمد الزينبي[٢]، وخُلِعَ عليه في ثالث صفر.

وفي سنة أربع عشرة وخمسمائة خرج الكرج - وهم الخزر - إلى دار الإسلام ومعهم القفجاق وغيرهم من الأُمم، وحاصروا مدينة تفليس[٣]، ودام الحصار إلى سنةِ خمسَ عشرةَ فملكوها عَنْوَةً.

وفي سنة خمس عشرة كانت زلزلة تضعضع منها الركن اليماني في البيت الحرام - زاده الله شرفًا - وانْهَدَم بعضُه وتَشَعَّثَ بعضُ حرمِ النبيّ ﷺ.

وفيها ظهر بمكةَ إنسان علويُّ أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وكثر جمعه ونازع أمير مكة ابنَ أبي هاشم وقَوِيَ أمرُه، وعزم على أن يُخْطُب لنفسه، ثم ظفر به ابن أبي هاشم ونفاه عن الحجاز إلى البحرين، وكان هذا العَلَوِيُّ من فقهاءِ المدرسةِ النظامية ببغداد.

---

(١) هو العميد بن القلانسي صاحب التاريخ أبو يعلى حمزة التميمي الدمشقي الكاتب صاحب تاريخ دمشق... (شذرات الذهب ٤: ١٧٤).

(٢) هو علي بن طراد الوزير الكبير أبو القاسم الزينبي العباسي وزير المسترشد والمقتفي سمع من عمه أبي نصر الزينبي وأبي القاسم بن البسري وكان صدرًا مهيبًا نبيلاً كامل السؤدد بعيد الغور دقيق النظر ذا رأي ودهاء وإقدام نهض بأعباء بيعة المقتفي وخلع الراشد في نهار واحد... (شذرات الذهب ٤: ١١٧).

(٣) تفليس: بفتح أوله ويكسر: بلد بأرمينية الأولى، وبعض يقول بأران، وهي قصبة ناحية جرزان قرب باب الأبواب، وهي مدينة قديمة أزلية... (معجم البلدان).

وفي سنةِ ستَّ عشرة وخمسمائةٍ قبض الخليفة المسترشد بالله على وزيره جلال الدولة صدقة وأُقيم نقيب النقباء علي بن طراد في نيابة الوزارة، فأرسل السلطان إلى الخليفةِ أن يستوزر نظامَ الدين أحمد بن نصر بن نظام الملك فاستوزره وخلع عليه.

وفيها ظهر بديار بكر بالقرب من قلعة ذي القرنين معدن نحاس.

ذكر مسير المسترشد بالله لحرب دبيس بن صدقة

وفي سنةِ سبعَ عشرةَ وخمسمائةٍ كانت الحرب بين دُبَيْس بنِ صدقة وبين الخليفة، وكان سبب ذلك أنَّ دُبيْسًا كان عنده عفيف خادم الخليفة مأسورًا، فأطلقه وحمّله رسالة فيها تهديدٌ للخليفة، وبالغ في وعيده ولبس السواد وجزَّ شعره، وحلف لينهبنّ بغدادَ ويخربها فاغتاظ الخليفةُ لهذه الرسالة وغضب، وتقدم إلى البرسقيّ بالتبريز إلى حرب دُبَيْس، فبرز في شهر رمضان سنة ست عشرة.

وتجهز الخليفة وبرز من بغداد، واستدعى العساكر فأتاه سليمانُ بنُ مهارش صاحبُ الحديثة[1]، وأتاه قِرواش بن مسلم وغيرهما. وأرسل دُبَيْسٌ إلى نهر الملك[2] فنبهه وعمل أصحابه كلَّ عظيم من الفساد فوصل أهل نهر الملك إلى بغداد، فأمر الخليفة فَنُودي ببغداد «لا يتخَلَّفْ من الجند أحَدٌ ومن أحبَّ الجنديةَ فليحضرْ» فجاء خلق كثير ففرّق فيهم الأموال والسِّلاح فلما علم دُبَيْسٌ الحال كتب إلى الخليفة يستعطفه ويسأله الرِّضَى عنه، فلم يُجِبْ إلى ذلك. وأُخْرِجتْ خيامُ الخليفة في العشرين من ذي الحجة سنة ست عشرة فنادى أهل بغداد: النفير النفير الغراة الغراة! وكثر الضجيج من الناس وخرج عالَم كثيرٌ لا يُحْصَوْنَ كثرةً وبرز الخليفةُ لستٍّ بقين من ذي الحجة سنة ست عشرة، وعبر دجلة وعليه قباءٌ أسودُ وعمامةٌ سوداء وطرحة، وعلى كتفه البردةُ وفي يده القضيبُ وفي وسطه منطقة حديد صينيّ.

وسار في سنة سبع عشرة إلى النيل ونزل بالمباركة، وعبأ البرسقيُّ أصحابَه ووقف الخليفة وراء الْجَمْع في خاصَّته وجعل دُبَيْس أصحابَه صفًّا واحدًا وجعل

---

(١) الحديثة: هي في عدة مواضع ينسب إلى كل واحدة منها حديثي وحدثاني منها: حديثة الموصل: وهي بليدة كانت على دجلة بالجانب الغربي قرب الزاب الأعلى.. وحديثة الفرات: وتعرف بحديثة النورة، وهي على فراسخ من الأنبار، وبها قلعة حصينة.. والحديثة أيضًا: من قرى غوطة دمشق ويقال لها حديثة جرش... (معجم البلدان).

(٢) نهر الملك: كورة واسعة ببغداد بعد نهر عيسى.

الرَّجّالةَ أمام الخيّالة بالسلاح وكان قد وَعدَ أصحابَه بنَهبِ وسَبْيِ النِّساء. فَلَمّا تراءت الفئتان بادر أصحاب دبيس وبين أيديهم الإماءُ يضربن بالدُّفوف والمخانيثُ بالملاهِي، ولم يُرَ في عَسْكَرِ الخليفة غيرُ قارىء ومسبِّح وداعٍ. فقامت الحرب على ساق، فلما رأى الخليفة ذلك جرَّد سيفَه وكبَّر وتقدم للقتال، فانهزم دُبيْسٌ وحُملت الأسرَى بين يَدَي الخليفة فأمر بِقَتْلِهم فضُرِبت أعناقُهم صَبْرًا.

وكان عسكر دبيس عشرةَ آلاف فارسٍ واثني عشر ألفَ راجلٍ، وعسكر البرسقيّ ثمانيةَ آلاف فارسٍ وخمسةَ آلافِ راجلٍ، ولم يُقْتَلْ من أصحاب الخليفة غيرُ عشرة وجُعِلَتْ نساءُ دُبَيْسٍ وسراريه تحت الأسر.

وعاد الخليفةُ إلى بغداد فدخلها في يوم عاشوراء من السنة وأما دُبيْسٌ بنُ صدقة فإنه لما انهزم نَجا بفرسه وسلاحِه واتبعته الخيل ففاتها. وعبر الفرات فرأته عجوز فقالت له: دبير جئت؟ فقال دبير من لم يجىء! واختفى خبره بعد ذلك وأُرْجِف بقتله ثم ظهر أنه قصد غُزَيَّةَ[1] من عربِ نجد، وطلب منهم أن يحالفوه فامتنعوا عن ذلك وقالوا لا نُسْخِط الخليفة والسلطان! ثم رحل إلى طائفة من الأعراب واتَّفق معهم على قصد البصرة وأخذها، فساروا إليها ودخلوها ونهبوها وقُتِل مقدّم عسكرِها فتجهز البرسقيّ لقتاله. فسمع دبيس ذلك ففارق البصرةَ وسار على البرِّ إلى قلعة جعبر[2] والتحق بالفرنج وحضر معهم حصار حلب وأطمعهم في أخْذها فلم يظفروا وعادوا عنها في سنة ثماني عشرةَ ثم فارقهم والتحق بالملك طغرل ابن السلطان محمد، وأقام معه وحسَّن له قصد العراق.

وفيها في صفرٍ أمر المسترشد ببناء سور بغداد وأن يجبي ما يخرج عليه من البلد فشقَّ ذلك على النَّاس، وجُمِع منه مال كثير. فلما علِم كراهةَ النَّاسِ لذلك أمر بإعادة ما أُخِذَ منهم فسروا بذلك، وقيل إن الوزير أحمد بن نظام الملك بذَل من مالِه خمسةَ عشر ألف دينار وقال «نقسط الباقي على أرباب الدولة» وكان أهل بغداد يعملون بأنفسهم فيه ويتناوبون العمل.

---

(١) غزيّة: موضع قرب فيد وبينهما مسافة يوم، وثم ماء يقال له غمر غزية، قيل إنه أغزر ماء لغني وهو قرب جيلة... (معجم البلدان). وبنو غزية من قبائل بني جشم منهم دريد بن الصمة بن جداعة بن غزية... (الاشتقاق لابن دريد).

(٢) قلعة جعبر: على الفرات مقابل صفين التي كانت فيها الوقعة بين معاوية وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكانت تعرف أولاً بدوسر فتملكها رجل من بني نمير يقال له جعبر بن مالك فغلب عليها فسميت به... (معجم ياقوت).

وفي سنة ثماني عشرة وخمسمائةٍ ملك الفرنج مدينة صور من نواب العلوي المصري.

ذكر الاختلاف الواقع بين الخليفة المسترشد بالله وبين السلطان محمود

وفي سنة عشرين وخمسمائة وقع الاختلاف بينهما وسببه أن يَرَنْقش شحنةَ بغداد جرى بينه وبين نواب الخليفة منافرةٌ فهدَّده الخليفة بسببها فخاف على نفسه، فسار عن بغداد إلى السلطان وشكا إليه وحذره جانبَ الخليفةِ، وأعلمه أنه قاد العساكر وباشَر الحرب وقويتْ نفسُه و«متى لم تعالجه بِقَصْدِ العراقِ ودخولِ بغداد ازداد قوة وجمعًا ومنَعك عنها»، فتوجه السلطان نحو العراق، فأرسل إليه الخليفة يعرِّفه البلاد وما أهلَها عليه من الضَّعْفِ والْوهَن بسبب دُبيس بن صدقةَ وأن الغلاء قد اشْتَدّ لعدم الغلات والأقوات، وطلب أن تتأخر هذه الدفعة إلى أن ينصلح الحال ثم يعود إلى البلاد ولا مانع له عنها وبذل له على ذلك مالاً عظيمًا.

فلما سمع السلطان هذه الرسالةَ قَوِي عنده ما ذكر يرنقش وصمَّم على العزم وجدَّ في السَّيْر فلما بلغ الخليفة الخبر عبر هو وأهلهُ وجيوشُه ومن عنده من أولادِ الخلفاء إلى الجانب الغربي في ذي القعدة مظهِرًا الغضب والانتزاح عن بغداد إن قَصدها السلطانُ، فبَكى النَّاس بكاءً شديدًا لخروجِهِ من دارِه فبلغ ذلك مِنَ السلطانِ كلَّ مبلغ واشْتَدَّ عليه، وأرسل إلى الخليفة يستعطفه ويسأله الْعوْد إلى داره فأعاد الجواب «أنه لا بد من عودة هذه الدفعة فإنَّ الناس هلكى لشدة الغلاءِ وخراب البلاد» وأنه لا يرى في دينه أن يُزاد ما بهم! فغضب السلطان ورحل نحو بغداد، وأقام الخليفة بالجانب الغربي وأرسل عفيفًا الخادم - وهو من خَواصِّه - في عسكر إلى واسط ليمنع عنها نُوّاب السلطان، كان بها عماد الدين زنكي فقاتله فانهزم عسكر الخليفة وقُتِل منهم جماعةٌ وأُسِر مثلُهم، وتغافل زنكي عن عفيف حتى نجا لمودةٍ كانت بينهما.

ثم إن الخليفة جمع السُّفُنَ جميعها وسدَّ أبواب دار الخلافة سوى باب النوبي، وأمر صاحب الباب بالمقام فيه لحفظ الدار ولم يبْقَ من حواشي الخليفة بالجانب الغربي سواه. ووصل السلطان إلى بغداد في العشرين من ذي الحجة ونزل بباب الشماسيّة ودخل بعضُ عسكرِه إلى بغداد ونزلوا في دور الناس، فشكا الناس إليه ذلك، وأمر بإخراجهم، وبقي بها منْ له دار. وبقي السلطان يراسل الخليفة في الْعوْد

ويطلب الصُّلْحَ وهو يمتنعُ، وكان يجري بين العسكرين مناوشةٌ والعامَّة من الجانب الشرقي يسبُّون السلطان أقبح سبٍّ وأفحشه.

ثم دخل جماعةٌ من عسكر السلطان إلى دار الخلافة ونهبوا التَّاجَ، فَضَجَّ النَّاسُ ونادوا: الغُزَاةَ الغُزَاةَ! وأقبلوا من كلِّ ناحية، وخرج الخليفةُ من السرادق والشمسية على رأسه والوزير بين يديه، وأمر بضرب الكوسات والبوقات ونادى بأعلى صوته: يا آل هاشم! وأمر بتقديم السُّفُن، ونصب الجسر وعبرَ النَّاسُ دفعةً واحدةً وكان له في الدار ألفُ رجلٍ قد أخفاهم في السرداب، فظهروا وعسكر السلطان قد اشتغل بالنَّهْب فأسر منهم جماعة من الأمراء، ونهب العامَّةُ دار وزير السلطان ودور جماعةٍ من الأُمراء ودارَ عز الدين المستوفي ودار الحكم أوحد الزمان، وقُتِل خلق كثيرٌ مِمَّن في الدروب.

ثم عبر الخليفةُ إلى الجانب الشرقي ومعه ثلاثون ألف مقاتلٍ من أهل بغداد والسَّواد وأمر بِحفْر الخنادق فحُفِرتْ بالليل وحُفِظتْ بغداد من عسكر السلطان، ووقع الغلاءُ عند العسكر واشتد الأمرُ عليهم وكان القتال كلَّ يوم عند أبواب البلد وعلى شاطىء دجلة. وعزم عسكر الخليفة أن يكبسوا عسكر السلطان فغدر بهم الأمير أبو الهيجاء الكردي صاحب إرْبل[1] وخرج كأنه يريد القتال فالتحق بالسلطان!

وكان السلطان قد أرسل إلى عماد الدين زنكي وهو بواسطٍ يأمره بالحضور بِنَفْسِه ومعه المقاتلة في السفن وعلى الظهر، فجمع كلَّ سفينة بالبصرة وشحنها بالرجال المقاتلة. وسار إلى بغداد فلما قاربها أَمَرَ مَنْ معه بلبْس السلاح وإظهار ما عندهم من الجلَد والنهضة وسارت السفن في الماء والعسكر في البر على شاطىء دجلة وقد انتشروا وملأُوا الأرض. فرأى النَّاسُ ما ملأ قلوبَهم هيبةً، وعزم السلطان على الجد في القتال، فعندها أجاب الخليفةُ المسترشد بالله إلى الصلح، وترددت الرسائل بينهما فاصطلحا.

وأقام السلطان ببغداد إلى عاشر شهر ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين، وحمل الخليفة إليه من المال ما استقرت القاعدة عليه، وأهدى إليه سلاحًا وخيلًا وغير ذلك. ومرض السلطان ببغداد فأشار عليه الأطباء بمفارقتها فرحل إلى هَمَذَان فلما وصلها

---

(١) إربل: بالكسر ثم السكون، وباء موحدة مكسورة، ولام: قلعة حصينة، ومدينة كبيرة في فضاء من الأرض واسع بسيط، ولقلعتها خندق غميق، وهي في طرف المدينة، وسور المدينة ينقطع في نصفها، وهي على تل عال من التراب، عظيم واسع الرأس. . . (معجم البلدان).

عوفي من مرضِه، ودام في الملك إلى سنة خمس وعشرين فتوفي. وملك بعده ابنه داود بن محمود بن محمد بن ملكشاه على ما نذكره.

وفي سنة ست وعشرين وخمسمائة قَبَضَ المسترشد بالله على وزيره شرف الدين علي بن الزينبي واستوزر أنوشروان بن خالد بعد الامتناع منه.

ذكر حصار الخليفة المسترشد بالله الموصل

وفي سنة سبع وعشرين وخمسمائة حاصر الخليفةُ المسترشد بالله الموْصل في العشرين من شهر رمضان المبارك، وسبب ذلك أنها كانت قد صارت في مَمْلَكةِ عمادِ الدين زنكي وكان قد حضر إلى بغداد لمَّا وقعتِ الحربُ بين السلطان مسعود السُّلجقي وبين أخيه سُلجوق شاه على ما نذكره في أخبار السُّلجُقية وظهر منه مباينة للخليفة المسترشد بالله، فلما كانت هذه السنة واشتغل الملوك السلجقية بقتَال بعضِهم بعضًا قَصدَ جماعةٌ من الأُمراء السلجقية باب المسترشد بالله وصاروا معه.

واتفق أنَّ الخليفة المسترشد بالله أرسل الشيخَ بهاء الدين أبا الفتوح الواعظ الإسفراييني برسالة إلى عماد الدين زنكي فيها خشونة فأداها أبو الفتوح وزاد عليها ثِقةً منه بقوةِ الخليفة وناموس الخلافة فَقَبض عليه زنكي وأهانه ولقيه بما يكره. فأرسل الخليفةُ إلى السلطان مسعود بن محمد يعرّفه ذلك وأنه على قَصْدِ الموْصل وحصْرِها، وتمادتِ الأيام إلى شعبان فسار الخليفةُ في النصف منه في ثلاثين ألفَ مقاتل. فلما قارب الموصل فارقها زنكي في بعض عساكره إلى سنجار ونزل بقية العسكر بها مع نائبه نصير الدين جقر ذِزدارها[١] فنازلها الخليفة وضَيَّقَ على مَنْ بِها.

وكان عماد الدين يركب كلَّ ليلة ويقطع الميرة عن العسكر ويأخذ من ظفر به من عسكر الخليفة، ودام الحصار ثلاثة أشهر فتضايقتِ الأُمورُ بالعسكر الخليفي ولم يبلُغه عَمَّن بها أنهم احتاجوا إلى ميرة ولا وهنوا، فعاد إلى بغداد في الماء في شبارة[٢] فوصل يوم عرفة من السنة.

وفي سنة سبع وعشرين أيضًا اشترى الإسماعيليةُ بالشام حصن القدموس من صاحبه ابن عمرون، وصعدوا إليه، وقاموا بِحرْب من يحاربهم من المسلمين والفَرنْج.

---

(١) الذردار: حاكم الحصن... (فارسية). (٢) قد يراد بالشبارة ضرب من السفن.

وفي سنة ثمانٍ وعشرين وخمسمائة عَزَلَ الخليفةُ أنوشروان بن خالد، وأُلْزِم داره، وأُعيد إلى الوزارة شرف الدين علي بن طرّاد الزينبي.

ذكر مسير المسترشد بالله لحرب السلطان مسعود بن محمد وأسره

وفي سنة تسع وعشرين وخمسمائة كانت الحرب بين الخليفة والسلطان في شهر رمضان. وكان سبب ذلك أن السلطان مسعود توفي أخوه الملك طغرل في المحرم من هذه السنة بِهَمذَان، وكان بينهما من العداوة والحروب ما نذكره في أخبارهم إن شاء الله. وكان الخليفةُ يُعين السلطانَ مسعود على أخيه ويساعده ويُقَوِّيه، وكان السلطان مسعودٌ قد انهزم من أخيه طغرل ورحلَ إلى بغداد، فأعانه الخليفة لجميع ما يحتاج إليه وأمره بالمسير إلى همذان ووعده أن يسير معه ويعينه على حرب أخيه. وكان البقش السِّلاحيُّ وغَيْرُه من الأُمراء قد التحقُوا بالخليفة وصاروا معه واتَّفَقَ أن إنسانًا أُخِذَ فَوُجِد معه ملطفاتٌ من طغرل إلى بعض الأمراء وخاتمه بإقطاع لهم فلما رأى الخليفةُ ذلك قبض على أمير منهم اسمه غلبك ونَهَب مالَه فاستشعر غيرهُ من الأُمراء الذين مع الخليفة، فهربوا إلى عسكر السلطان مسعود؛ فأرسل الخليفة إليه في إعادتهم فلم يفعل، فعظم ذلك على الخليفة وحدث بينهما نفرةٌ ووحشةٌ أوجبت تأخُّره عن المسير معه فأرسل إليه يأمره بالمسير معه حتمًا.

فبينما هم في ذلك إذ ورد الخبر بوفاةِ طغرل، فسار مسعود من يوْمه واحتوى على ممْلكةِ الجبل، فلما اسْتَقَرَّ بِهَمذَان فارقه جماعةٌ من أعيان الأُمراء خَوْفًا منهم على أنفسهم. منهم يرنقش البازدار، وقزل، وسنقر الخمارتكين والي همذان، وعبد الرحمٰن بن طغايرك ومعهم دبيس، وأرسلوا إلى الخليفة يطلبون أمانَة ليحضروا إلى خدمته فقيل للخليفة إنها مكيدةٌ لأن دُبيْس بنَ صدقة معهم. فساروا نحو خوزستان واتفقوا مع برسق بن برسق، فأرسل الخليفةُ إلى الأُمراء سديدَ الدولة بن الأنباري بتوقيعات يطَيِّبُ قلوبهم، وأمرهم بالحضور فعزموا على قَبْض دُبيْس بن صدقة ليتقربوا به إلى الخليفة، فهرب إلى السلطان مسعود.

وسار الأُمراء إلى بغداد في شهر رجب فأكرمهم وقطع خطبةَ السلطان مسعود من بغداد. وبرز الخليفةُ في العشرين من شهر رجب على عزم المسير لحرب مسعود، وأقام بالشفيعي، فهرب منه بكبه صاحب البصرة إليها، فراسلَه وبذلَ له الأمانَ فلم يعُدْ. فتوقف الخليفةُ عن المسير، فَحسَّن له الأُمراءُ الرحيلَ، وضَعّفوا أمْر السلطان

مسعود، فسيّر مقدِّمتَه إلى حلوان فنهبوا البلاد وأفسدوا فلم يُنْكِر عليهم. ثم سار في ثامن شعبان والتحق به الأمير برسق بن برسق فبلغت عِدَّتُه سبعة آلافِ فارسٍ، وتخلَّف بالعراق مع إقبال الخادم ثلاثةُ آلافِ فارسٍ وكان السلطان في ألفٍ وخمسمائة فارس.

وكان أكثر أصحابِ الأطراف يكاتبون الخليفةَ ويبْذُلون له الطاعةَ فاستصلح السلطان أكثرهم، فعادوا إليه، فصار في نحو خمسةَ عشر ألفَ فارسٍ. فأرسل الملك داود ابن السلطان محمود إلى الخليفة يشير عليه بالميل إلى الدينور[١] ليحصِّن نفسه ومنْ معه فلم يفعل المسترشدُ بالله. وسار حتى بلغ دايمرج، وعبأ أصحابه.

وسار السلطانُ مسعودٌ إليهم فوافاهم في عشر رمضان، فانحازت ميْسرةُ الخليفةِ إلى السلطان وقاتلت الميمنةُ قتالاً ضعيفًا، ودارت عساكرُ السلطان حول عسكر الخليفة وهو ثابت لم يتحرك من مكانه، فانهزم عسكره وأُخِذَ هو أسيرًا ومعه جمع كثير من أصحابه منهم: شرف الدين علي بن طرّاد الزينبي وقاضي القضاة، وصاحب المخزن ابن طلحة، وابن الأنباريُ والخطباء، والفقهاء والشهود وغيرهم. وأُنْزِل الخليفةُ في خَيْمةٍ وأُخذ ما في عسكره، وحُمل الأعيان إلى قلعة سرجهان[٢] ولم يقتل في هذه المعركة أحد ألبتةَ.

وعاد السلطان إلى همذَان، وأمر فَنُودِيَ «من تبعنا من البغداديين إلى همذان قتلناه» فرجع الناس كلُّهم على أقبح صورة وسيّر السلطان الأمير بكبه المحمودي شحنةً إلى بغداد فوصلها في رمضان. فقبض جميع أملاكِ الخليفةِ وأخذ غلاَّتها، وثار جماعةٌ من عامة بغداد فكسروا المنبر والشباك، ومنعوا من الخطبة، وخرجوا إلى الأسواق يحثون التراب على رؤوسهم ويصيحون ويبكون، وخرج النساء حاسراتٍ في الأسواق يلطمن ويبكين، واقتتل أصحابُ الشحنة والعامة فقُتِل من العامةِ ما يزيد على مائة وخمسين رجلًا.

ذكر مقتل المسترشد بالله

كان مقتله في يوم الأحد سابع عشر ذي القعدة سنة تسع وعشرين وخمسمائة

---

(١) الدينور: مدينة من أعمال الجبل قرب قرميسين ينسب إليها خلق كثير، وبين الدينور وهمذان نيف وعشرون فرسخًا، ومن الدينور إلى شهرزور أربع مراحل، والدينور بمقدار ثلثي همذان وهي كثيرة الثمار والزروع ولها مياه ومستشرف. . . (معجم البلدان).

(٢) سرجهان: بفتح أوله، وسكون ثانيه، وجيم وآخره نون: قلعة حصينة على طرف جبال الديلم تشرف على قاع قزوين وزنجان وأبهر. . وهي من أحصن القلاع وأحكمها. رآها ياقوت.

على باب مراغة[١]، وذلك أن السلطانَ سار في شوال من هَمَذان إلى مراغة لقتال الملك داود ابن أخيه محمود، وكان قد عصى عليه، فنزل على فرسخين منها والمسترشد معه وقد وكل به من يحفظه. وترددت الرسائل بينهما في تقرير قواعد الصلح على مال يؤديه الخليفة للسلطان وأنه لا يعود يجمع العساكر ولا يخرج من داره فأجاب السلطان إلى ذلك. وركب الخليفة وحمل الغاشية ولم يبْقَ إلا عَوْدُ الخليفة إلى بغداد، فوصل الخبرُ أن الأمير قرآن خوان قد ورد رسولاً من السلطان سنجر فتأخَّر مسيرُ المسترشدِ لذلك وخرج النَّاسُ إلى لقائه مع السلطان. وفارق الخليفةُ بعض الموكلين به وكانت خيمتهُ منفردةً عن العسكر فقصده أربعةٌ وعشرون رجلًا من الباطنية[٢] فدخلوا عليه فقتلوه وجرحوه ما يزيد على عشرين جراحة، ومثلوا به فَجَدعوا أنْفَه وأُذنيه وتركوه عريانَ وقُتِل نَفَرٌ من أصحابه، منهم: أبو عبد الله ابن سكينة وبقي الخليفة حتى دفنه أهل مراغة. وقُتِلَ من الباطنية عشرة وقيل بل قُتِلوا كلهم، وقد قيل إن السلطان سنجر أرسلهم لِقَتلِهِ.

وقُتل رحمه الله تعالى وله ثلاث وأربعون سنة وثلاثة أشهر. ومُدَّةُ خِلافتِهِ سبعَ عشرةَ سنةً وسبعةُ أشْهُرٍ ويومٌ واحد وكان رحمه الله شهمًا شُجاعًا كبير الإقدام بعيدَ الهِمَّةِ وكان فصيحًا بليغًا حسن الخط.

قال: ولما قُتِل حُمِل إلى باب مراغة وخرج أهلُها حُفاةً حاسرين رؤوسهم فبلغوا جنازته وكسروا المنابر. وقال: وصل الخبر إلى بغداد في يوم الجمعة لِستٍّ بقين من ذي القعدة فاجتمع الرجالُ والنساء وناحوا عليه في الطرقات وكسروا منابر الجوامع وأكثروا الشناعات وسَبُّوا السلطان سنجر ومسعودًا أقبح سَبٍّ من غير مراقبة ولا حِشْمةٍ، ولما قتل وليَ بعده ابنُه الخليفةُ الراشد بالله.

ذكر خلافة الراشد بالله

هو أبو جعفر منصور بن المسترشد بالله أبي منصور الفضل بن المستظهر بالله وهو الخليفة الثلاثون من الخلفاء العباسيين بويع له عند وصول الخبر بمقْتَل أبيه في يوم الاثنين السابع والعشرين من ذي القعدة سنة تسع وعشرين وخمسمائة. وكتب السلطان مسعودُ بن محمد السُّلجُقي إلى بكبه الشحنة ببغداد، فبايع له، وحضَر النَّاسُ

---

(١) مراغة: بالفتح والغين المعجمة: بلدة مشهورة عظيمة، أعظم وأشهر بلاد أذربيجان... (معجم ياقوت).

(٢) الباطنية: فرقة من الشيعة تعتقد أن للشريعة ظاهرًا وباطنًا، وتمعن في التأويل.

البيعةَ. وحضر بيعتَه واحدٌ وعشرون رجلاً من أولاد الخلفاء وبايع له الشيخ أبو النجيب ووعظه وبالغ في الموعظة.

ذكر الحرب بين عسكر الخليفة الراشد بالله وعسكر السلطان مسعود

وفي سنة ثلاثين وخمسمائة وصل يرنقش الزكوي من عند السلطان مسعود يطالب الخليفةَ بما كان استقر على أبيه المسترشد بالله من المال وهو أربعمائة ألف دينار فقال الخليفة: لا شيء عندي والمالُ جميعهُ كان مع المسترشد فَنُهب! ثم بلغ الراشد بالله أن يرنقش يريد الهجوم على دار الخليفة وتفتيشهَا ليأخذَ المال، فجمع العساكر وأعاد عملَ السور. فلما علم يرنقش بذلك اتَّفَق هو وشحنةُ بغداد على أن يهجموا على دار الخليفة يوم الجمعة فبلغ ذلك الراشد فاستعد لِمنْعِهم وركب يرنقش ومعه الأُمراء البكجية والعسكر، واجتمعوا في نحو خمسة آلافِ فارسٍ ولقيهم عسكر الخليفة فاقتتلوا، وأعان العامَّةُ عسْكَر الخليفة فأخرجوا عسكر السلطانِ ونَهَبتِ العامَّةُ دار السلطنة.

ثم حضر الملك داود بن محمود بعسكر أذربيجان واجتمع الأطراف ببغداد على الخروج عن طاعةِ السلطان مسعود وفيهم عمادُ الدين زنكي وغيره، وولى الملك داود يرنقش بازدار شحنكية بغداد. واتفق أن الخليفة قَبضَ على ناصح الدَّوْلة أبي عبد الله الحسن بن جهير أُستاذ الدار وكان هو السبب في ولايته، وقبض على جمال الدولة إقبالِ المسترشديِّ وعلى غيرِهما من أعيان الدولة، فتفرقت نِيَّاتُ أصحابِه عليه فشفع أتابك زنكي في إقبال. وخرج موكب الخلية مع وزيره جلال الدين أبي الرضي بن صدقة إلى عماد الدين زنكي يهنئه بالقدوم، فأقام الوزير عنده وسأله أن يمنَعه من الخليقة فأجابه إلى ذلك. وعاد الموكب بغير وزير، وأرسل زنكي مَنْ حرس دار الوزير ثم أصلح حاله مع الخليفة وأعاده إلى وزارته. ثم جدَّ الخليفةُ في عمارة السور فأرسل الملك داود من قلع أبوابه وخرَّب قطعةً منه، فانزعج الناسُ ببغداد ونقلوا أموالهم إلى دار الخلافة، وقُطعت خطبة السلطانُ، وخُطِب للملك داود، وجرت الأيمان بين الخليفةِ والملك داود وعماد الدين زنكي. ووصلت الأخبار بمسير السلطان مسعودٍ إلى بغداد لقتال ابن أخيه داود وزنكي. ثم وصلت رُسل السلطان إلى الخليفة بالبذْل من نفسِه الطاعة والموافقةَ والتهديد لمن اجتمع عنده، فعرض الخليفةُ الرسالة عليهم وكلمهم في قتاله، فكُلٌّ رأى ذلك ووافقهم الخليفة!.

ذكر مسير الراشد بالله إلى المَوْصِل وخلعه

كان سبب ذلك أن السلطان مسعودًا لما بلغه اجتماع العساكر والملوك والأُمراء ببغداد على خِلافِه والخُطبة للملك داود ابن أخيه جمع العساكر وسار إلى بغداد ونزل بالملكية، فسار بعضُ العسكر وطاردوا عسكره وعادوا، ونزل السلطان على بغداد وحصرها نيِّفًا وخمسين يومًا، فلم يظفرْ منها بشيء. ثم عاد إلى النهروان عازِمًا على العوْدِ إلى همذان فوصل إليه طرنطاي صاحبُ واسط ومعه سفنٌ كثيرة، فعاد إلى بغداد وعبر إلى غربي دجلة واختلفت كلمة العسكر البغدادي فعاد الملك داود إلى بلاده في ذي القعدة وتفرّق الأُمراء.

وكان زنكي بالجانب الغربي فعبر إلى الخليفةِ وسار إلى الموصل. ودخل السلطان بغداد واستقر بها، وذلك في نصف ذي القعدة سنة ثلاثين وخمسمائة.

قال: وأمر السلطان فجمع القضاة والشهود والفقهاء وعُرض عليهم اليمين التي حلف بها الراشد وفيها بخط يده «إنني متى جندت أو خرجت أو لقيت أحدًا من أصحاب السلطان بالسَّيف فقد خلعتُ نفسي من الأمر» فأفْتَوْا بخروجِه من الخلافة، وقيل إن الوزير شرف الدين علي بن طراد الزينبي وكاتب الإنشاء ابن الأنباري وصاحب المخزن كمال الدين طلحة كانوا منذ أسْرِهم مع المسترشد، فحضروا الآن معه، واجتمعوا في يوم الاثنين لأربع عشرة ليلة بقِيتْ من ذي القعدة سنة ثلاثين، وكتبوا محضرًا شهد فيه جماعةٌ من العُدول بما صدر من الراشد من الظُّلْم وأخْذِ الأموال بغير حقها وسفْكِ الدماء وشُرْبِ الخمور وارتكابِ المحارم، واسْتفْتَوْا الفقهاء فيمن فَعلَ ذلك هل تصِحُّ معه إمامة أم لا؟ وهل يجوز للسلطان أن يخلعه ويستبدلَ به من أهل بيته من هو خيرٌ منه طريقةً ودينًا؟ فأفْتى الفقهاءُ بِخَلْعِه وفَسْخ عهده والاستبدالِ به غيره، وعُرضتِ الفُتيا والمحضر على السلطان فقال: هذا أمر قلدتكم إياه وأنا بريء منه عند الله! ثم خُلع وقُطعت خطبته من بغدادَ وسائرِ البلاد في ذي القعدة وبويع بعده للمقتفي.

وكانت خلافَتُه أحد عشر شهرًا وأيامًا، وكتب السلطانُ إلى أتابك زنكي في القبض عليه وإرساله إلى بغداد فمنع من ذلك فارس الإسلام زين الدين علي بن بكتكين صاحب إرْبِل رحمه الله وقال: والله لا سلَّمناه حتى تُراق دماؤُنا! واعتذر إلى السلطان وقال: أنا أخرجهُ من ولايتي؟ فأرسلْ أنت عسكرًا للقبض عليه من غير جهتنا!

وأعد زينُ الدين جماعةً من الأكراد فساروا بين يديه على طريق لا يعرفها كثيرٌ من الناس فَوصل إلى مراغة أذربيجان ونزل بِبريَّةِ أبيه وتلقَّاه أهلُها وولَّوْه أمرهم فأقام بها يسيرًا ثم ارتحل إلى الرَّيِّ فلما قرب من بلاد الباطنية جرَّد عسكره لِقَتْل مَنْ وجد منهم فقتل منهم جماعةً ثم تنقَّلَت به الحال وكابد الغربة ووصل إلى همذان وسار منها يريد أصفهان. فلما كان في الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة اثنتين وثلاثين وثَب عليه نفر من الباطنية ـ وكانوا في خدمته على زِيِّ الخراسانية ـ فقتلوه وهو يريد القَيْلولة وكان قد بَلَّ من أثر مرض قد برأ منه ودفن في شهرستان[1] على فَرْسخ من أصفهان، وقتل أصحابُه الباطنيةَ الذين قتلوه. ولما ورد الخبرُ بِمقْتَلِ الراشد بغداد جلسوا للعزاء في دار النوبة يومًا واحدًا. وكان الراشد بالله أشقر اللون حسن الصورة، مهيبًا شديد القوة والبطش.

ذكر خلافة المقتفي لأمر الله

هو أبو عبد الله محمد وقيل الحسين بن المستظهر بالله أبي العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله أبي القاسم عبد الله، وأُمُّه أُمُّ ولد تدعى ياعى. وهو الخليفة الحادي والثلاثون من الخلفاء العباسيين بويع له بعد خَلْع ابن أخيه الراشد بالله في ثامن عشر ذي الحجة سنة ثلاثين وخمسمائة. وذلك أنه لما خُلِع الراشد بالله استشار السلطان مسعود بن محمد السُّلجقي جماعةً من أعيان بغداد فيهم الوزير شرف الدين علي بن طرّاد الزَّيْنَبي وكمالُ الدين صاحبُ المخزن وغيرهما فيمن يصلح أن يلي الخلافةَ فقال الوزير: أحدُ عُمومة الراشد بالله وهو رجل صالح! قال: مَنْ هو؟ قال: لا أقدر أن أُفصح باسْمِهِ لئلا يُقْتل: فَتقدَّم إليهم بعملِ محضرٍ فعُمِلَ المحضرُ على ما ذكرناه فلما كمُلَ المحضر أحْضِر القاضي أبو طاهرِ الكرخي وشهدوا عندَه بما تضمَّنَه المحضرُ فحكم بفِسْق الراشد وخَلْعِه وحكم بعدَه غيرُهُ. ولم يكن قاضي القضاة ببغدادَ لِيَحْكَمَ فإنه كان بالمَوْصِل عند أتابك زنكي فلما كَمُل ذلك ذكره الوزير للسلطان وذكر دينَه وعِفَّتَه ولينَ جانِبه، فحضر السلطانُ إلى دار الخلافة ومعه الوزيرُ وصاحب المخزن وغيرُهما وأمر بإحضار الأمير أبي عبد الله بن المستظهر من المكان الذي كان يسكن فيه، فأُحْضِرَ وأُجْلِسَ في الميمنة ودخل السلطان وتحالفا وقررا القواعدَ بينهما. وخرج السلطانُ من عنده وحضر الأمراء وأربابُ المناصب والقضاة والفقهاء. ولُقِّب المقتفي بأمر الله.

---

(١) شهرستان: بفتح أوله، وسكون ثانيه، وبعد الراء سين مهملة، وتاء مثناة من فوقها، وآخره نون: في عدة مواضع، منها: شهرستان بأرض فارس... وشهرستان أيضًا: مدينة جيّ بأصبهان... وشهرستان: بليدة بخراسان قرب نسا بينهما ثلاثة أميال... (معجم البلدان).

وقيل في سبب هذا اللقب أنه رأى رسولَ الله ﷺ قبل أن يَلِيَ الخلافةَ بستة أيام وهو يقول: إن هذا الأمر يصير إليك فاقتفِ بي فَلقِّبَ بذلك ولما بويع له سُيِّرتِ الكتبُ الحكيمة بخلافته إلى سائر الأمصار واستوزر شرفَ الدين علي بن طرّاد الزينبي، وأرسل إلى الموصل فأحضر قاضي القضاة علي بن حسين الزينبي ـ وهو ابن عم الوزير ـ وأعاده إلى منصبه، وأقرَّ كمالَ الدين صاحب المخزن على منصبه، وأجرى الأُمور على أحسن نظام.

قال: وأرسل السلطان مسعود إلى الخليفة في تقرير إقطاع يكون لخاصته فكان جوابه «إن في الدار ثمانين بغلاً تنقل الماء من دجلة، فلينظر السلطان ما يحتاج إليه مَنْ يشربُ هذا الماء فَتَقَرَّرتِ القاعدة على أن يجْعَلَ له ما كان للمستظهر فأجاب إلى ذلك وقال السلطان لما بلغه قوله: «لقد جَعَلنا في الخلافة رجلاً عظيمًا نسأل الله تعالى أن يكفينَا أمره» قال: وخُطِبَ له على سائرِ المنابر إلا في المَوْصل، فإنه لم يُخْطَبْ له فيها إلا في شهر رجب سنةَ إحدى وثلاثين وخمسمائة.

وفي سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة تزوج الخليفة المقتفي فاطمة أخت السلطان مسعود وكان الصداق مائة ألف دينار، والوكيل في قبول النكاح وزير الخليفة علي بن طراد، ووكيل السلطان في العقد وزيره الكمال الدَّرْكزيني.

وفيها في الرابع والعشرين من أيار ظهر بالشام سحاب أسودُ وأظلمت له الدنيا، وصار الجوّ كالليل المظلم، ثم طلع بعد ذلك سحابٌ أحمرُ كأنه نار أضاءت له الدنيا، وهبَّ ريحٌ عاصف ألقت كثيرًا من الشَّجَر، وكان أشد ذلك بحوران ودمشق وجاء بعد ذلكَ مطر كثير وبَرَدٌ كِبار.

وفي سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة وصل ملك الروم صاحب القسطنطينية إلى الشام وملك بزاغة[١] بالأمان لخمس بقين من شهر رجب ثم غدر بأهلها فقتل منهم وسبى على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار الدولة الأتابكية في أيام زنكي.

وفيها انقطعت كسوةُ الكعبةِ للاختلاف الواقع بين الملوك السُّلجُقية فقام بكسوتها رامشت الفارسي التاجر، وكان من التجار المسافرين إلى الهند ـ وهو كثير المال ـ فكساها من الثياب الحَبرَة[٢] وبكل ما وجد إليه السبيل، فبلغ ثمن الكسوة ثمانية عشر ألف دينار مصرية.

---

(١) بزاغة: مدينة لطيفة على ستة فراسخ من حلب.

(٢) الحبرة: ضرب من برود اليمن، وكان النبي ﷺ يلبس الحبرات.

وفيها كانت زلزلةٌ عظيمة بالشام والجزيرة وديار بكر والموصل والعراق وغير ذلك من البلاد فخُرِّبَ كثيرٌ منها، وهلك عالم كثير تحت الرَّدْم. ثم كانت زلازلُ كثيرة هائلة بالشام والجزيرة وكثير من البلاد في سنة ثلاث وثلاثين، وكانت متواليةً عِدَّة أيام كلَّ ليلة عِدَّة دفعات وكان أشدها بالشام، فعدُّوا في ليلة واحدة ثمانين مرةً. ففارق الناس مساكنهم، ولم تزل تتعاهد من أربع صفر إلى تاسع عشر، وكان معها صوت وهدة شديدة.

وفي سنة أربع وثلاثين وخمسمائة جَرَى بين الخليفة المقتفي وبين الوزير علي بن طراد منافرةٌ، وسببها أن الوزير كان يعارض الخليفةَ في جميع ما يأمر به فنفر الخليفةُ من ذلك، فغضب الوزير ثم خاف فقصد دار السلطان واحْتَمى بها، فأرسل الخليفةُ إليه في العَوْدِ إلى منصبه فامتنع. فاستناب قاضي القضاة الزينبي، وأرسل الخليفةُ رسلاً إلى السلطان مسعود في معنى الوزير فأرخص السلطان للخليفة في عَزْلِه فعزله، ثم عزل الزينبي من النيابة، وناب سديد الدولة بن الأنباري.

وفيها كانت زلزلةٌ عظيمة بكنجة[1] وغيرها من أعمال أذربيجان وأرّان[2]، وكان أشدها بكنجة فَخُرِّبَ منها كثيرٌ، وهلكَ عالَم قيل كانوا مائتي ألف وثلاثين ألفًا وتهدَّمَت قلعةٌ هناك.

وفيها ابْتَنَى الخليفةُ بفاطمة أخت السلطان مسعود وكان يوم حمْلِها إلى دار الخلافة يومًا مشهودًا. وغُلِّقَت بغدادُ عدة أيام، وتزوج السلطان مسعود بابْنَةِ الخليفة.

وفي سنة خمسٍ وثلاثين وخمسمائة وصل رسولُ السلطان سنجر ملكشاه إلى المقتفي ومعه بُردة النبيّ ﷺ والقضيب، وكان أخذهما من المسترشد لما قُتل.

وفيها ملك الإسماعيلية حصن مصافٍ بالشام وكان واليه مملوكًا لبني مُنْقذٍ أصحاب شيزر، فاحتالوا عليه ومكَرُوا به حتى صعدوا إليه فقتلوه وملكوا الحِصْنِ.

وفيها توفي سديد الدولة بن الأنباري فاستوزر الخليفة بعده نظامَ الدين أبا نَصْرِ محمد بن الأنباري وكان قبل ذلك أستاذَ الدار.

---

(١) كنجة: بالفتح ثم السكون، وجيم: مدينة عظيمة وهي قصبة بلاد أران، وأهل الأدب يسمونها جنزة... وكنجة: من نواحي لرستان بين خوزستان وأصبهان... (معجم ياقوت).

(٢) أران: بالفتح وتشديد الراء وألف ونون: اسم أعجمي لولاية واسعة وبلاد كثيرة، منها جنزة وهي التي تسميها العامة كنجة، وبرذعة، وشمكور، وبيلقان. وبين أذربيجان وأران نهر يقال له الرسّ... (معجم البلدان).

وفيها بُنِيتْ المدرسة الكمالية ببغداد بناها كمال الدين أبو الفتوح حمزة بن علي صاحب المخزن. ولما فَرَغت درَّس فيها الشيخ أبو الحسن بن الخل.

وفي سنة أربعين وخمسمائةٍ اتَّصَل بالخليفة عن أخيه أبي طالب ما كرهه فَضَيَّق عليه وعلى غَيْرِه من أقاربه.

وفي سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة في جمادى الأُولى خُطِب للمستنجد بالله يوسف بن المقتفي بِولاية العهد.

وفي سنة أربع وأربعين استوزر الخليفة أبا المظفر يحيى بن هُبيْرة وكان قبل ذلك صاحب ديوان الزِّمام فظهرت منه كفاءة عظيمة، فرغب الخليفةُ فيه واستوزره يوم الأربعاء لأربع خلون من شهر ربيع الآخر.

وفيها كانت زلزلةٌ عظيمة، فيقال إن جبلًا بالقرب من حلوان ساخ في الأرض.

وفي سنة سبع وأربعين مات السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بِهَمذَان فلما وصل الخبرُ إلى بغداد بِمَوْتِهِ هرب شِحْنَتُها مسعود بلال إلى تكرِيت فاستظهر الخليفةُ المقتفي على داره ودور أصحاب السلطان ببغداد وأخذ أموالهم وودائعهم واسْتَبدَّ الخليفةُ بالأمر وقطع خطبة الملوك السُلْجُقية وفوّض الأمر إلى الوزير ابنِ هبيرة!.

ذكر تفويض أمور الدولة والوزارة
إلى الوزير عون الدين بن هبيرة وما أقطعه الخليفة من الإقطاعات

كان الخليفة المقتفي لأمر الله لمَا اسْتَخْلَفَ حلف أنْ لا يُملِّكَ تركيًا لما جرى على أخيه المسترشد ولم يمكنه المبادرة بذلك فلما تَمكّن وقَوِيَ أمرُه ومات السلطان مسعود فَوَّضَ الأُمور إلى الوزير عون الدين أبي المظفر يحيى بن هبيرة، ولَقَّبه بتاج الملوك ملك الجيوش وأقطعه إقطاعًا عظيمًا وهو: واسط وبطائحها والبصرة والحلّة، والنيل، والنعمانية، وقرسان[1]، ونهر الملك[2]، ونهر عيسى[3]، ودجيل،

(١) هي قاسان: كما في معجم ياقوت: بلدة وراء النهر قرب حدود الأتراك.

(٢) نهر الملك: كورة واسعة ببغداد تشتمل على ثلاثمائة وستين قرية.

(٣) نهر عيسى: كورة بقرى كثيرة غربي بغداد مأخذها من الفرات وتنسب لعيسى بن علي بن عبد الله بن العباس.

والراذان[١]، وطريق خراسان، والقرايا، والنجف، والبَنْدنيجَيْنَ[٢]، وبادَرايا[٣]، وباكُسايا[٤]، وهِيت، والأنبار، وعين التمر[٥]، وشفاثا. وأقطعه إقطاع وزير السلطان وأعانَه على الاستعداد للحرب وجهزه بالجيوش فاسْتَوْلى على الحلة والكوفة وواسط ثم عاد إلى بغداد وكانت غيبته خمسةً وعشرين يومًا.

ذكر حصر تكريت
وعود عسكر الخليفة عنها وأسر ابن الوزير

وفي سنة ثمانٍ وأربعين وخمسمائة سيَّر الخليفةُ المقتفي لأمر الله عسكرًا إلى تكريت وأرسل عليهم مقدّمًا أبا المنذر ابن الوزير عون الدين والأمير ترشك وهو من خواصِّ الخليفة وغيرهما، فجرى بين أبي المنذر وبين ترشك منافرة اقتضت أن كتب ابن الوزير يشكو منه، فأمر الخليفة بالقبض على ترشك فعرف ذلك فأرسل إلى مسعود صاحب تكريت وصالحه وقبض على أبي المنذر ومَنْ معه من المقدمين، وسلّمهم إلى مسعود بلال فانهزم العسكر وسار مسعود وترشك من تكريت إلى طريق خراسان فنهباها وأفسدا. فسار الخليفةُ لدفعهما، فَهَرَبا من بين يديه فقصد تكريتَ وحَصرَهَا أيامًا، ثم عاد بعد أن جرَى بينه وبين أهلها قتالٌ من وراء السور، وقُتل من عسكر الخليفة جماعة بالنشابِ.

ذكر حصار تكريت ووقعة بكمزا[٦]

وفي سنة تسع وأربعين وخمسمائة أرسل الخليفة رسولاً إلى صاحب تكريت بسبب مَنْ عنده من المأسورين فقبض على الرسول. فسيّر المقتفي عسكرًا فخرج أهل تكريت فقاتلوا عسكر الخليفة، فسيّر عسكرًا آخر، فمانعوه. فسار الخليفةُ بنفسه ونَزَل على البلد فهرب أهله، فدخل عسكر الخليفة فشغبوا ونهبوا بعضه، ونَصَبَ على القلعة ثلاثةَ عشر منجنيقًا فسقط من أسوارها برجٌ، وبقي الجيش كذلك إلى الخامس

---

(١) الراذان: كورتان لهما قرى كثيرة.
(٢) البندنيجين: بلدة مشهورة في طرف النهروان ناحية الجبل من أعمال بغداد.
(٣) بادرايا: طسوج بالنهروان، وهي بليدة قرب باكسايا.
(٤) باكُسايا: بلدة على الفرات من نواحي بغداد فوق الأنبار وذات نخل كثير وخير غزير.
(٥) عين التمر: بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة يقربها موضع يقال له شفاثا.
(٦) بكمزة: بالفتح والزاي: قرية بينها وبين يعقوبا نحو فرسخين، كان بينها وبين بعيقبة الوقعة المشهورة بين المقتفي لأمر الله والبقش كون خر أحد الأمراء... (معجم البلدان).

والعشرين من شهر ربيع الأول فأمر الخليفة بالقتال والزَّحْف، فاشتد القتال، وكثرت القتلى، ولم يبلغ منها غَرَضًا، فعاد إلى بغداد ودخلها في آخر الشهر.

ثم أمر الوزير عون الدين بالعَوْد إليها والاستعدادَ والاستكثار من آلات الحصار، فسار إليها في شهر ربيع الآخر وضيّق عليها، فبلَغَه الخبر أن مسعود بلال وصل إلى شهراباُن[١] ومعه البغوش كون خر وترشك في عسكر كبير ونهبوا البلاد فعاد الوزيرُ إلى بغداد وكان سبب تَحَوُّل هذا العسكر أنهم حثُّوا الملكَ محمدًا على قصد العراق فلم يتهيأ له ذلك، فسّير إليه هذا العسكرَ وانضاف إليهم خلقٌ كثير من التركمان.

فخرج الخليفةُ إليهم فأرسل مسعود بلال إلى تكريت وأخرج منها الملك أرسلان ابن السلطان طغرل بن محمد وكان محبوسًا بها وقال: هذا سلطان نقاتل بين يديه بإزاء الخليفة! والتقى العسكران عند بكمزا بالقرب من بعقوبا[٢]، ودامت الحربُ بينهم والمناوشة ثمانيةَ عشرَ يومًا، ثم التقوْا في آخر شهر رجب واقتتلوا فانهزمت ميمنةُ عسكرِ الخليفة وبعضُ القلب حتى بلغت الهزيمة بغدادَ، ونُهبت خزائنُه وقتل خازنُه، فحمل الخليفة بنفسه هو وولي عهده وصاح: يا آل هاشم كذب الشيطان! وقرأ ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ﴾ [الأحزاب: ٢٥] وحمل هو وبقيةُ العسكر فانهزم مسعودٌ ومن معه، وظفر الخليفة، وغنم العسكرُ جميعَ ما هو للتركمان من دوابَّ وغنمٍ وغير ذلك. وكانوا قد أحضروا نساءهم وأولادهم وخركاهاتهم فأُخِذ جميعُ ذلك، فبيع كل كَبْش بِدانِقٍ[٣] وأخذ كون خر الملكَ أرسلان وانهزم به إلى بلد النجف وقلعة الماهكي.

ورجع الخليفةُ إلى بغداد فدخلها في أوائل شعبان المبارك، فأتاه الخبر أن مسعود بلال وترشك قصدا مدينةَ واسط فنهبا وخربا فسيّر إليهم الوزيرَ في عسكر، فانهزم العَجمُ، ولحقهم عسكرُ الخليفة ونَهَب شيئًا كثيرًا، وعاد إلى بغداد فَلُقِّب الوزير سلطان العراق ملكَ الجيوش، وسيّر الخليفةُ عسكرًا إلى بلد النجف فاحتوى عليه.

---

(١) شهراباُن: بالنون: قرية كبيرة عظيمة ذات نخل وبساتين من نواحي الخالص في شرقي بغداد، وقد خرج منها قوم من أهل العلم... (معجم ياقوت).

(٢) بعقوبا: قرية كبيرة كالمدينة، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ، من أعمال طريق خراسان، وهي كثيرة الأنهار والبساتين، واسعة الفواكه متكاثفة النخل، وبها رطب وليمون... (معجم البلدان).

(٣) الدانق: سدس الدرهم.

وفي سنةِ خمسين وخمسمائة سار الخليفة إلى دقوقا[١] فحصرها وقاتل مَنْ بها، ثم رحل عنها ولم يبلغ غرضًا.

وفيها استولى شملة التركماني على خوزستان وصاحِبُها حينئذ ملكشاه محمود، فسيّر الخليفةُ إليه عسكرًا فقاتَلَهُم شملة وهزمهم وأسر وجوهَهُم، ثم أحسن إليهم وأطلقهم، وأرسل إلى الخليفة المقتفي لأمر الله يعتذر منه فقبل عذره.

وفي سنة إحدى وخمسين وخمسمائة حصر السلطان محمد بن محمود السُّلْجُقي بغدادَ، وكان قد راسل الخليفةَ في الخطبة له ببغداد والعراق، فامتنع الخليفةُ من إجابته، فسار من هَمَذَان وواعده قطب الدين صاحبُ المَوْصِل أن يرسل إليه العساكرَ، فقَدَم في ذي الحجة ودام الحصارُ والقتالُ إلى شهر ربيع الأول سنة اثنتين وخمسين، فبلغ السلطان محمد أن أخاه ملكشاه وإيلدكَر وأرسلان طغرل دخلوا همذان واستولَوْا عليها، فرجع عن بغداد ولم يبلغ رضا، وتفرقت العساكر.

وفي شهر ربيع الأول سنة إحدى وخمسين أُطْلق ابن الوزير ابن هبيرة من حبس تكريت فتلقته المواكب وكان يومًا مشهودًا.

وفيها في شهر ربيع الآخر احترق أكثر بغداد، واحترقت دارُ الخلافة.

وفي سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة كان بالشام زلازلُ كثيرةٌ خربت كثيرًا من البلاد والقلاع والأسوار، وهلك من العالم ما لا يحصى كثرةً. ومما يدل على ذلك ما حكاه ابن الأثير في تاريخه الكامل: «أن معلمًا كان بمدينة حماه يعلِّم الصبيان، ففارق المكتب لحاجة عرضت له فجاءت الزلزلة فخرَّبتِ البلد وسقط المكتب على الصبيان فهلكوا عن آخرهم» قال: فقال المعلم: فلم يأت أحد يسألني عن صَبِيٍّ كان له! فيدل على موْتِ جميع أهاليهم.

وفيها قلع الخليفة المقتفي لأمر الله بابَ الكعبة وعمل عِوَضَه بابًا مصفحًا بالفضة المذهبة، وعمل لنفسه من الباب الأول تابوتًا يدفن فيه إذا مات!

وفي سنة أربع وخمسين وخمسمائة في ثامن عشر ربيع الأول كثرت الزيادة في دجلة فغرقت بغدادُ، وتهدّمت الدور وسور المدينة وكثر الخراب ولم يعرف الناس حدودَهم على التحرير، بل بالتخمين.

---

(١) دقوقاء: بفتح أوله، وضم ثانيه، وبعد الواو قاف أخرى، وألف ممدودة ومقصورة: مدينة بين إربل وبغداد معروفة... (معجم البلدان).

وفيها مات السلطان محمد الذي حاصر بغداد بِمَرضِ السُّلِّ.

وفيها عاد ترشك إلى بغداد ولم يعرفه أحد ولا شعر به إلا وقد ألقى نَفْسَه تحت التاج ومعه سيف وكفن. فَرَضِيَ عنه الخليفةُ، وأذِنَ له في دخول الدار وأنعم عليه بمال!

ذكر وفاة المقتفي لأمر الله وشيء من أخباره

كانت وفاة المقتفي لأمر الله في شهر ربيع الآخر سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وقيل لليلتين خَلَتَا من شهر رجب. ومولده في ثاني عشر شهر ربيع الآخر سنةَ تسع وثمانين وأربعمائة، وكان عمره سِتًّا وستين سنة تقريبًا، ومدةُ خلافته أربعًا وعشرين سنةً وشهورًا. وكان شيخًا أبيضَ الرأسِ واللحية طويلَها، وكان حليمًا كريمًا عادلاً حسَنَ السيرة جميل الرأْي وافر العقل، شجاعًا مِقدامًا يباشر الحروب بنفسه، كان يحب جَمْع المال. وفي أول خلافته ولَّى القضاء بمدينة السلام لرجل يعرف بابن المرخم[1]، وجعله يتولى عقوبة عماله ووجوه دولته وأخذ أموالهم، فقال بعض الشعراء في ذلك: [من مجزوء الخفيف]

ضَـــخِّـمِــي ويْــكِ والْــطُــمِــي ... وَلِـــيَ ابـــنُ الـــمـــرخَّـــمِ[2]

وَاهِ عـــلـــى الـــحـــكـــم والـــقَـــضَـــا ... وعـــلـــى كـــلِّ مُـــسْـــلِـــم

وأرى الـــمـــقـــتـــفـــي الإمـــا ... م عـــن الـــحـــقِّ قـــد عَـــمِـــي

فبلغ المقتفي ذلك فأخذ الشاعر بنكاله وعذبه وما زاده ذلك إلا تماديًا في حاله.

وهو أول من استبدّ بالعراق منفردًا عن سلطانٍ يكون معه من أوَّلِ أيام الدَّيْلم وإلى هذا الوقت، وأول خليفة تمكن من عسكره وأصحابه وحكم على الخلافة منذ تحكم المماليكُ على الخلفاء في خلافةِ المستنصر بالله وإلى الآن، إلا أن يكون المعتضد بالله. وكان المقتفي يبذل الأموال العظيمة لأصحاب الأخبار في جميع البلاد حتى لا يفوتَه منها شيءٌ، وكانت دعوتُهُ بالعراق والحجاز والشام وخراسان.

---

(١) هو السديد أبو الوفاء يحيى بن سعيد بن يحيى بن المظفر المعروف بابن المرخم الذي صار أقضى القضاة ببغداد في أيام المقتفي قاصدًا وطبيبًا في هذا البيمارستان... (وفيات الأعيان ٣: ١٢٤).

(٢) يقال: ضخمته الشمس: أي لفحته.

ذكر خلافة المستنجد بالله

هو أبو المظفر يوسف بن المقتفي لأمر الله أبي عبد الله محمد بن المستظهر بالله، وأُمه أُم ولد تدعى طاوُس وقيل نرجس، رومية. وهو الخليفة الثاني والثلاثون من الخلفاء بويع له بعد وفاة أبيه في شهر ربيع الأول في سنة خمس وخمسين وخمسمائة وقيل لليلتين خَلَتا من شهر رجب منها والله تعالى أعلم.

قال: وكان للمقتفي حظية وهي أم ولده أبي علي. فلما اشْتَدَّ مَرضُه وأيست منه، أرسلت إلى جماعةٍ من الأمراء وبذلت لهم الإقطاعاتِ الكثيرةَ والأموالَ الجزيلة ليساعدوها على أن يكون ولدُها الأمير أبو علي خليفةً فقالوا: كيف الحيلةُ مع ولي العهد؟ فقررت أنها تقبض عليه إذا دخل، وكان يدخل على أبيه في كلِّ يوم فقالوا: لا بد لنا من أحدِ أرباب الدَّوْلة فوقع اختيارهم على أبي المعالي بن الكيال الهراس فَدَعَوْه إلى ذلك فأجابهم على أن يكون وزيرًا، فبذلوا له ما طلب. فلما استقرت القاعدة بينهم أحضرت عِدَّةً من الجواري وأعطتهن السكاكين وأمرتهن بقتْل ولي العهد المستنجد بالله. وكان له خصيٌّ صغيرٌ يرسله في كل وقت يتعرف أخبارَ والده فرأى الجواري وبأيديهن السكاكين وبيد أبي علي وأمه سيفين، فعاد إلى المستنجد وأخبره.

وأرسلت هي إلى المستنجد تقول: «إن والدك قد حَضَرَتْهُ الوفاةُ فاحضر لتشاهده» فاستدعى أستاذ الدار عضُدَ الدين، وأخذ معه جماعةً من الفراشين، ودخل الدار وقد لبس الدِّرْعَ والسيفُ في يده، فلما دخل ثار به الجواري فضرب واحدةً منهن فجرحها وجرح أُخرى وصاح فدخل أُستاذ الدار والفراشون فهرب الجواري وأخذ أخاه أبا علي وأمَّه فَسَجَنَهُما، وقتل من الجواري وغَرَّق وجلس للمبايعة فبايعه أهلُه وأقاربُه.

وأول من بايعه عمُّه أبو طالب ثم أخوه أبو جعفر بن المقتفي وكان أكبر من المستنجد، ثم بايعه الوزير ابنُ هبيرة، وقاضي القضاة، وأرباب الدولة والعلماء. وخُطِب له في يوم الجمعة، ونُثِرت الدنانيرُ والدراهم.

قال ابنُ هبيرة الوزيرُ عنه: «إنه قال «رأيت رسول الله ﷺ في المنام منذ خمسَ عشرةَ سنةً فقال لي: يبقى أبوك في الخلافة خَمْس عشرة سنة فكان كما قال رسول الله ﷺ في المنام «ثم قال» رأيته قبل مَوْتِ المقتفي بأربعة أشهر، فدخل بي في باب كبير ثم ارْتَقَى إلى رأس جبل وصلَّى بي ركعَتَين وألْبَسني قميصًا ثم قال لي: قل (أللهم اهدني فيمن هديت) وذكر دعاء القنوت».

قال: ولما وَلِي المستنجدُ بالله أقر ابنَ هبيرةَ على وزارته، وأصحابَ الولايات على ولاياتهم، وأزال المكوس والضرائب، وقبض على ابن المرخَّم وأخذ منه مالاً كثيرًا وأخذ كُتُبه فأحرق منها ما كان من علوم الفلاسفة. وقدم عضد الدين ابن رئيس الرؤساء ـ وكان أُستاذ الدار ـ فَمَكَّنه وتقدَّم إلى الوزير بأن يقوم له، وعزل قاضي القضاة علي بن أحمد الدامغاني[١]، ورتَّب مكانه أبا جعفر عبد الواحد الثقفي وخلع عليه.

ذكر ملك الخليفة قلعة الماهكي

وفي شهر رجب سنة سَبْع وخمسين وخمسمائة ملك الخليفة قلعة الماهكي، وسبب ذلك أن صاحبها سنقر الْهَمَذَاني سلَّمها إلى أحد مماليكه ومضى إلى همذان فضعف مملوكه عن حفظها ومقاومة من حولها من الأكراد والتركمان فأُشير عليه بِبيْعِهَا من الخليفة فراسل في ذلك؛ فاستقرَّ بينهما خمسةَ عشر ألف دينارٍ وسلاحٌ ومتاعُ وعِدَّةٌ من القرى فسلَّمها وتسلَّم ما استقرّ له وأقام ببغداد، ولم تزل هذه القلعة من أيام المقتدر بالله بيد التركمان إلى الآن.

ذكر إجلاء بني أسد من العراق

وفي سنة ثمانٍ وخمسين وخمسمائة أمر الخليفة بإهلاك بني أسد أهل الحلة المزْيدِيَّة لِما ظَهَر من فسادهم ولِما كان في نفسه منهم من مساعدتهم للسلطان محمد في حِصار بغداد، فأمر يزدن بن قماج بقتالهم وإخراجهم من البلاد، كانوا منبسطين في البلاد في البطائح. فَتوجَّه إليهم وجمع العساكر الكثيرةَ، وأرسل إلى ابن معروف مقدم المقتفي وهو بأرض البصرة فجاء في خَلْقٍ كثير وحصرهُم وسكَّ[٢] عنهم الماءَ وضيّق عليهم فاستسلموا، فقتل منهم أربعةَ آلافٍ ونادى فيمن بقي «من وُجد في الحلة المْزيدية بعد هذا فقد حلّ دمه فتفرقوا في البلاد، ولم يبْقَ في العراق منهم مَنْ يُعرف، وسُلِّمت بطائحهُم وبلادُهم إلى ابن معروف».

---

(١) هو قاضي القضاة ابن الدامغاني أبو الحسن علي بن أحمد ابن قاضي القضاة أبي عبد الله محمد بن علي الحنفي.. وكان ساكنًا وقورًا محتشمًا حدّث عن ابن الحصين وطائفة وولى القضاء بعد موت قاضي القضاة أبي القاسم الزينبي ثم عزل عند موت المقتفي فبقي معزولاً إلى سنة سبعين وخمسمائة ثم ولي إلى أن مات... (شذرات الذهب ٤: ٢٧٦).

(٢) سكّ الشيء: سدّه.

وفي سنة ستين وخمسمائة في صفر قبض المستنجد بالله على الأمير ثوبة بن العقيلي وكان قد قَرُب منه قُرْبًا عظيمًا حتى كان يخلو معه، وأحبَّهُ محبةً عظيمةً، فَحسَده الوزيرُ ابنُ هبيرة، فوضع كُتُبًا من العجم مع قوم وأمرهم أن يتعرضوا ليؤخَذوا ففعلوا ذلك، وأُخِذوا وأُحْضِروا عند الخليفة.

وأظهروا الكتب بعد الامتناع الشديد فلما وقف الخليفة عليها خرج إلى نهر الملك يتصيَّد وكانت حلل ثوبة على الفرات، فحضر عنده فأمر بالقبض عليه، فقُبض عليه وأُدْخِل بغداد ليلاً وحُبس فكان آخر العهد به فما تمتع الوزيرُ بعده بالحياة، مات بعد ثلاثة أشهر وكان ثوبة من أكمل العرب مروءةً وسخاءً وعقلاً وإجادةً، واجتمع فيه من خلال الكمال ما تفرّق في غيره.

وفيها في جُمادى الأولى توفي الوزير عون الدين يحيى بن محمد[1] بن هبيرة ومولده سنة تسعين وأربعمائة ودفن بمدرسته التي هو بناها للحنابلة بباب البصرة، ولما مات قبض على أولاده وأهله!

وفي سنة ثلاث وستين وخمسمائة استوزر الخليفةُ المستنجد بالله شَرَف الدين أبا جعفر أحمد بن محمد بن سعيد المعروف بابن البلدي، وكان ناظرًا بواسط، وظَهَرَ عن كفاءةٍ عظيمةٍ، فأحضره الخليفة واستوزره وكان عضد الدين أُستاذ الدار قد تحكَّم تحكُّمًا عظيمًا، فتقدَّم أمرُ الخليفة إلى وزيره بكَفِّ يدِه وأيدي أصحابه ففعل ذلك، وَوَكلَ بأخيه تاج الدين وطالبه بحساب نهر الملك وكان يتولاه أيام المقتفي، وكذلك فعل بغيره، فحصَّل أموالاً جَمَّةً وخافه أُستاذ الدار على نفسه فحمل مالاً كثيرًا وأعطاه الورقة التي بخط الخليفة فقال له: تعود إليه وتقول قد أوصلت الْخطَّ إلى الوزير! ففعل ذلك وأحضر أُستاذ الدار قطب الدين ويزدن وأخاه تنامش وعرض عليهم الخط فاتفقوا على قتل الخليفة. فدخل عليه يزدن وقايماز فحملاه إلى الحمام وهو يستغيث وألقياه وأغلقا الباب عليه وهو يصيح حتى مات.

وقبض على الحسين بن محمد المعروف بابن البستي وعلى أخيه الصغير، وكانا ابنَيْ عَمِّ عضد الدين. وكان الصغير عامل البيمارستان فقطع يدَه ورجله؛ فقيل إنه كان

---

(١) هو الوزير عون الدين أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة بن سعيد الشيباني وزير المقتفي وابنه، ولد ٤٩٩ بالسواد ودخل بغداد شابًا فطلب العلم وتفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل وسمع الحديث وقرأ القراءات وشارك في الفنون وصار من فضلاء زمانه... (شذرات الذهب ٤: ١٩١).

يستخرج المال بصنوج كبار ويحمله إلى الديوان بصنجة صحيحة وقيل غير ذلك، وحمل إلى البيمارستان فمات.

ذكر وفاة المستنجد بالله وشيء من أخباره وسيرته

كانت وفاته في تاسع شهر ربيع الآخر سنة ست وستين وخمسمائة ومولده في مستهل شهر ربيع الآخر سنة عشرة وخمسمائة. وكان عمره ستًّا وخمسين سنة وثمانية أيام، ومدة خلافته أحد عشر سنة وشهرًا واحدًا وستة أيام على القول الأول. وكان أسمر، تامَّ القامة؛ طويل اللحية.

وكان سبب موته أنه مرض واشتد مرضه؛ وكان بجانبه أستاذ الدار عضد الدين أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء وقطب الدين قايماز المقتفوي ـ وهما من الأُمراء ببغداد ـ فوصيا الطبيب على أن يصف له ما يقتله فوصف له دخول الحمام فامتنع لضعفه، فأدخله وأغلق عليه بابه فمات. وقيل إنه كتب إلى الوزير... النصراني ابن صفية يأمره بالقبض على أستاذ الدار.

وكان رحمه الله من أحسن الخلفاء سيرةً، عادلاً في الرعية كثير الرِّفق بهم، وأطلق كثيرًا من المكوس حتى لم يترك بالعراق شيئًا منها. وكان شديدًا على أهل العبث والفساد والسعاية قال ابن الأثير الجزري في تاريخه الكامل «بلغني أن المستنجد قبض على إنسان كان يَسْعَى بالناس فأطال حَبْسَه، فشفع فيه بعض خواصِّه، وبذل عنه عشرة آلافِ دينارٍ فقال: أنا أُعطيك عشرة آلاف دينار وتحضر لي آخر مثله أحبسه لأكف شره عن الناس!» ولم يطلقه وَرَدَّ كثيرًا من الأموال على أصحابها رحمه الله.

ذكر خلافة المستضيء بأمر الله

هو أبو محمد الحسن بن المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن المقتفي لأمر الله أبي عبد الله محمد بن المستظهر بالله، وأُمُّه أم ولد أرمينية تدعى غَضَّة وهو الخليفة الثالث والثلاثون من الخلفاء العباسيين، بويع له بالخلافة يومَ وفاة أبيه في التاسع من شهر ربيع الآخر في سنة ست وستين وخمسمائة.

قال: ولما مات المستنجد بالله كان بين الوزير أبي جعفر ابن البلدي وبين أُستاذ الدار عضد الدين وقطب الدين عداوةٌ شديدةٌ لأن المستنجد كان يأمره بأشياء تتعلق بهما فيفعلها فيظنان أنه هو الذي يسعى بهما فلما أُرْجِفَ بمَوْت المستنجد ركب الوزيرُ

ومعه الأُمراءُ والأجنادُ وغيرهم بالعُذْوة ولم يتحققوا مَوْت الخليفة. فأرسل إليه أُستاذ الدار يقول: إن أمير المؤمنين قد خفَّ ما به من المرض وأقبلتِ العافية إليه! فخاف الوزير أن يدخل دارَ الخلافة بالْجُنْد فربما أنكر عليه ذلك، فعاد إلى داره وتفرّق النَّاسُ عنه.

وكان عضد الدين وقطب الدين قد استعدًا لِلْهَرَب لما ركب الوزير خَوْفًا أن يدخلَ الدار فيأْخذهما، فلما عاد أغلق أُستاذ الدار أبوابَ دارَ الخلافة وأظهر موتَ الخليفة، وأحضر ولدَه أبا الحسن محمدًا وبايعه هو وقطب الدين بالخلافة، ولقباه بالمستضيء بأمر الله، وشرطوا عليه شروطًا منها: أن يكون عضد الدين وزيرًا، وابنه جمال الدين أستاذَ الدار، وقطبُ الدين أميرَ العسكر، فأجابهم إلى ذلك، وبايعه أهل بَيْتِهِ البيعةَ الخاصة في يوم وفاة أبيه، وبايعه الناسُ من الغدِ في التاج بيعةً عامة، وأظهر العدل وفرّق أموالاً جليلة المقدار.

ذكر مقتل الوزير أبي جعفر بن محمد المعروف بابن البلدي

قال: ولما علم الوزير بوفاةِ الخليفة سقط في يده وقرع سِنَّه ندَمًا على عوْدِه، وأتاه مَن يستدعيه للجُلوس للعزاء والبيعة للمستضيء، فمضى إلى دار الخلافة فلما دخلها صُرف إلى موضع وقتِل وقُطِّع وأُلْقِي في دجلة، وأخذا جميع ما في داره، فرأيا خطوطَ المستنجد بالله يأمره بالقبض عليهما، وخطُّ الوزير وقد راجَعَهُ في ذلك وصرفه عنه، فنَدِما على قتلِهِ.

وفي سنة سبع وستين وخمسمائةٍ أُقيمت الدعوةُ العباسية بالديار المصرية وخطب للخليفة بها، وانقرضت الدولة العُبَيْدِيَّة المنسوبة إلى العلوية بِخَلْع العاضد لدين الله، وكان ذلك على يد السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله على ما نذكر ذلك مُبَيَّنا ـ إن شاء الله تعالى ـ في أخبار الدولة العُبَيْدِيَّة.

وفيها عزل الخليفة وزيرَه عضد الدين من الوزارة لأن قطب الدين قايماز ألزمه ذلك فلم يمكنه مخالفة، ثم قصد الخليفة إعادتَه في جُمادى الأُولى سنة تسع وستين فثارت الفتنة بين الخليفة وقايماز، وأغلق قايماز باب النوبى وباب العامَّةِ وبقيت دار الخلافة محاصرةً. فأجاب الخليفة إلى ترك وزارته فقال قايماز: لا أقنع إلا بخروج عضد الدين من بغداد! فأمر بإخراجِهِ منها فالتجأ إلى صدر الدين عبد الرحيم بن إسماعيل وهو شيخ الشيوخ وصار في رباطه فأجاره، ثم عاد إلى داره في جُمادى الآخرة.

وفي سنة تسع وستين وخمسمائة زادت دجلة فتجاوزت كلَّ زيادة كانت ببغدادَ منذ بنيت إلى الآن بذراع وكسر. وخاف الناس الغَرَق وفارقوا البلد ونبع الماء من البلاليع، وخُرِّب كثير من الدور وغرق البيمارستان العضدِي، ودخلت المراكب من شبابكيه وكانت قد تقلعت.

وفيها سقط الأمير أبو العباس أحمد ـ وهو الذي صار خليفة ولُقِّب الناصر لدين الله ـ من قبة عالية إلى أرض التاج ومعه غلام له اسمه نجاح، فألقى نفسه بعده وسَلِما جميعًا فقيل لنجاح: لمَ ألقيتَ بنفسك؟ فقال: ما كنت أريد البقاء بعد مَوْلاي! فَرَعى له الأمير أبو العباس ذلك فلما صار خليفةً جعله شرابيًا وحكّمه في الدولة ولقّبه الملك الرحيم عز الدين وخَدمه جميع أُمراء العراق.

وفيها في شهر رمضان وقع ببغداد بَرَدٌ كِبار ما رأى الناس مثلَه فهدم الدُّور وقَتَل جماعةً من الناس والمواشي، فوُزِنت بردةٌ منه فكانت سبعةَ أرطال، وكان عامتهُ كالنارنج[1] يكسر الأغصان، قال ابن الأثير هكذا ذكره أبو الفرج بن الجوزي في تاريخه.

ذكر هرب قطب الدين قايماز من بغداد وعود عضد الدين إلى الوزارة

كان سبب ذلك وابتداؤه أن علاء الدين تنامش ـ وهو من أكابر الأُمراء ببغداد ـ وقطب الدين قايماز زَوْج أُختِهِ سيَّرا عسكرًا إلى العراق في شوال سنة سبعين وخمسمائة فَنَهَبُوا النَّاس وبالغوا في أذاهم، فجاء جماعةٌ منهم إلى بغداد واستغاثوا فلم يُغاثوا لِضَعْفِ الخلافةِ وتحكم قايماز وتنامش على الدولة، فقصدوا جامع القصر واستغاثوا ومنَعوا الخطيب من الخطبة فأنكر الخليفةُ ما جرى، فلم يلتفت قايماز وتنامش إلى قَوْله.

فلما كان في خامس ذي القعدة قصد قايماز دارَ ظهير الدين بن العطار صاحب المخزن ـ وللخليفة به عناية تامة وبينهما صُحبَةٌ ـ فلم يراعِ قايماز الخليفة فيه،

---

(١) النارنج: فارسي معناه أحمر اللون أو الرمان الأحمر وهو شجر ورقه بالنسبة إلى الليمون وغيره فيه ملاسة طيب الرائحة زهره يحصل في الربيع ويمكن بقاء ثمرته مدة العام وأجوده المستدير الأحمر المحبب القشر الخفيف.. وفي قِشره وورقه تفريح عظيم وفي بزره ودهنه وعروقه التي في الأرض نجاة من السموم الباردة وحماضه يكسر الصفراء وشدة الحرارة والعطش، وقشره يسكن المغص والقيء والغثيان... (تذكرة داود الأنطاكي).

واستدعاه فَهَرَب، فأحرق قطب الدين قايماز دارَه وحالف الأُمراءَ على المساعدة والمعاضدة له، وجمعهم وقَصَدَ دار الخلافةِ لِعِلْمِهِ أن ابن العطار فيها.

فلما علم الخليفة ذلك صعد إلى سطح داره وظهر للعامة وأمر خادمًا فصاح وقال للعامة: مالُ قطب الدين لكم ودمُه لي! فقصد الْخَلْقُ كلُّهم دارَ قطب الدين للنهب، فلم يمكنه المُقام لِضِيق الشوارع، وغلبت العامةُ، فهرب من دارِهِ من باب فتَحهُ من ظهرها لكثرة مَنْ على بابها مِنَ الخَلْق. وخرج من بغداد، ونُهِبَتْ دارُه وسُلِبَت نعمته في ساعة واحدة وتبعه تنامش وجماعة من الأُمراء، فنهبت دُورهم وأُحْرِق بعضها، وأُخِذَت أموالهم.

وسار قطب الدين إلى الحلة ومعه مَنِ الْتَحَق من الأُمراء، فسيّر الخليفة إليه شيخ الشيوخ صدر الدين فخَدَعه حتى سار عن الحلة نَحْو المَوْصل على البرّ فَلَحقَه هو ومَنْ معه عَطَشٌ عظيم فهلك أكثرُهم ومات قايماز قبل وصولِه إلى المَوْصل، ودُفن بظاهر باب العمادى وكانت وفاتُه في ذي الحجة. ووصل تنامش إلى الْمَوْصل فأقام مدةً، ثم أمره الخليفة بالقدوم إلى بغداد فسار إليها وبقي بغير إقطاع!

قال: ولما هرب قايماز أُعيد عضد الدين إلى الوزارة، وقال بعض الشعراء في قطب الدين قايماز وتنامش بن قماج: [من الكامل]

إنْ كـنـت مـعـتـبـرًا بـمُـلْـكٍ زائـلٍ	وحـوادثٍ عـنـقـيَّـة الإدلاج
فـدع الـعـجـائـبَ والـتـواريـخ الأُلـى	وانـظـرْ إلـى قَـيْـمـازَ وابـنِ قـمـاج
عَـطَـفَ الـزّمـان عـلـيـهـمـا فسقاهُـمـا	مِـنْ صـرْفِـهِ كـأسًـا بـغـيـر مـزاج[1]
فـتَـبَـدَّلـوا بـعـد الـقُـصـورِ وظِـلِّـهـا	ونَـعـيـمـهـا بِـمَـهَـامِـهِ وفِـجـاج[2]
فَـلْـيَـحْـذَرِ الـبـاقـون مـن أمـثـالِـهـا	نـكـبَـاتِ دهـرٍ خـائـنٍ مِـزْعـاج

* * *

قال: وكان قطب الدين كريمًا طَلْقَ الوجه، محبًّا للعدل والإحسان، كثيرَ البذل للمال، وإنما كان يحمله على ما يقع منه تنامش بغير إرادته.

وفي سنة إحدى وسبعين وخمسمائة وَلَّى الخليفةُ المستضيءُ حَجَبَةَ البابِ أبا نصر علي بن الناقد وكان الناس تلقبه في صغره قنبرًا، فصار الناس يصيحون به بهذا

---

(١) صروف الدهر: حوادثه ومصائبه.

(٢) المهامه: واحدتها المهمة، وهي المفازة البعيدة؛ أو البلد المقفر. والفج: الطريق الواسع البعيد، جمع فجاج.

اللقب إذا ركب. فأمر أن يركبَ معه جماعةٌ من الأتراك يمنعون الناس من ذلك، فامتنعوا فلما كان قبل العيد بثلاثة أيام خُلِع عليه ليركب في الموكب، فاشترى جماعةٌ من أهل بغداد شيئًا كثيرًا من القنابر[١] وعزموا على إرسالها في الموكب، فأُنهِيَ ذلك إلى الخليفة فعزله وولّى ابن المعوج.

وفيها قبض الخليفة على عماد الدين صندل المقتفوي أُستاذ الدار ورتَّب مكانه أبا الفضل هبة الله بن علي بن هبة الله بن الصاحب[٢].

ذكر مقتل الوزير عضد الدين وولاية ظهير الدين بن العطار

كان مقتلُه رحمه الله في رابع ذي القعدة سنة ثلاثٍ وسبعين وخمسمائة، وهو أبو الفرج محمد بن عبد الله بن هبة الله بن المظفر بن رئيس الرؤساء أبي القاسم بن المسلمة وسبب مقتله أنه عزم على الحج وعبر دجلةَ للمسير ومعه أربابُ المناصب وهو في موكب عظيم، وتقدم إلى أصحابه أن لا يمنعوا عنه أحدًا، فلقيه إنسان كهل وقال: أنا مظلوم!

وتقدَّم إليه يسمع كلامَهُ فضربه بسكين في خاصرته، فصاح الوزير: قتلني! ووقع إلى الأرض وسقطت عمامته، فغطَّى رأْسَه بكمه وضرب الباطنيَّ بسيف، وعاد إلى الوزير فضربه بسكين وأقبل صاحبُ الباب ابن المعوج لينصرَ الوزير، فضربه الباطنيُّ بسكين، وقيل بل ضربه رفيق له، وكان له رفيق ثالث فصاح وبيدِهِ سكين فقُتِل ولم يصنعْ شيئًا. وأُحْرِقَ الثلاثة، وحُمل الوزير إلى دارٍ له هناك، وحُمِلَ الحاجبُ إلى بيته فمات هو والوزير.

وكان الوزير[٣] قد رأى في منامِه أنه يعانق عثمان بنَ عفان، قال ابن الأثير: وحكَى عنه ولدُه أنه اغتسل قبل خروجه وقال: هذا غسل الإسلام وأنا مقتول بلا شك!

---

(١) القنابر: جمع القنبراء، وهي من الطيور التي على رأسها فضل ريش قائمة مثل ما على رأس القنبر... (اللسان مادة قنبر).

(٢) هو مجد الدين بن الصاحب هبة الله بن علي ولي إسناد راية المستضيء ولما ولي الناصر رفع منزلته وبسط يده وكان رافضيًا سبابًا تمكن وأحيا شعار الإمامية وعمل كل قبيح إلى أن طلب إلى الديوان فقتل وأخذت حواصله... (شذرات الذهب ٤:٢٧٩).

(٣) روى الوزير أبو الفرج عن ابن الحصين وجماعة ووزر للمستضيء وكان جوادًا سريًا معظمًا مهيبًا... (شذرات الذهب ٤:٢٤٥).

وكان له معروف كثير وكانت داره مجمعًا للعلماء وسمع الحديث، وختمت أعماله بالشهادة وهو على قَصْدِ الحج رحمه الله. ولما قتل حكم في الدولة ظهير الدين أبو بكر بن منصور المعروف بابن العطّار، وكان حسنَ السيرة وتمكن تَمَكُّنًا عظيمًا.

ذكر فتنة ببغداد وهَدْم بيعة اليهود

وفي سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة كانت الفتنة ببغداد، وسببها أن قومًا من مسلمي المدائن حضروا إلى بغداد وشَكَوْا من يهود المدائن وقالوا: لنا مسجد نؤذِّن فيه ونصلِّي وهو مجاور لِبَيْعَة اليهود، فقال لنا اليهود قد آذيتمونا بِكَثْرَةِ الأذان وأنهم اختصموا هم والمؤذن، وكانت فتنة استظهر فيها اليهودُ. فلما شَكَوْا أَمَرَ ابنُ العطّارِ بِحَبْسِهِم فَحُبِسُوا، ثم خرجوا فقصدوا جامعَ القصر واستغاثوا قبل صلاة الجمعة فخفَّف الخطيبُ الخطبةَ والصلاةَ، فعادوا يستغيثون فأتاهم جماعةٌ من الجند ومنعوهم، فغضب عامة بغدادَ لذلك واستغاثوا، وخلعوا طوابيق[1] الجامع ورجموا الجُنْدَ بها، ثم قصدوا دكاكين المخلطين لأن أكثرهم يهودٌ فنهبوها. فأراد حاجبُ الباب مَنْعَهم فرجموه فهرب منهم، وضربوا الكنيسةَ التي عند دار البساسيري، وأحرقوا الورقَ الذي فيها الذي يزعم اليهود أنه التوراة. واختفى اليهودُ فأمر الخليفةُ بنَقْض الكنيسة التي بالمدائن وتُبنَى مسجدًا ونُصِبَ بالرحبةِ أخشاب لِيُصْلَبَ عليها أقوامٌ من المفسدين فظنَّها العامةُ تخويفًا لهم لأجْلِ ما فعلوه باليهود، فجعلوا عليها جرذانًا ميتة، فأُخْرِج جماعةٌ من الحبس من اللصوص فصُلِبوا عليها وسكنت الفتنة!.

ذكر وفاة المستضيء بأمر الله

كانت وفاته لليلتين خلتا من ذي القعدة سنة خمس وسبعين وخمسمائة، ومولده في سنة ستٍّ وثلاثين، وكان عمره أربعين سنة تقريبًا، ومدة خلافته تِسْعُ سنين وسبعة أشهر إلا أيامًا. وكان رحمه الله عادلاً حسنَ السيرة في الرعية، كثير البذل للأموال، حليمًا، قليل المعاقبة على الذنوب، محبًّا للعفو والصَّفْح عن المذنبين، وأولاده أبو العباس أحمد وأبو منصور هاشم.

---

(١) الطوابيق: جمع الطابق: الآجر الكبير.

ذكر خلافة الناصر لدين الله

هو أبو العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله وأمُّه أُمُّ ولدٍ تركية اسمها زمُرُّد وهو الخليفة الرابع والثلاثون من الخلفاء العباسيين، بويع له بالْبَيعَةِ العامَّةِ في يوم الأحد ثاني ذي القعدة سنة خمس وسبعين وخمسمائة، وقام له بالبيعة ظهيرُ الدين بن العطار وبايع له، فلما تَمَّتِ البيعةُ صار الحاكم في الدولة أُستاذ الدار مجد الدين الصاحب، وسيَّر الرسل إلى الآفاق يأخذ البيعة له.

ذكر القبض على ابن العطار وموته

وفي سابع ذي القعدة قبض على ظهير الدين بن العطار الوزير وَوُكِلَ به في داره، ثم نقل إلى التاج وقُيِّد وأُخِذَت أموالُه وطُلِبَتْ ودائعُه وأُخرج ميتًا في ليلة الأربعاء ثاني عشر الشهر على رأس حمَّال. فغمز به بعضَ الناس فثار به العامَّةُ وأَلْقَوْه عن رأس الحمال وكشفوا عن سَوْأته، وشدُّوا في ذكره حَبْلاً وسحبوه في البلد وكانوا يضعون بيده مغرفة ويقولون: وقع لنا مولانا! إلى غير ذلك من الأفعال الشنيعة، ثم خلص منهم ودفن.

قال: وفعلوا به هذه الأفعال القبيحَة مع حُسْن سيرته فيهم وكَفِّه عن أموالهم وأعراضهم.

وفي سنة سبع وسبعين وخمسمائة كثرت المنكرات ببغداد فأقام حاجب الباب جماعة لإراقة الخمور وأَخْذِ المفسدات، فبينما امرأة منهن في موضع علمت بمجيء الحاجب فاضطجعت وأظهرت أنها مريضةٌ وارتفع أنينها، فرأَوْها على ذلك فانصرفوا عنها، فهمّت بالقيام فلم تستطع وعجزت وجعلت تصيح: الكرب الكرب! إلى أن ماتت.

وفي سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة قَبَضَ الخليفةُ على أُستاذ الدار مجد الدين أبي الفضل بن الصاحب وقَتَلَه، وكان قد تحكَّم في الدولة ليس للخليفةِ معه حُكْمٌ. وكان الذي سَعَى به عند الخليفة وقَبَّح آثاره رجلٌ من صنائعه وأصحابه يقال له عبيد الله بن يونس فقبض عليه الخليفة وقتله، وأخذ أمواله وكانت عظيمة. وكان رحمه الله حسن السيرة، واستوزر الخليفة بعدَه أبا المظفر عبيد الله بن يونس في شوال، ولقبه جلال الدين، ومشى أكابرُ الدولة في ركابه حتى قاضِي القضاة، وكان ابن يونس هذا من شهوده، فكان يمشي ويقول: لَعَنَ الله طول العمر!.

ذكر انهزام عسكر الخليفة من طغرل

كان طغرل السَّلجُقي قد قوِيَ أمره في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وكثر جَمْعُه، وأرسل إلى بغداد يقول: أُريد أن يتقدم إليَّ الديوان بعمارة دار السلطنة لأنْزلَ فيها إذا قدمت! فرد الخليفة رسولَه بغير جواب، وأمر بنَقْض دار السلطنة فَهدِّمَتْ إلى الأرض وعفى أثرها ووصل رسولُ قزل ـ وهو صاحب أران[1] وأذربيجان وهمذان وأصفهان والريّ وما بينهما ـ ببذل الطاعة والخدمة ويستنجد الخليفةَ على طغرُل، فأكرم الخليفةُ رسولَه ووعدَه بتجهيز العساكر إليه، وجهَّزَها في سنة أربع وثمانين وخمسمائة، وقدم عليها الوزير جلال الدين عبيد الله بن يونس وسيّرهم لمساعدة قزل وكف السلطان طغرل عن البلاد، فسار العسكر في ثالث صفر إلى أن قارب همَذان، فلم يصل قزل إليهم. وأقبل طغرل في عساكره، والتقوا في ثامن شهر ربيع الأول بمرج عند همذان، فلم تثبت عساكر الخليفة وانهزمت، وبقي الوزيرُ قائمًا ومعه مصحف وسيف، فأُسِر وأُخذ ما معه من خزانة وسلاح وغيره، وعاد العسكر إلى بغداد متفرقين.

وفي سنة خمس وثمانين وخمسمائة خُطِبَ لولي العهد أبي نصر محمد ابن الخليفة الناصر لدين الله ببغداد، ونثرت الدنانيرُ والدراهمُ، وأُرْسِلَ إلى البلاد في إقامة الخطبة له.

وفيها في شوال ملك الخليفة تكريت، وسبب ذلك أن صاحبَها الأمير عيسى قتله إخوته وملكوا القلعَة بعده، فسيّر الخليفةُ إليهم عسكرًا فحصروها وتسلموها، ودخل أصحابُها إلى بغداد فأُعطوا إقطاعًا.

وفي سنة سِتٍّ وثمانين وخمسمائةٍ في شهر ربيع الأول ملك الخليفةُ الناصر لدين الله حديثة عانة، وكان قد سيَّر إليها جيشًا في سنة خمس وثمانين وخمسمائة فحاصروها وقاتلوا عليها شديدًا، وقتل من الفريقين خلْقٌ كثير، ودام الحصار فضاقتِ الأقواتُ على أهْلِها، فسلموها على إقطاع عَيَّنوه، ووصل صاحبُها وأهلُها بغدادَ وأُعطوا إقطاعًا ثم تفرّقوا في البلاد، واشتدت بهم الحاجةُ حتى تعرَّض بعضهم للسؤال وبعضهم خدَمَ الناسَ.

---

(١) أران: بالفتح وتشديد الراء وألف ونون: اسم أعجمي لولاية واسعة وبلاد كثيرة، منها جنزة، وهي التي تسميها العامة كنجة، وبرذعة، وشمكور، وبيلقان، وبين أران وأذربيجان نهر يقال له الرس، كل ما جاوره من ناحية المغرب والشمال، فهو من أران. . . (معجم ياقوت).

وفي سنة تسع وثمانين وخمسمائة أمر الخليفةُ الناصر لدين الله بعمارة خزانة الكتب بالمدرسة النظامية ببغداد، ونَقَل إليها من الكتب النفيسة أُلوفًا لا يُقْدَرُ على مِثلِها.

وفيها في شهر ربيع الأول كملت عمارة الرباط الذي أمر الخليفة بإنشائه بالحريم الظاهري غربي بغداد على دجلة.

وفيها ملك الخليفةُ قلعةً من بلاد خوزستان، وسبب ذلك أن صاحبَها سوسيان بن شملة جعل عليها دِزدَارًا فأساء السيرة مع جندها فغدر به بعضهم فقتله وأرسل إلى الخليفة، وأرسل إليها وملكها.

وفيها انْقَضَّ كوكبان عظيمان بعد طلوع الفجر واصطدما وسمع صوت هدَّة عظيمة وغلب ضوؤهما ضوءَ القمر والنهار.

وفي سنة تسعين وخمسمائة قتل السلطان طغرل السلجقي في حرب كانت بينه وبين خوارزم شاه علاء الدين، وملك خوارزم شاه البلاد.

ذكر ملك الخليفة خوزستان

وفي سنة تسعين أيضًا خَلَع الخليفة الناصر لدين الله على نائب الوزارة مؤيد الدين أبي عبد الله محمد بن علي المعروف بابن القصاب خِلَعَ الوزارةِ، وسار في شهر رمضان من السنة إلى بلاد خوزستان بالعساكر. وقد كان قد خَدَم بها أولاً وعرفها، فلما ولي نيابة الوزارة ببغداد أشار على الخليفة الناصر لدين الله أن يرسلَه بعسكر ليملكها. واتَّفق وفاة صاحِبها ابن شملة التركماني واختلاف أولاده، فأرسل بعضُهم إلى مؤيد الدين يستنجده، فَقَوِيَ طَمَعُهُ فيها، فسار إليها ودخلها في سنة إحدى وتسعين، وملكها في المحرّم منها، وملك غيرها من البلادِ والقلاع: منها قلعة الناظر، وقلعة كاكرد، وقلعة لاموج، وغيرها من القلاع والحصون، وأنفذ بني شملَة التركماني أصحاب خوزستان إلى بغداد فوصلوا في ربيع الأول.

ذكر ملك الوزير همذان وغيرها من بلاد العجم

قال: ثم ملك الوزير مؤيد الدين المذكور همذان في شوال سنة إحدى وتسعين وخمسمائة من عسكر خوارزم شاه وولده، فتوجه الخوارزميون إلى الرَّيِّ فتبعهم الوزيرُ

ففارقوها من غير قتال وتوجهوا إلى دامغان وبِسْطام[١] وجرجان. فعاد عسكرُ الخليفة إلى الريّ فأقاموا بها، ثم رحل الوزيرُ إلى هَمَذَان فأقام بها نحو ثلاثة أشهر وأتته رسلُ خوارزم شاه بِطَلَب إعادة البلاد وتقرير قواعد الصلح فلم يُجِبِ الوزيرُ إلى ذلك. فسار خوارزم شاه محمد بن تكش إلى همذان فوجد الوزير قد توفي في شعبان، فوقع بينه وبين عسكر الخليفة الناصر لدين الله مصافٌ في نصف شعبان سنة اثنتين وتسعين، فقُتِل من العسكرَيْن خلقٌ كثير، وانهزم عسكرُ الخليفة، وغنم الخوارزميون منهم شيئًا كثيرًا، وملك خوارزم شاه همذان ونبش الوزيرَ وقطع رأسَه وسيّره إلى خوارزم وأظهر أنه قتله في المعركة، ثم رجع خوارزم شاه إلى خراسان لموجب عَرَضَ له.

ذكر ملك عسكر الخليفة أصفهان

وفي سنة إحدى وتسعين جَهَّزَ الخليفةُ جيشًا وسيَّره إلى أصفهان، ومقدم الجيش سيف الدين طغرل فقطع بلد اللحف[٢] من العراق، وكان بأصفهان عسكر الخوارزم شاه مع ولده، وأهل أصفهان يكرهونهم. فكاتب صدر الدين الخجندي رئيس الشافعية الديوانَ العزيزَ ببغداد يبذل من نَفْسِه تسليمَ البلد إلى مَنْ يصل إلى الديوان العزيز بالعسكر. فلما وصلت العساكر ظاهر أصفهان فارقها العسكر الخوارزمي إلى خراسان وتبعهم عسكرُ الخليفة، فأخذوا من قدروا عليه من ساقةِ العسكر، ودخل عسكر الخليفة إلى أصفهان وملَكوها.

قال: واجتمع مماليك ابن البهلوان وقدَّموا على أنْفُسِهم كوكجه وهو من أعيان البهلوانية، واستولوا على الرَّيِّ وما حَوْلَها من البلاد، وساروا إلى أصفهان لإخراج الخوارزميةِ منها، فسمعوا بوصول عسكر الخليفة إليها. فأرسل إلى طغرل مملوك الخليفة يعرضُ نفسَه على خدمة الديوان وأظهر العبوديةَ وأنه إنما قصد أصفهان في طلب العسكر الخوارزمي، وأنه ساق في طلبهم فلم يدركهم.

قال: ثم سار عسكر الخليفة من أصفهان إلى همذان، وساق كوكجه خَلْفَ العسكر الخوارزمي إلى بلاد الإسماعيلية، وعاد فقصد أصفهان وملكها. فأرسل إلى بغداد يسأل أن تكون له الريّ وجواره وساوة[٣] وقم وقاجان وما ينضم إليها، وتكون

---

(١) بسطام: مدينة كبيرة على جادة الطريق إلى نيسابور بعد دامغان بمرحلتين وهي بقومس.

(٢) اللحف: هو واد بالحجاز يقال له لحف عليه قريتان جبلة والستارة... واللحف: صقع من نواحي بغداد سمي بذلك لأنه في لحف جبال همذان ونهاوند وتلك النواحي.

(٣) ساوة: مدينة بين الريّ وهمذان في وسط وأهلها سنية شافعية... (معجم ياقوت).

أصفهان وهمذان وزنجان وقزوين لديوان الخليفة. فأُجيب إلى ذلك، وكتب منشوره بما طلب، وأُرسِلت إليه الخلع، فعظم شأنه وقَوِيَ أمرُه وكثُرت عساكره.

وفي سنة إحدى وستمائة يوم الجمعة رابع عشر جُمادى الآخرة قُطِعَت خطبة وليّ العهد أبي نصر ابن الخليفة الناصر لدين الله، وذلك أنه أظهر خَطَّه بدار الوزير نصير الدين الرازي إلى أبيه يتضمن الْعجْز عن القيام بولاية العهد، ويطلب الإقالة، وشَهِدَ عَدلان أنه خطه وأن الخليفة أقاله، وعُمِل بذلك محضر شَهِدَ فيه القضاة والعلماء والعدول والفقهاء.

وفي سنة أربع وستمائة عُزِل وزير الخليفة نصير الدين ناصر بن مهدي العلوي، وكان من أهل الدين. قدم إلى بغداد لما مَلَك الوزير ابن القصَّاب الرَّيَّ، فَلَقِيَ نصير الدين من الخليفة قبولاً فجعله نائب الوزارة، ثم استوزره وجعل ابنَه صاحبَ المخزن. فلما كان في الثاني والعشرين من جُمادى الآخرة، عُزل وأُغلق بابُه. وسبب عَزْلِه أنه ساءات سيرته مع أكابر مماليك الخليفة حتى هَرَبَ من يده أميرُ الحج مظفر الدين سنقر المعروف بوجه السبع إلى الشام في سنة ثلاثٍ وستمائةٍ وكتب إلى الخليفة أن هذا الوزير لا يُبقي في خدمة الخليفة أحدًا من مماليكه، ولا شك أنه يريد أن يدَّعي الخلافة، وأكثرَ النَّاسُ الْقَوْلَ في ذلك وقالوا فيه الشعر، فمنه قول بعضهم: [من الطويل]

ألا مبلغٌ عنّي الخليفة أحْمَدًا	تَوَقَّ وُقِيتَ السُّوءَ ما أنت صانعُ
وزيرُك هذا بَيْنَ أمرَيْنِ فيهما	فَعالُك يا خيرَ البَرِيَّةِ ضائِعُ
فإن كان حقًّا من سُلالةِ أحمدٍ	فهذا وزيرٌ في الخلافةِ طامِعُ
وإنْ كان فيما يَدَّعِي غيْرَ صادقٍ	فَأَضْيَعُ ما كانت لَدَيه الصَّنائعُ

فعزله، وقيل في سبب عَزْلِه غير ذلك. ولما عزل عاد أمير الحج من مصر وعاد قشتمر، وأُقيم في نيابة الوزارة فخر الدين أبو المنذر محمد بن أمسنا الواسطي إلا أنه لم يكن متحكمًا.

وفيها أطلق الخليفةُ جميع حقّ البيع، وما يؤخذ من أرباب الأمتعة من المكوس من سائر المبيعات، وكان مبلغًا كبيرًا. وسبب ذلك أن ابنة عز الدين نجاح الشرابي توفيت فاشْتَرى بقرةً لتذبح ويتصدق بلحمها، فرفعوا في حسابها مؤونة البقرة ـ وكانت كثيرة ـ فوقف الخليفةُ على ذلك، فأمر بإطلاق المؤونة جميعًا.

وفيها في شهر رمضان أمر الخليفة ببناء دور بمحال بغداد يفطر فيها الفقراء وسُمِّيت دور الخلافة.

وفي سنة ستٍّ وستمائة في شهر ربيع الأول عُزل فخر الدين بن أمسينا عن نيابة الوزارة، وأُلزِم بيتَه، ثم نُقِلَ إلى المخزن، وولي بعده لنيابة الوزارة مكين الدين محمد بن محمد بن القمي كاتب الإنشاء ولقب مؤيد الدين، ونقل إلى دار الوزارة.

وفي سنة اثنتي عشرة وستمائة في العشرين من ذي القعدة توفي الملك المعظم أبو الحسن علي ولد الخليفة الناصر لدين الله - وهو الولد الصغير - فحصل للخليفة عليه ألم عظيم لم يسمع بمثله، وأمر الخليفةُ أن لا يعزُّوه به وكانت له جنازة عظيمة لم يُسْمَعْ بمثلها، ولم يبقَ ببغداد منزل إلا وفيه نَعْيٌ.

ذكر وفاة الناصر لدين الله
وشيء من أخباره وسيرته

كانت وفاته في آخر ليلة من شهر رمضان سنة اثنتين وعشرين وستمائة، وكانت عِلَّته عشرين يومًا إصابةَ دوسنطاريا[1]. وكانت مدة خلافته ستًّا وأربعين سنةً وعشرة أشهر وثمانيةً وعشرين يومًا، قال ابن الأثير: وكان قبيح السيرة في رعيته ظالمًا، فَخُرِّبَ في أيامه العراقُ وتفرَّق أهله في البلاد، فأخذ أموالهم وأملاكَهم. وكان كثير التلَوُّن يفعل الشيء وضِدَّه، فمن ذلك أنه عمل دور الضيافة ببغداد ثم قَطَعها، ثم عمل دارًا لضيافة الحج وأبطلها، وأطلق بعضَ المكوس التي جددها ببغداد ثم أعادها، وجعلَ جُلَّ همه في رمْي البندق والطيور المناسيب وسراويلات الفُتُوَّة، وبطل الفتوة من البلاد أجمع إلا من لَبِس منه، ومنع الطيور المناسيب لغيره إلا ما يؤخذ من طيورِه، ومنع من الرَّمْي بالبندق إلا من ادَّعى له وانتسب إليه. فأجابه النَّاسُ إلى ذلك إلا رجلًا واحدًا يقال له ابن السفت فإنه فارق العراق والتَحق بالشام فأرسل إليه يرغبه بالمال الجزيل ليرمي عنه وينتسب إليه فأبى. فأنكر عليه بعض أصحابه ذلك فقال: يكفيني افتخارًا أنَّ كل رام في الدنيا رمى الخليفة إلا أنا! والعجم ينسبون إلى الناصر أنه هو الذي راسل التتار وجرَّأهم على البلاد، وهذه المصيبة العظمى إن كانت!.

---

(١) دوسنطاريا: يونانية معناها إسهال الدم وأكثرهم يذكر هذه العلة في أمراض الكبد لا لاختصاصها بل لخطرها هناك وبعضهم يذكرها في الأمعاء... وبالجملة فيه علة خطرة لمضادتها الحياة في إخراج الدم الذي به القوام... (تذكرة داود الأنطاكي).

ذكر خلافة الظاهر بأمر الله

هو أبو نصر محمد بن الناصر لدين الله أبي العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله، وهو الخليفة الخامس والثلاثون من الخلفاء العباسيين. بويع له البيْعة العامَّةَ بعد وفاة والده الناصر لدين الله في شوال سنة اثنتين وعشرين وستمائة، وكان قد خلع من ولاية العهد وقطِعت خطبتُه كما تقدّم، وإنما فعل ذلك أبوه لِمَيْلِهِ إلى ولده الصغير، فلما مات اضطُر إلى إعادته لولاية العهد.

قال: ولما ولِيَ الخلافةَ أظهر العدْل والإحسان وأمر بإبطال المظالم وكَفِّ الأيْدِي عن الناس، وأعاد على الناس ما كان أبوه قد اغْتَصبه من أموالِهم وأملاكهم، وأبطل المكوس والحوادث. فمن ذلك أن المخزن كان له صنجة[1] للذهب تزيد على صنجة البلد نصْف قيراط في الدينار، فيقبضون بها المال ويصرفون بصنجة البلد، فسمع بذلك فخرج خطه للوزير أوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾ إلى قوله: ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥﴾ [المطففين: ١ ـ ٥] قد بلغَنا الأمر كذا وكذا فتعاد صنجة المخزن إلى الصحيحة المتعامل بها. فكتب إليه بعض النواب يقول «إن هذا مبلغ كبير وقد حسبناه فكان في السنة الماضية خمسةً وثلاثين ألف دينار» فأعاد عليه الجواب بالإنكار ويقول: لو كان ثلاثمائة ألف دينار وخمسين ألفًا يطلق! وأطلق زيادةَ صنجة الديوان وهي في كل دينار حبة، وتقدم إلى القاضي أنَّ كل من عرض كتابًا قديمًا بمِلْكٍ صحيح يعيده إليه من غير إذْنِهِ. وأقام رجلًا صالحًا لولاية الحشري وبيت المال وكان حنبليًّا فقال: إن مذهبي أن أُورث ذي الأرحام فإن أذن أميرُ المؤمنين أن أفعلَ ذلك ولِيتُ وإلا فلا! فقال أعط كلَّ ذي حقٍّ حقَّه واتَّقِ اللّهَ ولا تَتَّقِ سواه! وأبطل مطالعات حراس الدروب ببغداد بأخبارِ الناس وقال «لا يُكتب إلينا إلا فيما يتعلق بمصالح دولتنا».

ومنه أنه لما وَلِيَ الخلافةَ وصل صاحبُ الديوان من واسطِ وكان وُجِّه في خلافةِ الناصر لتحصيل الأموال، فأحضر ما يزيد على مائةِ ألف دينارٍ وطالع بذلك، فأعاد الخليفة الظاهر الجواب بإعادة المال إلى أربابه، فأُعيد إليهم. وأطلق مَنْ كان في السجون وأمر أن يُحمل إلى القاضي عشرة آلاف دينار يوفي بها دَيْنَ مَنْ هو في سِجْنِ الحاكم على شيءٍ يعجز عنه. وتصدَّق في ليلة عيد الفطر وفرَّق في العلماء وأهل الدين مائةَ ألف دينار، ولم تطُل مدَّته في الخلافة.

---

(١) الصنجة أو السنجة: ما يوزن به كالرطل والأوقية.

وكانت وفاتُه في رابع عشر رجب سنة ثلاث وعشرين وستمائة، فكانت مدةُ خلافته منذ أفضى إليه الأمر تسعة أشهر وأربعة عشر يومًا. قال: وأخرج قبل وفاته توقيعًا بخطِّه إلى الوزير ليقرأه على أرباب الدولة فقال الرسول: إنَّ أميرَ المؤمنين يقول: ليس غرضنا أن يقال بَرَزَ مرسومٌ أو نَفذ مثال لا يبين له أثر، بل أنتم إلى إمام فعَّال أحوجُ منكم إلى إمام قوَّال! فقرأ المرسومَ فإذا فيه بعد البسملة «اعلموا أنه ليس إمهالُنا إهمالاً ولا إغضاؤنا إغفالاً ولكن نبلوكم أيكم أحسن عَمَلاً، وقد غفرنا لكم ما سَلف من إخراب البلاد وتشريدِ الرعايا وتقبيحِ الشنعة وإظهارِ الباطل الجَلِيِّ في صورةِ الْحَسَن الْخَفِيِّ حيلة ومكيدة، وتسمية الاستئصال والاحتياج استيفاءً واستدراكًا لأغراض انتهزتم فرصَته مختلسةً من براثن لَيْثٍ باسلٍ وأنياب آسد مهيب، تتفقون بألفاظ مختلفة على معنى واحد، وأنتم أُمناؤه وثقاته فتميلون إلى هواكم، وتمزجون باطِلَكم بِحَقِّه فيطيعكم وأنتم له عاصون، ويوافقكم وأنتم له مخالفون. والآن فقد بدل الله سبحانه بخوفكم أمنًا، وبفقركم غِنًى، وبباطلكم حقًّا. ورزقكم سلطانًا يُقيل الْعَثرةَ ولا يؤاخِذ إلا مَنْ أصَرَّ، ولا ينتقم إلا ممن استمر، يأمركم بالعدل وهو يريده منكم وينهاكم عن الجَوْر وهو يكرهه لكم، يخاف الله تعالى فيخوفكم مَكْرَه ويرجو الله تعالى ويرغبكم في طاعته فإن سلكتم مسالك نواب خلفاء الله في أرضه وأُمنائه على خلقه وإلاَّ هلكتم، والسلام» قال: ووجد في داره رقاع مختومة لم يَفْتَحها فقيل له: ما عليك لو فتحتها! فقال: لا حاجة لنا فيها كلها سعايات!.

ذكر خلافة المستنصر بالله

هو أبو جعفر المنصور ولُقِّب في خلافته بالمستنصر بن الظاهر بأمر الله أبي نصر محمد بن الناصر لدين الله أبي العباس أحمد، وهو الخليفة السادس والثلاثون من الخلفاء العباسيين. بويع له بالخلافة بعد وفاة أبيه الظاهر بأمر الله في رابع عشر شهر رجب سنة ثلاثٍ وعشرين وستمائة، فسلك من العدل والخير والإحسان مسلك والده، ونادَى بإفاضة العَدْلِ وأن يطالع الناس بحوائجهم. ولما كان أول جمعة أتت في خلافته أراد أن يصلّي الجمعة في المقصورة التي يصلّي فيها الخلفاء فقيل له إن المطبق الذي يَسْلُك إليها فيه خَراب لا يُسْلَك فركب فرسًا وسار إلى الجامع ظاهرًا للناس بخادم وركاب دارٍ وعليه قميص أبيض وعمامة بيضاء بسكاكين حرير، ولم يترك أحدًا يمشي في خُدْمته. وكذلك فعل في الجمعة الثانية حتى صلح المطبق!

وفي سنة خمس وثلاثين وستمائة كانت وقعةٌ بين التتار وعساكر الخليفة، وكان مقدم العسكر الخليفتي[١] جمال الدين بكلك الناصري. وقتل من الطائفتين خلق كثير، فانهزم عسكر الخليفة وهو أول مصاف كان بين التتار وعسكر الخلفاء، ودامت أيام المنتصر إلى سنة أربعين وستمائة.

وكانت وفاتُه بكرةَ يوم الجمعة لعشر خَلَوْن من جُمادى الآخرة منها، وكان سبب وفاتِه أنه فُصِد بمبضعٍ مسموم فَتُوفي. وكانت مُدَّة خلافته سبعَ عشرةَ سنةً إلا ثلاثةً وثلاثين يومًا، وكان الناسُ في زمن خلافته في شُغْلٍ شاغلٍ عن ضبط أيامه بالتاريخ، لما دَهَمَهم من حادثة التتار. فلذلك اخْتَصَرْنا أيامَه وستَرِد أخبارُ التتار وخروجُهم وما اسْتَوْلوْا عليه من الممالك وما فعلوه بأهل البلاد مبيَّنًا عند ذكرنا للدولة الخوارزمية والجنكزخانية إن شاء الله تعالى.

ذكر خلافة المستعصم بالله

هو أبو أحمد عبد الله بن المستنصر بالله أبي جعفر المنصور بن الظاهر بأمر الله أبي نصرٍ محمدِ بنِ الناصر لدين الله أبي العباس أحمدَ بن المستضيء بأمر الله أبي محمدٍ الحسن بن المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن المقتفي لأمر الله أبي عبد الله بنِ المستظهر بالله أبي العباس أحمدَ بنِ المقتدي بأمر الله أبي القاسم عبد الله ابن ذخيرةِ الدِّين أبي العباس أحمدَ بنِ القائم بأمر الله أبي جعفر عبد الله بن القادر بالله أبي العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر بالله أبي الفضل جعفر بن المعتضد بالله أبي العباس أحمد بنِ الموفق بالله أبي أحمد طلحة - وهو الملقَّب بالناصر - ولم يَلِ الخلافة - ابن المتوكل على الله أبي الفضل جعفر بن المعتصم بالله أبي إسحاق محمد بن الرشيد أبي محمد هارون بن المهدي أبي عبد الله محمد بن أبي جعفر المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس رضي الله عنه ابن عبد المطلب، وهو الخليفة السابع والثلاثون من الخلفاء العباسيين، بويع له بالخلافة بعد وفاة أبيه المستنصر بالله في يوم الجمعةِ لِعَشْر خلون من جُمادى الآخرة سنة أربعين وستمائة.

وكان مُتَدَيِّنًا متمسكًا بمذهب السُّنَّةِ والجماعةِ، وحَسَّنَ له أصحابه جَمْعَ الأموال والاقتصار على بعْضِ مَنْ ببغداد من الجنْد، وقَطْعَ الباقِي، ومسالمَةَ التتارِ وحَمْل

(١) نسبة إلى الخليفة، وهي نسبة خطأ، ولكن جمهور المؤرخين يصطلح عليها ويأخذ بها... (شذرات الذهب ٥: ١٧٠).

القطيعةِ[١] إليهم ليكفُّوا عنهم، وقالوا له: هؤلاء ملكوا معظمَ بلادِ الإسلام ولم يقف أحدٌ من الملوك أمامهم»! فأذعن إلى ذلك.

وفي سنة ثلاثٍ وأربعين وستمائة قصد التتار بغدادَ، حتى انْتَهوْا إلى ظاهرها ونهبوا ما مَرُّوا عليه من البلاد، فخرجت إليهم العساكر الخليفتية فأَجَّجوا النيران بالليل ورحلوا، ودامت أيام المستعصم بالله إلى أن ملك التتار بغدادَ.

ذكر مقتل المستعصم بالله
وانقراض الدولة العباسية واستيلاء هولاكو على بغداد

كان مقتله في العشرين من المحرم سنةَ سِتٍّ وخمسين وستمائةٍ عندما اسْتوْلى هولاكو على بغداد على ما نذكره إن شاء الله في أخبار التتار. ولما ملك هولاكو بغدادَ أحضر الخليفةَ المستعصم بالله وأمر أن يُجْعَل في عِذْلٍ[٢] ويداسَ بأرجُلِ الخيل حتى يموت، ففعل به ذلك. ومن عادة التتار أن لا يسفكوا دماءَ الملوك والأكابر، وسَبي كلَّ مَنْ حواه قصر الخلافة من الحريم، واستولى على ذخائر الخلفاء، ونُهبت بغداد، وبذلوا السيف فيها سبعةَ أيام متوالية ثم رُفع في اليوم الثامن. وكانت خلافة المستعصم بالله خمسةَ عشرَ سنةً، وسبعةَ أشهر، وعشرةَ أيام. وكان الذي بعث هولاكو على قَصْدِ بغداد أنّ الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي كان شيعيًّا والشيعةُ يسكنون بالكرخ وهي محلة مشهورة بالجانب الغربي من بغداد، فأحدث أهلها حَدَثًا فأمر الخليفة بنَهْبِهِمْ فَنَهبهمُ العَوَامُ، فوجِدَ[٣] الوزير لذلك وكاتب هولاكو، وأخذ في التدبير على الخليفة وقطع أرزاق الجند، وأضْعَفَهُم حتَّى تَمَكَّنَ التتارُ من أخْذِ البلاد.

قال: ولما فتح هولاكو بغداد وأحضر الوزير المذكور فقال: كيف كانت حالُك مع الخليفة؟ فذكر ما كان عليه من التقدُّم ونفاذِ الكلمةِ وكثرةِ الأتباع وأنه كان يركب في جمعٍ عظيم، فقال: إذا كان هذا فعلك في حقٍّ من قَدَّمَك وأحْسَنَ إليك كيف يكون منك معنا؟ وأمر بقتله. وقيل استبقاه وأنَّ امرأة رأته في يوم وهو على برذون ليس معه أحد فنظرت إليه وقالت: يابن العلقمي هكذا كنت في أيام أمير المؤمنين؟.

---

(١) المراد بالقطيعة هنا ما اقتطع من المال.

(٢) العدل: الجوالق: وعاء من صوف أو شعر أو غيرهما.

(٣) وجد عليه: حزن وغضب.

جامع أخبار خلفاء الدولة العباسية بالعراق ومن ولي منهم ومدة خلافتهم

وَلِيَ منهم بالعراق سبعةٌ وثلاثون خليفةً وهم: أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس وهو السفاح، ثم المنصور أبو جعفر عبد الله أخوه، ثم المهدي أبو عبد الله محمد بن أبي جعفر المنصور، ثم ابنه الهادي أبو محمد موسى، ثم أخوه الرشيد أبو محمد هارون، ثم ابنه الأمين أبو عبد الله محمد، ثم أخوه المأمون أبو العباس عبد الله، ثم أخوه المعتصم بالله أبو إسحاق محمد بن الرشيد وهو أول مَنْ أضاف إلى لقبه اسم الله عَزَّ وجل، ثم ابنه الواثق بالله أبو جعفر هارون، ثم أخوه المتوكل على الله أبو الفضل جعفر، ثم ابنه المنتصر بالله أبو جعفر محمد، ثم المستعين بالله أبو العباس أحمد بن المعتصم بالله، ثم المعتز بالله أبو عبد الله محمد بن المتوكل، ثم المهتدي بالله أبو عبد الله محمد بن الواثق، ثم المعتمد على الله أبو العباس أحمد بن المتوكل على الله، ثم المعتضد بالله أبو العباس أحمد بن الموفق طلحة بن المتوكل، ثم المكتفي بالله أبو محمد علي بن المعتضد، ثم المقتدر بالله أبو الفضل جعفر بن المعتضد وخلع مرتين فالأُولى بويع لابن المعتز والثانية بويع للقاهر، ثم القاهر بالله أبو منصور محمد بن المعتضد، ثم الراضي بالله أبو العباس أحمد بن المقتدر، ثم المتقي لله أبو إسحاق إبرهيم بن المقتدر، ثم المستكفي بالله أبو القاسم عبد الله بن المكتفي، ثم المطيع لله أبو القاسم الفضل بن المقتدر، ثم الطائع لله أبو بكر عبد الكريم بن المطيع، ثم القادر بالله أبو العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر، ثم القائم بأمر الله أبو جعفر عبد الله بن القادر، ثم المقتدي بأمر الله أبو القاسم عبد الله ابن ذخيرة الدين أبي العباس أحمد بن القائم، ثم المستظهر بالله أبو العباس أحمد بن المقتدي، ثم المسترشد بالله أبو منصور الفضل بن المستظهر، ثم الراشد بالله أبو العباس جعفر المنصور بن المسترشد، ثم المقتفي لأمر الله أبو عبد الله محمد بن المستظهر، ثم المستنجد بالله أبو المظفر يوسف بن المقتفي، ثم ابنه المستضيء بأمر الله أبو محمد الحسن، ثم ابنه الناصر لدين الله أبو العباس أحمد، ثم ابنه الظاهر بأمر الله أبو نصر محمد، ثم ابنه المستنصر بالله أبو جعفر المنصور، ثم ابنه المستعصم بالله أبو أحمد عبد الله.

وكانت مدَّة خلافتِهم منذ بويع أبو العباس السفاح وإلى أن قتل المستعصم بالله خمسمائةَ سنةٍ وثلاثًا وعشرين سنةً وعشرةَ أشْهُرٍ وستةَ أيامٍ وانقرضتِ الدَّوْلَة العباسية وانْقَطعَتْ دعوتهم من سائر أقطار الدنيا ثلاث سنين وخمسَةَ أشْهُرٍ وعشرين يومًا إلى أن عادت بالدِّيار المصرية المحروسة في الدولة الظاهرية.

ذكر عود الدولة العباسية وقيامها بالديار المصرية المحروسة

ذكر خلافة المستنصر بالله

هو أبو العباس أحمد بن الظاهر بأمر الله أبي نصر محمد بن الناصر لدين الله أبي العباس أحمد، بويع له بالخلافة بالدِّيار المصرية في التاسع من شهر رجب سنةَ تسع وخمسين وستمائة. وذلك أنه وصل إلى الديار المصرية في هذا اليوم، فركبَ السُّلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرسِ للقائه في موكبٍ مشهودٍ، وأنزله بِقَلْعَةِ الجبل[١] وأمر بإثبات نَسَبِه. وحضر الأُمراء والوزير وقاضِي القُضاة ونُوَّابُ الحُكم والفقهاءُ والصلحاءُ وأكابرُ المشايخ وأعيانُ الصوفية واجتمعوا بقاعة العمد بقلعة الجبل وأمر السُّلطانُ بإحضار العُرْبان الذين حضروا مع الخليفة فحضروا وحضر خادمٌ من البغاددة فسألوا عنه هل هو أحمد بن الظاهر فقالوا إنه هو!

فشهد جماعة من القضاة الأكابر بالاستفاضة وهم: جمال الدين يحيى نائب الحكم بمصر، والفقيه علم الدين بن رشيق صدر الدين مرهوب الجزري، ونجيب الدين الحراني، وسديد الدين التزمنتي[٢] نائب الحكم بالقاهرة.. أنه هو فأسجل قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن الأعز[٣] وحَلف على نَفْسِهِ بِثبوت نَسَبِه وهو قائم على قدميه، ولقِّب المستنصر بالله على اسم أخيه. وبايعه السلطان على كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ، والأمر بالمعروف والنَّهْي عن المنكر، والجهادِ في سبيل الله، وأخذِ الأموال بحقِّها وصَرْفِها في مستحقِّها، ثم بايعه النَّاسُ على اختلاف طبقاتهم ومراتبهم.

ولمّا تَمّتْ بيعته قَلَّدَ السلطانَ البلادَ الإسلامية وما يضافُ إليها وما يفتحه اللّهُ تعالى على يديه من البلاد، وكتب السلطان إلى سائر الأعمال بأَخْذِ البيعة له، وأن يُخْطَبَ باسمه على النابر، وتُنْقَشَ السِّكَّةُ باسمه واسم السلطانِ. وخطب الخليفةُ

---

(١) الجبل: كورة بحمص... والجبل: اسم جامع لهذه الأعمال التي يقال لها الجبال.. والعامة في أيامنا يسمونها العراق، وقد نسب إليها خلق كثير.. والجبل: موضع بالأندلس نسبوا إليه محمد بن أحمد الجبلي الأندلسي... (معجم البلدان).

(٢) نسبة إلى تزمنت: وهي قرية من عمل البهنسا على غربي النيل من الصعيد.

(٣) هو قاضي القضاة تاج الدين أبو محمد عبد الوهاب بن خلف بن بدر العلامي المصري الشافعي، صدر الديار المصرية ورئيسها. كان ذا ذهن ثاقب وحدس صائب وعقل ونزاهة وتثبت في الأحكام... (شذرات الذهب ٥:٣١٩).

بالناس في يوم الجمعة السابع عشر من شهر رجب بجامع القلعة، ونُثرت عليه الدنانيرُ والدراهمُ، وخَلَعَ على السلطان وطوّقه[١] يوم الاثنين.

واستخدم السلطان للخليفة من يحتاج إليه من أرباب الوظائف فجعل الأمير سابق الدين بوزبا أتابك العسكر، وكتب له بألف فارس وجعل الطواشي بهاء الدين صندل شرابيا وكتب له بخمسمائة فارس والأمير ناصر الدين محمد بن صريم خزندارا وكتب له بمائتي فارس، والأمير نجم الدين أُستاذ الدار وكتب له بخمسمائة فارس، والأمير سيف الدين بلبان الشمسي داوادارًا وكتب له بخمسمائة فارس. وأمر جماعةً من العربان بالطبلخانات واشترى للخليفة مائةَ مملوكٍ جعلهم جمدارية وسلحدارية وأعطى كلاً منهم ثلاثة أرؤس خيلٍ وجملاً لعدته. واستخدم له صاحبَ ديوان وكُتَّابَ إنشاءٍ وأئمةً ومؤذنين، وحكماء وجرائحية[٢]، وغلمانًا. وكَمَّلَ له البيوتاتِ وجهّزهُ وجهّزَ معه ملوك الشرق الذين كانوا قد وصلوا إلى السلطان وهم: الملك الصالح عماد الدين إسماعيل ابن الملك الرحيم صاحب الموْصِل، وكتب له بالموصل وولاياتها ورساتقها ونصيبين وولاياتها، ودارا وأعمالها، والقلاع العمادية وبلادها، وغير ذلك مما جاوره. وكتب للملك المجاهد سيف الدين إسحاق أخيه بلاد الجزيرة، وكتب للملك المظفر علاء الدين على سنجار وأعمالها التي كانت بيده. وأرسل إليهم الطبلخانات والسناجق، وتقدم إليهم بسفرهم صُحْبتَه إلى الشام ليُجَهِّزَهم إلى مستقرهم صحبَة الخليفة.

ذكر مسير الخليفة المستنصر بالله إلى بلاد الشرق وقتله

قال: وتوجه الخليفة والسلطان والملوك إلى الشام في سادس شوال من السنة، وكان مبلغ النفقة على الخليفة والملوك ألف ألفِ دينارٍ وستين ألف دينار عينًا، ووصلوا إلى دمشق. ونزل الخليفة بجبل الصالحية[٣] في برية الملك الناصر، وجرد

(١) كان رسم الخلعة يتضمن تسليم الطوق المذهب ليوضع في العنق، والقيد للقدم وهو من الذهب أيضًا... (راجع البداية والنهاية ١٣: ٢٣٢).

(٢) الجرائحية: يراد بها الجراحون.

(٣) الصالحية: قرية قرب الرها من أرض الجزيرة.. وقيل: قرية قرب الرقة... والصالحية أيضًا: محلة ببغداد تنسب إلى صالح بن المنصور المعروف بالمسكين. والصالحية أيضًا: قرية كبيرة ذات أسواق وجامع في لحف جبل قاسيون من غوطة دمشق وفيها قبور جماعة من الصالحين... (معجم البلدان).

السلطان عسكرًا صحبه الأمير سيف الدين بلبان الرشيدي وشمس الدين سنقر الرومي وودع السلطان الخليفة والملوك وسفرهم وأوصى الرشيديَّ والروميَّ وَمَنْ معهما أن يقيموا بجهة حلب وبر الفرات ومتى طلبهم الخليفة ساروا إليه.

وسار الخليفة من دمشق وعبر الفرات ـ ولم يتأنَّ في أمره ـ فوصل عانة والحديثة. فخرج عليه مقدم من مقدمي التتار اسمه أورداي ومعه نمانا، فالتَقوْا واقتتلوا فاستشهد الخليفة، وقتل أكثر من كان معه.

وأما عن الملك الصالح[1] فإنه دخل الْمَوْصِل وملكها واستقرّ بها، فسار إليه أورداي المذكور وحاصره، وملك البلد، وصلَبه هو وابنه على باب الموصل، وانهزم أخواه الملك المجاهد والمظفر عليّ إلى الديار المصرية، فأقاما بها إلى أن ماتا في الدولة المنصورية السيفية، رحمهما الله.

وانقضت الخلافة، وانقرضت الدَّوْلة العباسية ثانيةً من سائر الأرض، وتعطَّلتِ المنابرُ من ذكرِ دعوتِهِم إلى أن عادت بالديار المصرية أيضًا ببيعة الخليفة الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد.

ذكر خلافة الحاكم بأمر الله

هو أبو العباس أحمد بن محمد بن الحسن بن أبي بكر بن الحسن بن علي الفتى ابن الحسن ابن الخليفة الراشد بالله بن جعفر المنصور بن المسترشد بالله وقد تقدم نسبه مستوفى. بويع له بالخلافة بالديار المصرية في يوم الخميس الثاني من المحرم سنة إحدى وستين وستمائة. وذلك أنه وصل إلى الديار المصرية في سنة ستين وستمائة، فلما كان في هذا اليوم جلس السلطان الملك الظاهر مجلسًا عامًا، وحضر الخليفة راكبًا إلى الإيوان الكبير بقلعة الجبل. وجلس إلى جانب السلطان. وبايعه بعد ثبوت نسبِهِ كما بايع المستنصر، ثم قلَّد السلطان أمور البلاد والجيوش. وبايَعه النَّاسُ على اختلاف طبقاتِهم، وكان ذلك بحضور الرسل ومَنْ وَفَدَ من التتار.

وخَطَبَ يومَ الجمعة بجامع القلعة، ثم خَطَبَ مرةً ثانية في ثامن عشر شعبان بحضُور رسُل بركة، ودعا للسلطان وللملك بركة وصلَّى بالناس، وحُجِب عن الناس بِبُرْجٍ في القلعة إلى سنةِ تسعين وستمائة، فأخرجه السلطان الملك المنصور حسام الدين

(١) هو ركن الدين إسماعيل ابن الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل.

لاجين المنصوري من البرج وأسكنه بالمناظِر الصالحيةِ المعروفة بالكبش[١] ووسَّع عليه في رِزْقه ورزق أولادِه.

وحجَّ في هذه السنةِ ورجع، فكان بالمناظر إلى أن مات. وكانت وفاته في الثامن عشر من جُمادى الأُولى سنة إحدى وسبعمائة في دولة السلطان الملك الناصر الثانية وصلَّى عليه الشيخ كريم الدين عبد الكريم الأَبُلِّي الصوفي - شيخ الصوفية بمشهد السيدة نفيسة - ودفن بجوار المشهد. وكانت مدة خلافته أربعين سنة وأربعة أشهر، وستة عشر يومًا. وهو أول خليفة دُفِنَ بمصر من الخلفاء العباسيين، رحمه الله.

ذكر خلافة المستكفي بالله

هو أبو الربيع سليمان ابن الحاكم بأمر الله وهو الثالث من خلفاء بني العباس بمصر، والخليفة الأربعون من خلفائهم. بويع له يوم وفاةِ والدِهِ الحاكم بأمر الله في الثامن عشر من جُمادى الأولى سنَةَ إحدى وسبعمائة وخُطِب له على المنابر وحضَر مع السلطان الملك الناصر مصافَّ مرْجِ الصُّفر[٢] الذي انْهَزم فيه التَّتَارُ في ثاني شهر رمضان سنة اثنتين وسبعمائةِ.

واستمر في صحبة السلطان، يركب معه إلى الصيد وإلى الميدان، ويلعب الكرة. وسكن بمناظر الكبش وغيرها من المساكن الحسنة المُترِفَةِ على نهر النيل، ورتَّب له من النفقات والكساوي وغير ذلك ما يحتاج إليه هو ومَن عنده. وكذلك رتَّب لابن أخيه إبراهيم، ولم يحجرِ السلطان عليهما، بل يركب كلٌّ منهما متى شاء ويزور من شاء.

الباب الخامس
من القسم الخامس من الفن الخامس
في أخبار الدولة الأموية ببلاد الأندلس

كان ابتداءُ هذه الدولةِ في سنة ثمانٍ وثلاثين، وقيل تسع وثلاثينَ ومائةٍ، في خلافة أبي جعفر المنصور الثاني من الخلفاء العباسيين، وأول مَن ملَكَ بلاد الأندلسِ

---

(١) الكبش والأسد: شارعان عظيمان كانا بمدينة السلام بغداد بالجانب الغربي وهما الآن برّ قفر، وهما بين النصرية والبرية في طرفهما قبر إبراهيم الحربي رحمه الله... (معجم ياقوت).

(٢) مرج الصّفر: بالضم، وتشديد الفاء: بدمشق.. قال خالد بن سعيد بن العاصي وقتل بمرج الصفر:

هل فارس كره النزال يعيرني ... رمحًا إذا نزلوا بمرج الصفر

من بني أُمية أبو المظفر عبد الرحمٰن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان. وقيل كنيته أبو المطرّف، وقيل أبو سليمان، وقيل أبو زيد، وأُمه بربرية من سبْي إفريقية واسمُها راحُ ولقّب عبدُ الرحمٰن بالدّاخل عند دخوله. وكان استيلاء عبد الرحمٰن على الأندلس في سنةِ ثمانٍ وثلاثين ومائة. وقيل تسع وثلاثين. وكان سببُ دُخولِه إليها واستيلائه عليها أنه لما قتل مروان بن محمد، وانقرضت الدولة الأموية، وقتل من قتل من بني أُمية، وتشتتوا في البلاد... كان عبد الرحمٰن هذا بذات الزّيتون[1] فَفَرَّ منها إلى فلسطين، فأقام بها هو ومولاه بدرٌ يتجسَّسُ له الأخبار، فحكي عنه أنه قال:

«لما أُعطِينا الأمان ثم نُكث بنا بنهر أبي فُطرس[2] أتاني الخبر وكنت منتبذًا عن الناس. فرجعتُ إلى منزلي آيسًا ونظرت فيما يصلحني وأهلي، وخرجت خائفًا حتى صرتُ إلى قريةٍ على الفرات ذات شجر وغياض. فبينا أنا ذات يوم فيها وولدي سليمان يلعب بين يدي ـ وهو يومئذ ابن أربع سنين ـ فخرج عني ثم دخل عليَّ باكيًا فزعًا، فتعلق بي وجعلت أدفعه، وخرجت لأنظر فإذا بالخَوْفِ قد نزل بالقرية والراياتُ السُّودُ منحطَّةٌ عليها وأخٌ لي حَدَثٌ يقول لي: النجاةَ النجاةَ! فأخذتُ دنانيرَ معي ونجوت بنفسِي وأخي وأعلمت أخواتي بمقصدي وأمرتهنَّ أن يُلْحِقْنَنِي مولاي بدرًا ـ قال ـ وأحاطتِ الخيلُ بالقرية فلم يجدوا لي أثَرًا. فأتَيْتُ رجُلًا من معارفي وأمَرْتُه فاشتَرى لي دوابَّ وما يصلحني فَدلَّ عليَّ عبدٌ له العاملَ، فأقبل في خَيْله يطلبني فخرجنا على أرْجُلِنا والخيلُ تبصرنا، فدخلنا الفرات فسبحنا فنجوتُ أنا والخيلُ ينادون بالأمان وأنا لا أرجع وأما أخي فإنه عجزَ عن السباحة في نصف الفرات فرجع إليهم بالأمان، فقتلوه وأنا أنظر إليه وهو ابن ثلاث عشرة سنة فاحتملت ثُكْلَه ومضيتُ وتواريتُ في غَيْضَة حتى انْقطَع الطَّلَبُ عني. وخرجت فقصدت المغرب فبلغت إفريقية، ثم ألحقتني أُختي أُمُّ الإصبع مولاي بدرًا بنَفَقَةٍ وجوهرٍ.

قال المؤرخ: ولما بلغ إفريقية كان بها عبد الرحمٰن بن حبيب الفهري عاملًا لمروانَ بنِ محمد، فَظَنَّ عبدُ الرحمٰن بن معاوية أن ابن حبيب يرعاهم ويحوطهم

---

(١) ذات الزيتون: جبل بالشام كما يقول ياقوت في معجمه.

(٢) نهر أبي فطرس: بضم الفاء، وسكون الطاء، وضم الراء، وسين مهملة: موضع قرب الرملة من أرض فلسطين، قال المهلبي: على اثني عشر ميلًا من الرملة في سمت الشمال نهر أبي فطرس ومخرجه من أعين في الجبل المتصل بنابلس وينصب في البحر الملح بين يدي مدنيني أرسوف ويافا... (معجم البلدان).

ويحسن مجاورتَهم. فلما علم ابنُ حبيب أن مروان قد قتل وأن أهلَه وولده قد تفرقوا وأن رجالَه قد استأمنوا إلى أعمال أبي العباس السفَّاح طلب لنفسه السلامة، وكتب بالسَّمْع والطَّاعةِ، وأراد قَتْلَ عبد الرحمٰن بن معاوية ومن معه والتقرُّب بهم إلى عمال السفاح. وأرسل في طلبه فهرب منه وأتى مكناسة وهي قبيلةٌ من البربر وعندهم شدة، ثم هرب منهم وأتى نفراوة وهم أخواله. وقيل أتى قومًا من الزناتيين فأحسنوا قبولَه فيهم وأخذوا في التدبير والمكاتبة إلى الأمويين من أهل الأندلس يعلمونهم بقدومه ويدعونهم إلى عبد الرحمٰن.

ووَجه بدرًا مولاه إليهم، وكان أمير الأندلس يومذاك يوسف بن عبد الرحمٰن الفِهْري فسار بدر إليهم وأعلمهم حالَ عبد الرحمٰن ودعاهم إليه فأجابوه، ووجَّهوا إليه مركبًا فيه تمّام بن علقمة ووهب بن الأصفر وشاكر بن أبي الأسمط، فوصلوا إليه وأبلغوه طاعتَهم، وأخذوه ورجعوا به إلى الأندلس فأرسى بالمركب بالجزيرة في شهر ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين ومائة. فأتاه جماعة من رؤسائهم من أهل إشبيلية[(١)]، ثم انتقل إلى كورة ريّة[(٢)] فبايعه إبراهيم ابن شجرة عاملها. ثم سار إلى إشبيلية فبايعه أبو صالح يحيى بن يحيى، ونهض إلى قرطبة فبلغ خبره يوسف بن عبد الرحمٰن وكان غائبًا عن قرطبة بنواحي طليطلة[(٣)]، فأتاه الخبر وهو راجعٌ إلى قرطبة فتراسل هو ويوسفُ في الصلح فخادعه، فلم يشك أصحاب يوسف في انتظام الصُّلْح وذلك في يومين أحدهما يوم عرفة، فأقبل يوسف في إعداد الطعام ليأكله الناس في يوم الأضحى وعبد الرحمٰن يرتِّب خيلَه ورجله وعبر النهر في أصحابه.

وأنشب القتال ليلَةَ الأضحى، وصبر الفريقان حتى ارتفع النهار، وركب عبد الرحمٰن على بغلة وأسرع القتْل في أصحاب يوسف فانهزم وظفر عبد الرحمٰن بن معاوية. ولما انهزم يوسف أتى ماردة[(٤)] وأتى عبد الرحمٰن قرطبةَ، وأخرج حشَم يوسف وأهله من القصر على تؤدة ورفق، ودخله بعد ذلك. ثم سار في طلب

---

(١) إشبيلية: بالكسر ثم السكون، وكسر الباء الموحدة، ولام، وياء خفيفة: مدينة كبيرة عظيمة وليس بالأندلس اليوم أعظم منها.. وبها قاعدة ملك الأندلس وسريره... (معجم البلدان).

(٢) ريّة: بفتح أوله وتشديد ثانيه: كورة واسعة بالأندلس متصلة بالجزيرة الخضراء وهي قبل قرطبة، وهي كثيرة الخيرات، ولها مدن وحصون ورستاق واسع... (معجم ياقوت).

(٣) طليطلة: مدينة كبيرة ذات خصائص محمودة بالأندلس يتصل عملها بعمل وادي الحجارة من أعمال الأندلس، وهي غربي ثغر الروم وبين الجوف والشرق من قرطبة... (معجم البلدان).

(٤) ماردة: كورة واسعة بينها وبين قرطبة ستة أيام، وقد شهرت بحصونها الكثيرة وبقراها ذات الآثار القديمة وبر خامها الفريد.

يوسف، فلما أحسّ به يوسف سار إلى قرطبة فدخلها وملك قصرها، وأخذ جميع أهله وماله، ولحق بمدينة إلْبيرة[١]. ورجع عبد الرحمٰن إلى قرطبة فلم يجده فسار إلى إلبيرة، وتراسلا في الصلح فاصطلحا على أن ينزل يوسف هو ومن معه بأمانٍ وأن يسكن مع عبد الرحمٰن بقرطبة ويرهنه يوسفُ ابنه أبا الأسود محمدًا وسار يوسف مع عبد الرحمٰن إلى قرطبة فلما دخل قرطبة تمثل: [من الطويل]

فبينا نسوس النَّاسَ والأمْرُ أمرُنا   إذا نَحْن فيهم سُوقةٌ تَتَنَصَّفُ

قال: واستقر عبد الرحمٰن بقرطبة وبنى القصر والمسجد الجامع، وأنفق فيه ثمانين ألف دينارٍ، ومات قبل تمامه.

ذكر مقتل عبد الرحمٰن بن يوسف الفهري

قال: وفي سنة إحدى وأربعين ومائة نكث يوسف بن عبد الرحمٰن الفهري، وكان سبب ذلك أن عبد الرحمٰن كان يضع عليه مَنْ يُهينه وينازعه في أملاكه، فإذا أظهرِ حُجَّتهُ الشرعيةَ لا يُعمل بها، ففطن لما يراد منه. فقصد مارِدة واجتمع عليه عشرون ألفًا فسار نحو عبد الرحمٰن، وخرج عبد الرحمٰن من قرطبة نحوه إلى حصن المدور[٢] ثم رأى يوسف أن يسير إلى عبد الملك بن عمر بن مروان ـ وكان واليًا على إشبيلية وإلى ابنه عمر بن عبد الملك وكان على المُدَوَّر ـ فسار نحوهما فخرجا إليه واقتتلوا قتالاً شديدًا فانهزم أصحاب يوسف، وبقي متردِّدًا في البلاد فقتله بعض أصحابهِ في شهر رجب سنة اثنتين وأربعين ومائة بنواحي طلَيْطِلة وحُمل رأسه إلى عبد الرحمٰن بن معاوية فنصبه بقرطبة وقتل ابنه عبد الرحمٰن بن يوسف الذي كان عنده رهينةً ونصب رأسه مع رأس أبيه وبقي ابنُه الأسود عند عبد الرحمٰن.

وفي سنة ثلاث وأربعين ومائة ثار رِزْقُ بن النعمان الغَسَّاني وكان على الجزيرة الخضراء[٣]. فاجتمع إليه خلق كثير، فسار إلى شَذُونَةَ[٤] فملكها ودخل مدينة إشبيلية.

---

(١) إلبيرة: هي كورة كبيرة من الأندلس ومدينة متصلة بأراضي كورة قبرة، بين القبلة والشرق من قرطبة، بينها وبين قرطبة تسعون ميلاً، وأرضها كثيرة الأنهار والأشجار، وفيها عدة مدن، منها: قسطيلية وغرناطة وغيرهما... (معجم البلدان).

(٢) المدور: حصن شهير بالأندلس قرب قرطبة.

(٣) الجزيرة: الرأس الجنوبي للأندلس يفصله عن إفريقية مضيق جبل طارق الذي يعرف بجبل الفتح، وتطل على بحر الزقاق شرقًا والمحيط الإطلنطي غربًا.

(٤) شذونة: تتصل نواحيها بنواحي موزور من أعمال الأندلس، كما يقول ياقوت في معجم البلدان.

وعاجله عبد الرحمٰن فحَصره بها وضيَّق على مَنْ فيها، فتقربوا إليه بتسليمه له. وأمَّنهم ورجع عنهم.

وفي سنة أربع وأربعين ومائة ثار هشام بن عذرة الفهري وهو من بني عَمِّ يوسف بن عبد الرحمٰن الفهري بطليطلة فحاصره الأمير عبد الرحمٰن وشدَّد عليه الحصارَ فمال إلى الصلح وأعطاه ابنه أفلح رهينةً فأخذه عبد الرحمٰن ورجع إلى قرطبة. ثم عاد هشام وخلع عبد الرحمٰن، فعاد إليه وحاصره ونصب المجانيق عليها، أي على طليطلة، فلم يؤثر فيها لحصانتها فَقَتَلَ ابْنه أفلح ورمى برأسه إلى أبيه في المنجنيق ورحل إلى قرطبة. ولم يظفر بهشام في هذه السنة واستمر إلى سنة سبع وأربعين ومائة فبعث عبدُ الرحمٰن مولاه بدرًا وتمامَ بنَ علقمَة فحصرا طليطلة وضيَّقا على هشام ثم أسراه هو وحيوة بن الوليد اليحصُبي وعثمان بن حمزة بن عبيد الله بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأتى بهم إلى عبد الرحمٰن بن معاوية في جباب صوف وقد حلقت رؤوسُهم ولحاهم، وركبوا الحميرَ وهم في السلاسل، فصلبهم بقرطبة!.

ذكر خروج العلاء وقتله

وفي سنة سِتٍّ وأربعين ومائةٍ سار العلاءُ بن مغيث اليحصُبي من إفريقية إلى مدينة باجة[1] من الأندلس، ولبس السواد وقام بالدَّعْوة العباسية. وخَطَبَ لأبي جعفر المنصور، واجتمع إليه خَلْقٌ كثير. فخرج إليه الأمير عبد الرحمٰن فالتقيا بنواحي إشبيلية وتحاربا زمانًا، فانهزم العلاء وأصحابُهُ، وقُتِل في المعركة سبعة آلاف فارسٍ وقُتل العلاء، فأمر عبدُ الرحمٰن بعضَ التجارِ بحَمْل رأسه ورؤوس أصحابه إلى القيروان وإلقائها في السُّوق سِرًّا ففعل ذلك. ثم حُمل منها إلى مكة ومعه لواء أسود فوصلت والمنصور بمكة ومعه كتاب كان المنصور قد كتبه إلى العلاء.

وفي سنة سبع وأربعين ومائة قدم رسول عبد الرحمٰن الذي أرسله إلى الشام في إحضار ولده الأكبر سليمان، وحضر معه سليمان.

(١) باجة: كورة من الكور الغربية التي كانت من أعمال إشبيلية متصلة بكورة ماردة ومشهورة بدباغة الجلد وصنع الكتان وبوجود معدن للفضة.

ذكر خروج سعيد اليحصبي المعروف بالمطري وقتله

قال: وكان خروجُه في سنة ثمان وأربعين ومائة بمدينة لبلة[١] من الأندلس وسبب ذلك أنه سكر يومًا، فتذكَّر مَنْ قتل من قومه اليمانيَة مع العلاء، فعقد لواء فلما صحا رآه معقودًا، فسأل عنه فأخبروه فأراد حَلَّه ثم قال: ما كنت لأعقد لواءً ثم أحلّه بغير شيءٍ وشرع في الخلاف، فاجتمعت اليمانيةُ إليه وقصد إشبيلية وتغلّب عليها وكثُر جمعُه، فبادره عبد الرحمٰن في جموعه. فامتنع المطري في قلعة زعواق لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول فحصره بها وضيّق عليه، ومنع أهلَ الخلاف من الوصول إليه.

وكان قد وافقه على الخلاف علقمة اللخمي وكان بمدينة شَذُونة وقد انضاف إليه جماعة من رؤساء القبائل وهم يريدون إمداد المطريِّ في جمْع كثيرٍ. فلما سمع عبد الرحمٰن بذلك سيَّر إليهم بدْرًا مولاه في جيشٍ فحال بينهم وبين المطريِّ، وطال الحصار وقلَّت رجالُه بالقتل، وفارقه بعضُهم. فخرج يومًا من القلعة فقاتل فقُتِل وحُمِل رأْسَه إلى عبد الرحمٰن، فقدَّم أهلُ القلعة عليهم خليفةَ بن مروان، فدام الحصار عليها. فأرسل أهلُها يطلبون الأمان من عبد الرحمٰن على أن يسلموا إليه خليفة فأجابهم إلى ذلك، وتسلَّم الحِصنَ وخرَّبه وقتل خليفة وخَلْقًا كثيرًا مِمَّنْ معه ثم انتقل إلى غِياثٍ الأزدي وكان مِمَّنْ وافق المطريَّ على الخلاف فحصره ومَنْ معه وضَيَّق عليهم فطلبوا الأمان فأمَّنَهُم إلا نفرًا فقبض عليهم، وعاد إلى قرطبةَ فلما عاد إليها خرج عليه عبد الله بن خراشة الأسدي بكورة جيَّان[٢] واجتمع إليه جموع فأغار على قرطبة فسيَّر إليه عبد الرحمٰن جيشًا فتفرَّق جمعه، فطلب الأمان فأمنه ووفى له.

وفي سَنة تسعٍ وأربعين ومائة أغزى عبدُ الرحمٰن مولاه بدرًا إلى بلاد العدو فأخذ الجزية منهم.

وفيها عزل عبد الرحمٰن أبا الصباح حَيَّ بن يحيى عن إشبيلية فدعاه إلى الخلاف، فخدعه عبد الرحمٰن حتى حضر عنده فقتله.

---

(١) لبلة: قصبة إحدى الكور الكبيرة، بينها وبين قرطبة، عن طريق إشبيلية، خمسة أيام، وهي بحرية برية غزيرة الزرع والشجر.

(٢) جيان: كورة واسعة بالأندلس، تتصل بكورة إلبيرة وتجمع قرى كثيرة وبلدانًا مختلفة... (معجم البلدان).

وفيها خرج غياث بن المسيّر الأزدي، فخرج إليه عامل عبد الرحمٰن وقاتله فانهزم غِياثٌ ومَنْ معه، وقُتِل وحُمِل رأسُه إلى عبد الرحمٰن بقرطبة.

وفيها أمر عبد الرحمٰن ببناء سور مدينة قرطبة.

ذكر أخبار شقنا بن عبد الواحد وخروجه بالأندلس

كان خروجه بشرق الأندلس في سنة إحدى وخمسين ومائة وكان من بربر مكناسة يعلِّم الصبيان وكانت أُمُّه تُدْعَى فاطمة فادَّعى أنه من ولد فاطمة رضي الله تعالى عنها وأنه من ولد الحسين، وتَسمَّى بعبد الله بن محمد وسكن شنتبرية[١] واجتمع عليه خَلْق كثير من البربر وعظُم أمرُهُ فسار إليه عبد الرحمٰن فلم يقف له وزاغ في الجبال، فكان إذا أمن انبسط وإذا خاف صعد الجبال حيث يصعُبُ طلبهُ. فاستعمل عبد الرحمٰن على طليطلة حبيب بن عبد الملك، واستعمل حبيبٌ على شنتبرية سليمان بن عفان بن مروان بن أبان بن عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه، وأمر بِطلب شقنا فنزل شقنا إلى سليمان فقتله. واشْتَدَّ ذِكرُ شقنا وطار اسمُهُ، وغلب على ناحية قورية[٢]. وأفسد في الأرض، فعاد عبد الرحمٰن وغزاه في سنة اثنتين وخمسين ومائة بنفسه، فلم يثبت له شقنا، فأعياه أمره فعاد عنه، وسير إليه في سنة ثلاثٍ وخمسين بدرًا مولاه، فهرب شقنا وأخلى حصنه شيطران، ثم غزاه عبد الرحمٰن بنفسه في سنة أربع وخمسين فلم يثبت له، فعاد عنه وبعث لِحَرْبه أبا عثمان عبد الله بن عثمان فخدعه شقنا وأفسد عليه جُنْدَه. فهرب عبد الله وغنم شقنا عسكره، وقتل جماعة من بني أُمية كانوا في العسكر وذلك في سنة خمس وخمسين ومائة.

وسار شقنا إلى حصن الهواريين[٣] وبه عامل لعبد الرحمٰن فمكر به شقنا حتى خرج إليه، فقتله وأخذ خَيْلَه وسلاحه وما كان معه. ولم يزل شقنا كذلك وعبد الرحمٰن يغزوه تارةً بنفسه وتارةً بجيوشه إلى سنة ستين ومائة فاغتاله أبو معْن وأبو خرَيْم وهما من أصحابه، فقتلاه وأخذا رأسه ولحقا بعبد الرحمٰن واستراح الناسُ من شره!.

---

(١) شنتبرية: مدينة بحوز سالم بالأندلس وهي شرق قرطبة وبها حصن اسمه شنت مرية.

(٢) قورية: بالضم ثم السكون، والراء مكسورة، وياء خفيفة: مدينة من نواحي ماردة بالأندلس كانت للمسلمين وهي النصف بينها وبين سمورة مدينة الإفرنج... (معجم البلدان).

(٣) الهواريون: قال الحسن بن رشيق القيرواني، ومن خطه نقله ياقوت: ميمون بن عبد الله الهواريّ وليس بهواريّ على الحقيقة لكن سكن أبوه قرية تعرف بالهواريين فنسب إليها فهو من مسالمة تونس، وكان متشيعًا شديد الصلف.

ذكر عصيان أهل إشبيلية
على الأمير عبد الرحمٰن

قال: وفي سنة خمس وخمسين ومائة خرج أهل إشبيلية عن الطاعة مع عبد الغفار وحيوة بن مُلابِس، وكان عبد الرحمٰن قد خرج من قرطبة لحرب شقنا واستخلف عليها ابنَه سليمان فأتاه كتابُه بخروجهم عن طاعته وعصيانِهم عليه واتِّفاق من بها من اليمانية على ذلك. فرجع عبد الرحمٰن إليها ولم يدخلْ قرطبة، وهاله ما سمع من اجتماعهم وكثرتهم، فقدّم ابن عمِّه عبد الملك بن عمر، فلما قارب عبد الملك إشبيلية قدّم ابنُه أُمية ليُعْلِمه حالَهم، فرآهم متيقظين فرجع إلى أبيه فَلامه أبوه على رجوعه وإظهار الوهن، فضرب عنقَه وجميعَ بنيه وخاصَّته وقال: طردنا من المشرق إلى أقصى هذا الصُّقْع ونُحسد على لقمة تبْقِي الرَّمَق، اكسروا جُفونَ سيوفكم فالموت أولى أو الظفر! ففَعَلوا، وحمَل أمامهم فَهَزَمَ اليمانيَة وأهل إشبيلية فلم يَقُمْ بعدها لليمانية قائمةٌ.

وجُرِح عبدُ الملك وبلغ الخبر عبد الرحمٰن فأتاه وجُرحه يجري دمًا وسيفُه يقطر وقد لصقت يده بقائمة سيفه، فقبَّل بين عينيه وجزاه خيرًا وقال له: يابن عم قد أنْكَحْتُ ابني وليَّ عهدِي هشامًا ابنتَك فلانة وأعطيتُها كذا وكذا، وأعطيتك كذا وكذا، وأولادُك كذا وكذا، وأقطَعْتُك وإياهم كذا وكذا، ووليتك الوزارة! وعبد الملك هذا هو الذي ألزم عبد الرحمٰن بقَطْع خطبة المنصور وقال له: تقطعها وإلا قتلت نفسي! وكان قد خطب له عشرةَ أشْهُرٍ وقطعها.

قال: وفي سنة سبع وخمسين ومائة سار عبد الرحمٰن إلى إشبيلية وقتل خَلْقًا كثيرًا مِمَّن كان مع عبد الغفار، وبسبب هذه الوقعة وِشِّ العَربِ مال عبدُ الرحمٰن إلى اقتناء العبيد.

وفي سنة سِتٍّ وخمسين سَخِطَ الأمير عبد الرحمٰن على مولاه بدرٍ لِفَرْط إدلاله عليه، وأخَذ ماله وسلب نعمته ونفاه إلى الثغور ولم يَرْعَ له حقوقَ الخدمة.

وفي سنة ثمانٍ وخمسين ومائة غزا الأمير عبد الرحمٰن مدينة قورية وقَصد البربرَ الذين كانوا أسلموا عاملَه إلى شقنا فقتل منهم خلقًا كثيرًا من أعيانهم!.

ذكر عبور الصقلبي إلى الأندلس
وما كان من أمره إلى أن قتل

وفي سنة إحدى وستين ومائة وقيل سنة ستين عبر عبدُ الرحمٰن بن حبيب الفهري المعروف بالصقلبي - ولم يكن صقلبيًا وإنما سُمِّي بذلك لطوله ورقته وشقرته - من إفريقية إلى الأندلس ليحارب عبد الرحمٰن ويدعوه إلى طاعة المهدي بن أبي جعفر المنصور. وكان عبورُه في ساحل تُدمير[١]، وكاتب سليمان بن يقظان بالدُّخول معه، وكان سليمان ببرشلونة فلم يجبه، فاغتاظ الصقلبي وقصد بلده فيمَن معه من البربر. فقصده سليمان والتقَوا واقتتلوا، فهزمه سليمان، فعاد الصقلبي إلى تُدمير، وجاء عبد الرحمٰن نحوه وأحرق السفنَ ليمنَعه من الهرب، فقصد الصقلبي جبلًا منيعًا بناحية بَلَنْسِية[٢]. فبذل عبدُ الرحمٰن ألف دينار لِمَن يأتيه برأسه فاغتاله رجل من البربر وحمل رأسه إلى عبد الرحمٰن، فأعطاه ألف دينار، وكان قتله في سنة اثنتين وستين ومائةٍ.

وفي سنة اثنتين وستين ومائة أرسل عبدُ الرحمٰن شهيدَ ابنَ عيسى إلى دُحَيَّة الغساني وكان عاصيًا في بعض حصون إلبيرة، فقتله وسيّر بدرًا مولاه إلى إبراهيم ابن شجَرَة وكان قد عصَي عليه فقتله. وسيّر تمّام بن عَلْقَمة إلى العباس البربري - وهو في جمع البربر وأظهر العصيان - فقتله وفرّق جموعه.

وفيها سيّر جيشًا مع حبيب بن عبد الملك القرشي إلى القائد السُّلمِي، وكان حسن المنزلة عند عبد الرحمٰن. فشرب ليلة وقصد باب القنطرة ليفتحه على سُكْرٍ، فمنعه الحرس فعاد. فلما صحا من سُكره خاف فهرب إلى طليطلة واجتمع إليه كثير مِمَّن يريد الخلافَ والتَّمرّ فعاجله عبد الرحمٰن بإنفاذ الجيوش، فحَصَره في مكان كان قد تحصّن به، فطلب السُّلَمي البراز فبرز إليه عبد أسودُ فاختلفا ضربتين فوقعا صريعين وماتا جميعًا.

وفي سنة ثلاثٍ وستين ومائةٍ أظهر الأمير عبد الرحمٰن التَّجَهُّزَ إلى الخروج لِقَصد الشام لطلب الثأر من بني العباس فعَصَى عليه سليمان بن يقظان والحسين بن يحيى بن

---

(١) تدمير: بالضم ثم السكون، وكسر الميم، وياء ساكنة، وراء: كورة بالأندلس تتصل بأحواز كورة جيّان، وهي شرقي قرطبة، ولها معادن كثيرة ومعاقل ومدن ورساتيق. . . وبينها وبين قرطبة سبعة أيام للراكب القاصد. . . (معجم ياقوت).

(٢) بلنسية: كورة ومدينة مشهورة تقع شرقي قرطبة وهي برية بحرية بينها وبين تدمير أربعة أيام. . . (معجم ياقوت).

سعيد بن سعد بن عبادة الأنصاري بِسَرَقُسْطة[١] واشْتَدَّ أمرُهما فرجع عن ذلك وترك ما كان أظهره منه.

وفي سنة خمسٍ وستين ومائةٍ غدر الحسين بن يحيى بسرقسطة ونَكَثَ، فسيّر إليه عبد الرحمٰن غالبَ بن تمام بن علقمة في جُنْدٍ كثيف فاقتتلوا، فأسر جماعةً من أصحاب الحسين فيهم ابنُه عيسى، فسيّرهم إلى عبد الرحمٰن فقتلهم، وأقام غالب بن تمام بن علقمة يحاصر الحسين. ثم سار عبد الرحمٰن في سنة ستٍّ وستين إلى سرقسطة فحَصَرها وضايقها ونصب عليها ستَّةً وثلاثين منجنيقًا، فملكها عَنْوَةً وقتل الحسين أقبح قتلة، ونفى أهل سرقسطة منها ليمينٍ كانت تَقَدَّمَتْ منه، ثم ردَّهم إليها.

وفي سنة سِتٍّ وَستين ومائةٍ قتل عبد الرحمٰن ابن أُختِهِ المغيرةَ بن الوليد بن هشام وهذيل بن الصُّمَيْل وسمرة بن جبلة لاجتماعهم على خَلْعه مع العلاء.

ذكر مخالفة أبي الأسود
محمد بن يوسف الفهري

وفي سنة ثمانٍ وستين ومائةٍ ثار أبو الأسود محمد بن يوسف بن عبد الرحمٰن الفهري ببلاد الأندلس. وكان من خبره أنه كان في السجن بقرطبة منذ هرب أبوه على ما تَقَدَّم، فأظهر أنه عَمِيَ وصار لا يطرف عينه لشيء، وبقي دهرًا طويلاً حتى صحّ عند عبد الرحمٰن ذلك. وكان في أقصى السجن سردابٌ يُفْضي إلى النَّهْر الأعظم يخرج منه المسجونون يقضون حوائجهم من غسل وغيره، وكان الموكلون يهملون أبا الأسود لعماه فإذا رجع من النهر يقول: من يدل الأعمى إلى موضعه! وكان مولى له يحادثه على شاطىء النهر فلا ينكر عليه.

فواعده أن يأتيه بخيلٍ يحمله عليها فخرج يومًا ومولاه ينتظره فعبر النهر سباحةً وركب الخيل ولحق بطليطلة فاجتمع إليه خلق كثير فرجع بهم إلى قتال عبد الرحمٰن. فالتَقَيا على الوادي الأحمر بقسطلونة[٢] واشْتَدَّ القتال فانهزم ابن الفهري، وقتل من أصحابه أربعة آلاف سوى من تردّى في النهر. وأتبعه عبد الرحمٰن فقتل مَنْ لحق حتى جاوز قلعة رباح، ثم جمع أبو الأسود الرجال وعاد إلى قتال عبد الرحمٰن سنةَ تسع وستين ومائةٍ فهلك بقرية من أعمال طليطلة. وقام بعده أخوه قاسم وجمع جمْعًا فغزاه عبد الرحمٰن فجاء إليه بغير أمان فقتله.

وفي سنة سبعين ومائة أمر عبد الرحمٰن ببناء جامع قرطبة ـ وكان موضعه كنيسة ـ وأخرج عليه مائة ألف دينار، ولم يتم بناؤه في حياته فأتمه ابنُه بعده.

---

(١) سرقسطة: تقع في الأندلس الشرقي على نهر برة الذي يصب في البحر المتوسط.

(٢) قسطلونة: فوق بلنسية على شاطىء البحر قبالة ميورقة ومنورقة.

ذكر وفاة عبد الرحمٰن وصفته وشيء من أخباره وسيرته

كانت وفاته بقرطبة في يوم الثلاثاء لسِتٍّ بقين من شهر ربيع الآخر سنةَ إحدى وسبعين ومائة، وقيل توفي في غرة جُمادى الأُولى سنة اثنتين وسبعين ومائة، وهو الصحيح وصلَّى عليه ابنه عبد الله، وكان قد عهد إلى ابنه هشام بمدينة مارِدة واليًا عليها، وابنه سليمان بطليطلة واليًا عليها، فلم يحضرا موت أبيهما.

وكان مولد عبد الرحمٰن بدير حنا من عمل دمشق، وقيل بالعلياء من ناحية تَدْمُر في سنة ثلاثَ عشرة ومائةٍ فكان عمره تسعًا وخمسين سنة، ومدةُ ولايته بالأندلس ثلاثًا وثلاثين سنة وأربعةَ أشهر وأربعةَ عشر يومًا. وكان أصهب خفيف العارضين طويل القامة نحيف الجسم أعور، وكان فصيحًا لَسِنًا شاعرًا حليمًا عالِمًا حازمًا، سريع النهضة في طلب الخارجين عليه. لا يخلد إلى راحة، ولا يسكن إلى دعة، ولا يكِل أُموره إلى غيره، ولا ينفرد في إبرامها برأيه. وكان يُشَبَّه بأبي جعفر المنصور في حزمه وشِدَّته وضَبْطه لملكه، وبنى الرصافة بقرطبة تشبهًا بجده هشام حيث بنى الرصافة بالشام، وقال: وكان عبد الرحمٰن من ذوي الآداب، وله شِعر حسن، فمن شعرِه ما قاله بالأندلس يتشوّق معاهده بالشام: [من الخفيف]

أيُّها الراكبُ المُيَمِّمُ أرضي ... أقْرِ من بعضِيَ السَّلام لِبعْضِي
إنَّ جسمي كما علِمْتَ بأرضٍ ... وفؤادي كما علمتَ بأرضِ
قُدِّر البيْن بيْنَنَا فافْترَقْنَا ... وطوى البين عن جُفونِيَ غُمْضي
قدْ قضَى الله بالفراق علينا ... فعسى باجتماعنا سوف يقضي

ومن شعره ما قاله لما عمَّر الرصافة بقرطبة، وقد رأى فيها نخلة منفردة، فقال: [من الطويل]

تَبدَّتْ لنا بينَ الرَّصافة نَخْلَةٌ ... تَنَاءَتْ بأرض الغَرْبِ عن بَلَدِ النَّخْلِ
فقلت شبيهي في التَّغرُّب مثلها ... وطولُ اكتئابي عن بَنِيَّ وعن أهلي
نشَأتِ بأرضٍ أنتِ فيه غريبةٌ ... فَمِثلُكِ في الإقصاء والمنتأى مثلي
سقَتْكِ غوادِي المُزْنِ من صوْبها الذي ... يَسِحُّ ويسْتمري السِّماكَيْن بالوبلِ(١)

---

(١) السماكان: نجمان نيران. أحدهما في الشمال وهو السّماك الرامح، والآخر في الجنوب وهو السّماك الأعزل.

وله غير ذلك من الشعر. وسار أحسنَ سيرة وكان نقش خاتمه «بالله يثق عبد الرحمٰن ويعتصمُ» وكان له من الأولاد الذكور أحد عشر ولدًا وهم: أيوب الشامي ولد بالشام، وسليمان وهشام ولي عهده وهو الوالي بعده وُلد بالأندلس، وعبد الله ولد ببلنسية وعرف بالبلنسي، ومسلمة المعروف بكليب، وأُمية، ويحيى، والمنذر، وسعيد الخير، ومحمد، والمغيرة، ومعاوية، وتسع بنات.

حاجبه: تمام بن علقمة وغيره.

كتَّابه: أبو عثمان، وعبد الله بن خالد، وغيرهما.

قضاته: يحيى بن يزيد التجيبي، ومعاوية بن يوسف الحضرمي، وعمر بن شراحيل، وعبد الرحمٰن بن طريف اليحصبي.

ذكر إمارة هشام

هو أبو الوليد هشام بن عبد الرحمٰن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان وأمه أم ولد واسمها حوراء وهو الثاني من ملوك بني أُمية بالأندلس. بويع له في غُرَّة جُمادى الأولى سنة اثنتين وسبعين ومائة عند وفاة أبيه، وقيل في يوم الثلاثاء لِستٍّ بقين من شهر ربيع الآخر سنة إحدى وسبعين ومائة والله أعلم. وكان بمارِدة متوليًا عليها ـ كما ذكرنا ـ وكان أبوه قد عهد إليه قبل وفاته، وقدَّمه على سليمان وهو أكبر منه لأنه كان يتَوَسَّم فيه الشَّهامة، فلذلك عهد إليه فبايع له أخوه عبد الله وكتب إليه بنعي أبيه ويعزيه به ويعرفه أنه بايع الناسَ له. فلما وصل إليه الكتابُ سار من ساعته إلى قرطبة فدخلها في ستة أيام، واستولى على المُلْك، وخرج عبد الله إلى داره مُظْهِرًا الطاعةَ وفي نفسه خلاف ذلك!.

ذكر خروج سليمان وعبد الله ابني عبد الرحمٰن على أخيهما هشام

وفي سنة ثلاث وسبعين ومائة خرَجَا على أخيهما، وكان عبد الله عند أخيه هشام وهو يؤثره ويبرُّه ويقدمه، فلم يُرْضِه ذلك ولا قنع إلا بمشاركته في الأمر، ثم خاف فَهَرَب إلى أخيه سليمان وهو بطليطلة. فأرسل هشام في أثره جماعةً ليردُّوه، فلم يدركوه، فجمع هشام عساكره وسار إلى طليطلة فحصر أخويه بها.

وكان سليمان قد حشَد وجمع جمْعًا كبيرًا فلما حصرها هشام سار سليمان من طليطلة وترك ابنه وأخاه عبد الله يحفظان البلاد، وسار هو إلى قرطبة ليملكها، فعلم هشام به فلم يفارق الحصار.

وسار سليمان فوصل إلى شقنْدَة[١] فدخلها، وخرج إليه أهل قرطبة مقاتلين له، ودافعوه عن المدينة. وبعث هشام في أثر سليمان عبدَ الملك في قطعةٍ من الجيش، فلما قاربه هرب سليمان وقصد مدينة مارِدة، فَحَاربَه واليها، فانهزم سليمانُ. وبقيَ هشام على طليطلة شهرين وأيامًا محاصرًا لها، ثم عاد منها وقد قطع أشجارها، وسار إلى قرطبة، وأتاه أخوه عبد الله بغير أمان فأكرمه وأحسن إليه.

ثم سيَّر هشام ابنَه معاويةَ في جيشٍ كثيف في سنة أربع وسبعين إلى تُدمير وبها سليمان فحاربه، وخرّب أعمالَ تُدمير، فهرب سليمان منها، فلجأ إلى البربر بناحية بَلَنسية، فاعتصم بتلك الناحية الوعرة المسلك. وعاد معاويةُ إلى قرطبة، ثم استقرَّت الحال بين هشام وسليمانَ أن يأخذ سليمانُ أهله وأولاده وأمواله ويفارق الأندلس، وأعطاه هشام ستين ألفَ دينارٍ مصالحةً عن ميراث أبيه عبد الرحمٰن وسار إلى بلد البربر فأقام به.

ذكر خروج جماعة أخر على الأمير هشام

وفي سنة اثنتين وسبعين خرج عليه أيضًا سعيد بن الحسين بن يحيى الأنصاري بشاغنت ـ من أقاليم طَرْطُوشة[٢] في شرق الأندلس ـ وكان قد التجأ إليها حين قُتِل أبوه، ودعا إلى اليمانية وتعصّب لهم، فاجتمع له خَلْقٌ كثير، فملك مدينة طُرطوشة فأخرج عاملَها يوسف القَيْسيَّ. فعارضه موسى بن فرتون وقام بدعوة هشام، ووافقته مُضَر، فاقتتلا فانهزم سعيد وقُتل، وسار موسى إلى سرقسطة فملكها فخرج عليه مولى الحسين بن يحيى واسمه جحدر في جمع كثير فقاتله فقُتِل موسى.

وخرج أيضًا مطروح بنُ سليمانَ بنِ يقظانَ بمدينة برشلونة، وخرج معه جمع كثير، فملك مدينة سرقسطة ومدينة وشْقَة[٣] وتغلّب على تلك الناحية وقَوِي أمرُهُ، وكان هشام إذ ذاك في حربِ أخويْه سليمانَ وعبدِ الله، فلما خلاَ وجهُهُ من أمْرِ أخوَيْه انتدب لمطروحٍ جيشًا كثيفًا وجعل عليهم أبا عثمانَ عبيد الله بن عثمان. فسار إليه وهو

---

(١) شقندة: بلدة رومانية كانت واقعة تجاه قرطبة على الشاطىء الأيسر للوادي الكبير، ومنها إسماعيل الشقندي الأديب الأندلسي.

(٢) طرطوشة: مدينة بالأندلس تتصل بكورة بلنسية وهي شرقي بلنسية وقرطبة قريبة من البحر متقنة العمارة مبنية على نهر ابره ولها ولاية واسعة وبلاد كثيرة... (معجم البلدان).

(٣) وشقة: هي من مشاهر من الثغر، وفوق سرقسطة وتحت جبال البرت.

بسرقسطة فحصروه بها فلم يظفروا به، فرجع عنه أبو عثمان ونزل بحصن طرسونة[١] بالقرب من سرقسطة ورتَّب سراياه يغيرون على أهل سرقسطة ويمنعون عنهم الميرة. ثم خرج مطروح إلى الصيد في بعض الأيام، فلما كان آخر النهار أرسل البازي على طائر فاقتنصه فنزل مطروح ليذبحه بيده ومعه صاحبان له قد انفرد بهما عن أصحابه فقتلاه وأتيا برأسه إلى أبي عثمان، فسار إلى سرقسطة فكاتبه أهلها فقبل منهم وأرسل الرأس إلى هشام.

قال: وأخذ أبو عثمانَ الجيشَ وسار بهم إلى بلاد الفرنج فأوقع بهم وظفر وقتل منهم خلقًا كثيرًا، وبعث هشام يوسف بن بخت في جيش إلى جليقية فَلَقِيَ ملكهم، فاقتتلوا قتالاً شديدًا فانهزمت الجلالقةُ وقتل منهم خلق كثير.

وفيها أيضًا سَجنَ هشامٌ ابنَه عبدَ الملك لشيء بلَغَه عنه، فَبَقِيَ في السجن مدةَ حياةِ أبيه وبعض ولاية أخيه إلى أن تُوفِّيَ سنة ثمان وتسعين ومائة.

وفي سنة ست وسبعين ومائة غزا عبد الملك بن عبد الواحد بلاد الفَرنْجِ فغنم وظفر.

وفيها استعمل هشام ابنَه الحكَم على طليطلة وسيّره إليها بضبطها، وأقام بها، وَوُلِد له بها ابنُه عبد الرحمٰن.

ذكر غزو الفرنج

وفي سنة سبع وسبعين ومائةٍ أغزى هشام عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث في جيش، فدخلوا بلاد الفرَنْج فبلغوا أربونة[٢] وجرندة فبدأ بجرندة وبها حامية الفرنج فقتل رجالَها وهدم أسوارَها وأشرف على فتحها. ورحل عنها إلى أربونة ففعل مثل ذلك وأوْغل في بلادهم ووطىء برطانية واستباح حريمها وقتل مُقاتِلَتَها وجاس البلاد شهورًا يُخرِّب الحصون ويحرق ويغنم. وجفل العدو بين يديه، وأوغل في بلادهم ورجع ومعه الغنائم وما لا يُحْصَى كثرة، وهي أشهر مغازي المسلمين بالأندلس.

---

(١) طرسونة: بفتح أوله وثانيه ثم سين مهملة، وبعد الواو الساكنة نون: مدينة بالأندلس بينها وبين تطيلة أربعة فراسخ... (معجم البلدان).

(٢) أربونة: بلد في طرف الثغر من أرض الأندلس، بينها وبين قرطبة ألف ميل... (معجم البلدان).

وفي سنة ثمان وسبعين ومائة بعث هشامٌ جيشًا مع عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث إلى بلاد الفرنج فغزا ألية[١] والقلاع فغنم وسلم. وسيَّر جيشًا آخر مع أخيه عبد الملك بن عبد الواحد إلى بلاد الجلالقة فخرَّبَ دار ملكهم وكنائسَه وغنم، فلما قفل المسلمون ضلَّ الدليل بهم فنالهم مشقة شديدة ومات منهم خلق كثير، ونفقت[٢] دوابُّهم وتلفت آلاتهم، وعاد من سلم منهم.

ثم بعثه في سنة تسع وسبعين في جيش كثيف فساروا حتى انتهروا إلى أسْتُرْقة وكان ملك الجلالقة قد جمع وحشد واستمد جيرانه من الملوك، وصار في جمع عظيم. فلما قدم عبد الملك رجع ملك الجلالقة هيبةً له، وتبعهم عبد الملك يقفو أثرَهم ويخرب، وهتك حريم ملك الجلالقة! وبلغه أنه احتمى بوادٍ فسار إليه وواقعه يوم الجمعة لليلتين بقيتا من جُمادى الآخرة فهزمه، وقتل من قمامصتهم ورؤسائهم كثيرًا، ورجع سالمًا.

وكان هشامٌ قد سيَّر جيشا آخر من ناحية أُخرى، فدخلوا البلاد أيضًا على ميعاد من عبد الملك، فأخربوا ونهبوا وغنموا فلما أرادوا الخروج من بلاد العدو عارضهم عسكر الفرَنج، فنال منهم، وقتل من المسلمين، ثم تخلصوا وعادوا.

ذكر فتنة تاكرتا

وفي سنة ثمان وسبعين ومائة هاجمته فتنة تاكرتا[٣] بالأندلس، وخلع البربر الطاعة وأظهروا الفساد، وأغاروا على البلاد وقطعوا الطريق، فسيَّر هشامٌ إليهم جيشًا كثيفًا عليهم عبد القادر بن أبان بن عبد الله مولى معاوية بن أبي سفيان، فقصدوها وتابعوا قتال مَنْ فيها، إلى أن أبادوهم قتلاً وسَبْيًا، وفرَّ مَن بَقِيَ منهم فدخل في سائر القبائل، وبقيت كورة تاكرتا خالية سَبْع سنين!.

ذكر وفاة هشام بن عبد الرحمٰن وشيء من أخباره وسيرته

كانت وفاتُه في ليلة الخميس لثلاثَ عشرةَ ليلةً خَلَت من صفر سنة ثمانين ومائة بقصر قرطبة وكان عمره تسعًا وثلاثين سنةً وأربعةَ أشهر، ومدة ولايته سبع سنين

(١) ألية: ناحية من نواحي أشبيلية.
(٢) يقال: نفقت الدابة: إذا ماتت.
(٣) تاكرتا: كورة كبيرة بالأندلس ذات جبال حصينة يخرج منها عدة أنهار وفيها معقل رندة.

وتسعة أشهر وثلاثة عشر يومًا. وكان أبيض مشربًا بحمرة أشهل، بعينيه حول وكان عاقلاً حازمًا ذا رأي وشجاعة وعدل، محبًا لأهل الخير والصلاح، راغبًا في الجهاد. وكان يعود المرْضَى ويشهد الجنائز، ومن محاسن أعماله أنه أخرج متصدقًا يأخذ الصدقة على كتاب الله وسنّة نبيه ﷺ. وهو الذي تمَّمَ بناء جامع قرطبة وبنى عِدَّة مساجد، وبلغ من عز الإسلام في ولايته وذل الكفر أنَّ رجلاً مات وأوْصَى بفَكِّ أسيرٍ من المسلمين من تركته، فَطُلِب ذلك فلم يوجدْ في دار الكفار أسيرٌ من المسلمين يُشْتَرى ويفَكُّ لضعف العدو! وله مناقب كثيرة بالغ أهل الأندلس فيها حتى قالوا: كان يُشبَّهُ بعمر بن عبد العزيز، وكان نقش خاتمه «بالله يثق هشام ويعتصم».

وكان له من الأولاد الذكور عبد الملك الأكبر، والحكم الوالي بعده، ومعاوية، والوليد، وعبد العزيز، وخمس بنات.

وزراؤه: أبو عثمان صاحب الأرض، ويوسف بن بخت، وشهيد ابن عيسى وغيرهم. حجابه: عبد الواحد بن مغيث إلى أن توفي، ثم ولده عبد الملك وهو رجل الأندلس جمع الحِجابة والوزارة والكتابة والتقدُّم على الجيوش مع حسن الأدب والعفاف والدين والتواضع والكرم والمروءة. كتابه: فطيس بن سلمة، وخطَّاب بن يزيد. قاضيه: المصعب بن عمران الهمذاني. أصحاب شرطته: الحسن بن بسام، ثم علي بن خريم المزني، ثم سعيد بن عياض اليحصبي.

ذكر إمارة الحكم بن هشام
الملقب بالمرتضى

هو أبو العاص الحكم بن هشام بن عبد الرحمٰن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، وأُمُّه أُم ولد اسمها زخرف، وهو الثالث من ملوك بني أُمية بالأندلس. بويع له يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة خلت من صفر سنة ثمانين ومائة، وتولَّى أخْذَ البيعةِ له عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث، ولما وليَ الحكم كان أول ما بدأ به الغزو في سبيل الله تعالى.

ذكر غزو الفرنج

في هذه السنة ـ أعني سنة ثمانين ومائة ـ بعث الحكم جيشًا مع عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث إلى بلاد الفرنج، فدخل البلاد وبثَّ السرايا. وسيّر سرية، فجازوا خليجًا من البحر كان الماء قد جزر عنه وكان الكفار قد جعلوا أموالهم وأهلهم

وراء ذلك الخليج ظنًّا منهم أن أحدًا لا يقدر أن يعبر إليهم. فجاءهم ما لم يكن في حسبانهم، فغنم المسلمون جميعَ أموالِهم، وأسروا الرجال وقتلوا منهم فأكثروا القتل، وسبوا الحريم والذُّريَّة، وعادوا سالمين.

وما أشبه هذه الواقعة بفتح طرابلس الشام! فإنه لما فتحها السلطان الشهيد الملك المنصور سيف الدين قلاون الصالحي ـ قدَّس اللّهُ روحه ـ في سنة ثمان وثمانين وستمائة جزَرَ البحرُ ساعة الفتح وانطرد عنها حتى دخل المسلمون بخيلهم إلى جزيرة النحلة وهي بعيدة عن الميناء، وسنذكر ذلك إن شاء الله تعالى في موضعه.

قال: وعاد المسلمون إلى عبد الكريم وقد ملأُوا أيديهم من الغنائم. وسيّر طائفةً أُخرى فخربوا كثيرًا من بلاد فرنسية وغنموا الأموال وأسروا الرجال فأخبرهم بعضُ الأسرى أن جماعةً من ملوك الفرنج قد سبقوا المسلمين إلى وادٍ وعْر المسلك على طريقهم وبلغ ذلك عبد الكريم فجمع عساكره وسار على بغيته وجَدَّ السير، فلم يشعر الكفارُ إلا وقد خالطهم المسلمون ووضعوا السيفَ فيهم فانهزموا، وغنم المسلمون ما معهم وعادوا بالظفر والغنيمة والسلامة.

ذكر خلاف بهلول بن مرزوق وغيره

وفي سنة إحدى وثمانين ومائةٍ خالف بهلول بن مرزوق المعروف بأبي الحجاج في ناحية الثغر، ودخل مدينة سرقسطة فملكها. وقدم على بهلولٍ بها عبدُ الله بن عبد الرحمٰن عمُّ الحكم ـ وهو المعروف بالبلنسي ـ وكان متوجهًا إلى الفرنج، ثم سار إلى مدينة طلبيرة[١] فنزل بها مع عمروس بن يوسف. فسار إليهم بهلول وحاصرهم فتفرّق العرب عنهم، ودخل بهلول مدينة طلبيرة وسار عبد الله إلى مدينة بلنسية فأقام بها وذلك في سنة أربع وثمانين.

وخالف عبيدة بن حمير بطليطلة، فأمر الحكم القائد عمروس بن يوسف وهو بمدينة طلبيرة أن يحارب أهل طليطلة ففعل، وضيّق عليهم، وكاتب رجالاً من أهلها يُعرفون ببني مخشي واستمالهم، فوثبوا على عبيدةَ، فقتلوه وحملوا رأسه إلى عمروس فأنزلهم عنده ـ وكان بينهم وبين البربر الذين بمدينة طلبيرة دخول ـ فتَسَوَّر البربر عليهم، فقتلوهم، فسيّر عمروس رؤوسهم مع رأس عبيدة إلى الحكم وأخبره الخبر.

---

(١) طلبيرة: بفتح أوله وثانيه، وكسر الباء الموحدة، ثم ياء مثناة من تحت ساكنة، وراء مهملة: مدينة بالأندلس من أعمال طليطلة كبيرة قديمة البناء على نهر تاجة... (معجم البلدان).

ذكر مسير سليمان بن عبد الرحمٰن لقتال ابن أخيه الحكم وقتل سليمان

وفي سنة اثنتين وثمانين ومائة جاز سليمان بن عبد الرحمٰن إلى بلاد الأندلس من الشرق لحرب ابن أخيه الحكم، فسار إليه الحكم في جيوش كثيرة من أهل الشقاق ومَن يريد الفتنة، والتقيا واقتتلا، واشتدتِ الحرب فانهزم سليمانُ وأتبعه عسكر الحكم. وعادتِ الحربُ بيْنهما ثانيةً في ذي الحجة، فانهزم سليمانُ واعتصم بالأوعار والجبال، فعاد الحكم، ثم عاد سليمان فجمع بربرًا وأقبل إلى جانب إستجة[1]. فسار إليه الحكم فالتقوا واقتتلوا في سنة ثلاث وثمانين، واشتد القتال فانهزم سليمان وقصد جهة ماردة فتبعه طائفة من عسكر الحكم فأسروه، وأحضروه إلى الحكم فقتله، وبعث برأسه إلى قرطبة، وكتب إلى أولاد سليمان وهم بسرقسطة كتابَ أمانٍ واستدعاهم فحضروا عنده بقرطبة.

ذكر استيلاء الفرنج على برشلونة

وفي سنة خمس وثمانين ومائة مَلك الفَرنْجُ ـ لعنهم الله تعالى ـ مدينة برشلونة[2] بالأندلس، وأخذوها من المسلمين، ونقلوا حماة ثغورهم إليها، وتأخر المسلمون إلى ورائهم وكان سبب ذلك اشتغال الحكم بمحاربة عمه سليمان بن عبد الرحمٰن.

ذكر الاتفاق بين الحكم وبين عمه عبد الله البلنسي

وفي سنة سِتٍّ وثمانين ومائة حصل الاتفاق بين الأمير الحكم بن هشام وبين عمِّه عبد الله بن عبد الرحمٰن بن معاوية، وذلك أن عبد الله لما سمع بقتل أخيه سليمان عظم عليه وفُتَّ في عضدِه، وخاف على نفسه، ولزم بلنسية ولم يتحرك لإثارة فتنة. وأرسل إلى الحكم يطلب المسالمةَ والدخول في الطاعة، وقيل بل الحكم راسله في ذلك وبذل له الأرزاق الواسعة له ولأولاده، فأجاب إلى ذلك، واستقر الصلح بينهما على يد يحيى بن يحيى صاحب الإمام مالك بن أنس. وزوَّج الحكم أخواته من

---

(١) إستجة: كورة أندلسية متصلة بأعمال رية وهي واسعة الرساتيق على نهر سنجل... بينها وبين قرطبة عشرة فراسخ.

(٢) برشلونة: ميناء على البحر المتوسط في الشمال الشرقي.

أولاد عمه عبد الله، وأكرم عمَّه وأجْرى له ولأولاده الأرزاق الواسعة والصلات السنية. وقيل كانت المراسلة في هذه السنة، واستقر الصلح في سنة سبع وثمانين.

ذكر استيلاء الفرنج على مدينة تطيله

وفي سنة سبع وثمانين ومائة ملك الفرنج ـ لعنهم الله ـ مدينة تُطَيْلَة. وسبب ذلك أن الحكم بن هشام استعمل على ثغور الأندلس قائدًا كبيرًا من قواده وهو عمروس بن يوسف. فاستعمل عمروس ابنه يوسف على تطيلة. وكان قد انهزم من الحكم أهلُ بيت من بيوت الأندلس أُولُو قُوَّةٍ وبأْسٍ، وخرجوا عن طاعته، والتحقوا بالمشركين فَقَوِيَ أمرهم، واشتدت شوْكتُهم، وتقدموا إلى تُطيلة فحصروها وملكوها من المسلمين، وأسروا أميرها يوسف بن عمروس وسجنوه وتقدموا بصخرة قيس. واستقر عمروس بمدينة سَرَقُسْطة ليحفظها من الكفار، وجمع العساكر وسيرها مع ابن عمٍّ له، فلقي المشركين فقاتلهم وفَضَّ جمْعَهم، وقتل أكثرهم، وسار إلى صخرة قبس بالجيش فحصرها وافتتحها وخلَّص يوسف منها.

ذكر إيقاع الحكم بأهل قرطبة

كان ذلك في سنة سبع وثمانين ومائة، وسببه أن الحكم في صدْرِ ولايته كان قد تظاهر بِشُرْبِ الخمر والانهماك على الملذات. وكانت قرطبة دارَ علم وبها فضلاء أهل علم وورع، منهم يحيى بن يحيى الليثي راوي موطأ مالك بن أنس وغيره. فثار أهل قرطبة وأنكروا فعل الحكم ورموه بالحجارة وأرادوا قَتْلَه، فامتنع منهم ثم سكن الحال واجتمع بعد ذلك بأيامٍ وجوهُ أهلِ قرطبةَ وفقهاؤها وحضروا عند محمد بن القاسم القرشي المرواني ـ عمِّ هشام بن حمزة ـ وأخذوا له البيعةَ على أهل البلد وعرّفوه أن الناس قد ارتضوه كافَّةً. فاستظهرهم ليلةً ليرى رأْيَه، ويستخيرَ الله تعالى فانصرفوا، وحضر هو عند الحكم وأعلمه الحالَ وأنه على بيْعته له لم يتغير، فطلب الحكمُ تصحيح ذلك عنده وسيَّر مع محمد بن القاسم بعض ثقاتِه فأجلسه محمد في قبة في دارِه وأخْفى أمره، وحضر عنده القوم يستعلمون منه هل يتقلد أمرهم أم لا. فأراهم المخافة على نفسِهِ وعظَّم عليهم الخَطْبَ وسألهم تعدادَ أسمائهم ومن معهم، فذكروا له جميع مَنْ معهم من أعيان البلد وصاحبُ الحكم يكتب أسماءهم، فقال لهم محمد بن القاسم: يكون هذا الأمر يومَ الجمعة إن شاء الله تعالى في المسجد الجامع! فانصرفوا ومشى إلى الحكم مع صاحِبِه فأعلماه جلية الحال. وكان ذلك يومَ الخميس، فما جاء الليل حتى حَبَسَ الجماعةَ عن آخرهم، ثم أمر بهم بعد أيام فَصُلِبُوا عند

قصرِه وكانوا اثنين وَسبعين رجلاً، وكان يومًا شنيعًا ثم كانت وقعة الرَّبض بعد ذلك على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر إيقاع الحكم بأهل طليطلة
وهي وقعة الحُفرة

قال: وفي سنة إحدى وتسعين ومائةٍ أوقع الحكم بأهل طليطلة، فقتل منهم ما يزيد على خمْسةِ آلافِ رجل من أعيان أهلِها. وكان سبب ذلك أن أهل طليطلة كانوا قد طمعوا في الأُمراء وخلعوهم مرَّة بعد أُخرى، وقويتْ نفوسُهم؛ لِحصانة بلدِهم وكثرة أموالهم، فلم يكونوا يطيعون أمراءهم طاعةً مُرْضِيةً. فلما أعيا الحكمَ شأنُهم أعمل الفكرةَ، فاستعان بعمروس بن يوسف المعروف بالمولد، وكان قد ظهر في هذا الوقت بالثَّغر الأعلى، وأظهر طاعةَ الحكم ودعا إليه فاطمأن إليه لهذا السبب. واستقدمه فَقدِم عليه، فبالغ الحكم في إكرامه وأطْلَعه على عزْمه في أهل طليطلة فوافقه عليه.

وكتب إلى أهلها يقول «إنني قد اخترت لكم فلانًا وهو منكم لتطمئنَّ قلوبُكم إليه وأعْفيْتُكم مِمَّن تكرهون من عُمَّالِنا وموالينا، ولتعرفوا جميل رأينا فيكم» ومضى عمروس ودخل طليطلة فأنس أهلها به واطمأنوا إليه وأحسن عشرتهم.

وكان أول ما احتال به عليهم أن أظهر موافقتهم على بُغْضِ بني أُمية وخلْع طاعتِهم، فمالوا إليه ووثقوا به ورضوا بِفِعله ثم قال لهم: إن سبَبَ الشرِّ بينكم وبين أصحاب الأُمراء اختلاطُهم بكم، وقد رأيت أن أبني بناءً أعتزل فيه أنا وأصحابُ السلطان رفقًا بكم! فأجابوه إلى ذلك، فبنى في وسط البلد ما أراد.

فلما مضى لذلك مدة كتب الحَكمُ إلى عامل له على الثغر الأعلى سِرًّا يأمره أن يرسل إليه يستغيثُ من جيوش الكفرَة، وطلب النجدة والعساكر، ففعل ذلك، فحشد الحكم الجيوشَ واستعمل عليهم ابنه عبد الرحمٰن، وجهَّز معه القوادَ والوزراءَ، فسار الجيش حتى اجتاز مدينة طليطلة فلم يتعرض عبدُ الرحمٰن لدخوله إليها. وأتاه وهو عندها خبرُ العامل على الثغر الأعلى يقول «إن عساكر الكفرة قد تفرَّقتِ وكفى الله شرَّها» فوقف العسكر وعزم عبد الرحمٰن على الْعَوْد إلى قرطبة فقال عمروس عند ذلك لأهل طليطلة: قد ترَوْن نزول ولد الحكم إلى جانبي، وأنه يلزمني الخروج إليه وقضاء حقِّه، فإن نشطتم إلى ذلك وإلا سرتُ إليه وحدي! فقالوا: بل نكون معك.

فخرج ومعه وجوه أهل طليطلة فأكرمهم عبدُ الرحمٰن وأحسن إليهم، وكان الحكم قد أرسل مع ولده خادمًا له ومعه كتاب لطيف إلى عمروس فَلَقِيه الخادم وصافحه وسلَّم الكتابَ إليه من غير أن يحادِثه. فلما قرأ عمروسُ الكتاب رأى فيه كيف تكون الحيلة على أهل طليطلة، فأشار إلى عيون أهلِها أن يسألوا عبد الرحمٰن الدُّخولَ إليه ليرى هو وأهلُ عسكرِهِ كثرتَهم وقوتَهم ومنعتهم فظنوا أنه ينصحهم، ففعلوا ذلك. وأدخلوا عبدَ الرحمٰن البلد، فنزل مع عمروس في دارِه، وأتاه أهل طليطلة أرسالاً يسلمون عليه، وأشاع عمروس أن عبد الرحمٰن يريد أن يَتَّخِذ لهم وليمةً عظيمةً. وشرع في الاستعداد لذلك وواعدهم يومًا ذكره لهم، وقرر أنهم يدخلون من بابٍ ويخرجون من آخر ليقلَّ الزحام ففعلوا ذلك! وأتى الناسُ أفواجًا عند الميعاد، فكان إذا دخل فوج أُخِذوا وحُمِلوا إلى جماعةٍ من الجنْدِ على حُفْرةٍ كبيرةٍ في القصر فتضرب رقابُهم. فلما تعالى النهار أتى بعضُهم فلم يَرَ أحدًا فقال: أين الناس؟ فقيل له: إنهم يدخلون من هذا الباب ويخرجون من الآخر! فقال: لم أَلْق منهم أحدًا! وعَلِم الحال فعاد وصاح بالناس وأَعْلَمَهُم هلاك أصحابِهِ، فكان سبب نجاة مَن بَقِيَ منهم، ودانوا وحسنت طاعتُهم بقية أيام الحكم وأيام ولدِه عبد الرحمٰن ثم كان منهم بعد ذلك ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر عصيان أهل ماردة على الحكم وما فعله بأهل قرطبة

وفي سنة إحدى وتسعين عَصى أصبغ بن عبد الله عَلَى الحكم ووافقه أهل ماردة وأخرجوا عامله عنها، فاتَّصل الخبرُ بالحكم، فسار إليها وحصَرَها. فبينما هو في ذلك أتاه الخبرُ عن أهل قرطبة أنهم أعلنوا العِصْيَان له، فرجع إلى قرطبة مبادِرًا، فوصلها في ثلاثةِ أيام وكشفَ عن الذين أثاروا الفتنة فصلبهم منكَّسين، وضرَب أعناق جماعةٍ. فارتدع الباقون بذلك واشتدّت كراهتهم للحكم، ولم يزل أهلُ ماردة تارةً يطيعون وتارةً يعصون إلى سنة اثنتين وتسعين، فضعُفَ أمرُ أصبغ بن عبد الله لأن الحكم تابع إرسال الجيوش واستمال جماعةً من أهل ماردة وثقات أصحابه فمالوا إلى الحكم وفارقوا أصبغ حتى أخوه، فضعفت نفسُه فطلب الأمان فأمَّنه الحكم، ففارق ماردة، وحضر إلى الحكم وأقام بقرطبة.

ذكر غزو الفرنج

وفي هذه السنة تجهز لُذَريق ملك الفرنج وجَمع جموعه ليسير إلى مدينة طرطوشة[١] ليحصُرَها، فبلغ ذلك الحكم فجمع العساكر وسيَّرها مع ولده عبد الرحمٰن، فاجتمعوا في جيشٍ عظيم وتبعهم كثير من المتطوعة، فساروا حتى لقوا الفرنج في أطراف بلادِهِم قبل أن ينالوا من بلادِ الإسلام شيئًا، فاقتتلوا وبذلَ كلٌّ من الطائفتين جهده واستنفد وُسْعه فأنزل الله تعالى نَصْره على المسلمين، وهزم الكفار وكثُر القتلُ فيهم والإسار، وانتُهبتْ أموالهم، ورجع المسلمون بالظفر.

ذكر عصيان حزم على الحكم

وفي هذه السنة خالف حزم بن وهب بناحية باجة ووافقه غيره، وقصدوا لشبونة[٢] فلما بلغ الحكم الخبر، سار إليه الحكم في جمع كبير، فنازله وقطع الأشجار وضيَّق عليهم حتى أذعنوا إلى طلب الأمان، فأمَّنه وأخذ رهائنه على المصالحة والطاعة، وعاد عنه الحكم إلى قرطبة.

ذكر عودة أهل ماردة إلى العصيان وغزو الحكم بلاد الفرنج

قال: ثم عاد أهل ماردة إلى العصيان والخلاف على الحكم في سنة أربع وتسعين، فسار الحكم بنفسه إليهم وقابلهم. ولم تزل سراياه وجيوشه تتردد وتقاتِلُهم إلى سنة سِتٍّ وتسعين ومائة، فطمع الفرَنج في ثغور المسلمين وقصدوها بالغارات والقتل والنَّهْب والسَّبْي. وقد شغل الحكم بأهل ماردة عنهم حتى أتاه الخبر بشدَّة الأمر على أهل الثغور وما نال العدوُّ منهم، وسمع أن امرأة مسلمة أُخِذَتْ أسيرة فقالت: واغوثاه يا حكم فعظُم عليه الأمرُ وجمع العساكرَ واستعدّ وحشد، وسار إلى بلاد الفرنج في سنة ست وتسعين ومائة فأثخن[٣] في بلادهم، وافتتح عدَّة حصون وخرَّب وقتل الرجال وسبى الحريم ونهب الأموال، وقصد الناحية التي بها تلك المرأة فأسر لهم من الأسرى ما يفادون به أسراهم، وبالغ في الوصية في تخليص تلك المرأة فخلصت من الأسر وقتل بقية الأسرى.

---

(١) طرطوشة: مدينة تصل بكورة بلنسية وهي شرقيها قريبة من البحر.

(٢) لشبونة: مدينة تتصل بشنترين قريبة من البحر وعلى ساحلها يوجد العنبر الفائق.

(٣) أثخن فيها: أي بالغ في ضربه.

فلما فرغ من غزاته قال لأهل الثغور: أغاثكم الحكم؟ قالوا: نعم! وأثنوْا عليه خيْرًا، وعاد إلى قرطبة مظفرًا منصورًا.

وفي سنة سبع وتسعين ومائة اشتد الغلاء بالأندلس وعمَّ البلادَ، ومات كثير من الخلق، وكان أكثر الناس يطوون للعدم.

ذكر وقعة الربض(١) بقرطبة

وفي سنة ثمانٍ وتسعين ومائةٍ كانت وقعة الربض بقرطبة، وسببها أن الحكم كان كثير التشاغل بالشُّرب واللهو والصيد وغير ذلك مما يُجانِسُه، وقد قدَّمنا ما كان قد فعله بأهل قرطبة لما أرادوا خلْعه ومَنْ صلب منهم. فزادت كراهةُ أهلِها فيه، وصاروا يتعرَّضون لِجُنْدِهِ بالأذى والسَّبِّ، وبالغوا حتى إنهم كانوا ينادون عند انقضاء الأذان الصلاةَ يا مخمورُ الصلاةَ! وشافههُ بعضهم بالقول وصفقوا عليه بالأكف. فشرع في تحصين قرطبة وعمارةِ أسوارها، وحفرِ خنادِقِها، وارتبط الخيل على بابه، واستكثر من المماليك، ورتب جمْعًا لا يفارقون باب قصرِه بالسلاح. فزاد ذلك في حِقدِ أهل قرطبة، وتحققوا أنه يفعل ذلك للانتقام منهم، ثم وضع عليهم عُشْر الأطعمة في كلِّ سنةٍ من غير حِرْصٍ فكرهوا ذلك.

ثم عمد إلى عشرة من رؤسائهم فقتلهم وصلبهم، فهاج لذلك أهلُ الرَّبض، وانضاف إلى ذلك أن مملوكًا له سلّم إلى صيْقل سيفًا ليصقله له فمطله الصيقل، فأخذ ذلك المملوك السيف ولم يزل يضرب به ذلك الصيقل إلى أن مات وذلك في شهر رمضان من هذه السنة، فكان أول من شهر السلاح أهل الرَّبض القبلي، واجتمع أهلُ الأرباض جميعهم بالسلاح، واجتمع الجندُ والأمويون والعبيد بالقصر. وفرق الحكم الخيل والسلاح، وجعل أصحابه كتائب.

ووقع القتالُ بين الطائفتين، فغلبهم أهل الربَض وأحاطوا بالقصر، فنزل الحَكم من أعلى القصر ولبس سلاحَه وحرَّض الناس على القتال، فقاتلوا قتالاً شديدًا. ثم أمر ابن عمِّه عبيد الله فثلم من السور ثلمة وخرج منها بقطعة من الجيش وأتى أهلَ الرَّبض من وراء ظهورهم فلم يشعروا به، وأضرم النارَ في الرَّبضَ. فانهزم أهله وقتلوا قتلًا ذريعًا وأُسِر من وجد في المنازل والدور فانْتقَى الحكمُ ثلاثمائة من وجوه الأسرى فَصَلَبَهم منكسين، ودام النُّهْبُ والقتل والحريقُ في أرباض قرطبة ثلاثة أيام.

---

(١) ربض قرطبة: محلة فيها.

ثم استشار الحكم فيهم عبدَ الكريم بن عبد الواحد بن مغيث، فأشار عليه بالصَّفح عنهم والعفو، وأشار غيره بالقتل، فقبل قولَ عبد الكريم. وأمر فَنُودِيَ بالأمان على أنه من بَقِيَ من أهل الربض بعد ثلاثة أيام قُتِل وصُلِب، فخرج من بقِيَ منهم بعد ذلك مستخفيًا، وتحمَّلُوا على الصَّعْب والذلول[1] وخرجوا من حضرة قرطبة بنسائهم وأولادِهم وما خفَّ من أموالهم. وقعد لهم الجند والسفلة بالمرصاد، ينهبون أموالهم، ومَن امتنع عليهم قتلوه!

فلما انقضتِ الأيامُ الثلاثةُ أمر الحكم بكَفِّ الأذى عن حرم الناس، وجمعهن إلى مكانٍ واحدٍ، وأمر بهدْم الرَّبَض القبلي. وكان بزيع مولى أُمية ابن الأمير عبد الرحمٰن بن معاوية محبوسًا في حبْسِ الدم وفي رجله قيدٌ ثقيل، فلما رأى أهلَ قرطبةَ قد غلبوا الجُنْد سأل الحرس أن يُفرِجوا عنه فأخذوا عليه العهدَ أن يعود فأطلقوه، فخرج فقاتل قتالاً شديدًا لم يكن في الجيش من قَاتَل مثله، فلما انهزم أهلُ الربض عاد إلى السجن، فانْتَهَى خبرُه إلى الحكم فأطلقه وأحسن إليه. وقيل إن هذه الوقعة كانت في سنة اثنتين ومائتين والله أعلم. قال بعض المؤرخين: اجتمع في الرَّبض أربعة آلاف فقيه وطالب!

وكان مِمَّن خرَج عليه يحيى بن يحيى الليثي[2]، فهرب ونزَلَ على حَيٍّ من البربر، ثم أمَّنه الحكمُ بعد ذلك وحظي عنده. ومنهم الفقيه طالوت بن عبد الجبار، ففرَّ واستتر عند رجل يهوديٍّ عامًا كاملاً. وكان بينه وبين أبي البسام صداقة، فقصد فأخبر الحكم به، وأحضره إليه فعنَّفه الحكمُ على خروجه عليه، ثم أمَّنه وصرفه إلى منزله وسأله أين استتر فأخبره باليهودي وبأبي البسام، فاغتاظ على أبي البسام وعزلهُ عن وزارته وكتب عهدًا أن لا يخدمه أبدًا. ومنهم عبد الملك بن حبيب، وغيرهم.

ذكر غزو الفرنج

وفي سنة مائتين جهَّزَ الحكمُ جيشًا مع عبد الكريم بن مغيث إلى بلاد الفرنج، فسار حتى توسَّط بلادهم، فخربها ونهبها وهدم عدةً من حصونهم، واستنفد خزائن ملوكهم. فلما رأى ملكُهم ذلك كاتب جميع ملوك تلك النواحي، واسْتَنْصر بهم فاجتمعت إليه أهلُ النصرانية من كلِّ مكان. وأقبل في جموعٍ عظيمةٍ ونزل بإزاء عسكر

---

(١) الذلول: السهل الانقياد. والصعب بخلافها.

(٢) هو أبو محمد يحيى بن يحيى بن كثير بن وسلاس بن شمّال بن منغايا الليثي، أصله من البربر من قبيلة يقال لها مصمودة، تولى بني ليث فنسب إليهم... (وفيات الأعيان ٦: ١٤٣).

المسلمين وبينهم نهر، فاقتتلوا عدَّة أيام والمسلمون يريدون عبور النهر إليهم وهم يمنعونهم من ذلك. فلما رأى المسلمون ذلك تأخروا عن النهر فعبر المشركون واقتتلوا أعظم قتال، فانهزم الكفار إلى النهر وأخذهم السَّيْفُ والأسر، فأُسِر جماعةٌ من ملوكهم وكنودهم وقمامصتهم. وعاد الفَرَنْجُ لزموا جانب النهر يمنعون المسلمين من عبورِه فأقاموا ثلاثةَ عشرَ يومًا يقتتلون في كلِّ يوم، فجاءت الأمطار وزاد النهر فتعذر جوازه، فقفل عبد الكريم عنهم في سابع ذي الحجة من السنة.

ذكر غزو البربر بناحية مورور

وفيها خرج خارجيٌّ من البربر من ناحية مورور ومعه جماعةٌ، فوصل كتابُ العامِل بها إلى الحكم بخبره، فأخفى الحكم أمْره واستْدعى من ساعته قائدًا من قواده فأخبره بذلك سرًّا وقال له: سِرْ من ساعتك إلى هذا الخارج وائتِني برأسِه وإلا فرأسك عِوضه وأنا قاعدٌ في مكاني هذا إلى أن تعود! فسار القائد إلى الخارج، فلما قاربه سأل عنه فأخبر أنه في احتياط كثير واحتراز شديد، فعجز عنه ثم تذكر قول الحكم فأعمل الحيلة حتى دخل عليه وقتله وأتى برأسه إلى الحكم، فرآه بمكانه ذلك لم يتغيرْ، وكانت غيبته أربعةَ أيام، فأحسن إلى القائد وأكرمه ووصله وأغلى محلَّه.

ذكر وفاة الحكم

كانت وفاته يومَ الخميس بعد الظهر لأربع بقين من ذي الحجة سنة ست ومائتين، وكان عمره اثنتين وخمسين سنةً وقيل ثلاثًا وخمسين سنة وقيل أقل من ذلك إلى تسع وأربعين سنة، ومدةُ إمارته ستًّا وعشرين سنة وعشرة أشهر وثلاثةَ عشرَ يومًا. وكان طويلاً أسمر نحيفًا، وله شِعر جيِّدٌ، وهو أول من جَنَّد الجنود المرتزقة بالأندلس وجمع الأسلحة والعُدَد واستكثر من الحَشم والحواشي، وارتبط الخيول على بابه، واتَّخذ المماليك وجعلهم في المرتزقة فبلغت عدتهم خمسةَ آلاف. وكانوا يسمون الخرس لِعُجْمةِ ألْسِنتِهِم، وكانوا نوابًا على باب قصره.

وكان يطَّلع على الأمور بنفسه ما قرُب منها وما بَعُد، وكان له نفر من ثقاة أصحابه يطالعونه بأحوال الناس، فيردع الظالم، وينصف المظلوم. وكان شجاعًا مِقْدامًا مُهَيْمِنًا وكان يُقرِّبُ الفقهاءَ وأهل العلم. وكان له من الأولاد أبو مطرف عبد الرحمٰن وثمانيةَ عشر ولدًا ذكرًا. كاتبه: الوزير أبو البسام.

ذكر إمارة عبد الرحمٰن بن الحكم

هو أبو المطرف وقيل أبو المظفر عبد الرحمٰن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمٰن الداخل، وأُمه أُم ولد يقال لها حلاوة، وهو الرابع من ملوك بني أمية بالأندلس. بويع له بعد وفاة أبيه في يوم الخميس لأربع بقين من ذي الحجة سَنة سِتٍّ ومائتين وذلك في خلافة المأمون بن الرشيد العباسي.

قال: ولما ولي خرَج عليه عمُّ أبيه عبد الله البلنسي - من بلنسية - وطمِع في المُلْك، فوصل إلى تُدمير يريد قرطبة، فتجهز له عبد الرحمٰن، فلما بلغ ذلك عبد الله خاف وضَعُفَت نفسُه فرجع إلى بلنسية.

ذكر إيقاع عبد الرحمٰن بأهل إلبيرة وجندها

كان ذلك في سنة سبع ومائتين وسبب ذلك أن الحكم كان قد بلغه عن عامل اسمُه ربيع أنه ظلم أبناءَ أهلِ الذمة فقبض عليه وصلبه، فلما توفي الحكم وولي ولدهُ عبد الرحمٰن وسمع النَّاسُ بصلْب ربيع أقبلوا إلى قرطبة من النواحي يطلبون الأموال التي كان ظلمهم ربيعٌ فيها ظنًّا منهم أنها سَتُرَدُّ إليهم. وكان جُنْدُ إلبيرة أشدَّهم وأكثرهم طلبًا وأشدَّهم إلحاحًا وتألُّبًا، فأرسل عبد الرحمٰن من يسكنهم، فلم يقبلوا ودفعوا من أتاهم، فخرج إليهم جمْعٌ من الجند من أصحاب عبد الرحمٰن فقاتلوهم فانهزم جند إلبيرة ومن معهم وقتلوا قتلًا ذريعًا، ونجا من بقي منهم، وأدْرَكَهم الطلبُ فقَتَلَ كثيرًا منهم.

وفيها ثارت بمدينة تُدمير فتنةٌ بين المضريَّة واليمانية فاقتتلوا بلورْقَة[1] فكان بينهم وقعة تعرف بيوم المصابرة قتل بينهم ثلاثة آلاف رجل، ودامت الحربُ بين الفريقين سبع سنين، ووكَل عبدُ الرحمٰن بكفِّهم ومنْعِهِم يحيى بنَ عبد الله بن خالد وسيَّره في جمع من الجيش، فكانوا إذا أحسوا بقرب يحيى افترقوا وتركوا القتال وإذا عاد عنهم رجعوا إلى الفتنة حتى أعياه أمرهم.

وفيها كان بالأندلس مجاعةٌ شديدةٌ ذهب فيها خَلْقٌ كثير وبلغ المُد في بعض المدن ثلاثين دينارًا.

---

(١) لورقا: في الطريق من غرناطة إلى مرسية، مدينة حصينة، ومنعة قلعتها تضرب بها الأمثال.

وفي سنة ثمانٍ ومائتين جهز عبدُ الرحمٰن جيشًا إلى بلاد المشركين، واستعمل عليهم عبدَ الكريم بن عبد الواحد بن مغيث، فساروا إلى بلاد ألية والقلاع فنهبوا بلاد ألَيَة وخربوها وأحرقوها، وفتحوا حصونًا وصالحهم أهل حصون أُخر على مالٍ وإطلاق أسرى المسلمين، وذلك في جُمادى الآخرة.

وفيها توفي عبد الله بن عبد الرحمٰن المعروف بالبلنسي.

وفي سنة عشر ومائتين سيَّر عبدُ الرحمٰن سَرِيَّةً كبيرةً إلى بلاد الفرنج واستعمل عليهم عبيد الله بن عبد الله البلنسي. فسار ودخل بلادهم وتردَّد فيها بالغارات والسَّبْي والقتل والأسْر ولقي جيوشَ الأعداء فهزمهم وأكثر القتل فيهم، وكان فتحًا عظيمًا.

وفيها افتتح عسكر سيَّره عبد الرحمٰن أيضًا حِصْنَ القلعة من أرض العدو في شهر رمضان المبارك.

وفيها أمر ببناء المسجد الجامع بجيّان.

وفيها أخذ عبد الرحمٰن مقدم اليمانية بتُدمير وهو رجاء بن الشماخ لتسكن الفتنةُ بين اليمانية والمضرية فلم تسكن ودامت، فأمر العاملَ بتُدمير أن ينتقل منها ويجعل مرسية[1] قاعدة تلك البلاد.

وفي سنة اثنتي عشرة ومائتين سيَّر عبدُ الرحمٰن جيشًا إلى برشلونة من بلاد العدو فأقام الجيش شهرين يحرقون وينهبون.

وفيها كانت سيول عظيمة وأمطار متتابعة، فخربت أكثر أسوار مدن الأندلس وخربت قنطرة سرقسطة، ثم جددت عمارتها.

وفي سنة ثلاثَ عشرة ومائتين قتل أهلُ ماردة عامِلهم فثارت الفتنة عندهم فسيَّر إليهم عبدُ الرحمٰن جيشًا فحَصَرَهم وأفسد زرْعَهم وأشجارَهم فعادوا للطاعة وأعطَوْا رهائنهم، وعاد الجيشُ عنهم بعد أن خربوا سورَ المدينة، ثم أرسل إليهم مَنْ ينقل أحجارَ السورِ إلى النهر لئلا يطمع أهلها في عمارته، فلما رأوا ذلك عادوا إلى العصيان وأسروا العاملَ عليهم وبنَوْا السور وأتقنوه. فسار عبدُ الرحمٰن بجيوشه إليهم في سنة أربع عشرة ومائتين ومعه رهائن أهلها فراسله أهلها وافتدَوْا رهائنهم بالعامل الذي أسروه وغيره وحصرهم وأفسد بلدَهم ثم رحل عنهم. ثم سَيَّر إليهم جيشًا في سنة سبعَ عشرةَ فحصروها وضيّقوا على أهلها، ودام الحصار ثم رحلوا عنهم. وسيَّر

(١) مرسية: من أعمال تدمير وقاعدتها بناها الأمير عبد الرحمٰن بن الحكم وهي ذات أشجار كثيرة وحدائق، تبعد عن قرطبة إلى الشرق منها... (صفة جزيرة الأندلس ص١٨١).

إليهم جيشًا في سنة ثماني عشرةَ ومائتين ففتحها وفارقها أهلُ الشر والفساد. وكان من أهلها رجلٌ اسمُه محمود بن عبد الجبار المارِدي في جماعةٍ من الجند، فمضى بمن سَلِم من أصحابه إلى مُنْت سالوط فسيَّر إليه عبد الرحمٰن جيشًا في سنةِ عشرين ومائتين فهرب بمن معه إلى جليقية[١] فأرسل سرية في طلبهم، فقاتلهم محمود وهزمهم وغنم ما معهم، وقتل عدةً منهم ثم مضى لِوَجْهِهِ فلقيهُ جَمعٌ من أصحابِ عبد الرحمٰن مصادفةً فقاتلوهم، ثم كفَّ بعضُهم عن بعض وساروا فلقيته سريةٌ أخرى فانهزمت السريةُ وغنم محمود ما معهم ووصل إلى بلاد المشركين فاسْتولى على قلعة لهم فأقام بها خمسة أعوام وثلاثةَ أشهر فحصره أذفونس ملك الفرنج فَملك الحصن وقتلَ محمودًا ومن معه وذلك في سنة خمس وعشرين في شهر رجب.

وفي سنة أربعَ عشرة ومائتين سار عبد الرحمٰن إلى مدينة باجة[٢] وكانت عاصية عليه فملكها عَنْوَةً.

وفيها خالف هاشم الضراب بمدينة طليطلة، وكان هاشمٌ مِمّن خرج من طليطلة لما أوقع الحكم بأهلها، وسار إلى قرطبة، فلما كان الآن سار إلى طليطلة فاجتمع إليه أهل الشر والفساد فسار إلى وادي جونيه وأغار على البربر وغيرهم فطار اسمُه واشْتدَّت شوكتُه وكثر جمعُه فأوقع بأهل شنت بريّه. وكان بينه وبين البربر وقعاتٌ كثيرة، فسيّر إليه عبدُ الرحمٰن جيشًا فقاتلوه فلم تستظهر إحدى الطائفتين على الأُخرى، وغلب هاشم على عِدَّةِ مواضعَ وجاوز بركة العجوز وأبعدت غارةُ خَيْله. فسيّر إليه عبد الرحمٰن جيشًا في سنة سِتَّ عشرة ومائتين فلقيهم هاشم بالقرب من حصن سمسطا[٣] المجاور لرورية فدامت الحربُ بينهم عِدَّةَ أيّام ثم انْهَزَمَ هاشم وقُتِل هو وكثيرٌ مِمَّن معه.

ذكر محاصرة طليطلة وفتحها

وفي سنة تسعَ عشرةَ ومائتين جهّز عبد الرحمٰن جيشًا مع ابنه أُميةَ إلى مدينة طليطلة فحصرها ـ وكانوا قد خالفوا وخرجوا عن الطاعة ـ فاشتد في حصارهم وقطع

(١) جليقية: ناحية قرب ساحل البحر المحيط من ناحية شمالي الأندلس في أقصاه من جهة الغرب. . . (معجم البلدان).

(٢) باجة: بلد بإفريقية. . وهي كثيرة الأنهار وهي على جبل يقال له عين الشمس. . وباجة أيضًا: من أقدم مدائن الأندلس بينها وبين قرطبة مائة فرسخ.

(٣) سمسطا: قرية بالصعيد الأدنى من البهنسا على غربي النيل، ينسب إليها الحزم السمسطية، وهي حزم من الحبل لا يفضل عليها شيء. . . (معجم ياقوت).

أشجارهم وأهلك زرعهم، فلم يذعنوا إلى الطاعة فرحل عنهم وترك بقلعة رباح جيشًا عليهم ميسرةُ المعروف بِفَتَى أبي أيوب. فلما أبعد أُمية خرج جمع كثيرٌ من أهل مدينة طليطلة لعلَّهم يجدون فرصةً وغفلةً فينالون منه ومن أصحابه غَرَضًا، وكان قد بلغه الخبر فكمن في عدة مواضع. فلما وصلوا إلى قلعة رباح خرج الكمين عليهم من جوانبهم ووضعوا السَّيْف فيهم فأكثروا الْقَتْل وعاد من سلم منهزمًا إلى طليطلة، وجمعت رؤوس القتلى وحملت إلى ميسرة فلما رأى كَثْرَتَها عظم عليه وارتاع لذلك، وَوَجَدَ في نفسه غمًّا شديدًا، فمات بعد أيام يسيرة!

ثم سيَّر عبد الرحمٰن جيشًا في سنة عشرين ومائتين فقاتلوا ولم يظفروا منها بشيء. فلما كان في سنة إحدى وعشرين ومائتين خرج جماعةٌ من أهلها إلى قلعة رباح وبها عسكرٌ لعبد الرحمٰن فاجتمعوا كلُّهم على حصار طليطلة وضيَّقوا على أهلها واشْتَدُّوا في حصارهم إلى سنة اثنتين وعشرين ومائتين، فسيّر عبد الرحمٰن أخاه الوليدَ بن الحكم فرأى أهلها وقد بلغ بهم الْجَهْدُ كلَّ مبلغ واشْتَدَّ عليهم طول الحصار وضعفوا عن القتال والدفع، ففتحها عَنْوَةً يومَ السبت لثمان خلون من شهر رجب منها، وأمر بتجديد القصرِ على باب الجسر الذي كان هُدِمَ أيامَ الحكم، وأقام بها آخر شعبان سنة ثلاثٍ وعشرين حتى استقرَّتْ قواعدُ أهلِها.

وفي سنة ثلاثٍ وعشرين ومائتين سيَّر عبد الرحمٰن جيْشًا إلى ألَبَة والقلاع فنازلوا حِصْن الفرات، وقتلوا أهله، وغنموا ما فيه وسبوا النساء والذُّرِّية وعادوا.

وفي سنة أربع وعشرين سيَّر جيشًا عليهم عبيد الله بن عبد الله البلنسي إلى بلاد العدو، فوصلوا ألَبة والقلاع فالْتَقَوْا هم والمشركون، وكانت بينهم حروبٌ شديدة وقتالٌ عظيم انْهَزَمَ أهلُ الشرك، وقتِل منهم ما لا يُحْصَى كثرةً، وجمعت الرؤوس حتى كان الفارس لا يرى من يقاتله!

ثم سار عبدُ الرحمٰن في سنة خمسٍ وعشرين في جيش كثيفٍ إلى بلاد المشركين فدخل بلاد جليقية وافتتح عِدَّةَ حصونٍ منها، وغنم وسَبى وقتل وخرَّب ثم عاد إلى قرطبةَ ولم تطل مدَّةُ هذه الغزاة.

وفي سنةِ أربعٍ وعشرين ومائتين سيَّر الأمير عبد الرحمٰن جيشًا إلى أرض العدو، فلما كانوا بين أوشَنة وشرطانية تجمعتِ الرُّوم عليهم وأحاطوا بهم وقاتلوهم الليل كلَّه، فلما أصبحوا أنزل الله نصْرَه على المسلمين وهزم عَدُوَّهم. وأبلى موسى بن موسى في هذه الغزاة بلاءً حسنًا، وكان على مقدمة العسكر وهو العامل على تطيلة، وجرى بينه وبين جرير بن موفَّق - وهو من أكابر الدولة - أيضًا شر فخرج موسى عن طاعته.

ذكر الحرب بين موسى بن موسى والحارث بن بزيع وما كان من أمره

قال: ولما بلغ عبد الرحمٰن خروج موسى عن الطاعة سَيَّر إليه جيشًا، واستعمل عليهم الحارث بن بزيع فسار إليه والْتقوْا عند بَرْجَة[١] واقتتلوا فَقُتِل أكثر أصحاب موسى، وقتل ابن عم له، وعاد الحارث إلى سرقسطة. فسيَّر موسى ابنه إلى بَرْجَة فعاد الحارث إليها فحصرها وملكها وقَتَل ابنَ موسى وتقدم إلى مدينة تطيلة فحصرها فصالحه موسى على أن يخرج عنها فانتقل موسى إلى أرنيط وبقي الحارث بتطيلة أيامًا ثم سار إلى موسى ليحاصرَه. فأرسل موسى إلى غرسية وهو من ملوك الأندلس واتَّفقا على الحرب واجتمعا وجعلا للحارث كمائن في طريقه وأعدا له الخيل والرجل بموضع يقال له ثلمة على نهرٍ هناك، فلما جاوز الحارث النهر خرج إليه الكمناء وأحدقوا به وكانت وقعة عظيمة وأصابه ضربةٌ في جبهته قلعت عينيه ثم أُسِرَ، وذلك في سنة ثمانٍ وعشرين.

فلما بلغ خبره عبد الرحمٰن عظُم عليه وجهَّز جيشًا عظيمًا وجعل عليه ابنه محمدًا وسيّره لقتال موسى في شهر رمضان سنة تسعٍ وعشرين، فوصل إلى تطيلة وحصرها وضيّق على أهلها، وأهلك زرعها فصالحه موسى. وتقدم محمد إلى ينبلونة فأوقع عندها بجمع كثير من المشركين وقُتِل غرسية فيمن قُتِل، ثم عاد موسى إلى الخلاف على عبد الرحمٰن فجهز جيشًا كثيرًا وسيَّرهم إلى موسى فطلب المسالمة فأُجيب إليها، وأعطى ابنَه إسماعيلَ رهينةً وولَّاه عبد الرحمٰن مدينة تطيلةَ فسار موسى إليها وأخرج منها مَنْ يخافه واستقرَّ بها.

ذكر خروج المشركين إلى بلاد الإسلام بالأندلس

قال: في سنة ثلاثين ومائتين خرج المجوس في أقاصي بلاد الأندلس إلى بلاد المسلمين، وكان أول ظهورهم في ذي الحجة سنة تسعٍ وعشرين ومائتين وعند أشبونة فأقاموا بها ثلاثةَ عشر يومًا كان بينهم وبين المسلمين فيها وقائعُ، ثم ساروا إلى قادس[٢] ثم إلى شذونة وكان بينهم وبين المسلمين وقعة عظيمة، ثم قصدوا إشبيلية

---

(١) برجة: مدينة قرب النهر الأخضر الذي يصب في البحر المتوسط وبين المرية وغرناطة في وادي عذراء.

(٢) قادس: مدينة قرب شذونة ولكنها تقع مباشرة على المحيط الإطلنطي في الجنوب الغربي من الأندلس.

في ثامن المحرم فنزلوا على اثني عشر فرسخًا منها، فخرج إليهم المسلمون فهزمهم العدوُّ في ثاني عشر لمحرَّم وقُتِل كثير منهم، ثم نزلوا على ميلين منها فخرج أهلُها إليهم وقاتلوهم فانهزموا في رابع عشر المحرم وكثر القتلُ والأسْرُ فيهم. ولم يرفع المجوسُ السَّيْف عن أحدٍ ولا عن دابَّةٍ، ودخلوا حاضر إشبيلية وأقاموا بها يومًا وليلةً وعادوا إلى مراكبهم، فوافاهم عسكر عبد الرحمٰن فبادر إليهم المجوس فثبت المسلمون وقاتلوهم فقتل من المشركين سبعون رجلاً وانهزموا ودخلوا مراكبهم، وأحجم المسلمون عنهم، فسيَّر عبد الرحمٰن جيشًا آخر فقاتلهم المجوس قتالاً شديدًا ورجعوا عنهم فتبعهم العسكر في ثاني شهر ربيع الأول وقاتلوهم، وأتاهم المدد من كل ناحية فنهضوا لقتال المجوس من كل جانب فانهزم المجوس وقتل نحو خمسمائةِ رجلٍ وأخذوا منهم أربعة مراكب فأخذوا ما فيها وأحرقوها.

ثم خرج المجوس إلى لَبْلَة فأصابوا سبيًا ونزلوا جزيرة بالقرب من قوويس فقسموا ما كان معهم مما غنموه، فدخل المسلمون إليهم في النهر فقتلوا رجلين ثم رَحَل المجوس فطرقوا شَذُونة فغنموا أطعِمَةً وسبيًا وأقاموا يومين، فوصلت مراكبُ عبد الرَّحمٰن إلى إشبيلية. فلما أحسّ بها المجوس لحقوا بلبلة فأغاروا وسبَوْا ثم لحقوا بأشبونة ثم مضوا إلى باجة، ثم قفلوا إلى مدينة أشبونة، ثم ساروا فانقطع خبرهم عن البلاد فسكن الناس.

وفي سنة إحدى وثلاثين ومائتين سار جيش للمسلمين بقرطبة إلى بلاد المشركين وقصدوا جلِّيقية فغنموا وقتلوا وأسروا وسبَوا وواصلوا إلى مدينة ليون[1] فحصروها ونصبوا عليها المجانيق، فخاف أهلها وخرجوا هاربين وتركوها بما فيها، فغنم المسلمون منها ما أرادوا وأحرقوا الباقيَ، ولم يقدروا على هدْمِ سورِها لأن عَرْضَه سبعةَ عشرَ ذراعًا، فمَضوْا وقد ثلموا فيه ثلمة كبيرة.

وفي سنة اثنتين وثلاثين ومائتين غدر موسى بن موسى، فسَيَّر إليه عبدُ الرحمٰن جيشًا مع ابنِهِ محمدٍ.

وفيها كان بالأندلس مجاعةٌ شديدة، فهلك خلْقٌ كثير من الناس والدوابّ، ويبست الأشجار فاستسقى الناس فسُقوا وزال الْقحْطُ.

وفي سنة خمسٍ وثلاثين ومائتين سيَّر عبد الرحمٰن ابنه المنذر في جيش كثيف إلى غزو الروم فبلغوا ألية والقلاع.

---

(١) ليون: مدينة من بلاد الجلالقة شمالي الأندلس.

وفيها كان سَيْلٌ عظيم بالأندلس فخرب جسر إستجة والأرجاء وغرّق نهرُ إشبيليةَ سِتَّ عشرة قريةً، وخرَّب نهرُ باجة ثمانيَ عشرة قرية، وعَرُضَ حتى صار عَرْضُه ثلاثين ميلاً وكان هذا حدثًا عظيمًا وقع في جميع البلاد في شهر واحد.

وفي سنة سَبْعٍ وثلاثين ومائتين سارت جيوشُ المسلمين إلى بلادِ العدُوِّ وكانت بينهم وقعةٌ عظيمة كان الظفر فيها للمسلمين وهي وقعة البيضاء.

ذكر وفاة عبد الرحمٰن وشيء من أخباره

كانت وفاتُه في ليلة الخميس لثلاثٍ خلون من شهر ربيع الأول سنةَ ثمانٍ وثلاثين ومائتين، وقيل في شهر ربيع الآخر منها. وكان مولده في شعبان سنةَ سِتٍّ وسبعين ومائة. فكان عمره اثنتين وستين سنة ومدة ولايته إحدى وثلاثين سنةً وشهرين وستةَ أيام. وكان أسمر طويلاً أغرَّ أقنى عظيم الجبهة يخضب بالحناء. وكان له من صلبه من الأولاد الذكور والأناث سبعةٌ وثمانون ولدًا منهم خمسةٌ وأربعون ذَكَرًا. وكان عالمًا أديبًا شاعرًا، يعرف علوم الفلاسفة. وفي أيامه دخل زِرياب المُغَني إلى الأندلس فحضر يومًا عند عبد الرحمٰن وغنَّى وعبيد الله بن قزمان الشاعر حاضر فقال زرياب[1]: [من الكامل الأحذّ]

قـالـت ظـلُـومُ سَـمِـيَّـةُ الـظُّـلْـمِ   مـا لـي رأيـتـك نـاحِـلَ الـجِـسْـمِ
يـا مَـنْ رأى قـلـبـي فـأقـصـده   أنـتَ الـعـلـيـم بـمـوضـع الـسَّـهْـمِ[2]

فقال عبد الرحمٰن: البيت الثاني منقطع عن الأول غير متصل به! فقال ابنُ قزمان بديهةً بعد البيت الأول:

فـأجـبـتُـهـا والـدَّمْـعُ مـنـحـدِرٌ   مـثـل الـجُـمـان زهـا عـلـى الـنَّـظْـم

فكساه عبد الرحمٰن وحباه.

وهو أول من رتَّب اختلاف الفقهاء إلى قصره، وأمرهم بالكلام بين يديْه. وكان عبدُ الرحمٰن بعيد الهمة، اخترع قصورًا ومستنزهات كثيرةً، وزاد في الجامع بقرطبة رواقَيْن. وكانت أيامه أيام عافية وسكونٍ، وكثُرت الأموالُ عنده وأقام أُبَّهَة المملكة

(١) هو علي بن نافع مولى الخليفة المهدي وتلميذ إبراهيم الموصلي.
(٢) أقصده: أصابه.

ورتَّب رسومها. وكان يُشَبَّهُ بالوليد بن عبد الملك في أُبَّهَتِهِ. وهو أول من اجتلب الماءَ العذب إلى قرطبة وأدخله قصوره وجعل لفصل الماء مصنعًا كبيرًا يَردُه النَّاسُ إذا خرج من قصوره رحمه الله تعالى.

ذكر إمارة محمد بن عبد الرحمٰن المنعوت بالأمين

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمٰن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمٰن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، وأمه أُم ولد اسمها تهتز. وهو الخامس من أُمراء بني أُمية بالأندلس، قام بالأمر بعد أبيه في يوم الخميس لثلاث خلون من شهر ربيع الأول سنة ثمانٍ وثلاثين ومائتين، وقيل في شهر ربيع الآخر منها، وكانت ولايته في خلافة المتوكل إلى بعض أيام المعتمد قال: ولما ولي جَرَى في العدل على سيرة أبيه، وتمَّمَ زيادة بناء أبيه في جامع قرطبة.

ذكر الحرب بين المسلمين والفرنج

وفي سنة أربعين ومائتين كان بين المسلمين والفرنج حربٌ شديدةٌ، وسببها أن أهل طليطلة كانوا على ما ذكرناه من الخلاف على الملوك فلما وَلِيَ محمدٌ هذا سار بجيوشه إليها، فراسل أهلُها ملك جليقية يستمدونه، فأمدَّهم بالعساكر الكثيرة، فبلغ محمد ذلك وقد قارب طليطلة فعبَّأ أصحابَه وكمن الكمناء بناحية وادي سليط، وتقدم إليهم في قِلَّةٍ من العسكر فطمع فيه أهل طليطلة والفرنجُ، وأسرعوا إليه فلما نشبت الحرب خرجت الكمناء من كلِّ جهة فَقُتِل من المشركين ومن أهلِ طليطلة ما لا يُحْصَى، وجُمع من الرؤوس ثمانية آلافِ رأسٍ، وذكر أهل طليطلة أن عِدَّة القَتْلَى عشرون ألفًا.

قال: وفي سنةِ إحدى وأربعين ومائتين استكثر محمد الرجال بقلعة رباح لِيُضيِّق على أهل طليطلة، وسيّر الجيوشَ إلى غَزْوِ الفرنج مع موسى بن موسى، فدخلوا بلادَهم ووصلوا إلى أَلَبَة والقلاع، فافتتحوا بعض حصونها وعادوا.

وفي سنة ثلاثٍ وأربعين خرج أهل طليطلة واقتتلوا هم ومسعود بن عبد الله العرّيف فانهزم أهل طليطلة وقُتِل أكثرُهم وحُمِل إلى قرطبة سبعمائةُ رأْسٍ.

ذكر خروج المجوس إلى بلاد الإسلام بالأندلس

وفي سنة خمسٍ وأربعين ومائتين خرج المجوسُ في المراكب إلى بلاد الأندلس، فوصلوا إلى إشبيلية وحلُّوا بالحاضر وأحرقوا الجامعَ، ثم جازوا إلى الْعَدوة، ثم عادوا إلى الأندلس فانهزم أهل تُدمير، ودخلوا حصن أريول[1] ثم تقدموا إلى خليط أفرنجة فأغاروا وأصابوا من النَّهْبِ والسَّبْي كثيرًا، ثم انصرفوا فلقيهم مراكبُ الأميرِ محمدٍ فقاتلوهم وأحرقوا مركبيْن من مراكب المجوس، وأخذوا مركبين وغنموا ما فيهما، فَجَدَّ المجوسُ عند ذلك في القتال واستشهد جماعةٌ من المسلمين، ومضت مراكب المجوس حتى وصلوا إلى مدينة بنبلونة فأصابوا صاحبها غرسية الفرنجي فَفَدى نَفْسه بتسعين ألف دينارٍ.

وفي سنة سِتٍّ وأربعين ومائتين سار محمدٌ في جيوشٍ عظيمةٍ إلى بلد بنبلونة فوطىء بلادَها ودوَّخها وخرَّب ونَهَبَ وقَتَل، وافتتح حصونًا وأصاب في بعضها فرتون بن غرسية فحبسه بقرطبة عشرين سنةً ثم أطلقه إلى بلده، وأقام محمد بأرض بنبلونة اثنين وثلاثين يومًا.

وفي سنة سبع وأربعين سار جيشُ المسلمين إلى بلد برشلونة وهي للفرنج فأوقعوا بأهلها، فأرسل صاحبُها إلى ملك الفرنج يستمدُّه فأرسل إليه جيشًا كثيفًا، وأرسل المسلمون يستمدون فأتاهم الْمَدَدُ فنازلوا برشلونة وقاتلوا قتالاً شديدًا، فملكوا أرباضَها وبرجَيْن من أبراج المدينةِ، وقُتِل من المشركين ما لا يُحْصَى كثرةً وعاد المسلمون بالظفر والغنيمة.

وفي سنة تسع وأربعين ومائتين جَهَّزَ محمدٌ جيشًا مع ابْنِه إلى مدينة أَلَبَة والقلاع من بلد الفرنج فغنموا وافتتحوا حصونًا منيعة.

وفي سنة إحدى وخمسين ومائتين سَيَّر محمدٌ جيشًا إلى بلاد المشركين في جُمادى الآخرة وقصدوا المِلاحة، وكانت أموال لَذَريق بناحية أَلَبَة والقلاع. فلما عَمَّ المسلمون بلدهم بالخراب والنَّهْبِ جمع لذريق عسكره وسار إليهم فالْتَقَوْا بموضع

(١) اريول: بالفتح ثم السكون، وياء مضمومة، وواو ساكنة، ولام: مدينة بشرق الأندلس من ناحية تدمير، ينسب إليها أبو بكر عتيق بن أحمد بن عبد الرحمٰن الأزدي الأندلسي الأريولي... (معجم البلدان).

يقال له فج المركون، به تعرف هذه الغزاة، واقتتلوا فكانت الهزيمةُ على المشركين ثم اجتمعوا بهضبة بالقرب من موضع المعركة فتبعهم المسلمون وحملوا عليهم واشتد القتال فانهزم الفرنج لا يلوون على شيء، وتبعهم المسلمون يقتلون منهم ويأسرون، وكانت هذه الوقعة في ثاني عشر شهر رجب، وكان عدد ما أُخِذَ من رؤوس القتلى ألفين وأربعمائة رأس وتسعين رأسًا، وكان فتحًا عظيمًا.

وفي سنة تسع وخمسين ومائتين سار محمد إلى طليطلة وحصرها ـ وكان أهلُها قد خالفوا عليه ـ فطلبوا الأمان فأمَّنهم وأخذ رهائنهم.

وفيها خرج أهل طليطلة إلى حصن سكيان وفيه سبعمائةٌ من البربر وأهلُ طليطلة في عشرة آلاف، فلما التحمت الحرب بينهم انهزم مطرّف بن عبد الرحمٰن بن حبيب وهو أحد مقدّمي أهل طليطلة فتبعه أهلها في الهزيمة، وإنما انهزم لعداوة كانت بينه وبين مقدم آخر اسمه طريشة فأراد أن يوهنه بذلك فَقُتِلوا أعظمَ قتْلٍ.

وفيها عاد عمروس بن عمر بن عمروس الأندلسي إلى طاعة الأمير محمد، وكان مخالفًا عليه عِدَّة سنين، فولاّه محمد مدينة أشقة.

وفي سنة سِتٍّ وستين ومائتين أمر محمد بإنشاء مراكب بنهر قرطبة وحملها إلى البحر وسيّرها إلى البحر المحيط ليسيرَ منه إلى بلاد جليقية فلما دخلته تقطعت، فلم يجتمع منها مركبان، ولم يرجع منها إلا اليسير!

وفي سنة سبع وستين ومائتين خالف عمر بن حفصون على الأمير محمد بن عبد الرحمٰن فخرج إليه جيشُ تلك الناحية وعامِلُها، فقاتلوه فهزمهم. وقويَ أمرُه وشاع ذكره، وأتاه من يُريد الشَّرَّ والفساد، فسَيَّرَ إليه محمد عاملاً آخر في جيشٍ فصالحه عمر، وطلب العاملُ كلَّ مَنْ كان له مساعَدَةٌ لعمر، فأهلكه، ومنهم مَنْ أبْعَدَه، واستقامت تلك الناحية.

وفي سنة ثمان وستين سيَّر محمد جيشًا إلى المخالفين مع ابنه المنذرِ فقصد مدينة سَرَقسْطة فأهلك زرْعَها وخرَّب بلدَها. وافتتح حِصْنَ رَوْطة، وأخذ منه عبد الواحد الرَّوْطي ـ وهو من أشجع أهل زمانه ـ وتقدّم إلى دير تروجة وهتكها بالغارة، وقصد مدينة لاردة وقرطاجنة وأخذ رهائنهم، ثم قصد مدينة ألَيَة والقلاع فافتتح بهما حصونًا، وعاد بالظَّفَر والنَّصْرِ والسلامة.

ذكر وفاة الأمير محمد بن عبد الرحمٰن

كانت وفاته في سلْخ صفر سنةَ ثلاث وسبعين ومائتين وقيل في يوم الأحد غُرَّة شهر ربيع الأول منها، وأنه خرج يوم الأحد إلى الرصافة متنزِّهًا ومعه هشامُ بنُ

عبد العزيز فقال له: يا سيدي ما أطيب الدنيا لولا الموت! فقال له: يابن اللخناء وهل ملَّكنا هذا الذي نحن فيه إلا الموت؟ ولو بقي مَنْ كان قبلنا فمن أين كان يصل إلينا؟ ورجع من نزهته فحُمَّ ومات في بقية يومه، نقله ابن الرقيق[١] في تاريخ إفريقية وكان مولد محمد في ذي القعدة سنةَ سبع ومائتين وعمره خمسًا وستين سنةً وثلاثة أشهر وأيامًا. وكانت ولايته أربعًا وثلاثين سنةً وأحد عشر شهرًا.

وكان أبيضَ مشربًا بحمرة، ربع القامة أوْقَص[٢]، يخضب بالحناء والكتم[٣] ووُلِد له مائةُ ولدِ ذكورٌ، مات عن ثلاثةٍ وثلاثين منهم. وكان ذكيًا فطنًا بالأمور المستبهمة، محبًا للعلوم، مؤثرًا لأهل الحديث، عارفًا حَسَن السيرةِ. قال ابن مخلد[٤] الفقيه: ما كلمت أحدًا من الملوك أكمل عقلاً ولا أبلغ من الأمير محمد بن عبد الرحمٰن، رحمه الله تعالى. وكانت وفاة محمد في خلافةِ المعتمد على الله العباسي.

ذكر إمارة المنذر بن محمد

هو أبو الحكم المنذر بن محمد بن عبد الرحمٰن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمٰن الداخل، وأمه أُمّ ولد اسمها ايل، وهو السادس من أمراء بني أمية بالأندلس. قام بالأمر في يوم وفاة أبيه في غُرَّة شهر ربيع الأول سنة ثلاث وسبعين ومائتين، وقيل بويع له بعد وفاة أبيه بثلاث ليال وخالف عليه ابن حفصون ـ وقد ذكرنا خلافه على أبيه ـ وتحصن عمر بن حفصون بطليطلة، فسار المنذر إليها وأحدق بها؛ فأعمل ابن حفصون الحيلة وسلك طريق المكر والخديعة، وسأل الأمان، وأظهر الرغبة في سكن قرطبة بأهله وولده. فأمنه المنذر وكتب له بما أراد، وفصّل لأولاده الثياب. ثم سأل مائة بغل يحمل عليها أثقاله وعياله إلى قرطبة، فأمر له المنذر بها وسُلِّمت إليه وعليها عشرة من العرفاء.

---

(١) هو إبراهيم بن القاسم الرقيق، القيرواني، كاتب، أخباري، مؤرخ، شاعر، سهل الكلام تلوح الكتابة على ألفاظه، قليل صنعة الشعر، غلب عليه اسم الكتابة، وعلم التاريخ، وتأليف الأخبار، له تصانيف كثيرة منها: تاريخ إفريقية والمغرب عدة مجلدات، وكتاب النساء كبير، وغيرهما... (معجم المؤلفين ـ كحالة ١: ٧٦).

(٢) الأوقص: القصير العنق.

(٣) الكتم: نبات يخلط بالحناء ويخضب به الشعر.

(٤) هو أبو عبد الرحمٰن الأندلسي بقي بن مخلد.

وارتحل العسكر، فأخذ ابن حفصون البغال وقتل العرفاء، وعاد إلى سيرته الأولى. فعقد المنذر على نفسه أنه لا أعطاه صلحًا ولا عهدًا إلا أن يُلْقَى بيده وينزل على حكمه، وأمر بالسكنى، وأن تردَّ أسواق قرطبة إلى طليطلة. ودام الحصار، فمات المنذر وهو يحاصره.

وكانت وفاته في يوم السبت لثلاث عشرة ليلة بقيت من صفر سنةَ خمسٍ وسبعين ومائتين، وقيل في نصف صفر. وعمره نحوًا من ستٍّ وأربعين سنة وولايته سنةٌ واحدةٌ وأحدَ عشرَ شهرًا، وأيامٌ.

وكان أسمر طويلًا، جَعدًا كثَّ اللحية، بوجهه أثر جدري، وخلف ستة أولاد ذكورًا. وقيل لم يعقب فولّي بعده أخوه!.

ذكر إمارة عبد الله بن محمد

هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الرحمٰن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمٰن الداخل، وأمه أُمُّ ولدٍ اسمُها عشار، وهو السابع من أُمراء بني أُمية ببلاد الأندلس. بويع له بعد وفاة أخيه المنذر في يوم السبت لثلاثَ عشرةَ ليلةً خَلَتْ من صفر سنةَ خمسٍ وسبعين ومائتين، وقيل في منتصفِ صفرٍ منها، وذلك في خلافة المعتمد على الله العباسي.

ولما بويع له كان بالمعسكر على طليطلة فرحل نحو قرطبة، ودخل القصر بها لثلاثٍ بقين من صفر المؤرَّخ. قال إبراهيم بن الرقيق: ولما تولّى ألَّب ابنُ حفصون عليه، وحشد كور الأندلس حتى لم يبْق منها إلا قرطبة، وأقبل فيمن أطاعه من أهل الكور. وخرج إليه الأمير عبد الله في أربعة عشر ألفًا من أهل قرطبة خاصة، وأربعةِ آلاف من حشمه ومواليه. فبرز إليه ابنُ حفصون في سفح الجبل وثار له، فلم تكن إلا صدمةٌ صادقةٌ حتى أزالوهم عن مراكزهم. ودخل ابن حفصون الحصن كأنه يخرج من بقي فيه، فثلم فيه ثلمة أخرج منها أهله وما كان له. فلما انتهى ذلك إلى عسكره ولَّوْا مدبرين لا يلوي أحد منهم على أحد فقتلوا قتلاً ذريعًا ودخل منهم جماعةٌ في عسكره فأمر بالتقاطهم وجلس لهم في مظلة فقتِل بين يديه ألفٌ صبْرًا.

وكانت في أيامه فِتَنٌ عظيمةٌ، وكثُر قيام الثوّار عليه حتى لم يبْق في يده إلا مدينةُ قرطبة وحدها. وخالف عليه أهل إشبيلية وشَذُونة، ولم تبْق مدينةٌ إلا خالفت عليه. وعزموا على الدعاء على منابر الأندلس للمعتضد بالله العباسي، فكتبوا إلى إبراهيم بن أحمد الأغلب يسألونه أن يبعث إليهم رجلًا من قِبلِه، فتثاقل عنهم إبراهيمُ وشَغَلَه أيضًا اضطرابُ أهلِ إفريقية عليه، فأمسكوا عن ذلك!

وقَلَّت رجالُ عبد الله بن محمد، وذهب من كان يصول به - هو وآباؤه - من مواليهم وأصحابهم، وقلَّتْ الأموالُ في يده لخروج أهل المدن وامتناعهم من أداء الخراج إليه. وكان خَراج الأندلس الذي يُؤَدَّى إلى آبائه ثلاثمائة ألف دينارٍ في كلِّ سنةٍ، فكانوا يُعطون رجالَهُم وخَدمهُم مائة ألفِ دينار، وينفقون في أُمورهم ونُوَّابِهم وجميع ما يعرض لهم مائةَ ألفٍ، ويدّخرون مائة ألَف. فلما امتنع أهل مدن الأندلس من أداء الخراج إليهم رجعوا إلى تلك الذخائر ينفقونها، واتصلت عليهم لحروبُ خَمْس عشرةَ سنةً فنفدت ذخائرهم واحتاجوا للقروض!

وكانت أيامه على هذه الحال إلى أن توفي، وكانت وفاتُه في يوم الثلاثاء غُرة شهر ربيع الأول سنةَ ثلاثمائة، وعمره سبعون سنةً إلا شهورًا، ومدةُ ولايته خَمْسٌ وعشرون سنةً ونصفُ شهر وكان مستبدًا بآرائه، مخالفًا لنصحائه، ليِّنَ الجانِبِ جدًا. بلغ من لينه أنَّ ابنَه مطرّفًا قتل أخاه محمد بنَ عبد الله والد النّاصِر فلم ينكر عليه ذلك، بل قال له: قد سوّغتك قَتلَ أخيك فاللّهَ اللّهَ في ابن أُمية (يعني وزيره) فإنك إن قتلتَه قتلتُك به! ثم حذَّر ابنَ أُميةَ من مطرّف، وكان مطرّف قد عزم على خلعه فلم يمكنه ذلك لمكان ابن أُمية، فعمل عليه حتى قتله. ولما مات عبد الله ولِي بعده ابنُ ابنه عبد الرحمٰن.

ذكر إمارة عبد الرحمٰن بن محمد

هو أبو المطَرّف عبد الرحمٰن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمٰن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمٰن الداخل، وأُمه أُمُّ ولدٍ اسمُها مُزْنة، وهو الثامن من أُمراء بني أُميةَ بالأندلس. بويع له بعد وفاة جدّه، في مستهل شهر ربيع الأول سنةَ ثلاثمائة. وقال ابن الرقيق إنه أَخٌ لعبد الله بن محمد، وليس بصحيح! وينقض ذلك عليه أنه قال فيه: ولي وهو ابنُ أربع وعشرين سنةً ووفاةُ محمد بن عبد الرحمٰن قبل مولد عبد الرحمٰن هذا بأربع سنين، وأظنه أُشْكِل عليه أمْرُه، والتبس عليه محمد بن عبد الله بجدّه محمد بن عبد الرحمٰن، والله تعالى أعلم..

قال: ولما ولي عبد الرحمٰن هذا تَلَقَّب بأمير المؤمنين الناصر لدين الله، وهو أوّلُ مَنْ لُقِّب بأمير المؤمنين ببلاد الأندلس. وكان منْ قَبْلَه يُسمَّوْن ببني الخلائف، ويُسلَّمُ عليهم ويُخطبُ لهم بالإمرة فقط. وإنما تَسمَّى هذا بأمير المؤمنين لما بلغه ضَعفُ الخلافةِ بالعراق في أيام المقتدر بالله، وظهورُ الشيعةِ بالقَيْروان، ودعاؤهم للمهدي. فكان في ذلك الوقت ثلاثةُ خلائف تَلقَّبَ كل منهم بأمير المؤمنين؛ فالمقتدر بالعراق، والمهدي بالقيروان، وهذا الناصر بالأندلس.

قال: وولي والأندلس نار تضطرم، وجمرةٌ تَتَّقِدُ شقاقًا ونفاقًا، فأخمد نيرانها وسكّن زلازلها، وغزا غَزَوات كثيرةً، وكان يُشَبَّه بعبد الرحمٰن الداخل. ولم يجد من المال ما يستعين به على مصالح جيشه، فاتفق أن صاحب الدُّوجَر أغار على قرطبة في نَحْوِ ثلاثمائة فارسٍ فهزمه عبد الرحمٰن وأسره. فسلّم إليه الحصن بجميع ما فيه فَتَقوّى به، ثم التقى مع ابن حفصون في وادي التفاح بجيّان ـ وكان ابن حفصون في عشرين ألف فارس ـ فهزمه عبد الرحمٰن وأفْنَى أكثر من معه قَتْلاً وأسْرًا.

وبعث إلى المغرب الأوسط، فملك سبتة وفاس وسجلماسة[1] وعمّرها. وغزا الروم بعد ذلك اثنتي عشرةَ غزوةً حتى دوّخ بلادها، ووضع عليهم جزية يؤدونها. وكان فيما شرط عليهم اثنا عشر ألفَ صانع يصنعون له في مدينته التي بناها وسمّاها الزهراء، وهي على ثلاثة أميال من قرطبة، أسندها إلى سفح الجبل وساق المياه إليها. وقسمها أثلاثًا، فالثلث الذي يلي الجبل لقصوره ومنازله، والثلث فيه دور خدَمِهِ وكانوا اثني عشر ألفًا بمناطق الذهب والسيوف المحلاة يركبون لركوبه وينزلون لنزوله، والثلث بساتين تحت مناظره وقصوره. وجلب إليها أنواع الفواكه، قال: ومن غريب ما بناه فيها مجلسٌ مشرفٌ على البساتين مرفوعٌ على العمد مبنيٌ بالرخام المجزَّع، مصفَّح بالذهب، مرصَّع باليواقيت والجواهر. وصنع أمام المجلس بحرًا ملأه بالزئبق فكان النور ينعكس منه إلى المجلس، فحضر إليه القاضي بقرطبة الفقيه مُنْذِر بن سعيد البلُّوطي فقرأ ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣ ـ ٣٥] فقال له: وعظت فأحسنت! وأمر بنزع الصفائح.

قال: وكمل بناء الزهراء في اثنتي عشرةَ سنةً، بألف بنّاء في كل يوم، مع كل بنّاء اثنا عشر رقّاصًا، وسكنها خمسًا وعشرين سنةً.

وطالت أيام الناصر، وتمكن، واتسعت مملكته. وكانت وفاته في ليلة الأربعاء لليلتين، وقيل لثلاثٍ خلت من شهر رمضان المعظم سنةَ خمسين وثلاثمائة بالزهراء. وحُمل إلى مدينة قرطبة، فدُفن بها مع أسلافه من بني أُمية. ومولده في يوم الخميس لتسع بقين من شهر رمضان سنة سبعٍ وسبعين ومائتين، وكان عمره ثلاثًا وسبعين سنةً، ومدةُ ولايته خمسين سنةً وستة أشهرٍ وأيامًا.

---

(١) سجلماسة: بكسر أوله وثانيه، وسكون اللام، وبعد الألف سين مهملة: مدينة في جنوبي المغرب في طرف بلاد السودان، بينها وبين فاس عشرة أيام تلقاء الجنوب، وهي في منقطع جبل درن... (معجم البلدان).

وكان شهمًا صارمًا، لم يزل منذ ولي يستذل المتغلبين حتى خلصت له جميع الأندلس في خمسٍ وعشرين سنةً من ولايته. وكان له من الأولاد الحكمُ وليُّ عهده، وعبد الجبار، وسليمان، وعبد الملك، وعبيد الله، والمغيرة، ولما مات ولي بعده ابنه الحكم.

ذكر إمارة الحكم المستنصر بالله

هو أبو العاص الحكم بن عبد الرحمٰن الناصر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمٰن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمٰن الداخل، وأُمه أم ولد اسمها مرجان، وهو التاسع من أُمراء بني أُمية ببلاد الأندلس. بويع له في شهر رمضان سنةَ خمسين وثلاثمائة في جميع مدن الأندلس وثغورها، فأحسن إلى الرعية، وعدل فيهم وضبط الثغر، وغزا الروم في سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة، ففتح مدنًا جليلة، وسبى وغنم وانصرف غانمًا.

ثم أصابه الفالج فتغيَّب عن الناس، فلما كان في يوم السبت لعشرٍ خلون من المحرم سنَةَ ستٍّ وستين وثلاثمائة أُظْهِر موتُه، وقيل توفي فجأة ليلة الأحد لأربعٍ خلون من صفر منها. ومولده في يوم الجمعة مستهل شهر رجب سنة اثنتين وثلاثمائة، فمات وله من العمر ثلاثٌ وسبعون سنة وستةُ أشهر وعشرةُ أيام، ومدةُ ولايته خمس عشرةَ سنةً وأربعةُ أشهر وأيام.

وكان حسن السيرة، جامعًا للعلوم مكرمًا لأهلها، وجمع من الكتب على اختلاف أنواعها ما لم يجمعه غيره من الملوك قَبْلَه، واشتراها من سائر الأقطار، وغالى في أثمانها، فحملت إليه من كل جهة. وكان قد رام قَطْعَ الخمر، من الأندلس، وأمر بإراقتها وشدَّد في استئصال شجرة العنب من جميع أعماله. فقيل له إنها تعمل من التين وغيرِه، فتوقف في ذلك. وهو الذي رحل إليه أبو علي القالي البغدادي صاحب الأمالي[١]، وأبو بكر الزبيدي[٢] مُخْتَصِرُ كتابَ العين. وكان منذر بن

---

(١) هو أبو علي إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد بن سلمان القالي اللغوي.. كان أحفظ أهل زمانه للغة والشعر ونحو البصريين، أخذ الأدب عن أبي بكر بن دريد الأزدي وأبي بكر بن الأنباري ونفطوية وابن درستوية وغيرهم... (وفيات الأعيان ١ : ٢٢٦).

(٢) هو أبو بكر محمد بن الحسن بن عبد الله بن مذحج بن محمد بن عبد الله بن بشر الزبيدي الإشبيلي نزيل قرطبة؛ كان واحد عصره في علم النحو وحفظ اللغة، وكان أخبر أهل زمانه بالإعراب والمعاني والنوادر، إلى علم السير والأخبار.. (وفيات الأعيان ٤ : ٣٧٢).

سعيد البلوطي قاضيَه وقاضيَ أبيه، فلما توفي ولي القضاءَ ابن بشير الفقيه، فاشترط على المستنصر نفوذ الحكم فيه فمن دونه.

فكان من أخباره أن امرأة منقطعة كان لها أُريضة تجاور بعض قصور الأمير، فاحتاج إليها ليبني فيها شيئًا مما أراد بناءه، فساومها الوكيل في البيع فامتنعت، فأخذها الوكيل قهرًا وبنى فيها منظرة بديعة وأنفق عليها جملة وافرة. فوقفت المرأة لابن بشير القاضي وقصَّت عليه قصتها، فركب حماره وجعل عليه خرجًا كبيرًا لا يطيق حَمْله إلا جماعةٌ من الرجال. وقصد الزهراء والمستنصر في تلك المنظرة، فدخل عليه فقال: ما جاء بالقاضي في هذا الوقت؟ فقال: أُريد ملْءَ هذا الخرج من تراب هذا الموضع! فتعجب منه الحكم وأمر فَمُلِيءَ الخرج ثم خلا القاضي به فقال: أدل عليك إدلال العلماء على الملوك الحلماء أن لا ينقل هذا الخرج على الحمار إلا أنا وأنت! فضحك الحكم وقال: كيف نطيق ذلك أيها القاضي؟ فبكى ابن بشير وقال: فكيف نطيق أن نطوق هذا المكان أجمعه من سبع أرضين في حلقي وحلقك يوم القيامة وأنا شريكك في الإثم إن رضيت هذا الحكم؟ وقَصَّ عليه القصة، فبكى الحكم وقال: وعظتَ فأبلغت أيها القاضي! ثم خرج عن المكان وسلَّمه إلى المرأة بكل ما بُني فيه وغُرِس.

قال: وكتب إليه العزيز بن المعز صاحب مصر كتابًا يشتمه فيه ويسبه، فكتب إليه «أما بعد فإنك عرفتنا فهجوتنا، ولو عرفناك لهجوناك، والسلام» وكتب إليه قصيدة يفتخر فيها منها: [من الطويل]

ألسنا بني مروانَ كيف تَبَدَّلَتْ ... بنا الحالُ أو دارتْ علينا الدوائرُ
إذا وُلِدَ المولودُ منا تَهَلَّلَتْ ... له الأرضُ واهتزتْ إليه المنابرُ

وكان للحكم من الأولاد هشام، وسليمان، وعبد الله. وحاجبه جعفر الصقلي، المعروف بالفتى!.

ذكر إمارة هشام المؤيد بالله

هو أبو الوليد هشام المؤيد بالله بن الحكم المستنصر بالله، وهو العاشر من أُمراء بني أُمية ببلاد الأندلس. بويع له بولاية العهد في حياة أبيه في غُرَّةِ جُمادى الأولى سنة خمس وستين وثلاثمائة. وجُدِّدَتْ له البيعةُ في يوم الأحد لإحدى عشرةَ خلت من المحرم سنة ستٍّ وستين وثلاثمائة. وقيل في يوم الاثنين لخمسٍ خلون من صفر منها، وهو ابن اثنتي عشرةَ سنة باتفاق الوزراء. وعلموا أن عمَّه المغيرةَ بنَ عبد الرحمٰن

ينازعه في الأمر ويتطاول إلى بعض ما عُقِدَ له ويرى أنه أحقُّ بذلك منه لِصِغَر سِنَّه، فَهُجِم عليه في منزله فَذُبح. وكان الذي تولّى قَتْلَه محمد بن أبي عامر الوزير، فَصَعَّبَ الأمورَ لهشام.

ولما ولي احتيج إلى مدبرٍ للمملكة، فوقع الاختيار على جعفر بن عثمان المصحفي، فقلّده هشام حجابته وتدبيرَ أمره، وأشرك معه في الحجابة غالب بن عبد الرحمٰن. وقلّد المنصور بن أبي عامر الوزارة ـ وكان على الشرط والسكّة ـ فانحط المصحفي وارتفع ابن أبي عامر، ثم عزل المصحفي عن الحجابة في يوم الاثنين لثلاثَ عشرةَ ليلةً خلت من شعبان سنة سبع وستين وحوقق وطولب بمائة ألف دينار، وتوفي في المطبق بعد خمسة أعوام، فكانت مدة ولايته ستة أشهر وثلاثة أيام.

ذكر أخبار المنصور محمد بن أبي عامر

قال: ولما عزل المصحفي اتفق الرأي على تقديم محمد بن أبي عامر المعافري[1]، فولى الحجابَة في يوم الاثنين المؤرّخ، وبقي غالبٌ شريكهُ إلى أن قُتل وتفرَّد المنصور بالأمر.

قال بعض المؤرخين: كان محمد بن أبي عامر من الجزيرة الخضراء، وله بها قَدْرٌ وأثرة وورد وهو شابٌ إلى قرطبة واشتغل بالعلم والأدب، وسمع الحديث وتميّز. وكانت له همة يحدِّث بها نفسه بإدراك معالي الأمور، وكان يحدِّث من يختص به بما يقع له من ذلك. وله أخبار كثيرة أورد منها أبو عبد الله الحميدي[2] ـ في كتابه المترجم بالأماني الصادقة ـ كثيرًا قال: ثم علت حاله، وتعلّق بوكالةِ صُبْحِ أمّ هشام المؤيد، والنظر في أموالها؛ فزاد أمره في التّرقّي إلى أن مات وولي ابنُها هشام، فخافت اضطرابَ الأمرِ عليه، فضمن لها سكونَ الحال وزوال الخوف واستقرار الملك لابنها. فساعدته المقادير، وأمدّته المرأةُ بالأموال فاستمال العساكر إليه، فصار صاحبَ التدبير والمتغَلّبَ على الأمر.

---

(١) المعافري: نسبة إلى معافر، وهو حي كبير من اليمن.

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله بن حميد بن يصل، الأزدي الحميدي الأندلسي الميورقي الحافظ المشهور.. كان موصوفًا بالنباهة والمعرفة والإتقان والدين والورع.. ولأبي عبد الله كتاب «الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم» وله أيضًا تاريخ علماء الأندلس سماه «جذوة المقتبس»... (وفيات الأعيان ٤: ٢٨٢).

وحجب هشامًا وتلقَّب بالمنصور وأقام الهيبة، فدانت له أقطار الأندلس كلها، ولم يضطربْ عليه شيء منها لعظم هيبته وحُسْنِ سياسته. وكان يدخل إلى القصر ويخرج فيقول: أمر أميرُ المؤمنين بكذا ونهى عن كذا! فلا يُعْتَرَضُ عليه في مقال ولا يُنازَع في أفعال.

وكان إذا غزا بلد الروم وكل بهشام من يمنعه من التصرف والظهور والإذْنِ في دخول أحدٍ من الناس إلى أن يعود من سفره، فإذا كان بعد سنين أركبه وجعل عليه بُرْنسًا وألبس جواريه البرانس حتى لا يُعْرَفَ منهن، ويوكل بالطرقات من يطرد الناس عنها حتى ينتهي إلى الزَّهراء وغيرها من المتنزهات، ثم يعيده على مثل ذلك. وليس له من الملك إلا الدعاءُ على المنابر، وإثباتُ اسمِهِ على السكة والطرر، والمنصور على أتمِّ ما يكون من الحزم وسَدِّ الثغور وإقامةِ العدل وشمولِ الناس بالإحسان والفضل. فلم يُر في الضبط وحُسْنِ السياسة وأمْن السبيل وتوفية حقوق الرياسة بجزيرة الأندلس كأيامه!

ودامت له هذه الحال بضعًا وعشرين سنة إلى أن توفي، وكانت وفاته في أقصى الثغور بمدينة سالم[1] في سنة ثلاثٍ وتسعين وثلاثمائة في طريق الغزو.

قال: وكان رحمه الله تعالى له مجلس في الأسبوع يجتمع فيه أهل العلم للكلام بحضرته مدةَ بقائه بقرطبة، قال وختن أولاده فختن معهم من أولاد أهل دولته خمسمائة صبي ومن أولاد الضعفاء ما لم تُحْص عدتهم، وأنفق فيه خمسمائة ألف دينار.

وكان ذا همة عالية في الجهاد، مواصلاً لغزو الروم، وربما خرج لصلاة العيد فيقع له فيه الجهاد، فلا يرجع إلى قصده ويركب من فوره بعد انصرافه من الصلاة، فلا يصل إلى أوائل الدروب إلا وقد لحقه كل من أراد من العساكر. وغزا ستًّا وخمسين غزاةً ذكرت في المآثر العامرية بأوقاتها، وفتح فتوحًا كثيرةً، ووصل إلى معاقل جمَّةٍ امتنعت على مَنْ كان قبله. وملأ الأندلس بالغنائم والسبي.

قال: وكان إذا انصرف من قتال العدو إلى سُرادقه يأمر بِنفْضِ غبار ثيابه التي شهد فيها الحرب، ويُجمعُ ويُحتفظ به. فلما حضرته الوفاةُ أمر أن ينشر على كفنه ما جمع من ذلك إذا وضع في قبره.

---

(١) سالم: مدينة بالأندلس تتصل بأعمال باروشة، وكانت من أعظم المدن وأشرفها وأكثرها شجرًا وماء... (معجم البلدان).

قال: وبنى مدينة الزاهرة بقرب قرطبة، وانتقل إليها بأهله وولده وحواشيه. وكان قد يُخَوَّفُ من بني أُمية أن يثوروا به، فأخذ في تقتيلهم صغارًا وكبارًا، عملاً في الباطن لنفسه وفي الظاهر إشفاقًا على المؤيد منهم، حتى أفْنَى من يصلح منهم للولاية، وفرّق الباقين في البلاد. فكان ممن هرب الوليد بن هشام الخارج على الحاكم بمصر، الملقب بأبي زكوة.

وأخبار المنصور طويلة مشهورة لو استقصيناها لطال الكتاب، وفيما نَبَّهنَا عليه من أخباره وذكرناه من آثاره كفاية. وأخبرني بعض أهل الأندلس أن على قبره مكتوبًا:
[من الكامل]

آثـاره تُـنـبـيـك عـن أخـبـارِهِ ... حـتـى كـأنـك بـالـعِـيـان تَـرَاهُ
تـالله لا يـأتـي الـزمـانُ بـمـثـلـه ... أبـدًا ولا يـحـمـي الـثـغـورَ سـواهُ

ولما مات رحمه الله قام بالأمر بعده ولده.

ذكر المظفر أبي مروان عبد الملك

قال: وكان الناسُ قد تجمعوا وقصدوا الزهراء وقالوا: لا بُدَّ من ظهور المؤيد وولايته الأمْرَ بنفسه! فلما بلغه ذلك آثر الراحة والدعة، وأحضر عبد الملك وخلع عليه وقلّده ما كان بيد أبيه من الولاية، ونعته بالحاجب المظفر سيف الدولة. وأُمر فاتن الصغيرُ الخادمُ أن يخرج إلى المجتمعين فيصرفَهم ويخبرَهم برضائه بِحجْبَةِ المظفر، فأخبرهم، فأبوا!

وخرج المظفر فقابلته الفئة المجتمعة فهزمهم، وأقام في الحجبة إلى أن توفي لاثنتي عشرة ليلةً بقيت من صفر سنة تسع وتسعين وثلاثمائة بموضع يقال له القبران في غزوته، فحمل في تابوت ودفن بالزاهرة وعمره ستٌّ وثلاثون سنة. ومدةُ ولايته ستة أعوام وأربعة أشهر وأيام وغزا الروم ثماني غزوات وبأيامه تضرب المُثل بالأندلس عدلاً وأمنًا.

ولما مات وَلِيَ الحجْبَةَ عبدُ الرحمٰن بنُ المنصور محمد بن أبي عامر وهو أخو المظفر ونُعِتَ بالحاجب المأمون ناصر الدولة، ويلقب بشنشول فافتتح أموره بالخلاعة والمجانة. وكان يخرج من منية إلى منية ومن متنزه إلى متنزه بالملاهي والمضحكين، ويجاهر بشرب الخمر والتهتُّك. ثم طلب من المؤيد أن يدعو له ويوليه العهد بعده، وهدّده بالفَتْكِ به إن لم يفعل، وكثر الإرجاف بذلك.

ثم ركب شنشول من الزاهرة ومعه سائر أهل الخدمة بسلاحهم، والوزير وقاضي الجماعة، والفقهاء والعدول، وأصحاب الشُرَط، ووجوه الناس على طبقاتهم. وسار إلى باب القصر بقرطبة، وحضر المؤيد هشام، وأخرج كتابًا قُرِىء بحضرته وهو بخط الوزير أبي عمر، وفيه:

«بسم الله الرحمٰن الرحيم.. هذا ما عهد به هشامٌ المؤيد بالله أمير المؤمنين إلى الناس عامة، وعاهد الله عزَّ وجلَّ عليه من نفسه خاصة، وأعطى به صفقة يمينه بيعةً تامّةً، بعد أن أمعن النظر وأطال الاستخارة، وأهمه ما جعل الله إليه من الإمامة وعصب به من أمره، واتقى حلول القدر بما لا يؤمن، وخاف نزولَ القضاء بما لا يُصْرف، وخشي إن هجم محتوم ونزل مقدور به ولم يرفعْ لهذه الأُمة علمًا تأْوي إليه وملجأً تنعطف عليه.. أن يكون بلقاء ربه تبارك وتعالى مفَرطًا فيها ساهيًا عن أداءِ الحقِّ إليها ونقض عند ذلك من طبقات الناس من أحياء قريش غيرها ممن يستوجبه بدينه وأمانته وهديه وصيانته، بعد اطِّراح الهوى والتحرِّي للحق والتزلُّف إلى الله جَلَّ جلاله بما يرضيه. بعد أن قطع الأواصر وأسخط الأقارب فلم يجد أحدًا هو أجدر أن يقلده عهده ويفوِّض إليه الخلافةَ بعده، بفضل نفسه وكرم خيمه وشرف مركبه وعلو منصبه، مع تقواه وعفافه، ومعرفته وإشرافه، وحزمه وتقاته.. من المأْمون الغَيْبِ الناصِح الجيْبِ، أبي المطرِّف عبد الرحمٰن بن محمد المنصور أبي عامر بن أبي عامر، وفقه الله إذ كان أمير المؤمنين ـ أيّده اللّهُ ـ قد ابتلاه واختبره، ونظر في شأْنه واعتبره، فرآه مسارعًا في الخيرات سابقًا في الحلبات مستوليًا على الغايات جامعًا للمأْثرات! ومن كان المنصورُ أباه، والمظفرُ أخاه.. فلا غَرْوَ أن يبلغ من سُبُل البِرِّ مداه، ويحوي من سبيل الخير ما حواه. مع أن أمير المؤمنين ـ أكرمه الله ـ بما طالع من مكنون العلم، ودعاه من مخزون الأمر، أَمَّل أن يكون قد ولِّي عهده القحطاني الذي حدَّث عنه عبد الله بن عمرو بن العاص وأبو هريرة أَنَّ النبيّ ﷺ قال: لا تقوم الساعةُ حتى يخرجَ رجلٌ من قحطان يسوق الناسَ بعصاه. فلما استوى منه الاختيار، وتقابلت عنده فيه الآثار، ولم يجد عنه مهربًا، ولا إلى غيره معدلاً.. خرج إليه من تدبير الأُمور في حياته، وفوّض إليه الخلافةَ بعد وفاته، طائعًا راضيًا مستخيرًا مجتهدًا. وأمضى أمير المؤمنين عهدَه هذا وأجازه وأنفذه، ولم يشترط فيه مثْنويةً[1] ولا خيارًا، وأعطى على الوفاء به في سِرِّه وجَهْره وقوله وفِعله عَهْدَ الله وميثاقه ودمه وذِمّةَ نبيه

(١) المثنوية: يراد بها الاستثناء.

محمدٍ ﷺ، وذِمّة الخلفاء الراشدين من آله وآبائه، وذِمّة نفسه.. أن لا يبدِّلَ، ولا يغيِّر، ولا يحوِّل، ولا يزول، وأشْهَدَ اللّهَ تعالى وملائكته على ذلك، وكفى بالله شهيدًا.. وأشهد من وقع اسمُه في هذا وهو جائز الأمر، ماضي القول والفعل بمحضرٍ من ولي عهده المأمون أبي المطرف عبد الرحمٰن بن المنصور ـ وفّقه الله ـ وقبوله ما قلّده، وإلزامه نفسه ما ألزمه، وذلك في شهر ربيع الأول سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة».

ثم كتب الوزراء والقضاة والفقهاء شهاداتهم بذلك، فلما تَمَّ له ما أراد من ولاية العهد ودُعِيَ له على المنابر، أخذ في التخليط وارتكاب المحرّمات. ثم عزم على الغزاة، وتقدّم إليه هشام أن يتعمّم هو وسائر الجند ففعل، وخرجوا في العمائم ـ وكانوا بها في أقبح زِيٍّ لمخالفة العادة ـ وذلك في يوم الجمعة لاثنتي عشرة خَلَتْ من جُمادى الأُولى.

وسار للغزاة وهي المعروفة بغزوة الطين، وقيل إنه انتهى إلى طليطلة، فأتاه الخبر بقيام محمد بن هشام بن عبد الجبار وخلعه للمؤيد، وأنه أخرب الزاهرة، فخلف الناس لنفسه، ثم تفرقوا عنه، والتحقوا بمحمد بن هشام وكان من أمره وأمر المؤيد ما نذكره في أيام محمد بن هشام بن عبد الجبار!

ذكر إمارة محمد المهدي

هو أبو الوليد محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمٰن الناصر، وهو الحادي عشر من ملوك بني أُمية بالأندلس استولى على الأمر في جُمادى الآخرة سنة تسع وتسعين وثلاثمائة، ونحن نذكر سبب ذلك وكيف كان خروجه وكيف استولى على الأمر، لأنَّ في ذلك من الغرائب والحوادث ما يتعين إيراده بسببه ويفيد تجرُّبه، ويعتبر به مَنْ يتأمله، ويعلم أنَّ المقادير تجري على غير قياسٍ، وإذا أراد اللّهُ أمرًا هيّأ أسبابه.

وكان ابتداء هذا الأمر أنَّ هشام بن عبد الجبار والد محمد المهدي هذا قد ترشَّح لطلب هذا الأمرِ لنفسه، وعزم على خلع هشام المؤيد، فبلغ ذلك المظفر عبد الملك فقتل هشام بن عبد الجبار قبل أن يستحكم أمره في سنة تسع وتسعين. وكان محمد بن هشام جسورًا مقدامًا شجاعًا، ولم يتهيأُ له أمرٌ لهيبة عبد الملك واجتماعِ جنده، فلم يزل محمد يترصَّد الأمر حتى مات عبد الملك وولي عبد الرحمٰن. وتطاول لولاية العهد ونالها، وخرج للغزاة ـ على ما قدّمنا ـ فخلا البلد

من الجند. وقَوّى عزمَ محمد رجلان وهما حسن بن حيّ الفقيه ومطرف بن ثعلبة. وكان محمد يعاشر في مدة استتاره قومًا من الصعاليك لهم إقدامٌ على كل عظيمة، فَدَسَّ بعضهم إلى بعضٍ وأعطاهم من خمسة مثاقيل إلى عشرة وأكثر من ذلك، فاجتمع له منهم نحو أربعمائة رجلٍ. وطاوعه على ذلك جماعة من المروانيين لخروج الأمر عنهم وصَرْفِهِ إلى أبي عامر.

وكان عبد الرحمٰن قد رتَّب أُمورَ البلد قبل مسيره، وجعل النظر في الأموال وتدبير البلد إلى أحمد بن حزم وعبد الله بن سلمة المعروف بابن الشرس، وجعل على المدينة عبد الله بن عمرو المعروف بابن عُسْفلاجة وهو أحد بني أبي عامر. وظن شنشول أن الأُمور لا تتغير وأن دولتهم قد استحكم أمرُها، هذا ومحمد في تقرير حاله، فشنع الناس أنَّ قائمًا يقوم على بني الأغلب، فبلغ ابن عسفلاجة الخبر فأظهر البحث وبالغ في الكشف فلم يتبيَّن له شيء وهجم دورًا كثيرة فلم يقف على أمرٍ واضحٍ.

فلما كان في يوم الثلاثاء النصف من جُمادى الآخرة مات ابنُ عبد الجبار بقرطبة، وتقدم إلى ثلاثين رجلًا من كُفَاة أصحابه أن يشتملوا على سيوفهم ويدخلوا من باب القنطرةِ متفرقين حتى يقفوا على السترة التي تشرف على الرصيف والوادي، كما يفعل من يريد التفرّج بذلك المكان. وأمرهم أن لا يحدثوا حدثًا حتى يأْمرهم وأنذر سفهاءه وواعدهم ساعةً قبل زوال الشمس، ففعل أُولئك النَّفَرُ ما أمرهم به، وكان من سواهم على انتظار الوقت الذي حدّده لهم. وركب محمد بغلته وعبر القنطرة وحده حتى انتهى إلى باب الشكال ومعه نفرٌ من أصحابه كانوا قيامًا على باب القنطرة فاقتحموا باب الشكال فأنكرهم حَرَسُ الباب وأرادوا مَنْعَهُمْ، فبادر محمدٌ ودخل. وسلَّ أولئك النَّفرُ سيوفهم وقصدوه، فقصدهم صاحب المدينة ابن عسفلاجة، فيقال إنه كان يشرب مع حارسين له، فأتاه محمد وهو على أُهْبَةٍ فقتله واحتزُّوا رأسه. وتتابع أصحاب محمد من جهاتهم إليه.

واتصل الخبر بأهل الزاهرة عند العصر وقد عظم جمع محمد من أصحابه ومَنِ اجتمع إليه من العوام وأهل البادية، فنُقب القصر من ناحية باب السباع ومن ناحية باب الجنان، ولم يقدر حرس القصر على مقاومته.. ووصل إلى القصر من جهة باب السدة وأهل الزاهرة غير مصدقين بالأمر، وظنوا أنه أمر يدفعه صاحب المدينة إلى أن قوي عندهم الخبر بدخول محمدِ القصر، فكان حسبهم اعتصامهم بالزاهرة في ليلتهم.

فلما صار محمد داخل القصر أرسل إليه المؤيد هشام يقول له: تؤمنني على نفسي وأنخلع لك من الأمر! فقال «سبحان الله أتراني إنما قمت في هذا الأمر لأقتل أهل بيتي، وإنما قمت غَضَبًا له ولنفسي وبني عمي، فإن خلع نفسه طائعًا قبلت ذلك، وليس له عندي إلا ما يحبّ».

وأرسل محمد إلى الفقهاء ووجوه الناس فأحضرهم، وكتب كتاب الخلعِ والبيعةِ لمحمد، وبات تلك الليلة في القصر وأهل بالس وهي الزهراء[1] لم يتحرك منهم أحد، وكانوا جمعًا كبيرًا منهم أبو عمرو بن حزم وعبد الله بن سلمة وابن أبي عبيدة وابن جهور، وجماعة من الفقهاء والوزراء والصقالبة ـ وهم الخصيان ـ ونفر من الجند والخزّان والكتّاب.

وأصبح محمد فجعل حجابته إلى ابن عمه محمد بن المغيرة، وجعل على المدينة ابنَ عمّه أُميَّةَ بن إسحاق. وأمرهما بإثبات كل من جاءهما في الديوان، فلم يبق أحد حتى أثبت نفسه حتى الزهّاد والعبّاد وأئمة المساجد وغيرهم وقبضوا العطاء، وكذلك التجار الأغنياء. واتّبعه سائر أهل البوادي والأطراف، وأرسل حاجبه محمد بن المغيرة في خَلْقٍ من العامة لمحاربة أهل بالس فردّوه أقبح ردٍّ وهزموه إلى داخل قرطبة. ثم كثر العامة فهزموهم إلى بالس، ودخلها الحاجب ونُهبت، فسأل الوزراء والصقالبةُ الأمانَ فأمّنهم محمد، فساروا إليه فوبخهم ثم عفا عنهم ورد ابن الشرس مع الحاجب لِنَقْلِ ما ببالس من الأموال والأمتعة والأثاث وقد نُهِبَ منه ما لا يُحصى، ونُهِبَتْ ليْلةَ الأربعاء دورٌ كثيرةٌ للعامرية، ونهب ما جاوز بالس من دور الوزراء، وانْتُهِبَ ما في الزاهرة حتى قُلِعتْ الأبوابُ والأخشابُ، والحاجب مع ذلك ينقل.

ثم أمر محمد بَعْدَ أربعةِ أيام بِكَفِّ أيْدي العامةِ عن النَّهْب فمنعوا، وتَفَرّد بنقل ما يريد، فيقال إن الذي وصل إليه من الزاهرة في ثلاثة أيام ألفُ ألفِ وخمسمائة ألفِ دينارٍ، ومن الدراهم الأندلسية ألفا ألف ومائة ألف، ووجد بعد ذلك خَوابىءُ فيها نَحْوٌ من مائتي ألف دينار، وأطلقت النارُ في الزاهرة لعشر بقين من جُمادى الآخرة.

وخُطِب لمحمد بالخلافة وقطعت خطبةُ هشام وشنشول، وقُرِىءَ بعد صلاة الجمعة كتابٌ بِلَعْنِ شنشول وذِكْرِ مساوئه، وقُرِىء كتابٌ آخرُ من محمد بإسقاط رسوم جارية وقبالات محدثة. وصلّى محمد بالناس الجمعةَ لأربع من جُمادى الآخرة ودعا لنفسه وتلقّب بالمهديّ، وقُرِىءَ بعد نزوله كتابٌ على المنبر بالنفير لقتال شنشول.

---

(١) الزهراء: مدينة صغيرة قرب قرطبة بالأندلس اختطها عبد الرحمٰن الناصر بن محمد كما تقدم.

ووصل أهل الأقاليم من أقصى الأندلس مظهرين عُدَّةَ الحرب، ووَلّى محمدٌ جُنْدَه قوادًا من طبيب وحائك وجزار وسرّاج، وخرج بهم ونزل يفحص السُّرادقَ، وأمر أهلَ النواحي بالنزول حول سرادِقه.

ذكر أخبار شنشول ومقتله

قال: وأما شنشول فإنه لما بلغه الخبر ـ وكان قد انتهى إلى طليطلة ـ عاد إلى قلعة رباح[١] وقد تخاذل عنه الناس؛ فعزم على استجلابِ الناسِ لنفسه فامتنعوا وقالوا: قد خَلَفنا مرةً ولا يخلف أُخرى! فعلم أنهم خاذلوه، فدعا محمد بن يعلى الزناتي وكان عزَم على خذلانه فقال له: ما ترى فيما نحن فيه؟ فقال له: أصدقك عن نفسي وعن الجند ليس والله يقاتل معك أحدٌ منهم! قال ما الدليل على ذلك؟ قال: تأمر بتقديم مطبخك إلى طريق طليطلة وتظهر الرحيل إليها فتعلم مَنْ يتبعك ومن يتخلّف عنك! قال: صدقت.

وكان ابن عومس القومس مع شنشول يريد قرطبةَ معاقدًا له يستنصر به على مَنْ يناوئه من القمامسة[٢]. فلما رأى اضطرابَ حال شنشول أشار عليه أن يرحل معه إلى بلده، ويكونوا يدًا واحدة، ويلجأوا إلى مكانٍ، فأبى ذلك وقال: لا بُدَّ من الإشراف على قرطبة فإني أرجو أنني إذا اطلعت عليها اختلفتْ كلمةُ محمدٍ، ولي أنصارٌ يميلون إلى سلطاني ويحبون ظهوري! فقال له القومس: خذ باليقين ودع الظن، أمرك والله مُخْتَلٌ وجندك عليك لا لك! فقال: لا بُدَّ من المسير إلى قرطبة! فقال: أنا معك على كراهية لرأيك وعِلْم بخطاياك.

وسار شنشول من قلعة رباح والأخبار تتواتر بتظاهر أهل قرطبة مع ابن عبد الجبار، فلما بلغ منزل هانىءٍ فارقه عامَّةُ البربرِ ليلًا، وذلك في سلْخ جُمادى الآخرة، ثم فارقه الناسُ بعد ذلك وبقي في نَفَرٍ يسيرٍ مِنْ خَدَمِهِ، وابن عومس في نَفَرٍ من النصارى، فقال له: سِرْ بنا مِنْ هنا قبل أن يدهمنا ما يمنعُنا من ذلك! فأبى شنشول وقال: قد بعثتَ القاضي في طلب الأمان لي. ثم تجبّر في أمره وسار إلى ديرٍ يعرف بدير شَوْش[٣] ليلةَ الجمعة لثلاث خلون من شهر رجب.

---

(١) رباح: مدينة بالأندلس من أعمال طليطلة، وهي غربي طليطلة وبين المشرف والجوف من طليطلة، ولها عدة قرى ونواح. . . (معجم ياقوت).

(٢) القمامسة: جمع القمّس: أحد أصحاب المراتب الكنسية، كلمة يونانية معناها: المدبر، وهو أعلى من القس.

(٣) شوش: قرية مشهورة على نهر كبير يمر على مدينة إستجة ويصب في نهر قرطبة.

وبلغ خبره محمد، فأرسل إليه حاجبه في مائتي فارس، فأرسل الحاجبُ ابنَ ذرى مولى الحكم فسبقه إلى الدير فصبّحه في يوم الجمعة، فقال شنشول لما عاينه ومن معه: ما لكم عليّ سبيلٌ، أنا في طاعة المهدي! فاستنزلوه من الدير ومعه ابن عومس ومن تبعهما، وأَخَذَ نساءَ شنشول - وهن سبعون جارية - فبعث بهن إلى قرطبة، ولحق الحاجب بابن ذرى قبل العصر من يوم الجمعة. فلما أقبل عليهم نزل شنشول فقبّل الأرض بين يدي الحاجب مرارًا، فقيل له: قَبِّلْ حافِرَ فَرسِهِ! ففعل وقَبَّل رِجْلَه ويده، ثم حُمِل على غير فرسه وابنُ عومس ساكت لم ينطق، وأشار الحاجب بانتزاع قلنسوة شنشول عن رأسه فانتزِعت.

ورجع يريد قرطبة، فسار إلى أن غربت الشمس، فنزل وأمر أن يكتف شنشول فعطفت يده عطفًا شديدًا فقال: نَفِّسُوا عني وأطْلِقُوا يديَ لأستريح ساعة! فنفسوا عن يده، فأخرج من خُفِّه سكينًا كالبرق فعوجل قبل أن يصنع شيئًا، ثم أضجعه الحاجب وذبحه. وقتل ابن عومس وأخذ رأسيهما، وحمل جثة شنشول، وسار بها إلى القصر بقرطبة. فأمر محمد بِشَقِّ بَطْنِهِ ونَزْعِ ما فيه وحُشيَ بعقاقير تحفظه، ثم نصب رأسه على قناة ووقف به على باب السدة ثم رُكِّبَ على جسده، وكُسِي قميصًا وسراويل، وأخرِج فَسُمِّرَ على خشبةٍ على باب السدة. وأمر الرَّسَّانَ صاحب شرطه شنشول أن ينادي: هذا شنشول المأمون! ثم يلعنه ويلعن نفسَه، وذلك في يوم السبت لأربع خلون من شهر رجب.

وكانت مدةُ ولاية شنشول أربعةَ أشهر وأيامًا، وكان قبيح الفعال كثير التخليط متجاهرًا بالفِسْق، شُهِدَ عليه بأشياء لا تصدر عن مسلم، منها أنه سمع المؤذن يقول «حيّ على الصلاة» فقال: لو قال حيّ على الكبير لكان خيرًا له! وكثيرٍ من هذا القول وما يناسبه، وانقرضت الدولة العامرية بمقتل شنشول.

قال إبراهيم بن الرقيق: ومن أعجب ما رأيناه أنه كان من نِصْفِ نهار يوم الثلاثاء لأربعَ عشرة بقيت من جُمادى الآخرة إلى نصف نهار الأربعاء الذي يليه، فُتحت مدينةُ قرطبة وهُدِمتْ مدينةُ الزاهرة، وخُلع خليفة وهو هشام بن الحكم، وولي خليفةٌ وهو محمد بن هشام بن عبد الجبار، وزالت دولة بني عامر، وحدثت دولةُ بني أُمية، وقُتل وزيرٌ وهو ابن عُسفلاجة، وأُقيمت جيوش من العامة، ونُكبَ خَلْقٌ من الوزراء، وولي الوزارة آخرون، وكان ذلك على أيدي عشرةِ رجالٍ حجّامين وجزارين وحاكة وزبالين، وهم جندُ ابنِ عبد الجبار!

قال: وفي يوم الخميس لسبعٍ خلون من شهر رجب وصل كتابُ واضحٍ من مدينة سالم إلى محمد بِسَمْعِهِ وطاعته وإظهارِ الاستبشارِ بمقتل شنشول، فَسُرَّ به محمدٌ وشكر ذلك لواضح، وحمل إليه مالاً كثيرًا وكساءً وفُرُشًا وطرائف، وولاّه سائر الثغر.

قال: ولما استوثق الأمرُ لمحمدٍ أسقط من جنده نَحْوًا من سبعة آلاف وعادوا إلى بنيهم فانتفع بهم الناس، ثم نفى جماعةً من الصقالبة العامرية، ثم أخرج بعد ذلك صقالبة القصر وسدَّ أبوابه. وأظهر محمدٌ من الخلاعة واللَّهْوِ والشُّرْبِ ما كان يفعله شنشول، واستعمل مائة عود ومائة بوق. وفي شعبان توفي رجل يهوديٌّ فأخذه محمد وأوقف عليه رجالاً من أصحابه، وكان يشبه بهشام فشهدوا عند العامة أنهم وقفوا على هشام ميّتًا لا جُرْحٌ به ولا أثرٌ وأنه مات حَتْفَ أنفه. وحضر الفقهاء والعدول وخَلْقٌ من العامة إلى القصر وصَلُّوا عليه يومَ الاثنين لأربع بقين من شعبان وأخفاه عند وزيره الحسن بن حيّ.

وفي شهر رمضان سَجَنَ محمدٌ سليمانَ بن عبد الرحمٰن ـ وكان قد جعله وليَّ عهده ـ وسجن جماعةً من قريش، وأظهر بُغْضَ البربر فكان يسبُّهم في مجلسه.

ذكر قيام هشام بن سليمان عَلَى محمدٍ وما كان من أمره إلى أن قُتِل

قال: ولما شرع محمد بنُ عبد الجبار في اطِّراح البربر ودبّر في قَتْل عشرةٍ منهم، سعى هشام بنُ سليمان بن عبد الرحمٰن في خَلْع محمدٍ ووافَقَه جماعةٌ من الجند واحتفل أمره، وخرج إلى فحص السرادق وانضم إليه الذين أسقطهم محمد من جنده، فراسله محمدٌ وقَبَّح عليه فِعْلَه فقال: سُجِنَ والذي على غير شيءٍ ولا أدري ما صُنِع به! فأطلقه محمد فلم يرجع هشام عن رأيه، وتحرّك بالجند وأحرق سوق السَّرَّاجين. ثم خذله جنده وأخذوه أسيرًا هو وأخوه أبو بكر وأبوه سليمان، فسلموهم إلى محمد؛ فقتل هشامًا وأبا بكر صَبْرًا، وذلك لأربعٍ بقين من شوال. ونُهِبتْ دور البربر، ونودِيَ في البلد «من أتى برأسِ بربريٍّ فله كذا وكذا» فشرع أهل قرطبةَ في قَتْلِ مَنْ قدروا عليه منهم، وسُبِيَتْ نساؤهم، وهرب من سلم من البربر إلى أزملاط ثم جَلَوْا إلى الثَّغرِ. وكان من فَرَّ بعد قَتْل هشامٍ سليمانُ بنُ الحكم بنِ سليمان بنِ الناصر، فنصبه البربرُ خليفةً.

ذكر قيام سليمان بن الحكم المستعين بالله

قال: لما نصبه البربرُ خليفةً نَعتَ نفسه المستعينَ بالله، واستوزر أحمد بن سعيد، ونهض بمن معه إلى وادي الحجارة[١] فدخلوه عَنْوةً، وعرضوا أنفسهم على واضح العامريِّ غلام المنصور بن أبي عامر صاحبِ مدينة سالم، فلم يقبلهم، وبعث إليه محمد بن هشام المهدي قيصر الفتى في جيشٍ ليُعينه على سليمان، فالتَقوْا واقتتلوا، فانهزم واضحُ وقتل قيصر. ولحق واضح بمدينة سالم فتحصن بها، ومنع الميرة عن البربر، فأقاموا خمسةَ عشر يومًا يأكلون الحشيش. فلما اشتد ذلك عليهم أرسلوا إلى ابن مادويه الرومي واستُنْجدَ به، وسأله سليمان أن يدخل بينهم وبين ابن عبد الجبار وواضح في الصلح وقال: يخرج معنا إلى واضح ويرغبُ إليه في الإصلاح بيننا وبينه وبين صاحبه، فإن أبى ذلك سرنا إلى قرطبة وناجزنا ابنَ عبدِ الجبار!

فسارت الرسل إليه فوجدوا رُسُلَ ابنِ عبد الجبار وواضح عنده يسألونه الصلح معهما على أن يعطياه ما اشترط من مدائن الثَّغْر، وأتوه بِخيْلٍ وبغالٍ ومالٍ وكساءٍ وجوهرٍ وطيبٍ وتحفٍ كثيرةٍ. فأجاب البربر إلى ما أرادوه من الصلح أو الاتفاق معهم على أن يعطوه ما بذل واضح والمهديُّ من مدائن الثغور إذا ظفروا. فقبلوا ذلك منه، وَرَدَّ رُسُلَ واضح وابنِ عبد الجبار، ثم أرسل إلى البربر ألْفَ عجلةٍ تحمل الدقيق والشعير وأنواع المأكل وألف ثور وخمسةَ آلاف شاة وجميع ما يصلحهم من الملبس وغير ذلك. فقويت البربر بذلك، وسار إليهم في جموعه وساروا إلى مدينة سالم، وأرسلوا واضحًا في الصلح فأبى، فساروا إلى قرطبة في المحرم سنةَ أربعمائة. واتبعهم واضح بمن معه وقابلهم، فانهزم وقُتل خَلْقٌ كثير من أصحابه، ووصل المنهزمون من أصحابه إلى قرطبة، وملك البربر جميعَ ما كان في عَسْكر واضح. هذا وابن عبد الجبار في لَهْوِه واستهتاره، ثم خرج إلى فحص السرادق وخندق عليه، وأتاه واضحٌ في أربعمائةِ فارسٍ من أهل مدينة سالم، ووصل غلامه يلبق في مائتي فارس.

وأقبل سليمان بالبربر فنادى ابنَ عبد الجبار أن يُخْرِجَ كل من بلغ به الحُلُمُ[٢] من سائر الناس، فلم يتخلف أحدٌ فلا ترى إلا شيخًا ضعيفًا أو حَدَثًا غِرًا وبقَّالاً ونسّاجًا. فلما كان في يوم السبت منتصف شهر ربيع الأول التقى البربرُ وأهلُ قرطبة

---

(١) وادي الحجارة: بلد بالأندلس؛ ينسب إليه عبد الباقي بن محمد بن سعيد بن بريال الحجاري أبو بكر... (معجم البلدان).

(٢) أي أدرك وبلغ مبلغ الرجال.

فحمل عليهم من البربر نحو ثلاثين فارسًا فلم يقفوا لهم وانهزموا، وسقط بعضهم على بعض. ومضى واضحٌ من فَوْره إلى الثَّغر لم يعرج على شيء.. ووضع البربر السيف في أهل قرطبة فقتلوا خلقًا كثيرًا، وغرق في وادي قرطبة ما لا يُحْصى.

وسار ابن عبد الجبار إلى القصر وأظهر هشامًا المؤيد وأقعده حيث يراه الناس في مكان يشرف على باب الشكال والقنطرة، وأرسل القاضي ابن ذكوان إلى البربر يقول: إنما أنا قائم دون هشام ونائبٌ عنه كما يحجبه الحاجب والأمر له، وهو أمير المؤمنين! فلما أبلغهم القاضي الرسالةَ قالوا: بالأمس يموت هشامٌ وتصلِّي عليه أنت وأميرُك، واليوم يعيش وتُرجع الخلافة إليه! فاعتذر القاضي من ذلك.

ثم خرج أهلُ قرطبةَ بأجمعهم إلى سليمانَ فأكرمهم، وأحسن لقاءهم. ودخل سليمانُ القصرَ، وهرب ابنُ عبد الجبار فكانت مدةُ ولايته تسعةَ أشهر. واستنجز ابن مادوية البربرَ أن يعطوه الحصونَ التي شرطوها له فقالوا: ليست الآنَ بأيدينا فإذا عهد سلطاننا أنجزنا لك ما وافقناك عليه! ورحل يومَ الاثنين لسبع بقين من شهر ربيع الأول.

قال: ثم فَرَّق سليمانُ العمال في الولايات، وأنزل البربر بالزهراء، وأعاد المؤيد إلى السجن، وأنزل شنشول عن خشبته وأمر بغَسْلِه والصلاةِ عليه ودفنه، فدفن في دار أبيه.

وأما المهدي محمد بن هشام فإنه هرب إلى طليطلة بعد اختفائه بقرطبة، فوصل في أول جُمادى الأُولى فقبله أهلُها أحْسَنَ قَبُولٍ، وخالفوا هشامَ بنَ سليمان. فتأهب لقصد طليطلة. ورحل يوم الاثنين لإحدى عشرةَ خَلَتْ من جُمادى الآخرة. فلما قرب منها أرسل الفقهاء إلى أهلها ليعذر إليهم فرجعوا بخلافهم، فسار إليهم. وكان رجلٌ يعرف بالقرشي الحرّاني قد جمع جموعًا عظيمةً ودعا لِنَفْسِه، فسرح إليه سليمانُ عليَّ بن وداعة في جيش كثيف فهزم جموع القرشي وأسره وأحضره إلى سليمان، فاعتقله ثم قتله.

قال: وتجاوز سليمانُ طليطلة رجاءَ أن يرجعوا إلى الطاعة، ورحل إلى الثغر ونزل على مدينة سالم. ثم التحق بمحمد بن عبد الجبار في جماعةٍ من العبيد، وانضم إليه ابن مسلمة صاحب الشرطة. وخرج واضحٌ من مدينة سالم إلى طرطوشة وكتب إلى سليمان يرغب في المعافاة من الخدمة ويكون في ميورقة[1] مرابطًا وينقطع

---

(١) ميورقة: جزيرة في البحر المتوسط شرقي بلنسية.

عن الناس، وإنما يفعل ذلك تطمينًا لسليمان حتى يحكم أمره. فأرسل سليمانُ إليه بالنظر في سائر الثغر وجهادِ العدوّ، فأخذ واضح في الاتفاق مع الفرنج وشرط لهم ما أرادوه، واجتمعوا كلهم مع المهدي بطليطلة. وبلغ سليمان ذلك فاستنفر الناسَ فاستعفاه أهل قرطبة، وذكروا عجزهم عن القتال فأعفاهم بشفاعةِ البربر. وخرج لقتال القوم، فالتَقَوْا عند عقبة الثغر في العُشْر الأخير من شوّال، فجعل البربرُ سليمانَ في ساقتهم وجعلوا معه خيلاً من المغاربة وقالوا له: لا تبرح موضعك ولو وطئتك الخيل! ثم تقدموا فحملت الفرنج عليهم حملةً منكرة فأخرجوا لهم ليتمكنوا منهم، فرأى سليمانُ خيل الفرنج وقد خرقت صفوفَ البربر فلم يشك أن البربر قد اصطلموا[1]، فانهزم فيمن معه. ثم عطف البربر على الفرنج فقتلوا ملكهم أرمغند، وستين من وجوههم.. ورأى البربر هزيمة سليمان فانحازوا إلى الزَّهراء، ثم خرجوا منها ليلاً. ومضى سليمان إلى مدينة شَاطِبة[2]، فكانت مدة ولاية سليمان سبعة أشهر.

ذكر دولة المهدي محمد الثانية

قال: ولما انهزم سليمان دخل محمد بن هشام بن عبد الجبار قرطبة ومعه الفرنج فأفسدوا غايةَ الفساد، ونهبوا الأموال، واستطالوا على الناس ثم سألهم المهديُّ وواضحٌ المسير معهما لقتال البربر فخرجوا كلُّهم، والتَقَوْا بالبربر بوادي لدة لِسِتٍّ خلون من ذي القعدة، واقتتلوا قتالاً شديدًا فانهزم واضحٌ وابنُ عبد الجبارِ والفرنجُ أقبح هزيمة، وقتل في المعركة يلبق غلام واضح ومؤمن الصقلبي، وتَخَلَّف ابن زُرْزور مولى الحكم وغيرهم. وقتل من الفرنج أكثرُ من ثلاثةِ آلافٍ وغرق في البحر كثيرٌ، واحْتَوى البربرُ على ما في معسكرِهم، ووصل المنهزمون إلى قرطبةَ في اليوم الثاني من الْوَقْعَةِ فزاد حنقُ الفرنج وعاثوا بقرطبَةَ وقتلوا كلَّ من يُشَبَّهُ بالبربر بها. فسألهم محمد وواضحٌ، ورغبا إليهم في الرجوع معهم لقتال البربر، فأبَوْا عليهما وقالوا: قد قُتل ملكُنا وخيارُنا ووجوهُنا! وفارقوا مدينةَ قرطبة وعادوا إلى بلادهم، وكان رحيلُهم عنها لِشِدَّةِ خَوْفِهِمْ من البربر، حتى كان الرجل من أهلها يلقَى الآخر فيعزيه كما يُعَزَّى مَنْ فَقَدَ أهلَه وماله!

---

(١) اصطلم: أي استؤصل.

(٢) شاطبة: مدينة عظيمة نشزت على بلنسية في مدة ملوك الطوائف.

ثم فرض محمد بن عبد الجبار على أهل قرطبةَ مالاً فأدَّوْه، وتهيأ للخروج وخرج بواضحٍ وأهلِ قرطبةَ والعبيد لقصْد البربر. فلما ساروا ثلاثين ميلاً كرُّوا راجعين إلى قرطبة، وأقام من ورائه سورًا وتحصن به. هذا والبربر يغيرون في نواحي قرطبة، وأخذوا الجبل المعروف بابن حفصون ـ وهو كثيرُ الماء والمرعى والثمار والزرْع ـ فزاد ذلك في قُوَّتهم. وابن عبد الجبار وجندُه في انهماك على اللَّهو وارتكابِ المحارم وإظهار الفسق، وإفساد ما قدروا عليه، والنزول على الناس في دورهم، وقتْل من دافعهم، فكره واضح ذلك منه ـ وكان قد حقد عليه ما أتاه إلى بني أبي عامر ـ فأخذ في التدبير عليه.

وبلغ ذلك محمد فجمع ما في القصر من النفائس وسلمها إلى ابن رافعِ رأْسِه ـ رجل من أهل طليطلة ـ وأمره بالخروج إليها، وتحيّل في الخروج في أثره. فلما كان في يوم الأحد الحادي عشر من ذي الحجة سنة أربعمائة ـ وقيل لثمان خلون منه ـ ركب واضح والعبيدُ وأهل الثغر وصاحوا: لا طاعة إلا طاعة المؤيد!

ثم قصدوا القصر وأخرجوا المؤيد، وأجلسوه على منبر الخلافة وألبسوه لباسَها. وكان محمد بن عبد الجبار في الحمام، فدخل عليه ابن وداعة وأخبره الخبر، فخرج وجاء إلى هشام وأراد أن يجلس إلى جانبه، فأخذ عنبرٌ الخادمُ بيده ورمى به من على المنبر وأجلسه بين يدي المؤيد. فسَبَّهُ المؤيدُ ووبَّخه وعدَّد عليه ما أتاه وما فعله معه، فأخذ عنبرٌ بيده وأقامه وأصعده إلى السطح وأراد ضرْب عُنُقِهِ فتعلق به، فتعاورته سيوفُ العبيدِ والخدم والصقالبة فقتلوه، وأخذوا رأْسه ورموا بجثته، فسقطت في الموضع الذي كانت فيه جثة ابن عُسفلاجة لما قتله. فكانت مدةُ ولايته هذه نحو شهرٍ، ومدةُ مملكته الأُولى والثانية عشرة أشهر، وعمره خمسًا وثلاثين سنة!.

ذكر دولة المؤيد هشام الثانية

قال: وبايع الأجناد هشامًا المؤيد في يوم الأحد الحادي عشر من ذي الحجة سنة أربعمائة وأُحْضِر بين يديه رأْسُ محمدِ المهدي، فأمر بإرساله إلى البربر وهم يومئذ بوادي شوش في خدمة المستعين بالله سليمان بن الحكم، طمعًا أنَّ البربر يفعلون به كما فعل هو بالمهدي، ويعودون إلى طاعته فيتم أمرُه وتستقيم دولتُه. فلما وصل إليهم مع جماعة من أهل قرطبةَ كادوا يقتلونهم، فمنعهم المستعين بالله بعد أن أفرط في توبيخهم، فعادوا إلى قرطبة.

وتولى واضحٌ العامريُّ حجابة المؤيد، وأمره بِحفْر الخندق على قرطبة فحفره، وحصنها. قال: وكان لمحمدِ بن عبد الجبار ولدٌ بقرطبةَ عمرُه نحو ستَّ عشرة سنةً فاحتال له شيعةُ أبيه حتى أوصلوه إلى مدينة طليطلة، فقبله أهلُها، وأمّروه عليهم. فأغار على بعض ما كان لواضح، فلقيه محاربٌ التجيبي فقهره وأسره وأرسل به إلى واضح، فقتله.

قال: ثم قصد المستعينُ قرطبةَ في جموعة من البربر، فلم يتمكنْ منها، فقصد الزهراء فاستولى عليها في يوم السبت لستٍّ بقين من شهر ربيع الأول سنةَ إحدى وأربعمائة، وقتل مَنْ بها من الجند، وأخذ في قتال أهل قرطبة، وواضحٌ يتولّى حرْبَه. ثم رحل البربر من الزهراء لخمسٍ بقين من شعبان، وجعلوا يغيرون على البلاد ويخرِّبون، فانضم أهلُ البوادي إلى قرطبةَ خوفًا منهم، فصاروا أكثرَ من أهلِها، وغلت الأسعار فمات أكثرهم جوعًا. وقطع البربر الميرة عن قرطبة، فاشتد بها الغلاء فبيع مُدُّ القمح - وهو قفيزان[1] ونصف بالقروي - بثلاثمائة دينار دراهم وهي مائة مثقال عينًا. وجاءت رسل ابن مادويه يستنجزون تسليمَ الحصون إليه على أن لا يغزوهم ولا يتعرض لشيء من ثغورهم، فرَضُوا بهدنة وسلَّموا إليه مدنًا كثيرة وأكثرَ من مائتي حصنٍ مما افتتحه الحكم بن عبد الرحمٰن ومحمد بن أبي عامر. وسمع ابنُ شالوس بما تسلَّم ابن مادويه من الحصون، فكاتبَ على حصونٍ أُخرى وتَوعَّد وتهدَّد، فأُجيب إلى ما سأل وسُلِّمت إليه.

وأخرب البربرُ مدنًا جليلة، وقتلوا أكثر أهلها، ولم تسلم منهم إلا طليطلة ومدينةُ سالم، وبلغت خيلهم أندراوه وما وراءها حتى إنَّ الراكب يسير شهورًا لا يرى أحدًا في قريةٍ ولا طريق. قال: واستخف جندُ قرطبةَ بواضح حتى صاروا يصرحون بِسَبِّه، فعزم على مراسلة البربر في الصلح لما رأى من اضطراب الجند عليه وطمعهم فيه، وأظهر أن ذلك عن رأي هشام لما فيه من الصلاح للعامة والخاصة. فبعث واضحٌ إلى البربر رجلًا يعرف بابن بكر فاجتمع بسليمان وعاد بجوابه فقتله الجند في المجلس - ولم يقدر هشام ولا واضحٌ على مَنعهم - واحتزُّوا رأسه، وطافوا به البلد. فعزم واضحٌ على الهرب إلى البربر، وكان ابن أبي وداعة يعاديه فزحف إلى داره في عِدةٍ من الجند فأخرجوه حاسرًا وعاتبوه على ما أتلف من الأموال وما عزم عليه من

(١) القفيز: مكيال يكال به قديمًا، ويختلف مقداره في البلاد، ويعادل بالتقدير المصري الحديث نحو ستة عشر كيلوجرامًا.

مصالحة البربر. وضربه ابنُ أبي وداعة بسيفه وحمل عليه القوم فقتلوه، واحتزوا رأسه وطافوا به، وألقوا جثته في الرصيف بالموضع الذي أُلقِيَ فيه ابنُ عُسفلاجة وابنُ عبد الجبار، ونُهبت دور أصحابه.

وولّى هشام ابنَ أبي وداعة المدينة، فاشتدَّ على أهل الريب وهاب الجند وغيرهم، وكان مقتل واضح في يوم الثلاثاء للنصف من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وأربعمائة.

ثم قدم البربر وسليمان، ونازلوا قرطبة وظاهرها وقد امتلأت أيديهم بالغنائم، وقلّت الأقواتُ على أهلِ قرطبة، وعظم عليهم الخطب، واشتد الأمر، وكان بين أهلها والبربر مراسلاتٌ وأمورٌ يطول شرحها. كان آخر ذلك أن سليمان ملك قرطبة في يوم الأحد لثلاث خلون من شوّال سنةَ ثلاثٍ وأربعمائة، وكانت مدةُ ولاية المؤيد الثانية سنتين وتسعةَ أشهر واثنين وعشرين يومًا وفُقِد المؤيد لخمس خلون من شوال سنة ثلاث وأربعمائة.

ذكر دولة المستعين بالله الثانية

قال: ولما فتح سليمانُ بنُ الحكم المستعين قرطبةَ دخل القصر لخمسٍ خلون من شوّال وتلقّب بالظافر بحول الله، وأحضر هشامًا ووبخه وقال: قد كنتَ تبرأتَ لي من الخلافة فأعطيت صفقةَ يمينك فما حملك على نَقْضِ عهدِك؟ فاعتذر أنه مغلوب عليه، وتبرأ له، وسلّم الأمر إليه. وضرب سرادق سليمانَ بشقنده، ونزل البربر حوله، وهرب كثير من موالي بني أُمية فاحتوى البربر عليها واقتسموا البلد بينهم. وطالب سليمانُ الناسَ بالأموال فغرمهم فوق طاقتهم، واشتد أمر البربر على الناس فاستباحوا الأموالَ والحريم وسليمانُ لا يمكنه دفعهم وليس في يده مع قرطبة غيرُ إشبيلية ولبلة والشنبة وباجة.

وكان في عسكره رجلان من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب وهما القاسم وعلي ابنا حمود بن ميمون فقوّدهما على المغاربة، ثم ولّى عليًا الأصغر منهما سبتة[١] وطنجة[٢]، وولى القاسم الجزيرةَ الخضراء، وبين الموضعين المجاز المعروف بالزقاق[٣]، وسعة البحر هناك ثمانية عشرة ميلاً.

---

(١) سبتة: بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب، وهي على بر البربر تقابل جزيرة الأندلس على طرف الزقاق.

(٢) طنجة: بلد للبربر على ساحل بحر المغرب مقابل الجزيرة الخضراء. . . (معجم ياقوت).

(٣) الزقاق: يراد به مضيق جبل طارق اليوم.

وكانت العبيد لما خرجوا من قرطبة عند دخول البربر إليها ملكوا مدنًا عظيمة وتحصَّنوا فيها، فراسلهم علي بن حمّود وذكر أنَّ هشام بنَ الحكم لما كان محاصَرًا بقرطبة كتب إليه يوليه عهده فاستجاب له العبيد وبايعوه. فزحف من سبتة إلى مالقة[1] وفيها عامر بن فتوح الفائقي مولى فائق ـ مولى المستنصر ـ فأطاعه وأدخله مالقة. فملكها عليُّ بن حمود وأخرج عنها عامر بن فتوح ثم زحف بمن معه من البربر وجمهور العبيد إلى قرطبة، فأخرج له المستعين ولده ـ ولي عهده محمد بن سليمان ـ في عساكر البربر، ومعه أحمد بن سعيد الوزير. فانهزموا، ورجع محمد بن عبد الله الزناتي إلى قرطبة، وأخرج المستعين بالله وضمن له أن يقاتل بين يديه. فلما قربوا من عسكر علي بن حمود قادوه بلجام بغلته وسلموه لعلي، فلما حصل في يده دخل القصر في يوم الأحد لسبع بقين من المحرم سنةَ سبع وأربعمائة، وضَرب عنقَ سليمان بيده وقتل أباه الحكم ـ وهو شيخ كبير له اثنتان وسبعون سنة ـ فكانت مدةُ ولايةِ سليمانَ ثلاث سنين وثلاثة أشهر وأيامًا. وكان مولده سنة أربع وخمسين وثلاثمائة، وكان أديبًا شاعرًا، فمن شعره: [من الكامل]

عجبًا يهابُ الليْث حدّ سِناني ... وأهابُ لحظَ فَوَاتِر الأجفانِ

وهي أبيات عارض بها العباس بن الأحنف في أبياته التي أنشدها على لسان الرشيد التي أولها: [من الكامل]

ملَكَ الثلاثُ الآنسات عناني ... وحلَلْنَ من قلبي بكلِّ مكانِ

وقد ذكرنا ذلك في باب الغزل والنسيب، قال: ولما قُتِل سليمانُ بنُ الحكم هذا انقطعت دعوة بني أُمية من سائر أقطار الأندلس وقامت دعوة الفاطميين بها. وولي منهم ثلاثة ملوك وهم: علي بن حمود، والقاسم بن حمود أخوه، ويحيى بن علي، ثم عادت بعد ذلك الدعوةُ الأُموية على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر إمارة الناصر علي بن حمود

ابن ميمون بن أحمد بن علي بن عبد الله بن عمر بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، ملك قرطبة لسبع بقين من المحرم سنةَ سبع وأربعمائة على ما ذكرناه، وخوطب بأمير المؤمنين، وتلقَّب بالناصر. ولما دخل

(١) مالقة: مدينة بالأندلس عامرة من أعمال رية سورها على شاطىء البحر بين الجزيرة الخضراء والمرية.

قرطبةَ أحضر الفقهاء والوزراء وسأل سليمانَ بحضرتهم عن المؤيد فقال «مات» فألزمه أن يُرِيَه قبره فأخرجه دفينًا لا أثرَ فيه فأمر بتكفينه ودفنه في الروضة. ثم استفتى الفقهاء في قَتْلِ سليمانَ، فقتله هو وأباه الحكم وأخاه عبد الله وولده سليمانَ في وقت واحدٍ، وتَمَّ لعلي ما أراد واستقامت أُموره.

وفي سنة ثمانٍ وأربعمائة خَالَف عليه العبيدُ الذين كانوا بايعوه، وقَدَّموا عبد الرحمٰن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمٰن الناصر أخا المهدي وسمَّوه المرتضى وزحفوا به إلى قرطبة، ثم ندموا على إقامته لِما رأوه من صرامته، وخافوا عواقب تَمكُّنِهِ فانهزموا عنه ودسُّوا عليه من قتله غيلةً. وبقي عليُّ بنُ حمود بقرطبةَ إلى آخر سنةِ ثمانٍ وأربعمائة فقتله صقالبتُه في الحمام، فكانت مدة ولايته سنةً واحدةً وعشرةَ أشهر، وكان له من الولد يحيى وإدريس.

ذكر ولاية المأمون
القاسم بن حمود بن ميمون الفاطميّ

ولي بعد مقْتَلِ أخيه الناصر في أواخر سنةِ ثمانٍ وأربعمائة، وكان أسنَّ من الناصر بعشرة أعوام، ونعت نفسه بالمأمون وكان يحبّ الموادعةَ، فأمن الناس معه. وكان يذكر عنه أنه يتشيّع ولم يُظْهِرْ ذلك، ولا غَيَّر للناس عادةَ ولا مذهبًا، وكذلك سائر من ولِي منهم بالأندلس. فبقي القاسمُ إلى شهر ربيع الأول سنةَ اثنتي عشرة وأربعمائة، فقام عليه ابن أخيه يحيى بن علي بن حمُّود بمالقة، فهرب القاسم عن قرطبةَ بغير قتال، وصار إلى إشبيلية.

وزحف ابن أخيه المذكور من مالقة بالعساكر، فدخل قرطبةَ دون مانع، وتسمَّى بالخلافة وتَلَقَّب، فبقي كذلك إلى أن اجتمع للقاسم أمره واستمال البربر، وزحف بهم إلى قرطبة فدخلها في سنةِ ثلاثَ عشرةَ وأربعمائة. وهرب يحيى بن علي إلى مالقة، فبقي القاسم بقرطبة شهورًا. . ثم اضطرب أمره، وغلب ابنُ أخيه يحيى على الجزيرة الخضراء وكانت معقل القاسم وبها كانت امرأته وذخائره. وغلب ابنُ أخيه إدريس بن علي شقيق يحيى صاحب سبتة على طنجة، وكانت عدة القاسم يلجأ إليها إن رأى ما يخاف. وقام عليه جماعة أهل قرطبة في المدينة، وأغلقوا أبوابه دونه، فحاصرها نَيِّفًا وخمسين يومًا، ثم زحف أهلُ قرطبةَ فانهزموا عن القاسم. ولحقت كلُّ طائفةٍ ببلدٍ فغلبت عليه، وذلك في شعبان سنة أربعَ عشرةَ وأربعمائة وأعاد أهلُ قرطبةَ الدولةَ الأُمويةَ على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

قال: وأما القاسم فقصد إشبيليةَ وبها ابناه محمدٌ والحسن فلما عرف أهل إشبيليةَ خروجَه عن قرطبة ومجيئه إليهم طردوا ابنيْهِ ومَنْ كان معهما، وضبطوا بلدهم وقَدَّموا على أنفسهم ثلاثةَ رجال؛ منهم القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعِيل بن عبّاد اللخمي، ومحمد بن مرثم الإهابي، ومحمد بن محمد بن الحسن الزبيدي، ومكثوا كذلك أيامًا مشتركين في سياسة البلد وتدبيره، ثم انفرد القاضي أبو القاسم بن عباد على ما نذكره إن شاء الله.

ولحق القاسم بشريش[١]، واجتمع البربر على تقديم ابن أخيه يحيى، وحصروا القاسم حتى صار في قبضة ابنِ أخيه. وانفرد بولاية البربر، وبقي القاسم أسيرًا عنده وعند أخيه إدريس إلى أن مات إدريس، فقُتل القاسم خَنْقًا في سنةِ إحدى وثلاثين وأربعمائة، وحُمِل إلى ابنه محمد بن القاسم بالجزيرة فدفنه هناك.

وكانت ولايةُ القاسم تسمَّى بالخلافة بقرطبةَ إلى أن أسره ابنُ أخيه ستَّةَ أعوام، ثم كان مقبوضًا عليه ستَّ عشرةَ سنةً عند ابنَيْ أخيه إلى أن مات - قيل ومات وهو ابن ثمانين سنة - وله من الولد محمد والحسن وأُمهما أميرة بنت الحسن بن فنون بن إبراهيم العلوي.

ذكر ولاية المعتلي يحيى بن علي

وكنيته أبو إسحاق، وقيل أبو محمد تَسمَّى بالخلافة بقرطبة في سنةِ ثلاثَ عشرةَ وأربعمائة، ثم هرب منها إلى مالقة في سنة أربع عشرة. ثم سعى قومٌ من المفسدين في إعادة دعوته بقرطبة في سنةِ ستَّ عشرةَ ولم يدخلها، واستخلف عليها عبد الرحمٰن بن عطاف، ثم قطعت خطبته من قرطبة في سنة سبع عشرة. وبقي يتردد إليها بالعساكر إلى أن اتفق جماعة البربر على طاعته، وسلّموا إليه الحصونَ والقلاع والمدن، وعظم أمره فصار بقرمونة[٢] ليحاصر مدينة إشبيلية. فخرج يومًا وهو سكران إلى خَيْلٍ ظهرت من إشبيلية بقرب قرمونة، فلقيها وقد كمن له كمناء، فلم يكن بأسرع من أن قتل، وذلك في يوم الأحد لسبعٍ خلون من المحرم سنة سبع وعشرين وأربعمائة، وكان له من الولد الحسن وإدريس.

---

(١) بشريش: مدينة كبيرة من كورة شذونة.

(٢) قرمونة: مدينة بالأندلس في الشرق من إشبيلية.

ذكر عود الدولة الأموية بمدينة قرطبة ومن ولي منهم

أ ـ ذكر إمارة المستظهر بالله

هو أبو المطرّف عبد الرحمٰن بن هشام بن عبد الجبار ـ أخو المهدي ـ بويع له بالخلافة بقرطبةَ لثلاثَ عشرةَ من شهر رمضان سنةَ أربع عشرةَ وأربعمائة. وذلك أن أهل قرطبةِ لما هزموا البربر وأخرجوا القاسم ـ كما قدمنا ـ اتفق رأْيُهُم على ردِّ الأمرِ إلى بني أمية. فاختاروا منهم ثلاثة، وهم: عبد الرحمٰن هذا، وسليمان بن المرتضى، ومحمد بن عبد الرحمٰن. فاتفق رأيهم على إمارة عبد الرحمٰن فبايعوه، وتلقب بالمستظهر، وكان مولده في ذي القعدة سنةَ اثنتين وتسعين وثلاثمائة. وقام عليه محمد بن عبد الرحمٰن مع طائفةٍ من أرذال العوام فقتل عبد الرحمٰن لثلاثٍ بقين من ذي القعدة منها، وقيل لثلاثٍ خلون منه. وكان في غاية الأدب، وله شعر. وزيره الفقيه أبو محمد علي بن أحمد بن حزم.

ب ـ ذكر إمارة المستكفي بالله

هو أبو عبد الرحمٰن محمد بن عبد الرحمٰن بن عبد الله بن عبد الرحمٰن الناصر بن هشام المستظهر، وأمه أُم ولد اسمها حوراء ولِي بعد قَتْل المستظهر لثلاثٍ خلون أو بقين من ذي القعدة سنة أربع عشرة وأربعمائةٍ، وله ثمان وأربعون سنةً. وكان أبوه ممن قتله الوزير محمد بن أبي عامر في أوّل دولة المؤيدِ هشام لِسَعْيِه في القيام وطلبه الأمرَ، فولِيَ محمدٌ هذا عشرةَ أشهرٍ وأيامًا، وخُلع وقيل بل خلع في يوم الثلاثاء لخمسٍ بقين من شهر ربيع الأول سنة ستٍّ عشرةَ، وخرج من قرطبة يريد الثَّغْرَ فمات بقريةٍ من قُرى شنت مرية في أول شهر ربيع الآخر منها، فكانت مدةُ مملكته بقرطبةَ على هذا القول سنةً وأربعة أشهر. وكان الحاكم في أيامه صاحب المظالم محمد بن عبد الرؤوف.

وكان محمد بن عبد الرحمٰن في نهاية التخلف، صاحب أكْلٍ وشرْبٍ ونكاح، ولم يزل مُتَغَلَّبًا عليه طولَ ولايته لا يُنفذ له أمر، ولا عقب له. وقيل في وفاته إنه لما هرب من قرطبة سار حتى انتهى إلى قرية يقال لها سمّونت من أعمال مدينة سالم فجلس ليأكل وكان معه عبد الرحمٰن بن محمد بن السليم ـ من ولد سعيد بن المنذر ـ فكره التمادِي معه، فَسمَّه في دجاجةٍ فمات لوقته، فَقَبْرُه هناك. ولما خلع أعيدت خطبةُ يحيى بن عليٍّ الفاطميّ، ثم قطعت وأُعيدت الخطبة للدولة الأُموية.

جـ ـ ذكر ولاية المعتمد على الله

هو أبو بكر هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمٰن الناصر، وهو أخو المرتضى، بويع له في شهر ربيع الأول سنةَ ثماني عشرةَ وأربعمائة، وقيل في يوم الجمعة سلخ شهر ربيع الآخر منها. وذلك أنه لما قُطِعت خطبة يحيى بن علي في سنةِ سبعَ عشرةَ وأربعمائةٍ اجتمع رأي أهل قرطبة على ردِّ الأمر إلى بني أُمية، وكان عميدهم في ذلك الوزير أبو الحزم جهْور بن محمد بن جهور. فراسل أهل الثغورِ في ذلك فاتفقوا عليه بعد مُدةٍ، فبايعوا لأبي بكرٍ وهو بالثغر في حصن البُونت[1] عند أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن قاسم.

فبقي يتردّد في الثغور سنتين وعشرةَ أشهر ـ وقيل سبعة أشهر ـ وثارت هناك فتَنٌ كثيرةٌ يطول شَرْحُها، واضطرابٌ شديدٌ من الرؤساء بها، إلى أن اتفق رأيهم على أن يسير إلى قرطبة الملكُ. فسار إليها، ودخلها في يوم منى ثامن ذي الحجة سنةَ عشرين وأربعمائة. ولم يُقم إلا يسيرًا حتى قامت عليه فرقةٌ من الجند، فخلع!

قال بعض المؤرخين: كان سبب خلعه أنَّ وزيره ومدبِّر أمره أبا العاص الحكم بن سعيد كان فاسدَ الطريقة، ولم يكن له سابقة رئاسة. فكرهه الناس فَدسُّوا عليه في بعض الطرق من قال نصيحة تقربه منه ـ وكان أطروشًا ـ فأصغى إليه ليقولها في أُذنه، فَجرَّه عن دابته فقتل.

وخلع المعتمد، وخرج إلى الثغر لينتزعه من يد المنذر بن يحيى، فمات بِلارِدَةَ[2] ـ وهي في مملكة سليمان بن هود ـ في يوم الجمعة لأربع بقين من صفر سنةَ ثمانٍ وعشرين وأربعمائة.

قال: وولي قرطبة بعده قريب من سِتَّةٍ، ثم دُعِي للمؤيد هشام ـ وذُكر أنه حيٌّ ـ في يوم الخميس لليلتين خَلَتا من المحرم سنة سبعٍ وعشرين وأربعمائة إلى أن أُشيع موت هشام هذا. فتغلّب على قرطبةَ أبو الحزم بن جَهْور ـ على ما سنورده ـ وانقطعت دعوة بني أُمية من سائر البلاد إلى هلم. وكانت مدة مُلْكِ بني أُميةَ ببلاد الأندلس ـ من سنة ثمانٍ وثلاثين ومائة وإلى هذا التاريخ ـ مائتي ستةٍ وتسعين، وعدة من ملك منهم خمسةَ عشر ملكًا وهم:

---

(١) حصن البونت: أحد معاقل إقليم بلنسية.

(٢) لاردة: مدينة من مدن الثغر قرب طرسونة.

عبد الرحمٰن بن معاوية الداخل، هشام بن عبد الرحمٰن، الحكم بن هشام المرتضى، عبد الرحمٰن بن الحكم، محمد بن عبد الرحمٰن الأمين، المنذر بن محمد بن عبد الرحمٰن، عبد الله بن محمد بن عبد الرحمٰن، عبد الرحمٰن بن محمد بن عبد الله، الحكم المستنصر بالله بن عبد الرحمٰن، هشام المؤيد بالله (دفعتين)، محمد بن هشام بن عبد الجبار المهدي (دفعتين) سليمان بن الحكم المستعين بالله (دفعتين). ثم انقطعت دعوتهم بقيام العلويين سبْعَ سنين، وعادت بقرطبة بإمارة المستظهر بالله عبد الرحمٰن بن هشام بن عبد الجبار، ثم المستكفي بالله محمد بن عبد الرحمٰن بن عبد الله، ثم المعتمد على الله أبو بكر هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمٰن الناصر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمٰن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمٰن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم..

ذكر أخبار الأندلس
ومن ملكها بعد انقطاع الدعوة الأُموية

قال: ولما انقطعت دعوةُ بني أُمية بعد خَلع هشام تغلَّب كلُّ رئيسٍ على بلدٍ، واستولى عليها، ونحن نذكر ذلك على سبيل الاختصار. فأما قرطبة فاستولى عليها الوزير أبو الحزم جهْور بن محمد بن جهور بن عبد الله بن محمد بن العمر بن يحيى بن عبد الغافر بن أبي عبيدة. قال: وكان من وزراء الدولة العامرية قديم الرئاسة موصوفًا بالدهاء والعقل، لم يدخل في شيء من الفِتَنِ قبل ذلك. فلما خلا له الجوُّ وأمكنته الفرصة وثب عليها، فتولَّى الأمر واستقلَّ به، ولم ينتقلْ عن رتبة الوزارة إلى الإمارة ظاهرًا، بل دبَّر تدبيرًا حسنًا لم يُسْبقْ إليه. وجعل نفسه مُمْسِكًا للوضع إلى أن يجيءَ مستحقٌّ يتفق عليه الناسُ فيسلمه إليه، ورتَّب البوابين والحشم على أبواب تلك القصور - على ما كانت عليه أيام الدولة - ولم يتحول عن داره إليها. وجعل ما يُرْفَعُ من الأموال السلطانية بأيْدي رجالٍ رتَّبهُم لذلك وهو المشرف عليهم، وصيّر أهلَ الأسواق جندًا وجعل أرزاقهم رؤوس أموالٍ تكون بأيديهم يأخذون رِبْحَها خاصةً ورؤوس الأموال باقية، يؤخذون ويراعون في الوقت بعد الوقت كيف حِفْظُهم لها. وفرق السلاح عليهم وأمرهم أن يجعلوه في الدكاكين والبيوت، حتى إذا دهَم أمرٌ ليلاً أو نهارًا كان سلاح كلِّ واحدٍ معه، وكان يشهد الجنائز ويعود المرضى.

وكانت قرطبةُ في أيامه حرمًا يأمن فيه كلُّ خائف، ولم تزل أيامه على أحسن نظام وأكمل اتِّساق إلى أن توفي في صفر سنة خمسٍ وثلاثين وأربعمائة، وتولى بعده ابنهُ محمد.

ذكر ولاية أبي الوليد محمد بن جهور

ولي بعده أبيه فجرى على سُنَّتِهِ في تدبير الأُمور ورعايةِ قلوبِ الرعية إلى أن مات، وغلب عليها الأمر المُلَقَّب بالمأمون صاحبُ طليطلة إلى أن مات، ثم استولى ابن عبّاد على قرطبة على ما نذكره.

ذكر أخبار مدينة طليطلة
ومن ملكها بعد بني أُمية وكيف كان استيلاء الفرنج عليها

أول من تغلَّب عليها بعد بني أُمية مع بقائهم بقرطبة رجل يقال له ابن يعيش، وذلك أن أهلها لما خلعوا طاعةَ بني أُمية قَدَّموه على أنفسهم وولَّوْه أمرهم، فلم تَطُلْ مدته. وصارت رئاسته إلى إسماعيل بن عبد الرحمٰن بن عامر بن مطرّف بن ذي النون الهواري، فتغلب على طليطلة. ولم تزل بيده إلى أن توفي في سنة خمسٍ وثلاثين وأربعمائة، فقام بعده ابنُه.

ذكر ولاية المأمون يحيى بن إسماعيل

وَلِيَ طليطلة بعد أبيه، ولما ولي أراد أن يستعين بالفرنج على ما حوله من المدائن والحصون لينتزعها ممن هي بيده. فكتب إلى ملك من ملوك الفرنج ـ كان قريبًا منه وبينهما مودةٌ ومُرَاسلةٌ ـ يُقال له شنشكند وقال له «اخرج إليّ في مائة من فرسانك وإنني في مكان كذا لأجتمع بك في أمرٍ لك فيه راحة» فخرج إليه شنشكند في ستة آلاف فارس، وخرج ابن ذي النون في مائتي فارسٍ من عسكر طليطلة.

وكمّن الفرنجيُّ أصحابَه خلف جبل بالقرب من الموضع وقال لهم: إذا رأيتمونا قد اجتمعنا فاخرجوا إلينا بأجمكم! فلما فعلوا ذلك ورآهم المأمونُ سُقِط في يده، وحيل بينه وبين عَقْله فقال له شنشكند: يا يحيى وحقِّ الإنجيل ما كنتُ أظنُّك إلاَّ عاقلاً وإذا بك أحمقُ خلْقِ الله، خرجتَ إليّ في هذا العدد القليل وسلَّمت إليّ مُهْجَتَك بغير عهدٍ كان بيني وبينك قبل خروجك ولا دين يجمعنا وقد أمكنني اللّهُ منك، وحقِّ الإنجيل لا نجوت مني حتى تعطيني الحِصْن الفلاني والحصن الفلاني

ـ وسمّى حصونًا من حصون المسلمين بين طليطلة وبينه ـ وتجعل لي عليك مالاً في كل سنة!.

فأجابه يحيى إلى ما طلب، وسلّمَ إليه الحصون، ورجع إلى طليطلة شر رجوع. وتواتر الخِذْلانُ عليه إلى أن مات في سنة ستين وأربعمائة، وصارت ولايتهُ إلى ابنه القادر يحيى، فدام بطليطلة إلى أن ملكها الفرنج.

قال: ولما ملك امتدت يدُه إلى أموال الرعية، واستعمل السفلة وأهلَ الثغور، ولم تزل النصارى تطوي حصونَه حصنًا بعد حصن حتى اسْتَوْلوْا على طليطلة في سنة ثمانٍ وسبعين بعد أن حاصرهم ألفونش سبْعَ سنين وملكها، واتخذها دارَ مُلْكٍ، وغَيَّرَ جامِعَها كنيسةً وردَّ المسلمين إلى مسجدٍ غيره وعَوَّضَهم مالاً وقال: هذه كنيسةٌ كانت لنا فردّها اللّهُ علينا! وانتقل القادر بالله إلى بلنْسِية فقبله القاضي الأحنف بنُ حجاب.

ذكر أخبار دولة بني عباد

وابتداء أمرهم ومن ملك منهم إلى أن انقضت مُدَّتهم وانقرضت دولتهم.

أول من قام منهم القاضي محمد بن إسماعيل بن قريش بن عبّاد بن عمرو بن عطاف بن نُعَيْم ـ ونعيم وابنُهُ عطاف هما دخلا إلى الأندلس من المشرق ـ وهم من لخم من بني المنذر بن المنذر، وفيهم يقول الشاعر: [من الخفيف]

مِنْ بني المنْذَرين وهو انْتِسَابٌ زادَ في فَخْرِهِ بنو عبّادِ
فيه لمّا تَلِدْ سِواها المعالي والمعالي قليلةُ الأولادِ

وكان محمد بن إسماعيل هذا قد تقدّم بإشبيلية إلى أن ولِي القضاء، فأحسن السياسة مع الرعية والملاطفةَ بهم؛ فرمقته العيون، ومالت إليه القلوب. فلما كان في سنة ثلاثَ عشرةَ وأربعمائة ولّى يحيى بن عليّ الفاطمي قرطبة، وكان من أمره وأمرِ عمّه القاسم ما ذكرناه. ثم إنَّ أهلَ قرطبةَ أخرجوا القاسم بنَ حمّود فقصد مدينةَ إشبيلية ثم فارقها، وقصدها بعد ذلك يحيى بن عليّ المعتلي ونزل بقرمونة لحصار مدينة إشبيلية وكانت الرئاسةُ بها بين ثلاثة ـ كما ذكرنا ذلك ـ فاجتمع وجوه المدينة وفيهم حبيب بن عامر القرشي ومحمد بن مرثم الإهابي ومحمد الزبيدي وغيرهم. وأتَوْا إلى أبي القاسم محمد بن إسماعيل وقالوا: ما ترى ما نحن فيه وما حلَّ بنا من هذا الكافر وما أفسد من أموال الناس، فَقُمْ بنا نخرجْ إليه ونملكك ونجعلْ الأمر لك وننتصر لهشام!

ففعل، وخرجوا لقتال يحيى بن علي المعتلي، فركب إليهم وهو سكران فقتل كما قَدَّمْنا. وملك محمد بن إسماعيل إشبيلية، وقالوا له: نخرج إلى قرمونة من قبل أن يسبقك إليها إسحاق بن عبد الله البرزالي! فَهَمَّ محمد بذلك فسبقه إسحاق وملكها، فكتب محمد إلى يحيى بن ذي النون الهواري صاحب طليطلة يقول له: اخرج بعسكرك أو ابعث إلي بعسكر مع قائدٍ من عندك حتى أُخْرِج إسحاقَ بنَ عبد الله من قرمونة، وأن أُعينك على أَخْذِ قرطبة وأجعلها لك مِلْكًا!

فلما وصل كتابه إلى المأمون خرج إليه بنفسه في عسكرٍ كبير، فاجتمعا ونزلا على قرمونة، وحاصراها وأخرجها عنها إسحاق. وأخذها محمدُ بنُ إسماعيل وأدخل ولده إليها، وسارا إلى قرطبة وحاصراها. فلما رأى أهلها ما حلَّ بهم كاتبوا محمد بنَ إسماعيل وقالوا: أنتَ أَوْلى من المأمون بالبلد وأحبُّ إلينا منه! فاستوثَقَ منهم ودخلها ليلاً ويحيى لا علم له بذلك.. فلما أصبح وعلم الحال رجع بعسكره إلى طليطلة وكتب إلى ابن عكاشة ـ وهو رجل شجاع كان بيده بعضُ حصون الأندلس، يقطع حوله السبيل ويقتل التجار ويأخذ الأموال، وهو يظهر ليحيى طاعةً مشوبةً بمعصية ـ فأمره أن يجمع أصحابه وعضَّده بعسكر كبير ووجههم إلى قرطبة، فتوجهوا إليها وقد فارقها محمد بنُ إسماعيل إلى إشبيلية وترك ولده بها.

فدخلها ابن عكاشة ليلاً، ودخل القصر، وقتل كلَّ منْ وجَد من الحرس، وذبح ولدَ محمد بنِ إسماعيل بيده. فلما بلغ ذلك محمد جمع العساكر وخرج إلى قرطبة، فحصر ابنَ عكاشة وضيّق عليه، فخرج هاربًا. واستوثق من الرعية وعاد إلى إشبيلية، فوصل إليها يحيى بن ذي النون وتغلَّب عليها. فَدَسَّ عليه محمد بنُ إسماعيل طبيبه، فَسَمَّه، فمات! فعندها خلص الأمرُ لمحمد بن إسماعيل، وذلك في سنةِ أربع وعشرين.. هكذا نقل عز الدين عبد العزيز بن شدّاد بن تميم بن المعز بن باديس في كتابه المترجم بالجمع والبيان، وذكر أيضًا في هذا الكتاب أنَّ يحيى توفي في سنة ستين وأربعمائة، وهذا فيه تنافٍ والله تعالى أعلم.

ذكر أخبار خلف الحصري المشبّه بالمؤيد هشام وقيام دعوته بمملكة محمد ابن إسماعيل، وما قيل في ذلك

فأما قيام دعوته فإن محمد بن إسماعيل لما استولى على الأمر في سنة أربعِ وعشرين وأربعمائة وتعاظم أمره، حسده أمثاله وكثُر الكلام فيه وقالوا «قتل يحيى بن

علي الحسني من أهل البيت وقتل يحيى بن ذي النون ظلمًا» واتَّسع القول فيه فبقي يفكر فيما يفعله. فبينما هو كذلك إذ جاءه رجل من أهل قرطبة فقال له: إني رأيت ـ هشامًا في قلعة رباح! فقال له محمد: انظرْ ما تقول! فقال: إني واللّهِ رأيتُهُ وهو هشام بلا شك!

وكان عند محمد بن إسماعيل عَبدٌ من عبيد هشام يسمى تومرت ـ وهو الذي كان يقوم على رأس هشام ـ فقال له محمد: إذا رأيتَ مولاكَ تعرفه؟ فقال: نعم ولي فيه علامات.

فأرسل محمدٌ رجلين من الذين ذكروا أنهم رأوا هشامًا وقال: توَجَّها إلى قلعة رباح وائتياني بهشام! وأسرعا، فَتَوَجَّهَا فوجداه في مسجد في قلعة رباح، فدخلا عليه وأعلماه أنهما رسولا القاضي محمد بن إسماعيل إليه. فسار معهما إلى إشبيلية. فلما دخل على القاضي قام إليه وسلم عليه وأنزله ووكل بخدمته تومرت مولاه. فلما رآه تومرت قَبّل يديه ورجليه وقال للقاضي: هو والله مولاي هشام بن الحكم.

فعند ذلك قام إليه القاضي محمد بن إسماعيل وقَبَّلَ رأسَه ويديه، وأمر بنيه فدخلوا عليه وفعلوا كفعله، وسلّموا عليه بالخلافة. وأخرجه محمد بن إسماعيل في يوم الجمعة إلى الجامع بمدينة إشبيلية، ومشى هو وبنوه بين يديه رجّالةً حتى أتى المسجد، فخطب الناس وصلّى بهم الجمعة. وبايعه محمد بن إسماعيل وبنوه وجميعُ أهل البلد ورجع إلى موضعه، وتولّى محمد بن إسماعيل الخدمةَ بين يديه وجرى في ذلك على طريقة ابن أبي عامر، غير أنه يخرج إلى الجمعة والأعياد ويصلّي طولَ مدته، ومحمد في رتبة الوزارة آمرًا وناهيًا عنه، واستقام لمحمد أكثر مدن الأندلس، فهذا كان سبب قيام دعوته.

وأما ما نقل من أخباره فقد ذكرنا في أخبار بني أمية أن المستعين بالله سليمانَ بن الحكم لما فتح قرطبةَ المرة الثانيةَ في شوّال سنةَ ثلاث وأربعمائة أحضره وَوبَّخه، وأن المؤيد فُقِدَ لخمسٍ خلون من شوال. وذكرنا أيضًا أنَّ الناصرَ عليَّ بنَ حمّود الفاطميّ لما ملك قرطبةَ أحضر المستعين وسأله بحضرة الفقهاء والوزراء عن المؤيد هشام فقال «مات فألزمه أن يُرِيَهُ قبره فأخرجه دفينًا لا أثر فيهِ فأمر الناصر بتكفينه ودفنه في الروضة».

وقيل بل هرب بنفسه إلى المشرق مستخفيًا حتى وصل إلى مكة ـ شَرَّفها الله ـ وكان معه كيسٌ فيه جوهر وياقوت ونفقة، فشعر به حَرَّابة مكة، فأخذوه منه، فمال إلى جهةٍ من الحرم وأقام يومين لم يُطْعَمْ طعامًا. فمضى إلى المروة فأتاه رجل فقال

له تُحسن عَمَلَ الطين؟ قال: نعم! فمضى به إلى تراب ليعجنه ووافقه على درهم وقرصة، فقال له: عجِّل القرصةَ فإني جائع! فأتاه بها فأكلها، ثم عمد إلى التراب فكان مرةً يعجن ومرةً يجلس، فلما طال عليه ذلك تركه ومضى هاربًا على وجهه.

وخرج مع القافلة إلى الشام على أسوإ حالٍ، فوصل إلى بيت المقدس، فمشى في السوق فرأى رجلاً يعمل الحصر الحلفاء[1] فنظر إليه فقال له الحصري: كأنَّك تحسن هذه الصناعة! قال: لا! قال: فتقيم عندي تناولني الحلفاء وأجعل لك أُجرة على ذلك. قال: أفعل.

فأقام عنده يناوله ويعاونه على ما يأمره به من أُمور صناعته، فتعلّم هشامٌ صناعة الحصر، فصار يعملها ويتقوّت منها. وأقام ببيْت المقدس أعوامًا كثيرةً لم يعلمْ به أحدٌ، ثم رجع إلى الأندلس في سنة أربع وعشرين وأربعمائة.. هكذا روى جماعة من مشايخ الأندلس!

وقال الإمام الحافظ أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم في كتابه المسمى «نقط العروس في هذه الحكاية: أُخلوقة لم يقع في الدهر مثلها، وإنما ظهر رجل يقال له خلف الحصري بعد نيف وعشرين سنة من موت هشام بن الحكم المؤيد وادَّعى أنه هشام، وبويع له على جميع منابر الأندلس في أوقات شتى، وسَفكِ الدماءَ وتصادمت الجيوش في أمره.

وقال أبو محمد بن حزم: وفضيحة لم يقع في الدهر مثلها، أربعة رجال في مسافة ثلاثة أيام في مثلها يُسَمَّى كلُّ واحدٍ منهم بأمير المؤمنين، ويخطب لهم في زمن واحد، أحدهم خَلَفُ الحصريّ المذكور بإشبيلية على أنه هشام بن الحكم المؤيد، والثاني محمد بن القاسم بن حمّود بالجزيرة الخضراء، والثالث محمد بن إدريس بن علي بن حمّود بمدينة مالقه، والرابع إدريس بن يحيى بن علي بشنترين[2].

وأقام المُدَّعِي أنه هشام بن الحكم نيِّفًا وعشرين سنةً والقاضي محمد بن إسماعيل في رتبة الوزير بين يديه، والأمر إليه. وقد استقام لمحمدٍ أكثرُ بلاد الأندلس، ودفع به كلام الحسّاد وأهل العناد، إلى أن توفي هشامٌ المذكورُ. فاستبدّ القاضي بالأمر بعده وملك أكثر مدن الأندلس وحصونها. ولم ينتقل عن مدينة إشبيلية

---

(١) الحلفاء: نبت أطرافه محددة كأطراف سعف النخل، ينبت في مغايض الماء.

(٢) بشنترين: مدينة في غربي قرطبة وعلى نهر تاجة قرب انصبابه في البحر المحيط... (معجم البلدان).

بل جعلها دار ملكه، واستقامت له الأُمور، وأطاعته المدن والثغور، واجتهد في جهاد الفرنج. وكان له في ذلك القدم المشهور، ومات محمد في عشر الخمسين وأربعمائة، وولي بعده ابنُه عباد.

ذكر ولاية أبي عمرو عباد بن محمد

ولي بعد أبيه وتلقَّب بالمعتضد بالله، وكان فيه كرم وبأس. فطابت أيامه، وحسنت أفعاله، واستقامت له الأحوال، ورُفعت له من بلاد الأندلس الأموال. قال: واتفق له واقعة غريبة في سنة سبع وأربعين وأربعمائة، وهي أنه شرب ليلةً مع رجاله وندمائه فلما عملت فيه الخمر صَرَفهم وخرج في الليل ومعه رجلٌ واحدٌ من عَبيدِهِ. وسار نحو قرمونة وهي تبعد عن مدينة إشبيلية ثمانية عشر ميلاً، وكان صاحبُ قرمونة إسحاق بن سليمان البرزالي وقد جرت بينه وبينه حروب.

فسار عبّاد حتى أتى قرمونة، وكان إسحاق تلك الليلة في جماعةٍ من أهل بَيْتِهِ يشربون، فدخل عليه بعضُ خُدَّامه فقال: إن صاحبَ الحرسِ ذكر أنَّ المعتضد عبّادًا قائم على باب المدينة ليس معه إلا رجلٌ واحدٌ وهو يستأْذن عليك! فعجب القومُ من ذلك غايةَ العجب، وخرج إسحاق ومَنْ عنده إلى باب المدينة فسلَّم على عبّاد وأدخله إلى القصر، وأمر بتجديد الطعام والشراب. فلما شرع في الأكل تذكر ما فعل فسقط في يده ولم يطق أن يسفه، وندم على ما صنع لما يعلم بينه وبين برزال من الحرب وسفك الدماء، فأظهر التجلُّد والانشراحَ ثم قال لإسحاق: أُريد أن أنام!

فرفعه على الفراش، فأراهم عبّاد أنه نائم، فقال بعض القوم لبعض: هذا كبشٌ سمينٌ حصل لكم، والله لو أنفقتم عليه مُلْكَ الأندلس ما قدرتم على حصوله في أيديكم، وهو شيطانُ الأندلس وإذا قُتل خلصت لكم البلاد!

فقام معاذ بن أبي قُرَّةَ وكان من كُبَرائهم فقال: والله لا فعلنا هذا ولا رضينا به، رجلٌ قصدنا ونزل بنا، ولو علم أنَّا نرضى فيه بقبيح لما أتانا مستأْمنًا إلينا، كيف تتحدث القبائلُ عنَّا أننا قتلنا ضيْفنا وخَفَرْنَا ذِمَّتَنَا، فَعَلَى مَنْ يَرْضَى هذا لعنةُ الله! وهو يسمع فنزل عن السرير فقام القوم بأجمعهم فقبّلوا رأْسه وجددوا السلام عليه فقال لحاجبه: أين نحن؟ قال: في منزلك وبين أهلك وإخوانك! قال: ائتوني بدواة وقرطاس.

فأتوه بهما، فكتب أسماء القوم، وكتب لكلِّ واحدٍ بخلعةٍ ودنانير وأفراسٍ وعبيد وجوارٍ، وأمر أن يرسل كلَّ واحدٍ منهم رسولاً ليقبض ذلك. ثم ركب وخرج القوم

يشيِّعونه إلى قرْب إشبيلية، فصرفهم ودخل. وأرسلوا مَنْ قَبضَ لهم ما كتب به، ثم أغفلهم سِتَّة أشهر وكتب إليهم يستدعيهم لوليمةٍ، فجاءه سبعون رجلًا منهم فأنزلهم عند رجاله، وأنزل معاذًا عنده. وأمر بهم فأُدْخِلوا حمامًا، وبنَى عليهم بابه، فماتوا جميعًا، فَعزَّ ذلك على معاذ بن أبي قرة فقال له عبّاد: لا تُرَعْ فإنهم قد حضَرتْ آجالهم وقد أرادوا قتلي، ولولاك ما كنتُ ناجيًا مَنهم، وإنما جعل اللّهُ صيانَة دمي بك، فإن أردتَ الرجوع إلى بلدِك رددتُك على أجملِ الوجوه وأحسنِها وأسرِّها! فقال له معاذ: بأيِّ وجْه أرجع أنا دونهم؟

فأمر له المعتضد بألف دينار وعشرة أفراس وثلاثين جارية وعشرة أعْبُدٍ، وأنزله في قصرٍ من أعظم قصوره، وأقطعه في كلِّ عام اثني عشر ألف دينار، وكان ينفذ إليه في كل يوم التُّحَفَ والطرف. ولم يكن يحضر مجلسه أحدٌ قبله إلى أن مات عبّاد فأوصى ولده بمعاذ وقال: يا بني احفظني فيه! فجرى فيه على عادة أبيه، ودام بإشبيلية حتى انقرضت دولة بني عبّاد.

قال بعض أهل إشبيلية: رأيت معاذ بن أبي قرة يوم دخل يوسف بن تاشفين إشبيلية أوَّل النهار وعليه ثوب ديباج مخرطم بالذهب وأمامه نحْوٌ من ثلاثين عَبْدًا، ورأيته آخِرَ النهار عليه مُليسٌ[١] مشتمل به فسبحان من لا يزول مُلْكه، نسأل اللّهَ تعالى أن لا يسلبنا ثوب نعمةٍ أنعمها علينا بمَنِّه وكرمه.

وفي أيام عبّاد توفي الإمام الحافظ أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن سعدان بن سفيان بن يزيد الفارسي مولى يزيد بن أبي سفيان بن حرب بن أُمية. أصل آبائه من قرية مُنت ليسم من عمل الولبة[٢] من كور غرب الأندلس، وسكن هو وآباؤه قرطبة ونالوا بها جاهًا عريضًا ومالاً وممدودًا. وولَّى ابنُ أبي عامر جدَّه سعيدًا الوزارة، وولي أبو محمدٍ هذا الوزارة في أيام المستظهر بالله عبد الرحمٰن بن هشام بن عبد الجبار الأموي. وكان مولده يومَ الأربعاء سلخَ شهر رمضان سنة أربع وثمانين وثلاثمائة، ووفاته في سلخ شعبان سنة سبع وخمسين وأربعمائةٍ، وكانت مدة حياته اثنتين وسبعين سنةً وأحد عشرَ شهرًا. وله كثير من المصنَّفات، ذكر أنه اجتمع مع الإمام أبي الوليد سليمان بن خلف بن سعيد بن أيوب الباجي صاحب التواليف ـ وقيل بل الفقيه إبراهيم الخفاجي ـ فجرت بينهما مناظرة،

---

(١) المليس: ضرب من القماش.

(٢) ولبة: بلدة جنوب غربي لبلة على شاطىء المحيط الإطلنطي.

فلما انقضت قال الفقيه أبو الوليد: تعذرني فإن أكثر مطالعتي كانت على سُرُج الحُرَّاسِ! فقال له ابنُ حزم: وتعذرني أيضًا فإن أكثر مطالعتي كانت على منابر الذهب والفضة!

وفي سنة ستين وأربعمائة توفي المعتضد بالله عبّاد بن محمد، وحُكِي أنه استحضر مغنيًا يغنيه ليجعل أوّل ما يبدأ به فألاً فكان أول شعر قاله: [من البسيط]

نطْوِي الليالِيَ عِلْمًا أنْ ستطوينا فشعشعينا بماءِ المُزْنِ واسقينا

فمات بعد خمسةِ أيام رحمه الله، ولما مات ولي بعده ابنه محمد.

ذكر ولاية المعتمد على الله
محمد بن عباد

ابن محمد بن إسماعيل بن قريش بن عبّاد، وكنيته أبو القاسم. ولي بعد وفاة أبيه في سنة ستين وأربعمائة، وقيل في سنة إحدى وستين، وكان مولده بباجة سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة، فكان عمره حين وَلِيَ ثلاثين سنة. وكان فيه أدب وشعر وكرم وتواضع وشجاعة، قال أبو بكر محمد بن عيسى المعروف بابن اللبانة كاتبه يصف الدولة العبادية: كانت الدولة العبادية تشبه العباسية، بها وسعة ملك ووثاق عهد وانتظام عقد، وعدل أئمة واعتدال أُمة، كان أربابها يتنافسون في المكارم ويتغايرون على الشرف المتقادم: [من البسيط]

من حلْبة السَّبْق لا برقٌ يخاطِفُها إلى مداها ولا ريحٌ يجاريها
تردُّهم نِسْبَةٌ نحْوَ السماءِ فهُمْ من مائها، وعُلاهُم من دراريها

يشير إلى المنذر ابن ماء السماء، ثم قال: «جمعوا كرم الأخلاق إلى شرف الأعراق، وحملوا حلى الآداب على الأحساب، وعضَّدوا البأس بالكرم وأُيِّدوا بالسيف والقلم»: [من الكامل]

نفرٌ إلى ماءِ السماءِ نَمَاهمُ نسَبٌ على أوج النجوم مُخيِّمُ
بالبِيضِ والبَيْضَاتِ والخُلُقِ اكتَسَوْا فَتَوَشَّحُوا وتَتَوَّجُوا وتَعَمَّموا

وكان بهذا البيت سريرُ الفلك الدائر وغريبُه البحر الزاخر المعتمد على الله المؤيد بنصر الله أبو القاسم محمد» وذكر نَسَبَه، ثم قال: من بني المنذر وهو انتساب... البيتين، وقد ذكرناهما آنفًا، وقال تِلْوَهُما: وكذلك يطَّرِد النَّسَبُ اطرادَ الشآبيب، ويتَّسقُ اتِّساق الأنابيب، فهو كما قيل: [من الكامل]

شَرَفٌ يُنقِّلُ كابِرًا عن كابِرِ كالرُّمْح أُنبوبٌ على أُنبوب

إلى مركز الدائرة من لخم وواسطة المنتخبين من يعرب وقحطان! ثم ذكر مولده وولايته على ما قدمنا وذكر خَلْعَهُ في سنة أربع وثمانين على ما نذكره إن شاء الله.

وكان سبب خلعه وانقراض دولته أن الفرنج ـ لعنهم الله ـ لما استَوْلَوْا على طليطلة وملكها الأذفونش ـ وهو ألْفُنْش ـ في سنة ثمانٍ وسبعين وأربعمائة على ما قدمناه. وكان المعتمد يؤدِّي إليه ضريبةً في كلِّ سنة، فلما سيّرها إليه بعد استيلائه على طليطلة لم يقبلْها وأعادها، وأرسل إليه يتوعده ويقول له: أنا آخذ مدينة قرطبةَ كما أخذت طليطلة إلا أن ترفع يدَكَ عن جميع الحصونِ وتُسَلِّمَها إلينا ويكونَ لك السَّهْلُ من البلاد!

وكان الرسولُ شلبيب اليهوديَّ ومعه خمسمائةُ فارس، وطلب منه اثني عشر ألفَ دينار، فأمر المعتمد بإنزال الخيالة على أهل العسكر متفرقين وأمر كلَّ من عنده فارس منهم أن يقتله. ولما جنَّ الليل أحضر اليهوديَّ وكشف رأسه، وأمر بضربه بالنعال المسمرة، حتى خرجت عيناه من رأسه. وهرب من الخيالة ثلاثة، فوصلوا إلى الأذفوشن وأعلموه بِقَتْلِ أصحابه وكان متوجهًا إلى قرطبة يريد حصارها، فلما جاءه الخبر رجع إلى طليطلة ليستعد ويُهَيِّيءَ آلات الحصار.

فلما سمع المعتمد برحيله إلى طليطلة سار هو إلى إشبيلية فبَلَّغ مشايخ قرطبة ما جرى، فاجتمعوا بالفقهاء وقالوا: هذه مدائن الأندلس قد غلبَ عليها الفرنج ولم يبق منها إلا القليل، وإن استمرّت الأحوال على ما نرى عادت نصرانيةً كما كانت! ثم ساروا إلى القاضي عبد الله بن محمد بن أدهم فقالوا له: ألا تَنْظُر إلى ما فيه المسلمون من الصّغار والذلة وإعطائهم الجزيةَ إلى الفرنج بعد أن كانوا يأخذونها منهم، وابن عبّاد هو الذي حمل الفرنْجَ على المسلمين حتى جرى ما جرى وطلب منه ما طلب، وقد دَبَّرْنا رأيًا نعرضه عليك! قال: وما هو؟ قالوا: نكتب إلى عرب إفريقية ونعلمهم أنهم إن وصلوا إلينا قاسمناهم في أموالنا وخرجنا معهم مجاهدين في سبيل الله تعالى! قال: أخاف أن يخربوا الأندلس كما فعلوا بإفريقية ويتركوا الفرنج ويبدأُوا بكم والمرابطون أقْرَبُ إلينا وأصلح حالاً. قالوا: فكاتِبْ يوسف بن تاشفين ورغِّب إليه أن يدخل إلينا بنفسه أو يرسل إلينا قائدًا من قُوّاده. قال: أمَّا الآن فقد أشرتم برأي فيه السّداد!

وقدم المعتمد إلى قرطبةَ في أثَرِ ذلك، فدخل عليه القاضي وأعلمه بما دار بينه وبين أهل قرطبة وما اتفقوا عليه، فقال المعتمد: نِعْمَ ما أشاروا به وأنت رسولي إليه! فامتنع القاضي واستعفاه وإنما أراد أن يقوِّيَ عزمه على إرساله فقال: لا أجد لها غيرك.

فسار القاضي، وصحبه أبو بكر بن القصيرة الكاتب إلى أمير المسلمين، فوجداه بسبتة، فأبلغاه الرسالة. وأعلماه بحال المسلمين وما هم عليه من الخوف والجزع من الأذفونش، وأنهم يستنصرون بالله ثم به؛ وأن المعتمد يستنجده عليه. فأمر يوسف في الحال بإدخال العساكر إلى الجزيرة الخضراء، وأقام بسبتة وأنفذ إلى مراكش في طلب من بقي، ودخل في آخر العساكر.. هذا ما نقله أهل التاريخ، أن القاضي وابن القصيرة كانا رسولين إليه، وقيل إن المعتمد بن عبّاد سار بنفسه بِغَيْرِ واسطةٍ وتلطّف في الدخول عليه إلى أن انتهى إلى آخر بواب فقال له: قل لأمير المسلمين إن ابن عبّاد بالباب! فلما أعلمه بذلك ارتاع وظن أنه قدم بعساكره، وسأله عن حقيقة الحال فقال: هو ببابك وَحْدَهُ فأذن له، فدخل عليه، فأكرمه ووعده النصر. وعاد ابن عباد، ولحقه أمير المسلمين.

ذكر وقعة الزلاقة
وانهزام الفرنج لعنهم الله

قال: وجمع المعتمد العساكر وأقبل أمير المسلمين بعساكره، واجتمعوا كلهم بإشبيلية، وخرج من أهل قرطبة - من المتطوعين - أربعةُ آلاف فارس وراجل. وجاء المسلمون من بلاد الأندلس، من كل بلد وحصن. واتصلت الأخبار بالأذفونش، فخرج من طليطلة في أربعين ألف فارس غير من انضاف إليها، وكتب إلى يوسف كتابًا كتبه عنه رجل من أُدباء المسلمين يغلظ فيه القول ويصف ما عنده من القوة والعُدَد والعَدَد، ووسّع وأطال وبالغ. ووصل الكتاب إلى يوسف بن تاشفين فأمر الكاتب أبا بكر ابن القصيرة أن يجاوبه. وكان كاتبًا مجيدًا فكتب وأطال وبالغ، فلما قرأه على يوسفَ استطاله وكتب على ظهر كتابه «الذي يكون ستراه» [من الطويل]

ولا كُتْبَ إلاّ المَشْرَفيَّةُ والقَنا ... ولا رسْلَ إلاّ بالخميسِ العَرَمْرَم[1]

وردّه إليه، فلما قرأ الجواب ارتاع وقال: هذا رجلٌ له عزم! قال: ولما استعد الأذفونش لِلِّقاء رأى في منامه كأنه راكبٌ فيلاً وبين يديه طبل صغير ينقر فيه، فقصَّ ذلك على القسيسين فلم يعرفوا تأويله، فاستحضر رجلاً مسلمًا عالمًا ديِّنًا فاستعفاه من القول فأمَّنه وعزم عليه، فقال: تأويل هذه الرؤيا في آيتين من كتابِ الله عَزَّ وجَلَّ!

(١) الخميس: الجيش الجرار؛ سمي بذلك لأنه خمس فرق: المقدمة، والقلب، والميمنة، والميسرة، والساق.

وقرأ سورة الفيل، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾ [المدثر: ٨ ـ ١٠] وذلك يقتضي هلاك الجيش الذي تجمعه.

فلما اجتمع الجيشُ وعبّأه أعجبته كثرتُه، فاستحضر المُعبر وقال له: هذا الجيشُ الذي ترى ألقى به محمدًا صاحبَ كتابِكم! فانصرف المُعَبِّرُ عنه وقال: هذا الملكُ هالكٌ لا محالة وكلُّ مَنْ معه فإنه قد أُعْجِبَ بِجمْعِهِ... وذكر قوْل النبيِّ ﷺ «ثلاث مهلكات» الحديث...

قال: وسار المعتمدُ بنُ عبّاد وأميرُ المسلمين بالعساكر حتى أتوْا موضعًا يقال له الزلاَّقة من بلد بطَلْيَوْس وأتى الأذفونش فنزل موضعًا بينه وبينهم ثمانيةَ عشرَ ميلاً، فقيل ليوسف بن تاشفين إنَّ ابنَ عبّاد ربما لم يُنْصَحْ ولا يبذل نفسَه دونك، فأرسِلْ تقول له «كُنْ في المقدمة ونكون نحن في أثرِك». فتقدّم ابنُ عباد.

وضرب الأذفونش خيامه في سفح جبل والمعتمدُ بن عبّاد في سفح جبل آخر بحيث يتراءان، ونزل يوسف بن تاشفين في جبل من وراء الجبل الذي فيه المعتمد. وظَنَّ الأذفونش أن عَسْكر المسلمين ليس إلاَّ ذاك الذي يَظْهرُ له مع المعتمد والأذفونش في زهاء خمسين ألف فارس، فما شَكَّ أنه الغالب واستعمل الخدعة. وأرسل ابنُ عبّاد في ميقات اللقاء يوم الخميس، وقال: نحن قد وصلنا على حالِ تعَبٍ وأمامكم الجمعة وأمامنا الأحد فيكون اللقاءُ يوم الاثنين بعد أُهْبَةٍ! فاستقر الأمرُ بينهما على ذلك.

ثم ركب الأذفونش صبيحة الجمعة ليلاً، وصبَّحَ بجيشه جيش المعتمد، فوق القتال بينهم، فصبر المسلمون وقتل منهم خلقٌ كثيرٌ، وأشرفوا على الانهزام. وقد كان المعتمد أرسل إلى ابن تاشفين فقال للأدِلَّةِ: احملوني إلى مضارب الأذفونش! فما شعر الفرنج إلا وقد نُهِبَتْ خيامُهم وخزائنُ الأذفونش وعُدَدُه، والقتْلُ يُعمل فيهم من وراء ظهورهم. فلم يتمالك الفرنج أن انهزموا وأخذهم السيف من كلِّ مكان، فقُتلوا عن آخرهم، فما سَلِم إلا آحاد! وهرب الأذفونش في نَفَرٍ يسيرٍ ودخل طليطلة في سبعةِ فوارس، ولم يرجع من الفرنج إلى بلادهم غيرُ ثلاثمائة نفرٍ أكثرهم رجّالة.

وكانت هذه الوقعةُ في يوم الجمعة في العشر الأول من شهر رمضان سنةَ تسع وسبعين وأربعمائة، وأصاب المعتمد جراحًا في وجهه، ووُصِفَ في ذلك اليوم بالشجاعة. وغنم المسلمون من أموال الفرنج وأسلحتهم ما لا يُحْصَى كثرةً، وجعل المسلمون رؤوسَ القَتْلَى كَوْمًا كبيرًا وصعدوا عليه وأذَّنوا إلى أن جافت فأحرقوها!.

وعاد المعتمدُ إلى إشبيلية، ورجع أميرُ المسلمين إلى الجزيرة الخضراء وعدّى إلى سبتة وسار إلى مراكش. وعاد في السنة الثانية إلى جزيرة الأندلس وحاصر ليطة هو وابنُ عباد وصاحبُ غَرْناطة، فلم يتهيأْ لهم فتْحُه، فرجع وأخذ غرْناطة من صاحبها عبد الله بن بلكمين، وهي أول ما ملكك من بلاد الأندلس على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر انقراض الدولة العبادية وشيء من أخبار المعتمد وشعره

في سنة أربع وثمانين وأربعمائة أتى يوسف بن تاشفين إلى سبتة ودخل العساكر إلى الأندلس مع سيرين بن أبي بكر، فقصدوا مدينة إشبيلية، فحصروا المعتمد وضيّقوا عليه. فقاتل قتالاً شديدًا، وظهر من شجاعته وشِدَّةِ بأسه وحُسْنِ دفاعِهِ عن بلدهِ ما لم يُشاهَدْ من غيره فسمع الفرنج بِقصد عساكر المرابطين بلادَ الأندلس، فخافوا أن يملكوها ثم يقصدوا بلادهم، فجمعوا وأكثروا وساروا لمساعدة المعتمد وإغاثته على المرابطين. فلما سمع بمسيرهم فارق إشبيلية وتوجّه إلى لقاء الفرنج، وقابلهم وهزمهم، ورجع إلى إشبيلية. وداوم الحصار والقتال إلى العشرين من شهر رجب من السنة، فعظُم الخطْبُ واشتد الأمر على أهل البلد. ودخله المرابطون من واديه ونهبوا الأموال، ولم يُبْقُوا على شيء حتى سلبوا الناسَ ثيابهم، وخرجوا من مساكنهم يستُرون عوراتهم بأيديهم.

وأُسِر المعتمد ومعه أولادُه الذكورُ والإناثُ، بعد أن استأْصلوا جميع أموالهم. وقيل إن المعتمد سلَّم البلد بأمان، وكتب نسخة الأمان والعهد، واستحلفهم على نفسِه وأهله وماله وعبيده وجميع ما يتعلق به. فلما سلَّم إليهم إشبيلية لم يفوا له، وسيِّر المعتمد إلى مدينة أغمات[1]، فحُبِسوا بها، وفعَل بهم أميرُ المسلمين أفعالاً قبيحةً لم يفعلها أحد قبله. وذلك أنه سجنهم ولم يُجْرِ عليهم ما يقوم بهم، حتى كان بناتُ المعتمد يغزلن للناس بأُجرة ينفقونها على أنفسهم، فأبان أمير المسلمين في ذلك عن لؤم طباع وضيق نفس.

قال: وبقي المعتمد في حَبْسه بأغمات إلى سنة ثمانٍ وثمانين وأربعمائة، فتوفي فيها، وقبره بأغمات. فكان من بني عبّاد ثلاثة: القاضي محمد بن إسماعيل، وابنه عباد، ومحمد بن عبّاد هذا، ومدة مُلْكِهم ستون سنةً.

---

(١) أغمات: مدينة قرب مراكش.

وكان رحمه الله من محاسن الزمان كرمًا وعلمًا ورئاسةً وأخباره مشهورة وآثاره مدوَّنة. وقد ذكره ابنُ خاقان[١] في «قلائد العقيان»، وذكر شيئًا من نظمه ونثره. وكان شاعرُه أبا بكر محمد بن عيسى الداني المعروف بابن اللبَّانة يأتيه في سجنه فيمدحه لإحسانِه القديم إليه وبرِّهِ الذي بقيت آثارُه مع طول الزمن عليه، قال ابن اللبَّانة: فأمضيت عزيمتي بعد انقضاء الدولة في زيارته، فوصلت إليه بأغمات، فقلت في ذلك أبياتًا عند دخولي عليه: [من الخفيف]

لم أقُلْ في الثِّقافِ كان ثِقافًا ... كنتُ قلبًا له وكان شغافا[٢]
يمكث الزَّهْرُ في الكِمام ولكن ... بعد مُكْثِ الكِمام يدنو قطافا
وإذا ما الهلالُ غاب بغَيْمٍ ... لم يكنْ ذلك المغيبُ انكسافا
إنما أنت درّةٌ للمعالي ... ركَّب الدَّهرُ فوْقها أصْدَافا
حَجَبَ البيتُ منك شخصًا كريمًا ... مثل ما يحجب الدِّنانُ السّلافا[٣]
أنت للفضل كعبةٌ ولو أنِّي ... كنتُ أسطيع لالتزمتُ الطَّوافا

قال: وجرت بيني وبينه مخاطباتٌ ألذُّ من غفلات الرقيب، وأشهى من رشَفَات الحبيب، وأدلُّ على السماح، من فجرٍ على صباح، قال: فلما قاربت الصدر وأزمعت السفر، صرف حبله واستنفد ما قبله، وبعث إليّ شرفَ الدولة ابنَه - وكان من أحسن الناس سمتًا وأكثرهم صمتًا، تخجله اللفظة وتجرحه اللحظة، حريصًا على طلب الأدب مسارعًا في اقتناء الكتب، مثابرًا على نَسْخ الدواوين ففتَّح من خطِّه فيها زَهْر البساتين - بعشرين مثقالاً مرابطية وثوبين غير مخيطينْ، وكتب مع ذلك أبياتًا منها: [من الوافر]

إليكَ النَّزْرَ من كفِّ الأسيرِ ... وإن تَقْنَعْ نَكُنْ عَينَ الشَّكور
تَقَبَّلْ ما ندوتُ به جِباءً ... وإن عَذَرَتْه حالات الفقير

قال ابن اللبَّانة فأجبته: [من الخفيف]

حاش لله أنْ أُحيجَ كريمًا ... يَتَشَكَّى فقْرًا وكم سَدَّ فَقْرا

---

(١) هو أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان بن عبد الله القيسي الإشبيلي. له كتاب «مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس»... (وفيات الأعيان ٤: ٢٤).
(٢) النقف: الفرخ حين يخرج من البيضة. والشغاف: غلاف القلب.
(٣) السلاف: أفضل الخمر وأخلصها. والدنان: جمع الدن، وهو وعاء ضخم للخمر ونحوها.

وكفاني كلامُك الرطب نَيْلاً ... كيف ألقى دُرًّا وأطلب تِبْرا
لم تَمُتْ إنما المكارم ماتتْ ... لا سَقَى اللّهُ بعدك الأرضَ قَطْرا

مما قاله المعتمد من شعره في مدة أسره ـ فمن ذلك ـ قوله: [من الكامل]

سَلَّتْ عليَّ يَدُ الخُطوب سُيوفَها ... فَجَرزن من جسدِي الخصيف الأمتُنا[1]
ضَربَتْ بها أيْدي الضروبِ وإنما ... ضربت رقاب الآمنين بها المنى
يا آمِلِي العادات مِنْ نفحاتِنا ... كُفُّوا فإن الدهر كَفَّ أكُفَّنا

وقال في قصيدة يصف القيد في رجليه: [من الطويل]

تعَطَّفَ من ساقي تعَطُّفَ أرْقَم ... يساورها عَضًّا بأنياب ضيْغم[2]
وإنِّيَ مَنْ كان الرجالُ بِسَيْبِهِ ... ومِنْ سَيْفِهِ في جَنَّةٍ وجهنَّم

وقال في يوم عيدٍ: [من البسيط]

فيما مضى كنتُ بالأعياد مسرورا ... فَصِرْتُ كالعبد في أغْمات مأسورا
قد كان دهرُكَ إنْ يأمُره ممتثلاً ... فَردَّكَ الدَّهرُ مَنهِيًّا ومأمورا
مَنْ بات بَعْدَكَ في مُلْكٍ يُسَرُّ به ... فإنما بات بالأحلام مغرورا

وتعرَّض له أهل الكُدْية وهو في الحبس فقال: [من الكامل]

سألوا اليسير من الأسيرِ وإنّه ... بسؤالهم لأحقُّ منهم فاعْجبِ
لولا الحياءُ وعِزَّة لخْمِيةٌ ... طيُّ الحشا لحكاهمُ في المطلبِ

ورثا ولديْه وقد ذُبحا بين يديْه فقال: [من الطويل]

يقولون صبرًا.. لا سبيل إلى الصَّبْرِ ... سأبكي وأبكي ما تطاول من عُمْري
أفَتْحُ.. لقد فتَّحْت لي بابَ رحمةٍ ... كما بيزيدَ اللّهُ قد زاد في أجْرِي
هوَى بِكُما المقدارُ عنِّي ولم أمُتْ ... فأُدْعى وفِيًّا قد نكصتُ إلى الغدْرِ
ولو عُدْتما لاخترتما العوْدَ في الثَّرَى ... إذا أنتما أبْصَرْتُمانِيَ في الأسْرِ
أبا خالدٍ أوْرثْتَني البثَّ خالدًا ... أبا النَّضرِ مُذْ وَدَّعتَ وَدَّعني نصري

قال: وكان الشيخ عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس توجه من

---

(١) المراد بالأمتن: المتنان: وهما مكتنفا الصلب من العصب واللحم عن يمينه وشماله.
(٢) الأرقم: ذكر الحيات أو أخبثها.

المغرب إلى الأندلس في سنةٍ إحدى وسبعين وأربعمائة، فقصد المعتمد، وأقام عنده إلى أن خُلع، فكتب إليه المعتمد بعد أن عاد إلى المهدية: [من الطويل]

غريبٌ بأقصى المغربين أسيرُ ... يُبَكِّي عليه منبرٌ وسريرُ
أذلَّ بني ماءِ السماء زمانُهم ... وذلُّ بني ماءِ السماء كثيرُ
فما ماؤها إلا بكاءٌ عليهم ... يفيض على الآفاقِ مِنْه بحورُ

فأجابه محمد بن حمديس[1]: [من الطويل]

جرى لك جدٌّ بالكرام عَثورُ ... وجار زمانٌ كنت منه تجير
لقد أصبحتْ بيض الظُّبا في غُمودها ... إناثًا بتركِ الضَّرْبِ وهي ذكور
ولما رحلْتُم بالنَّدى في أكُفِّكم ... وقُلْقِلَ رضوى منكُمُ وثبير[2]
رفعتُ لساني بالقيامة قد دنتْ ... ألا فانظُروا كيف الجبالُ تسير؟

قال: ولما توفي المعتمد وقف ابنُ اللّبانة على قبره في يوم عيدٍ ـ والناسُ عند قبور أهاليهم ـ وأنشد بصوتٍ عال:

ملك الملوكِ أسامعٌ فأُنادِي ... أم قدْ عداك عن الجواب عوادِ
لما خلَتْ منك القصورُ ولم تكن ... فيها كما قد كنت في الأعيادِ
قبَّلْتُ في هذا الثرى لك خاضعًا ... وتخِذتُ قبرك مَوْضعَ الإنشادِ

وأخذ في إتمام القصيدة، فاجتمع الناسُ كلُّهم عليه يبكون لبكائه وإنشاده.

وحكى بعض المعتنين بأخبارهم أن فخر الدولة بن المعتمد على الله مَرَّ يومًا في بعض شوارع مدينة إشبيلية، فطمحت عينه إلى رَوشنٍ[3] فرأى وجهًا حسنًا فتعلّق قلبهُ به، ولم يمكنه الوصول، فخامره الهوى ومرض من ذلك. فاتصل خبره بأبيه، فسأل عن المرأة فقيل إنها ابنةُ رجلٍ خبازٍ، فأمر الوزيرُ أن ينفذ إلى أبيها ويخطبها منه. فأرسل إليه الوزير فعلم ما يُراد به، فامتنع من الوصول إليه وقال: هو أحقُّ بالوصول إليّ في هذه الحالة!

---

(١) هو أبو محمد عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس الأزدي الصقلي الشاعر المشهور... مدح المعتمد بن عباد فأحسن إليه وأجزل عطاياه، ولما قبض المعتمد وحبس بأغمات سمع ابن حمديس له أبياتًا عملها المعتمد في الاعتقال، فأجابه عنها بهذه الأبيات.

(٢) يقال: بثر فلان: أي هلك.

(٣) الروشن: الشرفة.

فأعلم المقتدر بذلك فقال: تصل إليه وتخطبها. فلما وصل إليه وخطبها قال الخباز للوزير: أَلَهُ صنعةٌ؟ فقال الوزير: ابنُ المعتمد يُطْلَبُ منه صنعة وهو سلطان الأندلس؟ فقال له: أُمها طالق إن زوجتها إلا مَنْ له صناعةٌ يَسْتُر حالَه وحالها بها إن احتاج إليها.

فأعلم الوزيرُ المعتمد فقال: هذا رجل عاقل! فأمر بإحضار الصاغة إلى القصر وعلَّم فخر الدولة الصياغة وحذق فيها فلما جرى عليهم ما جرى دخل حوانيت الصاغة، وصاغ بالأُجرة فرآه ابنُ اللبّانة وهو ينفخ في بعض الحوانيت فقال: [من البسيط]

أذكى القلوبَ أسًى، أبْكى العيونَ دمًا ... خَطْبٌ وُجُودُك فيه يشبه العدَما

صرَّفْتَ في آلةِ الصيّاغ أُنْمَلَةً ... لم تَدْرِ إلاّ النّدى والسيفَ والقلما

يا صائغًا كانت الدنيا تُصاغُ له ... حَلْيًا وكان عليه الحَلْيُ منتظما

النَّفْخُ في الصور هَوْلٌ ما حكاه سوى ... هَوْلٌ رأيتُك فيه تَنْفُخُ الفحما

قال: ولما انقرضت الدولة العبادية صار مُلْكُ بلاد المسلمين إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين صاحب مراكش والمغرب، وسنذكر ذلك إن شاء الله في أخباره.

* * *

وأما سرقسطة والثغر الأعلى فكان ذلك بيد منذر بن يحيى إلى أن توفي وولي بعده ابنُه يحيى، ثم ولي بعده سليمان بن أحمد بن محمد بن هود الجذامي، وكان يُلقَّبُ بالمستعين، وكان من قواد منذر على مدينة لاردة، وله وقعة مشهورة مع الفرنج في سنة أربع وثلاثين وأربعمائة. ثم توفي وَوَلِي بعده ابنُه أحمد المقتدر بالله، وولي بعده يوسف المؤتمن، ثم ولي بعده أحمد المستعين على لقب جدِّه، ثم ولي ابنه عماد الدولة. ثم ابنهُ أحمد المستنصر بالله، وعليه انقرضت دولتهم على رأس الخمسمائة، وصارت للملثمين.

وأما طُرْطوشة فوليها الفتى العامري.

وأما بَلنسية فكان بها المنصور أبو الحسن عبد العزيز بن عبد الرحمٰن بن محمد بن المنصور بن أبي عامر، ثم انضاف إليه إلمرية، وما كان إليها. وبعده ابنهُ محمد، ودام فيها إلى أن غدَرَ به صهره المأْمون بن إسماعيل بن ذي النون في ذي الحجة سنة سبع وخمسين وأربعمائة.

وأما السَّهْلة فملكها عبُّود بن رَزين، وأصله بربري، ومولده بالأندلس. فلما هلك ولي بعده ابنُه عبد الملك، ثم ابنُه عِزُّ الدولةِ، ثم الملثمون.

وأما دَانِيَةُ[١] والجزائر فكانتا بيد الموفق أبي الجيش مجاهد العامري، وسار إليه من قرطبة الفقيه أبو محمد عبد الله المعيطي ومعه خلْقٌ كثير. فأقامه مجاهدٌ شِبْه خليفةٍ يصدر عن رأيه، وبايعه في جُمادى الآخرة سنة خمسٍ وأربعمائة. وأقام المعيطي معه بدانية نحوَ ثلاثةِ أشهر، ثم سار هو ومجاهد في البحر إلى الجزائر وهي ميورقة ومنورقة ويابسة[٢]. ثم بعث المعيطي بعد ذلك مجاهدًا إلى سردانية في مائةٍ وعشرين فارسًا ومعه ألف فرسٍ، ففتحها في شهر ربيع الأول سنة ستٍّ وأربعين وأربعمائة وقتل بها خلْقًا كثيرًا من النصارى، وسبى. فسار إليه الفرنج والروم في آخر السنة فأخرجوه منها، فرجع إلى الأندلس فوجد المعيطي قد مات. وبقي مجاهدُ إلى أن مات، وولي بعده ابنُه عليُّ ابن مجاهد ثم مات، فولي بعده ابنُه أبو عامر. ثم صارت دانية وسائرُ بلادِهِ إلى المقتدر بالله أحمد بن سليمان بن هود، في شهر رمضان سنة ثمانٍ وسبعين وأربعمائة.

وأما مُرْسِية فوليها بنو طاهر، واستقامت رئاستُها لأبي عبد الرحمٰن المدعو بالرئيس إلى أن أخذها منه المعتمد بن عباد على يد وزيره أبي بكر بن عمّار الفهري، فلما ملكها عصى على المعتمد فيها، فوجَّه إليه عسكرًا مقدِّمهم أبو محمد عبد الرحمٰن بن رشيق العشيري فحصره. وضيّقوا عليه فهرب منها، ودخلها العشيري وملكها فعصى فيها على المعتمد بن عبّاد إلى أن دخل في طاعة الملثمين، وبقي بها إلى أن مات في سنة سبعٍ وخمسمائة.

وأما إلمرية فملكها خيران العامريّ إلى أن توفي، وملكها زهير العامري واتسع ملكه إلى شاطبة إلى ما يجاور عمل طليطلة. ودام إلى أن قتل وصارت مملكته إلى المنصور أبي الحسن بن أبي عامر صاحب بلنسية، فولّى عليها محمدًا ابنَه، فأقام بها مدةً في حياة أبيه وبعد وفاته إلى أن أخذها منه صهره ذو الوزارتين أبو الأحوص معن بن محمد بن صمادح التجيبي. ودانت له لورقة وبيّاسه[٣] وجيّان وغيرها، إلى أن توفي في سنة ثلاث وأربعين وأربعمائة، وولي بعده ابنُه أبو يحيى محمد بن معن ـ وهو ابنُ أربع عشرة سنة ـ فكفَّله عمه أبو عتبة بن محمد إلى أن توفي في سنةِ ستٍّ

(١) دانية: بلد في مقاطعة بلنسية.

(٢) يابسة: جزيرة نحو الأندلس في طريق من يقلع من دانية في المراكب يريد ميورقة فيلقاها قبلها، وهي كثيرة الزبيب، فيها ينشأ أكثر المراكب لجودة خشبها... (معجم البلدان).

(٣) بياسة: ياء مشددة: مدينة كبيرة بالأندلس معدودة في كورة جيان، بينها وبين أبدة فرسخان، وزعفرانها هو المشهور في بلاد الغرب... (معجم ياقوت).

وأربعين وأربعمائة. فبقي أبو يحيى مستضألاً لصغره، وأُخِذ ما بَعُدَ من بلاده عنه، ولم يبق له غير إلمرية وما جاورها. فلما كبر أخذ نفسه بالاشتغال بالعلوم ومكارم الأخلاق، فامتد صيته واشتهر ذكره وعظم سلطانه والتحق بأكابر الملوك. ودام بها إلى أن نازله جيشُ الملثمين فمرض في أثناء ذلك، وكان القتال تحت قصره فسمع يومًا صياحًا وجلبه فقال: يغصّ علينا كلُّ شيءٍ حتى الموت! وتوفي في مرضه ذلك لثمانٍ بقين من شهر ربيع الأول سنة أربع وثمانين وأربعمائة، وملك الملثمون إلمرية. ودخل أولاده وأهله في البحر إلى بجاية[1]، والتحقوا ببني حمّاد.

وأما مالقة فملكها بنو علي بن حمّود، فلم تزل في مملكة العلويين يُخطب لهم فيها بالخلافة إلى أن أخذها منهم باديس بن حبّوس صاحب غَرْناطة.

وأما أغَرْناطة فملكها حيوس بن ماكسني الصنهاجي، ثم مات في سنة تسع وعشرين وأربعمائة وولي بعده ابنه باديس إلى أن توفي وولي بعده ابنُ أخيه عبد الله بن بُلَكِّين. وبقي إلى أن ملكها منه الملثمون في شهر رجب سنة أربع وثمانين وأربعمائة.

وانقرضت جميع هذه الدول، وصارت الأندلس جميعها للملثمين على ما نذكره إن شاء اللّهُ عَزَّ وجل في أخبارهم أيام أمير المسلمين يوسف بن تاشفين. ولما كانت جزيرة الأندلس بيد هؤلاء الملوك الذين ذكرناهم، كانوا يُسَمَّوْن بملوك الطوائف وبسبب انفرادِ كلِّ ملكٍ منهم بجهةٍ استولى الفرنج على طليطلة كما ذكرنا.

تمّ الجزء الثالث والعشرون، ويليه الجزء الرابع والعشرون،
وأوله: الباب السادس من القسم الخامس من الفن الخامس
في أخبار إفريقية وبلاد المغرب ومن وليها من العمال
ومن استقلّ منهم بالملك وسُمّيت أيامهم بالدولة الفلانية

(١) بجاية: مدينة على ساحل البحر بين إفريقية والمغرب، وهي في لحف جبل شاهق.



فهرس المحتويات